

الشهيد سيد قطب (رحمه الله)

في ظلال القرآن

طبعة إلكترونية منقحة و مختصرة

قام بإنجازها الفقير الى رحمة ربه محمد رباعة

الجزء السادس (6)

دار القبس للنشر الإلكتروني

ص ب: 42 أولاد موسى 35011 / بومرداس (الجزائر)

الهاتف: 78 - 73 - 20 - 0662

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا او اخطانا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) البقرة {286}

الجزء السادس (٦) الطبعة الإلكترونية الثانية (٢) ماي ٢٠٢٢

سورة القصص

مكية و آياتها ٨٨

هذه السورة مكية ، نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة , والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان . نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوي والقيم ، نزلت تقرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود, هي قوة الله ؛ وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون ، هي قيمة الإيمان . فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه ، ولو كان مجردا من كل مظاهر القوة ، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى ؛ ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله ، ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلا . ومن ثم يقوم كيان السورة على قصة موسى وفرعون في البدء ، وقصة قارون مع قومه – قوم موسى – في الختام . . الأولى تعرض قوة الحكم والسلطان . قوة فرعون الطاغية المتجبر اليقظ الحذر ؛ وفي مواجهتها موسى طفلا رضيعا لا حول له ولا قوة , ولا ملجأ له ولا وقاية . وقد علا فرعون في الأرض ، واتخذ أهلها شيعا ، واستضعف بني إسرائيل ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، وهو على حذر منهم ، وهو قابض على أعناقهم . ولكن قوة فرعون وجبروته ، وحذره ويقظته ، لا تغني عنه شيئا ؛ بل لا تمكن له من موسى الطفل الصغير ، المجرد من كل قوة وحيلة ، وهو في حراسة القوة الحقيقية الوحيدة ترعاه عين العناية ، وتدفع عنه السوء ، وتعمي عنه العيون ، وتتحدى به فرعون وجنده تحديا سافرا ، فتدفع به إلى حجره ، وتدخل به عليه عرينه ، بل تقتحم به عليه قلب امرأته وهو مكتوف اليدين إزاءه ، مكفوف الأذى عنه ، يصنع بنفسه لنفسه ما يحذره ويخشاه ! والقصة الثانية تعرض قيمة المال ، ومعها قيمة العلم . المال الذي يستخف القوم وقد خرج عليهم قارون في زينته ، وهم يعلمون أنه أوتي من المال ما إن مفاتحه لتعيي العصبة من الرجال الأقوياء . والعلم الذي يعتز به قارون ، ويحسب أنه بسببه وعن طريقه أوتي ذلك المال . ولكن الذين أوتوا العلم الصحيح من قومه لا تستخفهم خزائنه ، ولا تستخفهم زينته ؛ بل يتطلعون إلى ثواب الله ، ويعلمون أنه خير وأبقى . ثم تتدخل يد الله فتخسف به وبداره الأرض ، لا يغني عنه ماله ولا يغني عنه علمه ؛ وتتدخل تدخلا مباشرا كما تدخلت في أمر فرعون ، فألقته في اليم هو وجنوده ، وبين القصتين يجول السياق مع المشركين جولات يبصرهم فها بدلالة القصص – في سورة القصص - ويفتح أبصارهم على آيات الله المبثوثة في مشاهد الكون تارة , وفي مصارع الغابرين تارة ، وفي مشاهد القيامة تارة . . وكلها تؤكد العبر المستفادة من القصص ، وتساوقها وتتناسق معها ؛ وتؤكد سنة الله التي لا تتخلف ولا تتبدل على مدار الزمان فساق الله إليهم في هذه السورة قصة موسى وفرعون ، تبين لهم أين يكون الأمن وأين تكون المخافة ؛ وتعلمهم أن الأمن إنما يكون في جوار الله ، ولو فقدت كل أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس ؛ وأن الخوف إنما يكون في البعد عن ذلك الجوار ولو تظاهرت أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس ! وساق لهم قصة قارون تقرر هذه الحقيقة في صورة أخرى وتؤكدها . وعقب على مقالتهم (أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ? ولكن أكثرهم لا يعلمون) يذكرهم بأنه هو الذي آمنهم من الخوف فهو الذي جعل لهم هذا الحرم الآمن ؛ وهو الذي يديم عليهم أمنهم ، أو يسلبهم إياه ؛ ومضى ينذرهم عاقبة البطر وعدم الشكر (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين) ويخوفهم عاقبة أمرهم بعد أن أعذر إليهم وأرسل فيهم رسولا . وقد مضت سنة الله من قبل بإهلاك المكذبين بعد مجيء النذير (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) ثم يعرض عليهم مشهدهم يوم القيامة حين يتخلى عنهم الشركاء على رؤوس الأشهاد ؛ فيبصرهم بعذاب الآخرة بعد أن حذرهم عذاب الدنيا ؛ وبعد أن علمهم أين يكون الخوف وأين يكون الأمان . وتنتهي السورة بوعد من الله لرسوله الكريم وهو مخرج من مكة مطارد من المشركين بأن الذي فرض عليه القرآن لينهض بتكاليفه ، لا بد راده إلى بلده ، ناصره على الشرك وأهله . وقد أنعم عليه بالرسالة ولم يكن يتطلع إليها ؛ وسينعم عليه بالنصر والعودة إلى البلد الذي أخرجه منه المشركون . سيعود آمنا ظافرا مؤيدا . وفي قصص السورة ما يضمن هذا ويؤكده . فقد عاد موسى – عليه السلام – إلى البلد الذي خرج منه خائفا طريدا . عاد فأخرج معه بني إسرائيل واستنقذهم ، وهلك فرعون وجنوده على أيدي موسى وقومه الناجين . ويختم هذا الوعد ويختم السورة معه بالإيقاع الأخير (ولا تدع مع الله إلها آخر ، لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم ، وإليه

ترجعون) هذا هو موضوع السورة وجوها وظلالها العامة ، فلنأخذ فى تفصيل أشواطها الأربعة:قصة موسى . والتعقيب عليها . وقصة قارون . وهذا الوعد الأخير . . .

(طسم{١} تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ{٢} نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{٣} إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ{٤} وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ{٥} وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ){٦}

تبدأ السورة بالأحرف المقطعة طا . سين . ميم . . تلك آيات الكتاب المبين . . تبدأ السورة بهذه الأحرف للتنبيه إلى أنه من مثلها تتألف آيات الكتاب المبين ، البعيدة الرتبة ، المتباعدة المدى بالقياس لما يتألف عادة من هذه الأحرف ، فى لغة البشر الفانين (تلك آيات الكتاب المبين) فهذا الكتاب المبين ليس إذن من عمل البشر ، وهم لا يستطيعونه ؛ إنما هو الوحى الذى يتلوه الله على عبده ، ويبدو فيه إعجاز صنعته ، كما يبدو فيه طابع الحق المميز لهذه الصنعة فى الكبير والصغير (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) فإلى القوم المؤمنين يوجه هذا الكتاب ؛ يربيهم به وينشئهم ويرسم لهم المنهاج ، ويشق لهم الطريق . وهذا القصص المتلو فى السورة ، مقصود به أولئك المؤمنين ، وهم به ينتفعون . وهذه التلاوة المباشرة من الله ، تلقى ظلال العناية والاهتمام بالمؤمنين ؛ وتشعرهم بقيمتهم العظيمة ومنزلتهم العالية الرفيعة . وكيف ؟ والله ذو الجلال يتلو على رسوله الكتاب من أجلهم ، ولهم ؛ بصفتهم هذه التى تؤهلهم لتلك العناية الكريمة (لقوم يؤمنون) وبعد هذا الافتتاح يبدأ فى عرض النبأ . نبأ موسى وفرعون . يبدأ فى عرضه منذ أول حلقة فى القصة – حلقة ميلاده – ولا تبدأ مثل هذا البدء فى أية سورة أخرى من السور الكثيرة التى وردت فيها . ذلك أن الحلقة الأولى من قصة موسى ، والظروف القاسية التى ولد فيها ؛ وتجرده فى طفولته من كل قوة ومن كل حيلة ؛ وضعف قومه واستذلالهم فى يد فرعون . . ذلك كله هو الذى يؤدى هدف السورة الرئيسى ؛ ويبرز يد القدرة سافرة متحدية تعمل وحدها بدون ستار من البشر ؛ وتضرب الظلم والطغيان والبغى ضربة مباشرة عندما يعجز عن ضربها البشر ؛ وتنصر المستضعفين الذين لا حول لهم ولا قوة ؛ وتمكن للمعذبين الذين لا حيلة لهم ولا وقاية . وهو المعنى الذى كانت القلة المسلمة المستضعفة فى مكة فى حاجة إلى تقريره وتثبيته ؛ وكانت الكثرة المشركة الباغية الطاغية فى حاجة إلى معرفته واستيقانه . وقبل أن يبدأ القصة يرسم الجو الذى تدور فيه الأحداث ، والظرف الذى يجرى فيه القصص ، ويكشف عن الغاية المخبوءة وراء الأحداث ، والتى من أجلها يسوق هذا القصص . . وهى طريقة من طرق العرض القرآنى للقصة . تساوق موضوعها وأهدافها فى هذا الموضع من القرآن ولا يعرف على وجه التحديد من هو الفرعون الذى تجرى حوادث القصة فى عهده ، فالتحديد التاريخى ليس هدفا من أهداف القصة القرآنية ؛ ولا يزيد فى دلالتها شيئا . ويكفى أن نعلم أن هذا كان بعد زمان يوسف – عليه السلام – الذى استقدم أباه وإخوته . وأبوه يعقوب هو "إسرائيل" وهؤلاء كانوا ذريته . وقد تكاثروا فى مصر وأصبحوا شعبا كبيرا . فلما كان ذلك الفرعون الطاغية (علا فى الأرض) وتكبر وتجبر ، وجعل أهل مصر شيعا ، كل طائفة فى شأن من شئونه . ووقع أشد الاضطهاد والبغى على بنى إسرائيل ، لأن لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه ؛ فهم يدينون بدين جدهم إبراهيم وأبيهم يعقوب ؛ ومهما يكن قد وقع فى عقيدتهم من فساد وانحراف ، فقد بقى لها أصل الاعتقاد بإله واحد ؛ وإنكار الوهية فرعون والوثنية الفرعونية جميعا . وروى أنه وكل بالحوامل من نسائهم قوابل مولدات يخبرنه بمواليد بنى إسرائيل ، ليبادر بذبح الذكور ، فور ولادتهم حسب خطته الجهنمية الخبيثة ، التى لا تستشعر رحمة بأطفال أبرياء لا ذنب لهم ولا خطيئة . هذه هى الظروف التى تجرى فيها قصة موسى – عليه السلام – عند ولادته ، كما وردت فى هذه السورة (إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم . إنه كان من المفسدين) ولكن الله يريد غير ما يريد فرعون ؛ ويقدر غير ما يقدر الطاغية . والطغاة البغاة تخدعهم قوتهم وسطوتهم وحيلتهم ، فينسون إرادة الله وتقديره ؛ ويحسبون أنهم يختارون لأنفسهم ما يحبون ، ويختارون لأعدائهم ما يشاءون . ويظنون أنهم على هذا وذاك قادرون . والله يعلن هنا إرادته هو ، ويكشف عن تقديره هو ؛ ويتحدى فرعون وهامان وجنودهما ، بأن احتياطهم وحذرهم لن يجديهم فتيلا (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) فهؤلاء المستضعفون الذين يتصرف الطاغية فى شأنهم كما يريد له هواه البشع النكير ، فيذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، ويسومهم سوء العذاب والنكال . وهو مع ذلك يحذرهم ويخافهم على نفسه وملكه ؛ فيبث عليهم العيون والأرصاد ، ويتعقب نسلهم من الذكور فيسلمهم إلى الشفار كالجزار ! هؤلاء المستضعفون يريد الله أن يمن عليهم بهباته من غير تحديد ؛ وأن يجعلهم أئمة وقادة لا عبيدا ولا تابعين ؛ وأن يورثهم الأرض المباركة] التى أعطاهم إياها عندما استحقوها

بعد ذلك بالإيمان والصلاح] وأن يمكن لهم فيها فيجعلهم أقوياء راسخى الأقدام مطمئنين . وأن يحقق ما يحذره فرعون وهامان وجنودهما , وما يتخذون الحيطة دونه ، وهم لا يشعرون ! ويرسم بهذا الإعلان مسرح القصة قبل أن يبدأ فى عرضها . والقلوب معلقة بأحداثها ومجرياتها , وما ستنتهى إليه ، وكيف تصل إلى تلك النهاية التى أعلنها قبل البدء فى عرضها . ومن ثم تنبض القصة بالحياة ؛ وكأنها تعرض لأول مرة ، على أنها رواية معروضة الفصول , لا حكاية غبرت فى التاريخ . هذه ميزة طريقة الأداء القرآنية بوجه عام .

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ{٧} فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ{٨} وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{٩} وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{١٠} وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{١١} وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ{١٢} فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{١٣} وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{١٤} وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ{١٥} قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{١٦} قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ{١٧} فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ{١٨} فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ{١٩} وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ{٢٠} فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{٢١} وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ{٢٢} وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ{٢٣} فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ{٢٤} فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{٢٥} قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ{٢٦} قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ{٢٧} قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ{٢٨} فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ{٢٩} فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{٣٠} وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ{٣١} اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ{٣٢} قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ{٣٣} وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ{٣٤} قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ{٣٥} فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ{٣٦} وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ{٣٧} وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ{٣٨} وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ{٣٩} فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ){٤٠}جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ{٤١} وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ{٤٢} وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ){٤٣}

ثم تبدأ القصة . ويبدأ التحدى وتنكشف يد القدرة تعمل بلا ستار: لقد ولد موسى فى ظل تلك الأوضاع القاسية التى رسمها قبل البدء فى القصة ؛ ولد والخطر محدق به ، والموت يتلفت عليه ، والشفرة مشرعة على عنقه ، تهم أن تجتز رأسه . . وها هى ذى أمه حائرة به ، خائفة عليه ، تخشى أن يصل نبؤه إلى

الجلادين ، وترجف أن تتناول عنقه السكين ها هى ذى بطفلها الصغير فى قلب المخافة ، عاجزة عن حمايته ، عاجزة عن إخفائه ، عاجزة عن حجز صوته الفطرى أن ينم عليه ؛ عاجزة عن تلقينه حيلة أو وسيلة . . ها هى ذى وحدها ضعيفة عاجزة مسكينة . هنا تتدخل يد القدرة ، فتتصل بالأم الوجلة القلقة المذعورة ، وتلقى فى روعها كيف تعمل ، وتوحى إليها بالتصرف: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى) يا لله ! يا للقدرة ! يا أم موسى أرضعيه . فإذا خفت عليه وهو فى حضنك . وهو فى رعايتك . إذا خفت عليه وفى فمه ثديك ، وهو تحت عينيك . إذا خفت عليه (فألقيه فى اليم) !! (ولا تخافى ولا تحزنى) إنه هنا . . فى اليم . . فى رعاية اليد التى لا أمن إلا فى جوارها ، اليد التى لا خوف معها . اليد التى لا تقرب المخاوف من حماها . اليد التى تجعل النار بردا وسلاما ، وتجعل البحر ملجأ ومناما . اليد التى لا يجرؤ فرعون الطاغية الجبار ولا جبابرة الأرض جميعا أن يدنوا من حماها الآمن العزيز الجناب (إنا رادوه إليك) فلا خوف على حياته ولا حزن على بعده (وجاعلوه من المرسلين) وتلك بشارة الغد ، ووعد الله أصدق القائلين . هذا هو المشهد الأول فى القصة . مشهد الأم الحائرة الخائفة القلقة الملهوفة تتلقى الإيحاء المطمئن المبشر المثبت المريح . وينزل هذا الإيحاء على القلب الواجف المحرور بردا وسلاما . ولا يذكر السياق كيف تلقته أم موسى ، ولا كيف نفذته . إنما يسدل الستار عليها ، ليرفعه فإذا نحن أمام المشهد الثانى (فالتقطه آل فرعون) أهذا هو الأمن ؟ أهذا هو الوعد ؟ أهذه هى البشارة ؟

وهل كانت المسكينة تخشى عليه إلا من آل فرعون ؟ وهل كانت ترجف إلا أن ينكشف أمره لآل فرعون ؟ وهل كانت تخاف إلا أن يقع فى أيدى آل فرعون ؟ نعم ! ولكنها القدرة تتحدى بطريقة سافرة مكشوفة . تتحدى فرعون وهامان وجنودهما . إنهم ليتتبعون الذكور من مواليد قوم موسى خوفا على ملكهم وعرشهم وذواتهم . ويبثون العيون والأرصاد على قوم موسى كى لا يفلت منهم طفل ذكر . . فها هى ذى يد القدرة تلقى فى أيديهم بلا بحث ولا كد بطفل ذكر . وأى طفل ؟ إنه الطفل الذى على يديه هلاكهم أجمعين ! ها هى ذى تلقيه فى أيديهم مجردا من كل قوة ومن كل حيلة ، عاجزا عن أن يدفع عن نفسه أو حتى يستنجد ! ها هى ذى تقتحم به على فرعون حصنه وهو الطاغية السفاح المتجبر ، ولا تتعبه فى البحث عنه فى بيوت بنى إسرائيل ، وفى أحضان نسائهم الوالدات ! ثم ها هى ذى تعلن عن مقصدها سافرة متحدية (ليكون لهم عدوا وحزنا) ليكون لهم عدوا يتحداهم وحزنا يدخل الهم على قلوبهم (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) ولكن كيف ؟ كيف وها هو ذا بين أيديهم ، مجردا من كل قوة ، مجردا من كل حيلة ؟ لندع السياق يجيب (وقالت امرأة فرعون:قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ؛ وهم لايشعرون) لقد اقتحمت به يد القدرة على فرعون قلب امرأته ، بعد ما اقتحمت به عليه حصنه . لقد حمته بالمحبة . ذلك الستار الرقيق الشفيف . لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال . حمته بالحب الحانى فى قلب امرأة . وتحدت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره . . وهان فرعون على الله أن يحمى منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف ! (قرة عين لى ولك) وهو الذى تدفع به يد القدرة إليهم ليكون لهم – فيما عدا المرأة – عدوا وحزنا ! (لا تقتلوه) وهو الذى على يده مصرع فرعون وجنده ! (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) وهو الذى تخبئ لهم الأقدار من ورائه ما حذروا منه طويلا ! (وهم لا يشعرون) فيا للقدرة القادرة التى تتحداهم وتسخر منهم وهم لا يشعرون ! وينتهى المشهد الثانى ويسدل الستار عليه إلى حين . ذلك شأن موسى . فما بال أمه الوالهة وقلبها الملهوف ؟ (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا . إن كادت لتبدى به . لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته:قصيه) لقد سمعت الإيحاء ، وألقت بطفلها إلى الماء . ولكن أين هو يا ترى وماذا فعلت به الأمواج ? ولعلها سألت نفسها:كيف ؟ كيف أمنت على فلذة كبدى أن أقذف بها فى اليم ؟ كيف فعلت ما لم تفعله من قبل أم ؟ كيف طلبت له السلامة فى هذه المخافة ؟ وكيف استسلمت لذلك الهاتف الغريب ؟ والتعبير القرانى يصور لنا فؤاد الأم المسكينة صورة حية (فارغا) لا عقل فيه ولا وعى ولا قدرة على نظر أو تصريف ! (إن كادت لتبدى به) وتذيع أمرها فى الناس ، وتهتف كالمجنونة:أنا أضعته . أنا أضعت طفلى . أنا ألقيت به فى اليم اتباعا لهاتف غريب ! (لولا أن ربطنا على قلبها) وشددنا عليه وثبتناها ، وأمسكنا بها من الهيام والشرود (لتكون من المؤمنين) المؤمنين بوعد الله ، الصابرين على ابتلائه ، السائرين على هداه . ولم تسكت أم موسى عن البحث والمحاولة ! (وقالت لأخته:قصيه) اتبعى أثره ، واعرفى خبره ، إن كان حيا ، أو أكلته دواب البر أو وحوش البر . . أو أين مقره ومرساه ؟ وذهبت أخته تقص أثره فى حذر وخفية ، وتتلمس خبره فى الطرق والأسواق . فإذا بها تعرف أين ساقته القدرة التى ترعاه ؛ وتبصر به عن بعد فى أيدى خدم فرعون يبحثون له عن ثدى للرضاع (فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل . فقالت:هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟) إن القدرة التى ترعاه تدبر أمره ، وتكيد به لفرعون وآله ؛ فتجعلهم يلتقطونه ، وتجعلهم يحبونه ، وتجعلهم يبحثون له عن ظئر ترضعه ، وتحرم عليه المراضع ،

لتدعهم يختارون به ؛ وهو يرفض الثدى كلما عرضت عليه ، وهم يخشون عليه الموت أو الذبول ! حتى تبصر به أخته من بعيد ، فتعرفه وتتيح لها القدرة فرصة لهفتهم على مرضع ، فتقول لهم (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون)؟ فيتلقفون كلماتها ، وهم يستبشرون ، يودون لو تصدق فينجو الطفل العزيز المحبوب ! وينتهى المشهد الرابع ؛ فنجدنا أمام المشهد الخامس والأخير فى هذه الحلقة . وقد عاد الطفل الغائب لأمه الملهوفة . معافى فى بدنه ، مرموقا فى مكانته ، يحميه فرعون ، وترعاه امرأته ، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قرير . وقد صاغت يد القدرة الحلقة الأولى من تدبيرها العجيب (فرددناه إلى أمه ، كى تقرعينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون) ويسكت سياق القصة بعد هذا عن السنوات الطوال ما بين مولد موسى – عليه السلام – والحلقة التالية التى تمثل شبابه واكتماله . فلا نعلم ماذا كان بعد رده إلى أمه لترضعه . ولا كيف تربى فى قصر فرعون . ولا كيف كانت صلته بأمه بعد فترة الرضاعة . ولا كيف كان مكانه فى القصر أو خارجه بعد أن شب وكبر إلى أن تقع الأحداث التالية فى الحلقة الثانية . ولا كيف كانت عقيدته ، وهو الذى يصنع على عين الله ، ويعد لوظيفته ، فى وسط عباد فرعون وكهنته . يسكت سياق القصة عن كل هذا ويبدأ الحلقة الثانية مباشرة حين بلغ أشده واستوى ، فقد آتاه الله الحكمة والعلم ، وجزاه جزاء المحسنين (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما . وكذلك نجزى المحسنين) وبلوغ الأشد هو اكتمال القوى الجسمية . والاستواء اكتمال النضوج العضوى والعقلى . وهو يكون عادة حوالى سن الثلاثين . فهل ظل موسى فى قصر فرعون ، ربيبا ومتبنى لفرعون وزوجه حتى بلغ هذه السن ؟ أم إنه افترق عنهما ، واعتزل القصر ، ولم تسترح نفسه للحياة فى ظل تلك الأوضاع الآسنة التى لا تستريح لها نفس مصفاة مجتباة كنفس موسى – عليه السلام – ؟ وبخاصة أن أمه لا بد أن تكون قد عرفته من هو ومن قومه وما ديانته . وهو يرى كيف يسام قومه الخسف البشع والظلم الشنيع ، والبغى اللئيم ؛ وهو يرى أبشع صورة للفساد الشائع الأثيم .

ليس لدينا من دليل . ولكن سياق الحوادث بعد هذا يلهم شيئا من هذا كما سيجىء ؛ والتعقيب على إتيانه الحكمة والعلم (وكذلك نجزى المحسنين) يشى كذلك بأنه أحسن فأحسن الله إليه بالحكمة والعلم (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان:هذا من شيعته وهذا من عدوه ؛ فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ؛ فوكزه موسى فقضى عليه . قال:هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال:رب إنى ظلمت نفسى ، فاغفرلى ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم . قال:رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين) ودخل المدينة . . والمفهوم أنها العاصمة وقتئذ . . فمن أى مكان جاء فدخلها ؟ وهل كان من القصر فى عين شمس ؟ أم إنه كان قد اعتزل القصر والعاصمة ، ثم دخل إليها على حين غفلة من أهلها ، فى وقت الظهيرة مثلا حين تغفو العيون ؟ لقد دخل المدينة على كل حال (فوجد فيها رجلين يقتتلان . هذا من شيعته وهذا من عدوه . فاستغاثة الذى من شيعته على الذى من عدوه) وقد كان أحدهما قبطيا – يقال إنه من حاشية فرعون ، ويقال إنه طباخ القصر . والآخر إسرائيلى . وكانا يقتتلان . فاستغاث الإسرائيلى بموسى مستنجدا به على عدوهما القبطى . فكيف وقع هذا ؟ كيف استغاث الإسرائيلى بموسى ربيب فرعون على رجل من رجال فرعون ؟ إن هذا لا يقع إذا كان موسى لا يزال فى القصر ، متبنى ، أو من الحاشية . إنما يقع إذا كان الإسرائيلى على ثقة من أن موسى لم يعد متصلا بالقصر ، وأنه قد عرف أنه من بنى إسرائيل . وأنه ناقم على الملك والحاشية ، منتصر لقومه المضطهدين . وهذا هو الأنسب لمن فى مقام موسى – عليه السلام – فإنه بعيد الاحتمال أن تطيق نفسه البقاء فى مستنقع الشر والفساد (فوكزه موسى فقضى عليه) والوكز هو الضرب بجمع اليد . والمفهوم من التعبير أنها وكزة واحدة كان فيها حتف القبطى . مما يشى بقوة موسى وفتوته ، ويصور كذلك انفعاله وغضبه ؛ ويعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به . ولكن يبدو من السياق أنه لم يكن يقصد قتل القبطى ، ولم يعمد إلى القضاء عليه . فما كاد يراه جثة هامدة بين يديه حتى استرجع وندم على فعلته ، وعزاها إلى الشيطان وغوايته ; فقد كانت من الغضب ، والغضب شيطان ، أو نفخ من الشيطان (قال:هذا من عمل الشيطان . إنه عدو مضل مبين) ثم استطرد فى فزع مما دفعه إليه الغضب ، يعترف بظلمه لنفسه أن حملها هذا الوزر ، ويتوجه إلى ربه ، طالبا مغفرته وعفوه (قال:رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى) واستجاب الله إلى ضراعته ، وحساسيته ، واستغفاره (فغفر له . إنه هو الغفور الرحيم) وكأنما أحس موسى بقلبه المرهف وحسه المتوفز فى حرارة توجهه إلى ربه ، أن ربه غفر له . والقلب المؤمن يحس بالاتصال والاستجابة للدعاء ، فور الدعاء ، حين يصل إرهافه وحساسيته إلى ذلك المستوى ؛ وحين تصل حرارة توجهه إلى هذا الحد . . وارتعش وجدان موسى – عليه السلام – وهو يستشعر الاستجابة من ربه ، فإذا هو يقطع على نفسه عهدا ، يعده من الوفاء بشكر النعمة التى أنعمها عليه ربه (قال:رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين) فهو عهد مطلق ألا يقف فى صف المجرمين ظهيرا ومعينا . وهو براءة من الجريمة وأهلها فى كل صورة من صورها . حتى ولو كانت

اندفاعا تحت تأثير الغيظ ، ومرارة الظلم والبغى . ذلك بحق نعمة الله عليه فى قبول دعائه ؛ ثم نعمته فى القوة والحكمة والعلم التى آتاه الله من قبل . وهذه الإرتعاشة العنيفة ، وقبلها الإندفاع العنيف ، تصور لنا شخصية موسى – عليه السلام – شخصية انفعالية ، حارة الوجدان ، قوية الاندفاع . وسنلتقى بهذه السمة البارزة فى هذه الشخصية فى مواضع أخرى كثيرة . بل نحن نلتقى بها فى المشهد الثانى فى هذه الحلقة مباشرة (فأصبح فى المدينة خائفا يترقب ؛ فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى:إنك لغوى مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال:يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ؟ إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين) لقد انتهت المعركة الأولى بالقضاء على القبطى ، وندم موسى على فعلته ، وتوجهه إلى ربه ، واستغفاره إياه ، ومغفرته له ، وعهده على نفسه ألا يكون ظهيرا للمجرمين . ومر يوم وأصبح فى المدينة خائفا من انكشاف أمره ، يترقب الافتضاح والأذى . ولفظ (يترقب) يصور هيئة القلق الذى يتلفت ويتوجس ، ويتوقع الشر فى كل لحظة . . وهى سمة الشخصية الانفعالية تبدو فى هذا الموقف كذلك . والتعبير يجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ ، كما أنه يضخمها بكلمتى (فى المدينة)فالمدينة عادة موطن الأمن والطمأنينة , فإذا كان خائفا يترقب فى المدينة ، فأعظم الخوف ما كان فى مأمن ومستقر ! وحالة موسى هذه تلهم أنه لم يكن فى هذا الوقت من رجال القصر . وإلا فما أرخص أن يزهق أحد رجال القصر نفسا فى عهود الظلم والطغيان ! وما كان ليخشى شيئا فضلا على أن يصبح (خائفا يترقب) لو أنه كان ما يزال فى مكانه من قلب فرعون وقصره . وبينما هو فى هذا القلق والتوجس إذا هو يطلع (فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه !) إنه صاحبه الإسرائيلى الذى طلب بالأمس نصرته على القبطى . إنه هو مشتبكا مع قبطى آخر ; وهو يستصرخ موسى لينصره ؛ ولعله يريد منه أن يقضى على عدوهما المشترك بوكزة أخرى ! ولكن صورة قتيل الأمس كانت ما تزال تخايل لموسى . وإلى جوارها ندمه واستغفاره وعهده مع ربه . ثم هذا التوجس الذى يتوقع معه فى كل لحظة أن يلحقه الأذى . فإذا هو ينفعل على هذا الذى يستصرخه ، ويصفه بالغواية والضلال (قال له موسى:إنك لغوى مبين) غوى بعراكه هذا الذى لا ينتهى واشتباكاته التى لا تثمر إلا أن تثير الثائرة على بنى إسرائيل . وهم عن الثورة الكاملة عاجزون ، وعن الحركة المثمرة ضعفاء . فلا قيمة لمثل هذه الاشتباكات التى تضر ولا تفيد . ولكن الذى حدث أن موسى – بعد ذلك – انفعلت نفسه بالغيظ من القبطى ، فاندفع يريد أن يقضى عليه كما قضى على الأول بالأمس ! ولهذا الاندفاع دلالته على تلك السمة الانفعالية التى أشرنا إليها ، ولكن له دلالته من جانب آخر على مدى امتلاء نفس موسى – عليه السلام – بالغيظ من الظلم ، والنقمة على البغى ، والضيق بالأذى الواقع على بنى إسرائيل ، والتوفز لرد العدوان الطاغى ، الطويل الأمد ، الذى يحتفر فى القلب البشرى مسارب من الغيظ وأخاديد . (فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما ، قال:يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ؟ إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين) وإنه ليقع حينما يشتد الظلم ، ويفسد المجتمع ، وتختل الموازين ، ويخيم الظلام ، أن تضيق النفس الطيبة بالظلم الذى يشكل الأوضاع والقوانين والعرف ؛ ويفسد الفطرة العامة حتى ليرى الناس الظلم فلا يثورون عليه ، ويرون البغى فلا تجيش نفوسهم لدفعه ; بل يقع أن يصل فساد الفطرة إلى حد إنكار الناس على المظلوم أن يدفع عن نفسه ويقاوم ; ولقد طال الظلم ببنى إسرائيل ، فضاقت به نفس موسى – عليه السلام – حتى رأيناه يندفع فى المرة الأولى ويندم , ثم يندفع فى المرة الثانية لما ندم عليه حتى ليكاد يفعله ، ويهم أن يبطش بالذى هو عدو له ولقومه . ويبدو أن رائحة فاحت عن قتيل الأمس ، وأن شبهات تطايرت حول موسى . لما عرف عن كراهيته من قبل لطغيان فرعون وملئه ، إلى جانب ما يكون قد باح به صاحبه الإسرائيلى سرا بين قومه ، ثم تفشى بعد ذلك خارج بنى إسرائيل . فلما أراد موسى أن يبطش بالقبطى الثانى واجهه هذا بالتهمة ، لأنها عندئذ تجسمت له حقيقة ، وهو يراه يهم أن يبطش به ، وقال له تلك المقالة: (أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ؟) أما بقية عبارته (إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين) فتلهم أن موسى كان قد اتخذ له فى الحياة مسلكا يعرف به أنه رجل صالح مصلح , لا يحب البغى والتجبر . فهذا القبطى يذكره بهذا ويورى به ؛ ويتهمه بأنه يخالف عما عرف عنه . يريد أن يكون جبارا لا مصلحا ، يقتل الناس بدلا من إصلاح ذات البين , وتهدئة ثائرة الشر . وطريقة خطابه له وموضوع خطابه ، كلاهما يلهم أن موسى لم يكن إذ ذاك محسوبا من رجال فرعون . وإلا ما جرؤ المصرى على خطابه بهذه اللهجة ، ولما كان هذا موضوع خطابه . ولقد قال بعض المفسرين:إن هذا القول كان من الإسرائيلى لا من القبطى ، لأنه لما قال له موسى (إنك لغوى مبين) ثم تقدم نحوه وهو غاضب ليبطش بالذى هو عدو لهما ، حسب الإسرائيلى أنه غاضب عليه هو , وأنه يتقدم ليبطش به هو ، فقال مقالته ، وأذاع بالسر الذى يعرفه وحده . . وإنما حملهم على هذا القول أن ذلك السر كان مجهولا عند المصريين . ولكن الأقرب أن يكون القبطى هو الذى قال ما قال . وقد عللنا شيوع ذلك السر . وأنها قد تكون فراسة أو حدسا من المصرى بمساعدة الظروف المحيطة بالموضوع . والظاهر أن موسى لم يقدم بعد

إذ ذكره الرجل بفعلة الأمس ، وأن الرجل أفلت لينهى إلى الملأ من قوم فرعون أن موسى هو صاحبها . فهنا فجوة في السياق بعد المشهد السابق . ثم إذا مشهد جديد . رجل يجيء إلى موسى من أقصى المدينة ، يحذره ائتمار الملأ من قوم فرعون به ، وينصح بالهرب من المدينة إبقاء على حياته (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى . قال:يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك . فاخرج إنى لك من الناصحين) إنها يد القدرة تسفر في اللحظة المطلوبة ، لتتم مشيئتها ! لقد عرف الملأ من قوم فرعون ، وهم رجال حاشيته وحكومته والمقربون إليه أنها فعلة موسى . وما من شك أنهم أحسوا فيها بشبح الخطر . فهى فعلة طابعها الثورة والتمرد ، والانتصار لبنى إسرائيل . وإذن فهى ظاهرة خطيرة تستحق التآمر . ولو كانت جريمة قتل عادية ما استحقت أن يشتغل بها فرعون والملأ والكبراء . فانتدبت يد القدرة واحدا من الملأ . الأرجح أنه الرجل المؤمن من آل فرعون الذى يكتم إيمانه ، والذى جاء ذكره فى سورة] غافر [انتدبته ليسعى إلى موسى (من أقصى المدينة) فى جد واهتمام ومسارعة ، ليبلغه قبل أن يبلغه رجال الملك (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إنى لك من الناصحين) (فخرج منها خائفا يترقب . قال:رب نجنى من القوم الظالمين) ومرة أخرى نلمح السمة الواضحة فى الشخصية الانفعالية . التوفز والتلفت . ونلمح معها , التوجه المباشر بالطلب إلى الله ، والتطلع إلى حمايته ورعايته ، والالتجاء إلى حماه فى المخافة ، وترقب الأمن عنده والنجاة (رب نجنى من القوم الظالمين) ثم يتبعه السياق خارجا من المدينة ، خائفا يترقب ، وحيدا فريدا ، غير مزود إلا بالاعتماد على مولاه ؛ والتوجه إليه طالبا عونه وهداه (ولما توجه تلقاء مدين قال:عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) ونلمح شخصية موسى – عليه السلام – فريدا وحيدا مطاردا فى الطرق الصحراوية فى اتجاه مدين فى جنوبى الشام وشمالى الحجاز . مسافات شاسعة ، وأبعاد مترامية ، لا زاد ولا استعداد ، فقد خرج من المدينة خائفا يترقب ، وخرج منزعجا بنذارة الرجل الناصح ، لم يتلبث ، ولم يتزود ولم يتخذ دليلا . ونلمح إلى جانب هذا نفسه متوجهة إلى ربه ، مستسلمة له ، متطلعة إلى هداه (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) ومرة أخرى نجد موسى – عليه السلام – فى قلب المخافة ، بعد فترة من الأمن . بل من الرفاهية والطراءة والنعمى . ونجده وحيدا مجردا من قوى الأرض الظاهرة جميعا ، يطارده فرعون وجنده ، ويبحثون عنه فى كل مكان ، لينالوا منه اليوم ما لم ينالوه منه طفلا . ولكن اليد التى رعته وحمته هناك ترعاه وتحميه هنا ، ولا تسلمه لأعدائه أبدا . فها هو ذا يقطع الطريق الطويل ، ويصل إلى حيث لا تمتد إليه اليد الباطشة بالسوء (ولما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان . قال:ما خطبكما ؟ قالتا:لا نسقى حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما , ثم تولى إلى الظل ، فقال:رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) لقد انتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماء لمدين . وصل إليه وهو مجهود مكدود . وإذا هو يطلع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة ، السليمة الفطرة ، كنفس موسى – عليه السلام – وجد الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لتشرب من الماء ؛ ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء . والأولى عند ذوى المروءة والفطرة السليمة ، أن تسقى المرأتان وتصدرا بأغنامهما أولا ,وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما .

ولم يقعد موسى الهارب المطارد ، المسافر المكدود ، ليستريح ، وهو يشهد هذا المنظر المنكر المخالف للمعروف . بل تقدم للمرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب (قال:ما خطبكما ؟) (قالتا:لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) فاطلعتاه على سبب انزوائهما وتأخرهما وذودهما لغنمهما عن الورود . إنه الضعف ، فهما امرأتان وهؤلاء الرعاة رجال . وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على الرعى ومجالدة الرجال ! وثارت نخوة موسى – عليه السلام – وفطرته السليمة . فتقدم لإقرار الأمر فى نصابه . تقدم ليسقى للمرأتين أولا ، كما ينبغى أن يفعل الرجال ذوو الشهامة . وهو غريب فى أرض لا يعرفها ، ولا سند له فيها ولا ظهير . وهو مكدود قادم من سفر طويل بلا زاد ولا استعداد . وهو مطارد ، من خلفه اعداء لا يرحمون . ولكن هذا كله لا يقعد به عن تلبية دواعى المروءة و النجدة والمعروف ، وإقرار الحق الطبيعى الذى تعرفه النفوس (فسقى لهما) مما يشهد بنبل هذه النفس التى صنعت على عين الله . كما يشى بقوته التى ترهب حتى وهو فى إعياء السفر الطويل . ولعلها قوة نفسه التى أوقعت فى قلوب الرعاة رهبته أكثر من قوة جسمه . فإنما يتأثر الناس أكثر بقوة الأرواح والقلوب (ثم تولى إلى الظل) مما يشير إلى أن الأوان كان أوان قيظ وحر ، وأن السفرة كانت فى ذلك القيظ والحر (فقال:رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) إنه يأوى إلى الظل المادى البليل بجسمه ، ويأوى إلى الظل العريض الممدود . ظل الله الكريم المنان . بروحه وقلبه: (رب . إنى لما أنزلت إلى من خير فقير). رب إنى فى الهاجرة . رب إنى فقير . رب إنى وحيد . رب إنى ضعيف . رب إنى إلى فضلك ومنك وكرمك فقير محووج . ونسمع من خلال التعبير رفرفة هذا القلب والتجاءه إلى الحمى الآمن ، والركن الركين , والظل والظليل . نسمع المناجاة القريبة والهمس الموحى ، والانعطاف الرفيق ,والاتصال العميق: (رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) وما نكاد نستغرق مع موسى – عليه السلام – فى

مشهد المناجاة حتى يعجل السياق بمشهد الفرج ، معقبا فى التعبير بالفاء ، كأنما السماء تسارع فتستجيب للقلب الضارع الغريب (فجاءته إحداهما تمشى على استحياء . قالت:إن أبى يدعوك ليجزيك أجرما سقيت لنا) يا فرج الله:ويا لقربه ويا لنداه ! إنها دعوة الشيخ الكبير استجابة من السماء لدعوة موسى الفقير . دعوة للإيواء والكرامة والجزاء على الإحسان . دعوة تحملها (إحداهما) وقد جاءته (تمشى على استحياء) مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجال (على استحياء) فى غير ما تبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء . جاءته لتنهى إليه دعوة فى أقصر لفظ وأخصره وأدله ، يحكيه القرآن بقوله (إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح ؛ لا التلجلج والتعثر والربكة . وذلك كذلك من إيحاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة . فالفتاة القويمة تستحى بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم ، ولكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب . الاضطراب الذى يطمع ويغرى ويهيج ؛ إنما تتحدث فى وضوح بالقدر المطلوب ، ولا تزيد . وينهى السياق هذا المشهد فلا يزيد عليه ، ولا يفسح المجال لغير الدعوة من الفتاة , والإستجابة من موسى . ثم إذا مشهد اللقاء بينه وبين الشيخ الكبير . الذى لم ينص على اسمه . وقيل:إنه ابن أخى شعيب النبى المعروف . وإن اسمه يثرون (فلما جاءه وقص عليه القصص ، قال:لا تخف . نجوت من القوم الظالمين) فقد كان موسى فى حاجة إلى الأمن ؛ كما كان فى حاجة إلى الطعام والشراب . ولكن حاجة نفسه إلى الأمن كانت أشد من حاجة جسمه إلى الزاد . ومن ثم أبرز السياق فى مشهد اللقاء قول الشيخ الوقور (لا تخف) فجعلها أول لفظ يعقب به على قصصه ليلقى فى قلبه الطمأنينة , ويشعره بالأمان . ثم بين وعلل (نجوت من القوم الظالمين) فلا سلطان لهم على مدين ، ولا يصلون لمن فيها بأذى ولا ضرار . ثم نسمع فى المشهد صوت الأنوثة المستقيمة السليمة (قالت إحداهما ؛ يا أبت استأجره . إن خير من استأجرت القوى الأمين) إنها وأختها تعانيان من رعى الغنم ، ومن مزاحمة الرجال على الماء ، ومن الاحتكاك الذى لا بد منه للمرأة التى تزاول أعمال الرجال . وهى تتأذى وأختها من هذا كله ؛ وتريد أن تكون امرأة تأوى إلى بيت ؛ امرأة عفيفة مستورة لا تحتك بالرجال الغرباء فى المرعى والمسقى . والمرأة العفيفة الروح النظيفة القلب ، السليمة الفطرة ، لا تستريح لمزاحمة الرجال ، ولا للتبذل الناشئ من هذه المزاحمة . وها هو ذا شاب غريب طريد وهو فى الوقت ذاته قوى أمين . رأت من قوته ما يهابه الرعاء فيفسحون له الطريق ويسقى لهما . وهو غريب . والغريب ضعيف مهما اشتد . ورأت من أمانته ما يجعله عف اللسان والنظر حين توجهت لدعوته . فهى تشير على أبيها باستئجاره ليكفيها وأختها مؤنة العمل والاحتكاك والتبذل . وهو قوى على العمل ، أمين على المال . فالأمين على العرض هكذا أمين على ما سواه . وهى لا تتلعثم فى هذه الإشارة ولا تضطرب ، ولا تخشى سوء الظن والتهمة . فهى بريئة النفس ، نظيفة الحس ؛ ومن ثم لا تخشى شيئا ، ولا تتمتم ولا تجمجم وهى تعرض اقتراحها على أبيها واستجاب الشيخ لاقتراح ابنته . ولعله أحس من نفس الفتاة ونفس موسى ثقة متبادلة ، وميلا فطريا سليما ، صالحا لبناء أسرة . والقوة والأمانة حين تجتمعان فى رجل لا شك تهفو إليه طبيعة الفتاة السليمة التى لم تفسد ولم تلوث ولم تنحرف عن فطرة الله . فجمع الرجل بين الغايتين وهو يعرض على موسى أن يزوجه إحدى ابنتيه فى مقابل أن يخدمه ويرعى ماشيته ثمانى سنين . فإن زادها إلى عشر فهو تفضل منه لا يلزم به (قال:إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين ، على أن تأجرنى ثمانى حجج . فإن أتممت عشرا فمن عندك . وما أريد أن أشق عليك . ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) وهكذا فى بساطة وصراحة عرض الرجل إحدى ابنتيه من غير تحديد – ولعله كان يشعر كما أسلفنا – أنها محددة ، وهى التى وقع التجاوب والثقة بين قلبها وقلب الفتى . عرضها فى غير تحرج ولا التواء . فهو يعرض نكاحا لا يخجل منه . يعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس فى هذا ما يخجل ، ولا ما يدعو إلى التحرج والتردد والإيماء من بعيد ، والتصنع والتكلف مما يشاهد فى البيئة التى تنحرف عن سواء الفطرة ، وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة ، تمنع الوالد أو ولى الأمر من التقدم لمن يرتضى خلقه ودينه وكفايته لابنته أو أخته أو قريبته ؛ وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذى يتقدم ، أو لا يليق أن يجىء العرض من الجانب الذى فيه المرأة ! ومن مفارقات مثل هذه البيئة المنحرفة أن الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدثون ويختلطون ويتكشفون بعضهم لبعض فى غير ما خطبة ولا نية نكاح . فأما حين تعرض الخطبة أو يذكر النكاح ، فيهبط الخجل المصطنع , وتقوم الحوائل المتكلفة وتمتنع المصارحة والبساطة والإبانة ! ولقد كان الآباء يعرضون بناتهم على الرجال على عهد رسول الله ﷺ بل كانت النساء تعرض نفسها على النبى ﷺ أو من يرغب فى تزويجهن منهم . كان يتم هذا فى صراحة ونظافة وأدب جميل ، لا تخدش معه كرامة ولا حياء . . عرض عمر – رضى الله عن – ابنته حفصة على أبى بكر فسكت وعلى عثمان فاعتذر ، فلما أخبر النبى ﷺ بهذا طيب خاطره , عسى أن يجعل الله لها نصيبا فيمن هو خير منهما . ثم تزوجها ﷺ وعرضت امرأة نفسها على رسول الله ﷺ فاعتذر لها . فألقت إليه ولاية أمرها يزوجها ممن يشاء . فزوجها رجلا لا يملك إلا سورتين من القرآن ، علمها إياهما فكان هذا صداقها . وبمثل هذه البساطة والوضاءة سار المجتمع الإسلامى يبنى بيوته ويقيم كيانه . فى غير

ما تعلثم ولا جمجمة ولا تصنع ولا التواء . وهكذا صنع الشيخ الكبير – صاحب موسى – فعرض على موسى ذلك العرض واعدا إياه ألا يشق عليه ولا يتعبه فى العمل ؛ راجيا بمشيئة الله أن يجده موسى من الصالحين فى معاملته ووفائه . و هو أدب جميل فى التحدث عن النفس وفى جانب الله . فهو لا يزكى نفسه , ولا يجزم بأنه من الصالحين . ولكن يرجو أن يكون كذلك ، ويكل الأمر فى هذا لمشيئة الله . وقبل موسى العرض وأمضى العقد ؛ فى وضوح كذلك ودقة ، وأشهد الله (قال ذلك بيني وبينك . أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على . والله على ما نقول وكيل) إن مواضع العقد وشروط التعاقد لا مجال للغموض فيها ، ولا اللعثمة ، ولا الحياء . ومن ثم يقر موسى العرض ، ويبرم العقد ، على ما عرض الشيخ من الشروط . ثم يقرر هذا ويوضحه (أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على) سواء قضيت ثماني سنوات أو أتممت عشرا , فلا عدوان فى تكاليف العمل ، ولا عدوان فى تحتيم العشر ؛ فالزيادة على الثمانية اختيار (والله على ما نقول وكيل) فهو الشهيد الموكل بالعدل بين المتعاقدين . وكفى بالله وكيلا . بين موسى – عليه السلام – هذا البيان تمشيا مع استقامة فطرته ، ووضوح شخصيته ، وتوفية بواجب المتعاقدين فى الدقة والوضوح والبيان . وهو ينوي أن يوفي بأفضل الأجلين كما فعل . فقد روى أن رسول الله ﷺ أخبر أنه:" قضى أكثرهما وأطيبهما " . وهكذا اطمأن بموسى – عليه السلام – المقام فى بيت حميه ؛ وقد أمن من فرعون وكيده . ولحكمة مقدرة فى علم الله كان هذا الذى كان . . فلندع الآن هذه الحلقة تمضى فى طريقها حتى تنقضى . فقد سكت السياق فيها عند هذا الحد وأسدل الستار

. . .

وتمضى السنوات العشر التى تعاقد عليها موسى – عليه السلام – لا يذكر عنها شيء فى سياق السورة ، ثم تعرض الحلقة الثالثة بعد ما قضى موسى الأجل وسار بأهله ، عائدا من مدين إلى مصر ، يسلك إليها الطريق الذى سلكه منذ عشر سنوات وحيدا طريدا . ولكن جو العودة غير جو الرحلة الأولى . . إنه عائد ليتلقى فى الطريق ما لم يخطر له على بال . لينادیه ربه ويكلمه ، ويكلفه النهوض بالمهمة التى من أجلها وقاه ورعاه ، وعلمه ورباه . مهمة الرسالة إلى فرعون وملئه ، ليطلق له بنى إسرائيل يعبدون ربهم لا يشركون به أحدا ويرثون الأرض التى وعدهم ليمكن لهم فيها ثم ليكون لفرعون وهامان وجنودهما عدوا وحزنا ، ولتكون نهايتهم على يديه كما وعد الله حقا (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا . قال لأهله:امكثوا إني آنست نارا ، لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون) ترى أى خاطر راود موسى ، فعاد به إلى مصر ، بعد انقضاء الأجل ، وقد خرج منها خائفا يترقب ؟ وأنساه الخطر الذى ينتظره بها ، وقد قتل فيها نفسا ؟ وهناك فرعون الذى كان يتآمر مع الملأ من قومه ليقتلوه ؟ إنها اليد التى تنقل خطاه كلها ، لعلها قادته هذه المرة بالميل الفطرى إلى الأهل والعشيرة , وإلى الوطن والبيئة ، وأنسته الخطر الذى خرج هاربا منه وحيدا طريدا . ليؤدى المهمة التى خلق لها ورعى منذ اللحظة الأولى . على أية حال ها هو ذا عائد فى طريقه ، ومعه أهله ، والوقت ليل ، والجو ظلمة ؛ وقد ضل الطريق ، والليلة شاتية ، كما يبدو من أنسه بالنار التى شاهدها ، ليأتى منها بخبر أو جذوة . . هذا هو المشهد الأول فى هذه الحلقة . فأما المشهد الثانى فهو المفاجأة الكبرى (فلما أتاها نودى من شاطى ء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة) فها هو ذا يقصد إلى النار التى آنساها ، وها هو ذا فى شاطى ء الوادى إلى جوار جبل الطور ، الوادى إلى يمينه (فى البقعة المباركة) المباركة ، منذ هذه اللحظة . . ثم هذا هو الكون كله تتجاوب جنباته بالنداء العلوى الآتى لموسى (من الشجرة) ولعلها كانت الوحيدة فى هذا المكان ، وتلقى موسى النداء المباشر . تلقاه وحيدا فى ذلك الوادى العميق ، فى ذلك الليل الساكن . تلقاه يتجاوب به الكون من حوله ، وتمتلىء به السماوات والأرضون . تلقاه لا ندري كيف وبأية جارحة وعن أى طريق . تلقاه ملء الكون من حوله ، وملء كيانه كله . تلقاه وأطاق تلقيه لأنه صنع على عين الله حتى تهيأ لهذه اللحظة الكبرى . وسجل ضمير الوجود ذلك النداء العلوى ؛ وبوركت البقعة التى تجلى عليها ذو الجلال ; و تميز الوادى الذى كرم بهذا التجلى ، ووقف موسى فى أكرم موقف يلقاه إنسان . واستطرد النداء العلوى يلقى إلى عبده التكليف (وأن ألق عصاك) وألقى موسى عصاه إطاعة لأمر مولاه ؛ ولكن ماذا ؟ إنها لم تعد عصاه التى صاحبها طويلا , والتى يعرفها معرفة اليقين . إنها حية تدب فى سرعة ، وتتحرك فى خفة ، وتتلوى كصغار الحيات وهى حية كبرى (فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب) إنها المفاجأة التى لم يستعد لها ؛ مع الطبيعة الانفعالية ، التى تأخذها الوهلة الأولى) ولى مدبرا ولم (يعقب) ولم يفكر فى العودة إليها ليتبين ماذا بها ؛ وليتأمل هذه العجيبة الضخمة . وهذه هى سمة الانفعاليين البارزة تتجلى فى موعدها ! ثم يستمع إلى ربه الأعلى (يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) إن الخوف والأمن يتعاقبان سريعا على هذه النفس ، ويتعاورانها فى مراحل حياتها جميعا . إنه جو هذه الحياة من بدئها إلى

نهايتها ؛ وإن هذا الانفعال الدائم لمقصود في تلك النفس ، مقدر فى هذه الحياة ، لأنه الصفحة المقابلة لتبلد بنى إسرائيل ، ومرودهم على الاستكانة ذلك الأمد الطويل . وهو تدبير القدرة وتقديرها العميق الدقيق (أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) وكيف لا يأمن من تنقل يد القدرة خطاه ، ومن ترعاه عين الله ؟ (اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) وأطاع موسى الأمر ، وأدخل يده فى فتحة ثوبه عند صدره ثم أخرجها . فإذا هى المفاجأة الثانية فى اللحظة الواحدة . إنها بيضاء لامعة مشعة من غير مرض ، وقد عهدها أدماء تضرب إلى السمرة . إنها إشارة إلى إشراق الحق ووضوح الآية ونصاعة الدليل . وأدركت موسى طبيعته . فإذا هو يرتجف من رهبة الموقف وخوارقه المتتابعة . ومرة أخرى تدركه الرعاية الحانية بتوجيه يرده إلى السكينة . ذلك أن يضم يده على قلبه ، فتخفض من دقاته ، وتطامن من خفقاته (واضمم إليك جناحك من الرهب) وكأنما يده جناح يقبضه على صدره ، كما يطمئن الطائر فيطبق جناحه . والرفرفة أشبه بالخفقان ، والقبض أشبه بالإطمئنان . والتعبير يرسم هذه الصورة على طريقة القرآن . والآن وقد تلقى موسى ما تلقى ، وقد شاهد كذلك ما شاهد ، وقد رأى الآيتين الخارقتين ، وقد ارتجف لهما ثم اطمأن . . الآن يعرف ما وراء الآيات ، والآن يتلقى التكليف الذى كان يعد من طفولته الباكرة ليتلقاه (فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه . إنهم كانوا قوما فاسقين) وإذن فهى الرسالة إلى فرعون وملئه . وإذن فهو الوعد الذى تلقته أم موسى وهو طفل رضيع (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) الوعد اليقين الذى انقضت عليه السنون . وعد الله لا يخلف الله وعده وهو أصدق القائلين . هنا يتذكر موسى أنه قتل منهم نفسا ، وأنه خرج من بينهم طريدا ، وأنهم تآمروا على قتله فهرب منهم بعيدا . وهو فى حضرة ربه . وربه يكرمه بلقائه ، ويكرمه بنجائه ، ويكرمه بآياته ، ويكرمه برعايته ، فما له لا يحتاط لدعوته خيفة أن يقتل فتنقطع رسالته (قال:رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) يقولها لا ليعتذر ، ولا ليتقاعس ، ولا لينكص ؛ ولكن ليحتاط للدعوة ، ويطمئن إلى مضيها فى طريقها ، لو لقى ما يخاف . وهو الحرص اللائق بموسى القوى الأمين (وأخى هارون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردءا يصدقنى ، إنى أخاف أن يكذبون) إن هارون أفصح لسانا فهو أقدر على المنافحة عن الدعوة . وهو ردء له معين ، يقوى دعواه ، ويخلفه إن قتلوه . وهنا يتلقى موسى الإستجابة والتطمين (قال:سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما . بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) لقد استجاب ربه رجاءه ؛ وشد عضده بأخيه . وزاده على ما رجاه البشارة والتطمين (ونجعل لكما سلطانا) فهما لن يذهبا مجردين إلى فرعون الجبار . إنما يذهبان إليه مزودين بسلطان لا يقف له فى الأرض سلطان ؛ ولا تنالهما معه كف طاغية ولا جبار (فلا يصلون إليكما) وحولكما من سلطان الله سياج ، ولكما منه حصن وملاذ . ولا تقف البشارة عند هذا الحد . ولكنها الغلبة للحق . الغلبة لآيات الله التى يجبهان بها الطغاة . فإذا هى وحدها السلاح والقوة ، وأداة النصر والغلبة (بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) فالقدرة تتجلى سافرة على مسرح الحوادث ؛ وتؤدى دورها مكشوفا بلا ستار من قوى الأرض ، لتكون الغلبة بغير الأسباب التى تعارف عليها الناس ، فى دنيا الناس ، وليقوم فى النفوس ميزان جديد للقوى والقيم . إيمان وثقة بالله ، وما بعد ذلك فعلى الله . وينتهى هذا المشهد الرائع الجليل ؛ ويطوى الزمان ويطوى المكان ، فإذا موسى وهارون فى مواجهة فرعون ، بآيات الله البينات ؛ وإذا الحوار بين الهدى والضلال ؛ وإذا النهاية الحاسمة فى هذه الدنيا بالغرق ، وفى الحياة الأخرى باللعنة . فى سرعة واختصار إن السياق هنا يعجل بالضربة القاضية ؛ ويختصر حلقة السحرة التى تذكر فى سور أخرى بتفصيل أو إجمال . يختصرها ليصل من التكذيب مباشرة إلى الإهلاك . ثم لا يقف عند الأخذ فى الدنيا ، بل يتابع الرحلة إلى الآخرة . . وهذا الإسراع فى هذه الحلقة مقصود ، متناسق مع اتجاه القصة فى السورة:وهو تدخل يد القدرة بلا ستار من البشر ، فما إن يواجه موسى فرعون حتى يعجل الله بالعاقبة ، وتضرب يد القدرة ضربتها الحاسمة ، بلا تفصيل فى المواجهة أو تطويل (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا:ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين) وكأنما هى ذات القولة التى يقولها المشركون لمحمد ﷺ فى مكة يومذاك (ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين) فهى المماراة فى الحق الواضح الذى لا يمكن دفعه . المماراة المكرورة حيثما واجه الحق الباطل فاعيا الباطل الجواب . إنهم يدعون أنه سحر ، ولا يجدون لهم حجة إلا أنه جديد عليهم ، لم يسمعوا به فى آبائهم الأولين ! (وقال موسى:ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون) وهو رد مؤدب مهذب ، يلمح فيه ولا يصرح . وفى الوقت ذاته ناصع واضح ، مليء بالثقة والطمأنينة إلى عاقبة المواجهة بين الحق والباطل . فربه أعلم بصدقه وهداه ، وعاقبة الدار مكفولة لمن جاء بالهدى ، والظالمون فى النهاية لا يفلحون . سنة الله التى لا تتبدل . وإن بدت ظواهر الأمور أحيانا فى غير هذا الإتجاه . سنة الله يواجه بها موسى قومه ويواجه بها كل نبى قومه . وكان رد فرعون على هذا الأدب وهذه الثقة ادعاء وتطاولا ، ولعبا ومداورة ، وتهكما وسخرية (وقال فرعون:يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى . فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه من الكاذبين) يا

أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى . . كلمة فاجرة كافرة ، يتلقاها الملأ بالإقرار والتسليم . ويعتمد فيها فرعون على الأساطير التى كانت سائدة فى مصر من نسب الملوك للآلهة . ثم على القهر ، الذى لا يدع لرأس أن يفكر ، ولا للسان أن يعبر . وهم يرونه بشرا مثلهم يحيا ويموت ، ولكنه يقول لهم هذه الكلمة فيسمعونها دون اعتراض ولا تعقيب ! ثم يتظاهر بالجد فى معرفة الحقيقة ، والبحث عن إله موسى ، وهو يلهو ويسخر:) فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى). . فى السماء كما يقول ! وبلهجة التهكم ذاتها يتظاهر بأنه شاك فى صدق موسى ، ولكنه مع هذا الشك يبحث وينقب ليصل إلى الحقيقة: (وإني لأظنه من الكاذبين)! وفى هذا الموضع كانت حلقة المباراة مع السحرة . وهى محذوفة هنا للتعجيل بالنهاية :(واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون) فلما توهموا عدم الرجعة إلى الله استكبروا فى الأرض بغير الحق ، وكذبوا بالآيات والنذر] التى جاء ذكرها فى مطلع هذه الحلقة ، ووردت بالتفصيل فى سور أخرى] (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم) هكذا فى اختصار حاسم . أخذ شديد ونبذ فى اليم . نبذ كما تحذف الحصاة أو كما يرمى بالحجر . اليم الذى ألقى فى مثله موسى الطفل الرضيع ، فكان مأمنا وملجأ . وهو ذاته الذى ينبذ فيه فرعون الجبار وجنوده فإذا هو مخافة ومهلكة . فالأمن إنما يكون فى جناب الله ، والمخافة إنما تكون فى البعد عن ذلك الجناب (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) فهى عاقبة مشهودة معروضة للعالمين . وفيها عبرة للمعتبرين ، ونذير للمكذبين . وفيها يد القدرة تعصف بالطغاة والمتجبرين فى مثل لمح البصر ، وفى أقل من نصف سطر ! وفى لمحة أخرى يجتاز الحياة الدنيا ؛ ويقف بفرعون وجنوده فى مشهد عجيب . . يدعون إلى النار ، ويقودون إليها الأتباع والأنصار (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار) فيا بئساها دعوة ! ويا بئساها إمامة ! (ويوم القيامة لا ينصرون) فهى الهزيمة فى الدنيا ، وهى الهزيمة فى الآخرة ، جزاء البغى والاستطالة . وليست الهزيمة وحدها ، إنما هى اللعنة فى هذه الأرض ، والتقبيح فى يوم القيامة (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة هم من المقبوحين) ولفظة (المقبوحين) ترسم بذاتها صورة القبح والفضيحة والتشنيع ، وجو التقزز والاشمئزاز . ذلك فى مقابل الاستعلاء والاستكبار فى الأرض ، وفتنة الناس بالمظهر والجاه ، والتطاول على الله وعلى عباد الله . ويعبر السياق هنا مرحلة الخروج ببنى إسرائيل من مصر ، وما حدث خلالها من أحداث ، ليعجل بعرض نصيب موسى بعد عرض نصيب فرعون (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ، بصائر للناس ، وهدى ورحمة ، لعلهم يتذكرون) هذا نصيب موسى . وهو نصيب عظيم . وهذه عاقبة موسى . وهى عاقبة كريمة . . كتاب من الله يبصر الناس كأنه بصائرهم التى بها يهتدون (وهدى ورحمة) (لعلهم يتذكرون) يتذكرون كيف تتدخل يد القدرة بين الطغاة والمستضعفين ، فتختم للطغاة بالهلاك والتدمير ، وتختم للمظلومين بالخير والتمكين . وهكذا تنتهى قصة موسى وفرعون فى هذه السورة . شاهدة بأن الأمن لا يكون إلا فى جانب الله . وأن المخافة لا تكون إلا فى البعد عن الله . ذلك إلى تدخل يد القدرة متحدية للطغيان والطغاة ، حين تصبح القوة فتنة يعجز عن صدها الهداة . وهى المعانى التى كانت الجماعة المسلمة الصغيرة المستضعفة فى مكة فى حاجة إلى الاطمئنان إليها . وكان المشركون المستكبرون فى حاجة إلى تدبرها . وهى المعانى المتجددة الدائمة حيثما كانت دعوة إلى الهدى ، وحيثما كان طغيان يقف فى وجه الهدى . هكذا يجىء القصص فى القرآن مادة تربية للنفوس ، وتقرير لحقائق وسنن فى الوجود (لعلهم يتذكرون)

(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ{٤٤} وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ{٤٥} وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ{٤٦} وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{٤٧} فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ{٤٨} قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٤٩} فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{٥٠} وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ{٥١} الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ{٥٢} وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ{٥٣} أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{٥٤} وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ{٥٥} إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ{٥٦} وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{٥٧} وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ

إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ{٥٨} وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ{٥٩} وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ{٦٠} أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِن الْمُحْضَرِينَ{٦١} وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ{٦٢} قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ{٦٣} وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ{٦٤} وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ{٦٥} فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ{٦٦} فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَن يَكُونَ مِن الْمُفْلِحِينَ{٦٧} وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ{٦٨} وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ{٦٩} وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٧٠} قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ{٧١} قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ{٧٢} وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{٧٣} وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ{٧٤} وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ){٧٥}

مضت قصة موسى – عليه السلام – بدلالاتها التى وضحت فى الدرس الماضى . فأما فى هذا الدرس فتبدأ التعقيبات عليها ؛ ثم يمضى السياق فى طريقه على محور السورة الأصيل , يبين أين يكون الأمن وأين تكون المخافة ؛ ويجول مع المشركين الذين يواجهون دعوة الإسلام بالشرك والإنكار والمعاذير . يجول معهم جولات شتى فى مشاهد الكون ، وفى مشاهد الحشر ، وفيما هم فيه من الأمر ؛ بعد أن يعرض عليهم دلائل الصدق فيما جاءهم به رسولهم ﷺوكيف يتلقاه فريق من أهل الكتاب بالإيمان واليقين بينما هم يتلقونه بالكفران والجحود . وهو رحمة لهم من العذاب ، لو أنهم كانوا يتذكرون . والتعقيب الأول على القصة يدور حول دلالتها على صدق دعوى الوحى . فرسول الله ﷺيتلو عليهم تفصيلات الأحداث كما يقصها شاهد العيان ؛ وما كان حاضر أحداثها ، ولكنه الوحى يقصها عليه من لدن عليم خبير ، رحمة بقومه أن يصيبهم العذاب بما هم فيه من الشرك (فيقولوا:ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) والغربى هو الجانب الغربى للطور الذى جعله الله ميقاتا مع موسى – عليه السلام – بعد أجل محدد . . ثلاثين ليلة ، أتمها بعشر . فكانت أربعين ليلة [على ما ذكر فى سورة الأعراف] وفى هذا الميقات قضى الأمر لموسى فى الألواح ، لتكون شريعته فى بنى إسرائيل . وما كان رسول الله ﷺ شاهدا لهذا الميقات ، حتى يعلم نبأه المفصل ، كما ورد فى القرآن الكريم . وإن بينه وبين هذا الحادث لقرونا من الناس – أى أجيالا متطاولة (ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر) فتلك دلالة على أن الذى نبأه به هو العليم الخبير ، الذى يوحى إليه بالقرآن الكريم . ولقد تحدث القرآن كذلك بأنباء مدين ، ومقام موسى – عليه السلام – بها وتلاها رسول الله ﷺ وما كان مقيما فى أهل مدين ، يتلقى عنهم أخبار هذه الفترة بمثل ذلك التفصيل الذى جاءت فيه (ولكنا كنا مرسلين) بهذا القرآن وما فيه من أنباء السابقين . كذلك صور القرآن موقف المناداة والمناجاة من جانب الطور بدقة وعمق (وما كنت بجانب الطور إذ ناديناوما سمع رسول الله ﷺ النداء ، وما سجل فى وقتها تفصيلاته . ولكنها رحمة الله بقومه هؤلاء ، أن قص عليه تلك الأنباء الدالة على صدقه ﷺ فيما يدعوهم إليه ، لينذر هؤلاء القوم الذين لم يأتهم نذير من قبله – فقد كانت الرسالات فى بنى إسرائيل من حولهم ، ولم يرسل إليهم رسول منذ أمد طويل ، منذ أبيهم إسماعيل (لعلهم يتذكرون) فهى رحمة الله بالقوم . وهى حجته كذلك عليهم ، كى لا يعتذروا بأنهم أخذوا على غرة , وأنهم لم ينذروا قبل أخذهم بالعذاب – وما هم فيه من جاهلية وشرك ومعصية يستوجب العذاب – فأراد الله أن يقطع حجتهم ، وأن يعذر إليهم ، وأن يقفهم أمام أنفسهم مجردين من كل عائق يعوقهم عن الإيمان (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، فيقولوا:ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا , فنتبع آياتك ، ونكون من المؤمنين !). . كذلك كانوا سيقولون لو لم يأتهم رسول . ولو لم يكن مع هذا الرسول من الآيات ما يلزم الحجة . ولكنهم حين جاءهم الرسول ، ومعه الحق الذى لا مرية فيه لم يتبعوه: فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا:لولا أوتى مثلما أوتى موسى ! أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟ قالوا:سحران تظاهرا ، وقالوا:إن بكل كافرون . . وهكذا لم يذعنوا للحق ، واستمسكوا بالتعلات الباطلة: قالوا:لولا أوتى مثلما أوتى موسى إما من الخوارق المادية ، وإما من الألواح التى نزلت عليه جملة ، وفيها التوراة كاملة . ولكنهم لم يكونوا صادقين فى حجتهم ، ولا مخلصين فى اعتراضهم (أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟) ولقد كان فى الجزيرة يهود ، وكان معهم التوراة ، فلم يؤمن لهم العرب , ولم يصدقوا بما بين أيديهم من

التوراة . ولقد علموا أن صفة محمد [ص] مكتوبة فى التوراة ، واستفتوا بعض أهل الكتاب فيما جاءهم به فأفتوهم بما يفيد أنه الحق , وأنه مطابق لما بين أيديهم من الكتاب ؛ فلم يذعنوا لهذا كله ، وادعوا أن التوراة سحر ، وأن القرآن سحر ، وأنهما من أجل هذا يتطابقان ، ويصدق أحدهما الآخر (قالوا:سحران تظاهرا . وقالوا:إنا بكل كافرون)! فهو المراء إذن واللجاجة ، لا طلب الحق ولا نقصان البراهين ، ولا ضعف الدليل . ومع هذا فهو يسير معهم خطوة أخرى فى الإفحام والإحراج . يقول لهم:إن لم يكن يعجبكم القرآن ، ولم تكن تعجبكم التوراة ؛ فإن كان عندكم من كتب الله ما هو أهدى من التوراة والقرآن فأتوا به أتبعه (قل:فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه . إن كنتم صادقين)! وهذه نهاية الإنصاف ، وغاية المطاولة بالحجة ، فمن لم يجنح إلى الحق بعد هذا فهو ذو الهوى المكابر ، الذى لا يستند إلى دليل (فإن لم يستجيبوا لك ، فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين) إن الحق فى هذا القرآن لبين ؛ وإن حجة هذا الدين لواضحة ، فما يتخلف عنه أحد يعلمه إلا أن يكون الهوى هو الذى يصده . وإنهما لطريقان لا ثالث لهما:إما إخلاص للحق وخلوص من الهوى ، وعندئذ لا بد من الإيمان والتسليم . وإما مماراة فى الحق واتباع للهوى فهو التكذيب والشقاق . ولا حجة من غموض فى العقيدة ، أو ضعف فى الحجة , أو نقص فى الدليل . كما يدعى أصحاب الهوى المغرضون (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) وهكذا جزما وقطعا . كلمة من الله لا راد لها ولا معقب عليها . . إن الذين لا يستجيبون لهذا الدين مغرضون غير معذورين . متجنون لا حجة لهم ولامعذرة ، متبعون للهوى , معرضون عن الحق الواضح (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟) وهم فى هذا ظالمون باغون (إن الله لا يهدى القوم الظالمين) إن هذا النص ليقطع الطريق على المعتذرين بأنهم لم يفهموا عن هذا القرآن ، ولم يحيطوا علما بهذا الدين . فما هو إلا أن يصل إليهم ، ويعرض عليهم ، حتى تقوم الحجة , وينقطع الجدل ، وتسقط المعذرة . فهو بذاته واضح واضح ، لا يحيد عنه إلا ذو هوى يتبع هواه ، ولا يكذب به إلا متجن يظلم نفسه ، ويظلم الحق البين ولا يستحق هدى الله (إن الله لا يهدى القوم الظالمين) ولقد انقطع عذرهم بوصول الحق إليهم ، وعرضه عليهم ، فلم يعد لهم من حجة ولا دليل (ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون) وحين تنتهى هذه الجولة ، فيتبين منها التواؤهم ومراؤهم ، يأخذ معهم فى جولة أخرى تعرض عليهم صورة من استقامة الطبع وخلوص النية . تتجلى هذه الصورة فى فريق من الذين أوتوا الكتاب من قبلهم ، وطريقة استقبالهم للقرآن المصدق لما بين أيديهم (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ؛ وإذا يتلى عليهم قالوا:آمنا به ، إنه الحق من ربنا ، إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، ويدرأون بالحسنة السيئة ، ومما رزقناهم ينفقون ؛ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا:لنا أعمالنا ، ولكم أعمالكم ، سلام عليكم ، لا نبتغى الجاهلين) فالقرآن يرد المشركين إلى حادث وقع , يعلمونه ولا ينكرونه . كى يقفهم وجها لوجه أمام نموذج من النفوس الخالصة كيف تتلقى هذا القرآن ، وتطمئن إليه ، وترى فيه الحق ، وتعلم مطابقته لما بين أيديها من الكتاب . ولا يصدها عنه صاد من هوى ولا من كبرياء ؛ وتحتمل فى سبيل الحق الذى آمنت به ما يصيبها من أذى وتطاول من الجهلاء ، وتصبر على الحق فى وجه الأهواء ووجه الإيذاء (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) وهذه إحدى الآيات على صحته ، فالكتاب كله من عند الله ، فهو متطابق ، ومن أوتى أوله عرف الحق فى آخره ، فاطمأن له ، وآمن به ، وعلم أنه من عند الله الذى نزل الكتاب كله . (وإذا يتلى عليهم قالوا:آمنا به . إنه الحق من ربنا . إنا كنا من قبله مسلمين) فهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى أكثر من تلاوته فيعرف الذين عرفوا الحق من قبل أنه من ذلك المعين ، وأنه صادر من ذلك المصدر الواحد الذى لا يكذب (إنه الحق من ربنا) (إنا كنا من قبله مسلمين) والإسلام لله هو دين المؤمنين بكل دين . هؤلاء الذين أسلموا لله من قبل ، ثم صدقوا بالقرآن بمجرد سماعه (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) الصبر على الإسلام الخالص . إسلام القلب والوجه . ومغالبة الهوى والشهوة . والاستقامة على الدين فى الأولى والآخرة . أولئك يؤتون أجرهم مرتين ، جزاء على ذلك الصبر , وهو عسير على النفوس ، وأعسر الصبر ما كان على الهوى والشهوة والالتواء والانحراف . وهؤلاء صبروا عليها جميعا ، وصبروا على السخرية والإيذاء كما سبقت الرواية , وكما يقع دائما للمستقيمين على دينهم فى المجتمعات المنحرفة الضالة الجاهلة فى كل زمان ومكان (ويدرأون بالحسنة السيئة) وهذا هو الصبر كذلك . وهو أشد مؤنة من مجرد الصبر على الإيذاء والسخرية . إنه الاستعلاء على كبرياء النفس ، ورغبتها فى دفع السخرية ، ورد الأذى ، والشفاء من الغيظ , والبرد بالانتقام ! ثم درجة أخرى بعد ذلك كله . درجة السماحة الراضية . التى ترد القبيح بالجميل وتقابل الجاهل الساخر بالطمأنينة والهدوء وبالرحمة والإحسان ; وهو أفق من العظمة لا يبلغه إلا المؤمنون الذين يعاملون الله فيرضاهم ويرضونه , فيلقون ما يلقون من الناس راضين مطمئنين (ومما رزقناهم ينفقون) وكأنما أراد أن يذكر سماحة نفوسهم بالمال ، عقب ذكره لسماحة نفوسهم بالإحسان . فهما من منبع واحد:منبع الاستعلاء على شهوة النفس ، والاعتزاز بما هو أكبر من قيم الأرض . الأولى فى

النفس ، والثانية في المال . وكثيرا ما يردان متلازمين في القرآن . وصفة أخرى من صفة النفوس المؤمنة الصابرة على الإسلام الخالصة للعقيدة (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا:لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم لانبتغي الجاهلين) واللغو هو فارغ الحديث ، الذى لا طائل تحته ، ولا حاصل وراءه . وهو الهذر الذى يقتل الوقت دون أن يضيف إلى القلب أو العقل زادا جديدا ، ولا معرفة مفيدة . وهو البذيء من القول الذى يفسد الحس واللسان ، سواء:أوجه إلى مخاطب أم حكى عن غائب . والقلوب المؤمنة لا تلغو ذلك اللغو ، ولا تستمع إلى ذاك الهذر ، ولا تعنى بهذا البذاء . فهى مشغولة بتكاليف الإيمان ، مرتفعة بأشواقه ، متطهرة بنوره (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) ولكنهم لا يهتاجون ولا يغتاظون ولا يجارون أهل اللغو فيردون عليهم بمثله ، ولا يدخلون معهم فى جدل حوله ، لأن الجدل مع أهل اللغو لغو ؛ إنما يتركونهم في موادعة وسلام (وقالوا:لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم) هكذا فى أدب ، وفى دعاء بالخير ، وفى رغبة فى الهداية . . مع عدم الرغبة فى المشاركة (لا نبتغى الجاهلين) ولا نريد أن ننفق معهم وقتنا الثمين ، ولا أن نجاريهم فى لغوهم أو نسمع إليه صامتين . ! إنها صورة وضيئة للنفس المؤمنة المطمئنة إلى إيمانها . تفيض بالترفع عن اللغو . كما تفيض بالسماحة والود . وترسم لمن يريد أن يتأدب بأدب الله طريقه واضحا لا لبس فيه . فلا مشاركة للجهال ، ولا مخاصمة لهم ، ولا موجدة عليهم ، ولا ضيق بهم . إنما هو الترفع والسماحة وحب الخير حتى للجارم المسيء . هؤلاء الذين آمنوا من أهل الكتاب لم يزد الرسول ﷺ في جهاده معهم للإيمان على أن يتلو عليهم القرآن . ووراءه من قومه من جهد جهده ليؤمن ؛ ومن أحب بكل نفسه أن يهديه للإسلام . فلم يقدر الله له ذلك لأمر يعلمه من نفسه . وما كان النبى ﷺ ليهدى من يحب . إنما يهدي الله من يعلم من نفسه ما يستحق به الهدى ومن هو مستعد للإيمان (إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء . وهو أعلم بالمهتدين)

وروى عن ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبى وقتادة أنها نزلت في أبى طالب . وكان آخر ما قاله:هو على ملة عبد المطلب . وإن الإنسان ليقف أمام هذا الخبر مأخوذا بصرامة هذا الدين واستقامته . فهذا عم رسول الله ﷺ وكافله وحاميه والذائد عنه ، لا يكتب الله له الإيمان ، على شدة حبه لرسول الله ﷺ وشدة حب رسول الله له أن يؤمن . ذلك أنه إنما قصد إلى عصبية القرابة وحب الأبوة ، ولم يقصد إلى العقيدة . وقد علم الله هذا منه ، فلم يقدر له ما كان يحبه له رسول الله ﷺ ويرجوه . فأخرج هذا الأمر – أمر الهداية – من حصة رسول الله ﷺ وجعله خاصا بإرادته سبحانه وتقديره . وما على الرسول إلا البلاغ . وما على الداعين بعده إلا النصيحة . والقلوب بعد ذلك بين أصابع الرحمن ، والهدى والضلال وفق ما يعلمه من قلوب العباد واستعدادهم للهدى أو للضلال . والآن يجيء السياق إلى قولتهم التي قالوها للرسول ﷺ معتذرين عن اتباعه مخافة أن يفقدوا سلطانهم على قبائل العرب المجاورة ، التى تعظم الكعبة ، وتدين لسدنتها ، وتعظم أصنامها ، فتتخطفهم تلك القبائل ، أو يتخطفهم أعداؤهم من وراء شبه الجزيرة دون أن تساندهم هذه القبائل . فيبين لهم أين يكون الأمن وأين يكون الخوف من واقعهم التاريخى ، ومن حاضرهم الذى يشهدونه ، بعدما أبان لهم في هذه السورة عن ذلك في قصة موسى وفرعون . ويجول معهم جولة فى مصارع الغابرين تكشف لهم كذلك عن أسباب الهلاك الحقيقية ممثلة فى البطر وقلة الشكر والتكذيب بالرسل والإعراض عن الآيات . ثم جولة أخرى أبعد تكشف عن حقيقة القيم وتبدو فيها ضآلة الحياة الدنيا كلها ومتاعها إلى جوار ما عند الله ...إنها النظرة السطحية القريبة ، والتصور الأرضى المحدود ، هو الذى أوحى لقريش وهو الذى يوحى للناس أن اتباع هدى الله يعرضهم للمخافة ، ويغرى بهم الأعداء ، ويفقدهم العون والنصير ، ويعود عليهم بالفقر والبوار (وقالوا:إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) فهم لا ينكرون أنه الهدى ، ولكنهم يخافون أن يتخطفهم الناس . وهم ينسون الله ، وينسون أنه وحده الحافظ ، وأنه وحده الحامى ؛ وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تتخطفهم وهم فى حمى الله ؛ وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تنصرهم إذا خذلهم الله . ذلك أن الإيمان لم يخالط قلوبهم ، ولو خالطها لتبدلت نظرتهم للقوى ، ولاختلف تقديرهم للأمور ، ولعلموا أن الأمن لا يكون إلا فى جوار الله ، وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن هداه . وأن هذا الهدى موصول بالقوة موصول بالعزة ؛ وإن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه . يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم ، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم ، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الإقتصادية ! وإن هى إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله ﷺ إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا . فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقل من الزمان . وقد رد الله عليهم في وقتها بما يكذب هذا العذر الموهوم . فمن الذى وهبهم الأمن ؟ ومن الذى جعل لهم البيت الحرام ؟ ومن الذى جعل القلوب تهوى إليهم تحمل من ثمرات الأرض جميعا ؟ تتجمع فى الحرم من كل أرض ، وقد تفرقت فى مواطنها ومواسمها الكثيرة (أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ؟) فما بالهم يخافون أن يتخطفهم الناس لو اتبعوا هدى الله ، والله هو الذى

مكن لهم هذا الحرم الآمن منذ أيام أبيهم إبراهيم ؟ أفمن أمنهم وهم عصاة ، يدع الناس يتخطفونهم وهم تقاة ؟! (ولكن أكثرهم لا يعلمون) لا يعلمون أين يكون الأمن وأين تكون المخافة . ولا يعلمون أن مرد الأمر كله لله . فأما إن أرادوا أن يتقوا المهالك حقا ، وأن يأمنوا التخطف حقا ، فها هي ذي علة الهلاك فليتقوها (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين) إن بطر النعمة ، وعدم الشكر عليها ، هو سبب هلاك القرى . وقد أوتوا من نعمة الله ذلك الحرم الآمن ؛ فليحذروا إذن أن يبطروا ، وألا يشكروا ، فيحل بهم الهلاك كما حل بالقرى التي يرونها ويعرفونها ، ويرون مساكن أهلها الداثرين خاوية خالية (لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) وبقيت شاخصة تحدث عن مصارع أهلها ، وتروى قصة البطر بالنعمة ; وقد فنى أهلها فلم يعقبوا أحدا ، ولم يرثها بعدهم أحد (وكنا نحن الوارثين)على أن الله لم يهلك تلك القرى المتبطرة إلا وقد أرسل في أمها رسولا . فتلك هي سنته التي كتبها على نفسه رحمة بعباده (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) وحكمة إرسال الرسول في أم القرى – أي كبراها أو عاصمتها – أن تكون مركزا تبلغ منه الرسالة إلى الأطراف فلا تبقى حجة ولا عذر فيها لأحد . وقد أرسل النبي ﷺ في مكة أم القرى العربية . فهو ينذرهم عاقبة المكذبين قبلهم بعد ما جاءهم النذير (وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) يكذبون بالآيات عن معرفة وعن يقين ! على أن متاع الحياة الدنيا بكامله ، وعرض الحياة الدنيا جميعه ، وما مكنهم الله فيه من الأرض ، وما وهبهم إياه من الثمرات ، وما يتسنى للبشر كلهم طوال هذه الحياة , إن هو إلا شيء ضئيل زهيد ، إذا قيس بما عند الله (وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها . وما عند الله خير وأبقى . أفلا تعقلون ؟) وهذا هو التقويم الأخير لا لما يخشون فوته من الأمن والأرض والمتاع وحده ؛ ولا لما يمن به الله عليهم من التمكين والثمار والأمان وحده ؛ ولا لما وهبه الله للقرى ثم أهلكها بالتبطر فيه وحده . إنما هو التقويم الأخير لكل ما في هذه الحياة الدنيا حتى لو ساغ وحتى لو كمل ، وحتى لو دام ، فلم يعقبه الهلاك والدمار . إنه كله (متاع الحياة الدنيا وزينتها) (وما عند الله خير وأبقى) خير في طبيعته وأبقى في مدته (أفلا تعقلون ؟) والمفاضلة بين هذا وذاك تحتاج إلى عقل يدرك طبيعة هذا وذاك . ومن ثم يجيء التعقيب في هذه الصيغة للتنبيه لإعمال العقل في الاختيار ! وفي نهاية هذه الجولة يعرض عليهم صفحتي الدنيا والآخرة ، ولمن شاء أن يختار (أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ؟)

فهذه صفحة من وعده الله وعدا حسنا فوجده في الآخرة حقا وهو لا بد لاقيه . وهذه صفحة من نال متاع الحياة الدنيا القصير الزهيد ، ثم ها هو ذا في الآخرة محضر إحضارا للحساب . والتعبير يوحي بالإكراه (من المحضرين) الذين يجاء بهم مكرهين خائفين يودون أن لم يكونوا محضرين ، لما ينتظرهم من وراء الحساب على ذلك المتاع القصير الزهيد ! وتلك نهاية المطاف في الرد على مقالتهم: (إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا)فحتى لو كان ذلك كذلك فهو خير من أن يكونوا في الآخرة من المحضرين ! فكيف واتباع هدى الله معه الأمن في الدنيا والتمكين ، ومعه العطاء في الآخرة والأمان ؟ ألا إنه لا يترك هدى الله إذن إلا الغافلون الذين لا يدركون حقيقة القوى في هذا الكون . ولا يعرفون أين تكون المخافة وأين يكون الأمن . وإلا الخاسرون الذين لا يحسنون الاختيار لأنفسهم ولا يتقون البوار . وعندما يصل بهم إلى الشاطيء الآخر يجول بهم جولة أخرى في مشهد من مشاهد القيامة , يصور مغبة ما هم فيه من الشرك والغواية (ويوم يناديهم فيقول:أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟ قال الذين حق عليهم القول:ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا ، تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون . وقيل:ادعوا شركاءكم . فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ، ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) ويوم يناديهم فيقول:ماذا أجبتم المرسلين ؟ فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون . فأما من تاب وآمن وعمل صالحا ، فعسى أن يكون من المفلحين . .والسؤال الأول للتوبيخ والتأنيب (أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟). . والله يعلم أن لا وجود اليوم لهؤلاء الشركاء ، وأن أتباعهم لا يعلمون عنهم شيئا , ولا يستطيعون إليهم سبيلا . ولكنه الخزي والفضيحة على رؤوس الأشهاد . ومن ثم لا يجيب المسؤولون عن السؤال ، فليس المقصود به هو الجواب ! إنما يحاولون أن يتبرأوا من جريرة إغوائهم لمن وراءهم , وصدهم عن هدى الله ، كما كان يفعل كبراء قريش مع الناس خلفهم ، فيقولون: (ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا ؛ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون) !ربنا إننا لم نغوهم قسرا ، فما كان لنا من سلطان على قلوبهم ؛ إنما هم وقعوا في الغواية عن رضى منهم واختيار ، كما وقعنا نحن في الغواية دون إجبار (تبرأنا إليك) من جريمة إغوائهم (ما كانوا إيانا يعبدون) إنما كانوا يعبدون أصناما وأوثانا وخلقا من خلقك ، ولم نجعل أنفسنا لهم آلهة ، ولم يتوجهوا إلينا نحن بالعبادة ! عندئذ يعود بهم إلى المخزاة التي حولوا الحديث عنها . مخزاة الشركاء الذين اتخذوهم من دون الله (وقيل:ادعوا شركاءكم) ادعوهم ولا تهربوا من سيرتهم ! ادعوهم ليلبوكم وينقذوكم ! ادعوهم فهذا يومهم

وهذه فائدتهم ! والبائسون يعرفون أن لا جدوى من دعائهم ، ولكنهم يطيعون الأمر مقهورين (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) ولم يكن منتظرا غير ذاك ، ولكنه الإذلال والإعنات ! (ورأوا العذاب) رأوه فى هذا الحوار . ورأوه ماثلا وراءه . فليس وراء هذا الموقف إلا العذاب . وهنا فى اللحظة التى يصل فيها المشهد إلى ذروته يعرض عليهم الهدى الذى يرفضونه ، وهو أمنية المتمنى فى ذلك الموقف المكروب:وهو بين أيديهم فى الدنيا لو أنهم إليه يسارعون (لو أنهم كانوا يهتدون) ثم يعود بهم إلى ذلك المشهد المكروب (ويوم يناديهم فيقول ، ماذا أجبتم المرسلين ؟) وإن الله ليعلم ماذا أجابوا المرسلين . ولكنه كذلك سؤال التأنيب والترذيل . وإنهم ليواجهون السؤال بالذهول والصمت ذهول المكروب وصمت الذى لا يجد ما يقول (فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون) والتعبير يلقى ظل العمى على المشهد والحركة . وكأنما الأنباء عمياء لا تصل إليهم , وهم لا يعلمون شيئا عن أى شىء ! ولا يملكون سؤالا ولا جوابا . وهم فى ذهولهم صامتون ساكتون ! (فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين) وهذه هى الصفحة المقابلة . ففى الوقت الذى يبلغ الكرب ذروته بالمشركين ، يتحدث عمن تاب وآمن وعمل صالحا ، وما ينتظره من الرجاء فى الفلاح . ولمن شاء أن يختار . وفى الوقت فسحة للاختيار ! ثم يرد أمرهم وأمر كل شىء إلى إرادة الله واختياره ، فهو الذى يخلق كل شىء ، ويعلم كل شىء ، وإليه مرد الأمر كله فى الأولى والآخرة ، وله الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم فى الدنيا وله الرجعة والمآب . وما يملكون أن يختاروا لأنفسهم ولا لغيرهم ، فالله يخلق ما يشاء ويختار (وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون . وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة , وله الحكم وإليه ترجعون) وهذا التعقيب يجىء بعد حكاية قولهم (إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) وبعد استعراض موقفهم يوم الحساب على الشرك والغواية . . يجىء لتقرير أنهم لا يملكون الاختيار لأنفسهم فيختاروا الأمن أو المخافة ! ولتقرير وحدانية الله ورد الأمر كله إليه فى النهاية (وربك يخلق ما يشاء ويختار . ما كان لهم الخيرة) إنها الحقيقة التى كثيرا ما ينساها الناس ، أو ينسون بعض جوانبها . إن الله يخلق ما يشاء ؛ لا يملك أحد أن يقترح عليه شيئا ولا أن يزيد أو ينقص فى خلقه شيئا ، ولا أن يعدل أو يبدل فى خلقه شيئا . وإنه هو الذى يختار من خلقه ما يشاء ومن يشاء لما يريد من الوظائف والأعمال والتكاليف والمقامات ؛ ولا يملك أحد أن يقترح عليه شخصا ولا حادثا ولا حركة ولا قولا ولا فعلا (ما كان لهم الخيرة) لا فى شأن أنفسهم ولا فى شأن غيرهم ، ومرد الأمر كله إلى الله فى الصغير والكبير . . هذه الحقيقة لو استقرت فى الأخلاد والضمائر لما سخط الناس شيئا يحل بهم ، ولا استخفهم شىء ينالونه بأيديهم ، ولا أحزنهم شىء يفوتهم أو يفلت منهم . فليسوا هم الذين يختارون ، إنما الله هو الذى يختار . وليس معنى هذا أن يلغوا عقولهم وإرادتهم ونشاطهم . ولكن معناه أن يتقبلوا ما يقع - بعد أن يبذلوا ما فى وسعهم من التفكير والتدبير والاختيار - بالرضى والتسليم والقبول . فإن عليهم ما فى وسعهم والأمر بعد ذلك لله . ولقد كان المشركون يشركون مع الله آلهة مدعاة ؛ والله وحده هو الخالق المختار لا شريك له فى خلقه ولا فى اختياره (سبحان الله وتعالى عما يشركون) (وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) فهو مجازيهم بما يعلم من أمرهم ، مختار لهم ما هم له أهل ، من هدى أو ضلال (وهو الله لا إله إلا هو) فلا شريك له فى خلق ولا اختيار (له الحمد فى الأولى والآخرة) على اختياره ، وعلى نعمائه ، وعلى حكمته وتدبيره , وعلى عدله ورحمته ، وهو وحده المختص بالحمد والثناء (وله الحكم) يقضى فى عباده بقضائه ، لا راد له ولا مبدل لحكمه (وإليه ترجعون) فيقضى بينكم قضاءه الأخير . وهكذا يطوقهم بالشعور بقدرة الله وتفرد إرادته فى هذا الوجود واطلاعه على سرهم وعلانيتهم فلا تخفى عليه منهم خافية ؛ وإليه مرجعهم فلا تشرد منهم شاردة . فكيف يشركون بالله بعد هذا وهم فى قبضته لا يفلتون ؟ ثم يجول بهم جولة فى مشاهد الكون الذى يعيشون فيه غافلين عن تدبير الله لهم ، واختياره لحياتهم ومعاشهم ؛ فيوقظ مشاعرهم لظاهرتين كونيتين عظيمتين . ظاهرتى الليل والنهار ، وما وراءهما من أسرار الاختيار والشهادة بوحدانية الخالق المختار والناس لطول ما اعتادوا من كر الجديدين ينسون جدتهما المتكررة التى لا تبلى . ولا يروعهم مطلع الشمس ولا مغيبها إلا قليلا . ولا يهزهم طلوع النهار وإقبال الليل إلا نادرا . ولا يتدبرون ما فى تواليهما من رحمة بهم وإنقاذ من البلى والدمار ، أو التعطل والبوار ، أو الملل والهمود . والقرآن الكريم يوقظهم من همود الإلف والعادة ، ويلفتهم إلى تملى الكون من حولهم ومشاهده العظيمة ؛ وذلك حين يخيل إليهم استمرار الليل أبدا أو النهار أبدا ، وحين يخيفهم من عواقب هذا وذاك . وما يشعر الإنسان بقيمة الشىء إلا حين يفقده أو يخاف عليه الفقدان (قل:أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة . ومن إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون) والناس يشتاقون إلى الصبح حين يطول بهم الليل قليلا فى أيام الشتاء ، ويحنون إلى ضياء الشمس حين تتوارى عنهم فترة وراء السحاب ! فكيف بهم لو فقدوا الضياء . ولو دام عليهم الليل سرمدا إلى يوم القيامة ؟ ذلك على فرض أنهم ظلوا أحياء . وإن الحياة كلها لمعرضة للتلف والبوار ، لو لم يطلع عليها النهار ! (

قل:أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة . من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟) والناس يستروحون الظلال حين يطول عليهم الهجير ساعات من النهار . ويحنون إلى الليل حين يطول النهار بعض ساعات فى الصيف . ويجدون فى ظلام الليل وسكونه الملجأ والقرار . والحياة كلها تحتاج إلى فترة الليل لتجدد ما تنفقه من الطاقة فى نشاط النهار . فكيف بالناس لو ظل النهار سرمدا إلى يوم القيامة على فرض أنهم ظلوا أحياء . وإن الحياة كلها لمعرضة للتلف والبوار إن دام عليها النهار ! ألا إن كل شيء بقدر . وكل صغيرة وكبيرة فى هذا الكون بتدبير . وكل شيء عنده بمقدار(ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) فالليل سكينة وقرار ، والنهار نشاط وعمل ، والمتجه فيه إلى فضل الله . فما يعطى الناس شيئا إلا من فضله (ولعلكم تشكرون)ما يسره الله لكم من نعمة ومن رحمة ، وما دبره لكم واختاره من توالى الليل والنهار ، ومن كل سنن الحياة التى لم تختاروها ، ولكن اختارها الله عن رحمة وعن علم وعن حكمة تغفلون عنها لطول الإلف والتكرار . ويختم هذه الجولات بمشهد سريع من مشاهد القيامة يسألهم فيه سؤال استنكار عما زعموا من شركاء . ويقفهم وجها لوجه أمام أباطيلهم المدعاة ، حيث تتذاوب وتتهاوى فى موقف السؤال والحساب :(ويوم يناديهم فيقول:أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟ ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا:هاتوا برهانكم . فعلموا أن الحق لله ، وضل عنهم ما كانوا يفترون) وتصوير يوم النداء ، وما فيه من سؤال عن الشركاء ، قد سبق فى جولة ماضية . فهو يعاد هنا لتوكيده وتثبيته بمناسبة المشهد الجديد الذى يعرض هنا . مشهد نزع شهيد من كل أمة . وهو نبيها الذى يشهد بما أجابته وما استقبلت به رسالته . والنزع حركة شديدة ,والمقصود إقامته وإبرازه وإفراده من بينهم ليشهده قومه جميعا وليشهد قومه جميعا . وفى مواجهة هذا الشاهد يطلب منهم برهانهم على ما اعتقدوا وما فعلوا . وليس لديهم برهان ؛ ولا سبيل لهم يومئذ إلى المكابرة (فعلموا أن الحق لله) الحق كله خالصا لا شبهة فيه ولا ريبة (وضل عنهم ما كانوا يفترون) من شرك ومن شركاء ، فما هو بواجدهم وما هم بواجديه ! فى وقت حاجتهم إليه فى موقف الجدل والبرهان ! بهذا تنتهى التعقيبات على قصة موسى وفرعون . وقد طوفت بالنفوس والقلوب فى تلك الآفاق والعوالم والأحداث والمشاهد وردتها من الدنيا إلى الآخرة ، ومن الآخرة إلى الدنيا . وطوقت بها فى جنبات الكون وفى أغوار النفس ، وفى مصارع الغابرين ، وفى سنن الكون والحياة . متناسقة كلها مع محور السورة الأصيل . ومع القصتين الرئيسيتين فى السورة:قصة موسى وفرعون . وقصة قارون . وقد مضت الأولى . فلنستعرض الثانية بعد تلك التعقيبات وهذه الجولات .

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ{٧٦} وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ{٧٧} قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ{٧٨} فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ{٧٩} وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ{٨٠} فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ{٨١} وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ{٨٢} تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ{٨٣} مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ){٨٤}

والآن تجيء قصة قارون لتعرض سلطان المال والعلم ، وكيف ينتهى بالبوار مع البغى والبطر ، والاستكبار على الخلق وجحود نعمة الخالق . وتقرر حقيقة القيم ، فترخص من قيمة المال والزينة إلى جانب قيمة الإيمان والصلاح ؛ مع الاعتدال والتوازن فى الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو فى الأرض ولا فساد . ولا يحدد القرآن زمان القصة ولا مكانها ؛ إنما يكتفى بأن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم . فهل وقعت هذه القصة وبنو إسرائيل وموسى فى مصر قبل الخروج ؟ أم وقعت بعد الخروج فى حياة موسى ؟ أم وقعت فى بنى إسرائيل من بعد موسى ؟ هناك روايات تقول:إنه كان ابن عم لموسى – عليه السلام – وأن الحادث وقع فى زمان موسى . ويزيد بعضها فيذكر أن قارون آذى موسى ، ودبر له مكيدة ليلصق به تهمة الفاحشة بامرأة معينة فى مقابل رشوة من المال ، فبرأ الله موسى وأذن له فى قارون ، فخسفت به الأرض . ولسنا فى حاجة إلى كل هذه الروايات ، ولا إلى تحديد الزمان والمكان . فالقصة كما وردت فى القرآن كافية لأداء الغرض منها فى سياق السورة ، ولتقرير القيم والقواعد التى جاءت لتقريرها . ولو كان تحديد زمانها

ومكانها وملابساتها يزيد في دلالتها شيئا ما ترك تحديدها . فلنستعرضها إذن فى صورتها القرآنية ، بعيدة عن تلك الروايات التى لا طائل وراءها (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ؛ وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . إذ قال له قومه:لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين . قال:إنما أوتيته على علم عندى) هكذا تبدأ القصة فتعين اسم بطلها "قارون" وتحدد قومه "قوم موسى" وتقرر مسلكه مع قومه , وهو مسلك البغى (فبغى عليهم) وتشير إلى سبب هذا البغى وهو الثراء (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) ثم تمضى بعد ذلك فى استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التى صاحبتها فى النفوس . لقد كان قارون من قوم موسى ، فآتاه الله مالا كثيرا ، يصور كثرته بأنه كنوز - والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول - وبأن مفاتح هذه الكنوز تعيى المجموعة من أقوياء الرجال . . من أجل هذا بغى قارون على قومه . ولا يذكر فيم كان البغى ، ليدعه مجهلا يشمل شتى الصور . فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم - كما يصنع طغاة المال فى كثير من الأحيان - وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم فى ذلك المال . حق الفقراء فى أموال الأغنياء ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء وحدهم ومن حولهم محاويج إلى شىء منه ، فتفسد القلوب ، وتفسد الحياة . وربما بغى عليهم بهذه وبغيرها من الأسباب . وعلى أية حال فقد وجد من قومه من يحاول رده عن هذا البغى ، ورجعه إلى النهج القويم , الذى يرضاه الله فى التصرف بهذا الثراء ؛ وهو نهج لا يحرم الأثرياء ثراءهم ; ولا يحرمهم المتاع المعتدل بما وهبهم الله من مال ؛ ولكنه يفرض عليهم القصد والاعتدال ; وقبل ذلك يفرض عليهم مراقبة الله الذى أنعم عليهم ، ومراعاة الآخرة وما فيها من حساب (إذ قال له قومه:لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة , ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض . إن الله لايحب المفسدين) وفى هذا القول جماع ما فى المنهج الإلهى القويم من قيم وخصائص تفرده بين سائر مناهج الحياة (لا تفرح) فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال ، والاحتفال بالثراء ، والتعلق بالكنوز ، والابتهاج بالملك والاستحواذ . لا تفرح فرح البطر الذى ينسى المنعم بالمال ؛ وينسى نعمته ، وما يجب لها من الحمد والشكران . لا تفرح فرح الذى يستخفه المال ، فيشغل به قلبه ، ويطير له لبه ، ويتطاول به على العباد (إن الله لا يحب الفرحين) فهم يردونه بذلك إلى الله ، الذى لا يحب الفرحين المأخوذين بالمال ، المتباهين ، المتطاولين بسلطانه على الناس (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا) وفى هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهى القويم . المنهج الذى يعلق قلب واجد المال بالآخرة . ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع فى هذه الحياة . بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفا , كى لا يتزهد الزهد الذى يهمل الحياة ويضعفها . لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس ؛ وليعملوا فى الأرض لتوفيرها وتحصيلها , فتنمو الحياة وتتجدد ، وتتحقق خلافة الإنسان فى هذه الأرض . ذلك على أن تكون وجهتهم فى هذا المتاع هى الآخرة ، فلا ينحرفون عن طريقها ، ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها . والمتاع فى هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم ، وتقبل لعطاياه ، وانتفاع بها . فهو طاعة من الطاعات يجزى عليها الله بالحسنى . وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق فى حياة الإنسان ، ويمكنه من الارتقاء الروحى الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة ، التى لا حرمان فيها ، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة (وأحسن كما أحسن الله إليك) فهذا المال هبة من الله وإحسان . فليقابل بالإحسان فيه . إحسان التقبل وإحسان التصرف ، والإحسان به إلى الخلق ، وإحسان الشعور بالنعمة ، وإحسان الشكران (ولا تبغ الفساد فى الأرض) الفساد بالبغى والظلم . والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة . والفساد بملء صدور الناس بالحرج والحسد والبغضاء والفساد بإنفاق المال فى غير وجه أو إمساكه عن وجهه على كل حال (إن الله لا يحب المفسدين) كما أنه لا يحب الفرحين . كذلك قال له قومه:فكان رده جملة واحدة ، تحمل شتى معانى الفساد والإفساد (قال:إنما أوتيته على علم عندى)! إنما أوتيت هذا المال استحقاقا على علمى الذى طوع لى جمعه وتحصيله . فما لكم تملون على طريقة خاصة فى التصرف فيه ، وتتحكمون فى ملكيتى الخاصة ، وأنا إنما حصلت هذا المال بجهدى الخاص ، واستحققته بعلمى الخاص ؟ إنها قولة المغرور المطموس الذى ينسى مصدر النعمة وحكمتها ، ويفتنه المال ويعميه الثراء .

وهو نموذج مكرر فى البشرية . فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه . ومن ثم فهو غير مسؤول عما ينفق وما يمسك ، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح , غير حاسب لله حسابا ، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه ! والإسلام يعترف بالملكية الفردية ، ويقدر الجهد الفردى الذى بذل فى تحصيلها من وجوه الحلال التى يشرعها ؛ ولا يهون من شأن الجهد الفردى أو يلغيه . ولكنه فى الوقت ذاته يفرض منهجا معينا للتصرف فى الملكية الفردية ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه ، ولم يشعر بنعمة ربه ،

ولم يخضع لمنهجه القويم . وأعرض عن هذا كله فى استكبار لئيم وفى بطر ذميم .ومن ثم جاءه التهديد قبل تمام الآية ، ردا على قولته الفاجرة المغرورة (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ؟ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) فإن كان ذا قوة وذا مال ، فقد أهلك الله من قبله أجيالا كانت أشد منه قوة وأكثر مالا . وكان عليه أن يعلم هذا . فهذا هو العلم المنجى . فليعلم . وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم . فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد ! (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون)! ذلك كان المشهد الأول من مشاهد القصة ، يتجلى فيه البغى والتطاول ، والإعراض عن النصح , والتعالى على العظة ، والإصرار على الفساد ، والاغترار بالمال ، والبطر الذى يقعد بالنفس عن الشكران . ثم يجىء المشهد الثانى حين يخرج قارون بزينته على قومه ، فتطير لها قلوب فريق منهم , وتتهاوى لها نفوسهم ، ويتمنون لأنفسهم مثل ما أوتى قارون ، ويحسون أنه أوتى حظا عظيما يتشهاه المحرومون . ذلك على حين يستيقظ الإيمان فى قلوب فريق منهم فيعتزون به على فتنة المال وزينة قارون ، ويذكرون إخوانهم المبهورين المأخوذين ، فى ثقة وفى يقين (فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا:يا ليت لنا مثلما أوتى قارون . إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم:ويلكم ! ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها إلا الصابرون) وهكذا وقفت طائفة منهم أمام فتنة الحياة الدنيا وقفة المأخوذ المبهور المتهاوى المتهافت , ووقفت طائفة أخرى تستعلى على هذا كله بقيمة الإيمان ، والرجاء فيما عند الله , والاعتزاز بثواب الله . والتقت قيمة المال وقيمة الإيمان فى الميزان (قال الذين يريدون الحياة الدنيا:ياليت لنا مثل ما أوتى قارون . إنه لذو حظ عظيم) وفى كل زمان ومكان تستهوى زينة الأرض بعض القلوب ، وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا , ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم مها ؛ فلا يسألون بأى ثمن اشترى صاحب الزينة زينته ؟ ولا بأى الوسائل نال ما نال من عرض الحياة ؟ من مال أو منصب أو جاه . ومن ثم تتهافت نفوسهم وتتهاوى ، كما يتهافت الذباب على الحلوى ويتهاوى ! ويسيل لعابهم على ما فى أيدى المحظوظين من متاع ، غير ناظرين إلى الثمن الباهظ الذى أدوه , ولا إلى الطريق الدنس الذى خاضوه ، ولا إلى الوسيلة الخسيسة التى اتخذوها . فأما المتصلون بالله فلهم ميزان اخر يقيم الحياة ، وفى نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع . وهم أعلى نفسا , وأكبر قلبا من أن يتهاووا ويتصاغروا أمام قيم الأرض جميعا . ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد . وهؤلاء هم (الذين أوتوا العلم) العلم الصحيح الذى يقومون به الحياة حق التقويم (وقال الذين أوتوا العلم:ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها إلا الصابرون) ثواب الله خير من هذه الزينة ، وما عند الله خير مما عند قارون . والشعور على هذا النحو درجة رفيعة لا يلقاها إلى الصابرون . . الصابرون على معايير الناس ومقاييسهم . الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها . الصابرون على الحرمان مما يتشهاه الكثيرون . وعندما يعلم الله منهم الصبر كذلك يرفعهم إلى تلك الدرجة . درجة الاستعلاء على كل ما فى الأرض ، والتطلع إلى ثواب الله فى رضى وثقة واطمئنان . وعندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها ، وتتهافت أمامها النفوس وتتهاوى ، تتدخل يد القدرة لتضع حدا للفتنة ، وترحم الناس الضعاف من إغرائها ، وتحطم الغرور والكبرياء تحطما . ويجىء المشهد الثالث حاسما فاصلا (فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين) هكذا فى جملة قصيرة ، وفى لمحة خاطفة (فخسفنا به وبداره الأرض) فابتلعته وابتعلت داره , وهوى فى بطن الأرض التى علا فيها واستطال فوقها جزاء وفاقا . وذهب ضعيفا عاجزا , لا ينصره أحد ، ولا ينتصر بجاه أو مال . وهوت معه الفتنة الطاغية التى جرفت بعض الناس ؛ وردتهم الضربة القاضية إلى الله ; وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال . وكان هذا المشهد الأخير (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون:وى ! كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر . لولا أن من الله علينا لخسف بنا . وى ! كأنه لا يفلح الكافرون) وقفوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس ، ولم يؤتهم ما آتى قارون . وهم يرون المصير البائس الذى انتهى إليه بين يوم وليلة . وصحوا إلى أن الثراء ليس آية على رضى الله . فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضى والغضب . ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف . إنما هو الابتلاء الذى قد يعقبه البلاء . وعلموا أن الكافرين لا يفلحون . وقارون لم يجهر بكلمة الكفر ولكن اغتراره بالمال ، ونسبته إلى ما عنده من العلم جعلهم يسلكونه فى عداد الكافرين ، ويرون فى نوع هلاكه أنه هلاك للكافرين . ويسدل الستار على هذا المشهد . وقد انتصرت القلوب المؤمنة بتدخل القدرة السافرة , وقد رجحت قيمة الإيمان فى كفة الميزان . . ثم يأخذ فى التعقيب فى أنسب أوان (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا . والعاقبة للمتقين) تلك الآخرة التى تحدث عنها الذين أوتوا العلم . العلم الحق الذى يقوم الأشياء قيمتها الحقيقية . تلك الدار الآخرة العالية الرتبة البعيدة الآفاق . تلك الدار الآخرة (نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا) فلا يقوم فى نفوسهم خاطر الاستعلاء بأنفسهم لأنفسهم ؛ ولا يهجس فى قلوبهم الاعتزاز بذواتهم والاعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها . إنما

يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور بالله ، ومنهجه فى الحياة . أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشيائها وأعراضها وقيمها وموازينها حسابا . ولا يبغون فيها كذلك فسادا . أولئك هم الذين جعل الله لهم الدار الآخرة . تلك الدار العالية السامية (والعاقبة للمتقين) الذين يخشون الله ويراقبونه ويتحرجون من غضبه ويبتغون رضاه . وفى تلك الدار الآخرة يقع الجزاء كما كتب الله على نفسه . الحسنة بأضعافها وبما هو خير منها . والسيئة بمثلها رحمة بضعف الخلق وتيسيرا (من جاء بالحسنة فله خير منها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون).

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٨٥} وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ{٨٦} وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{٨٧} وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ){٨٨}

والآن وقد انتهى القصص ، وانتهت التعقيبات المباشرة على ذلك القصص . الآن يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ ومن خلفه القلة المسلمة التى كانت يومها بمكة . يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ وهو مخرج من بلده ، مطارد من قومه ، وهو فى طريقه إلى المدينة لم يبلغها بعد ، فقد كان بالجحفة قريبا من مكة ، قريبا من الخطر ، يتعلق قلبه وبصره ببلده الذى يحبه ، والذى يعز عليه فراقه ، لولا أن دعوته أعز عليه من بلده وموطن صباه ، ومهد ذكرياته ، ومقر أهله . يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) فما هو بتاركك للمشركين ، وقد فرض عليك القرآن وكلفك الدعوة . ما هو بتاركك للمشركين يخرجونك من بلدك الحبيب إليك ، ويستبدون بك وبدعوتك ، ويفتنون المؤمنين من حولك . إنا فرض عليك القرآن لينصرك به فى الموعد الذى قدره ، وفى الوقت الذى فرضه ؛ وإنك اليوم لمخرج منه مطارد ، ولكنك غدا منصور إليه عائد . وهكذا شاءت حكمة الله أن ينزل على عبده هذا الوعد الأكيد فى ذلك الظرف المكروب ، ليمضى ﷺ فى طريقه آمنا واثقا ، مطمئنا إلى وعد الله الذى يعلم صدقه ، ولا يستريب لحظة فيه . وإن وعد الله لقائم لكل السالكين فى الطريق ؛ وإنه ما من أحد يؤذى فى سبيل الله ، فيصبر ويستيقن إلا نصره الله فى وجه الطغيان فى النهاية ، وتولى عنه المعركة حين يبذل ما فى وسعه ، ويخلى عاتقه ، ويؤدى واجبه (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) ولقد رد موسى من قبل إلى الأرض التى خرج منها هاربا مطاردا . رده فأنقذ به المستضعفين من قومه ، ودمر به فرعون وملأه ، وكانت العاقبة للمهتدين . فامض إذن فى طريقك ، ودع أمر الحكم فيما بينك وبين قومك لله الذى فرض عليك القرآن (قل:ربى أعلم من جاء بالهدى ، ومن هو فى ضلال مبين) ودع الأمر لله يجازى المهتدين والضالين . وما كان فرض القرآن عليك إلا نعمة ورحمة ؛ وما كان يجول فى خاطرك أن تكون أنت المختار لتلقى هذه الأمانة . وإنه لمقام عظيم ما كنت تتطلع إليه قبل أن توهبه (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) وهو تقرير قاطع عن عدم تطلع الرسول ﷺ إلى الرسالة ؛ إنما هو اختيار الله . والله يخلق ما يشاء ويختار ، فذلك الأفق أعلى من أن يفكر فيه بشر قبل أن يختاره الله له ويؤهله ليرقاه . وهو رحمة من الله بنبيه وبالبشرية التى اختاره لهدايتها بهذه الرسالة . رحمة توهب للمختارين لا للمتطلعين . ولقد كان من حوله كثيرون فى العرب وفى بنى إسرائيل يتطلعون إلى الرسالة المنتظرة فى آخر الزمان . ولكن الله – وهو أعلم حيث يجعل رسالته – وقد اختار لها من لم يتطلع إليها ولم يرجها ، من دون أولئك الطامعين المتطلعين ، حينما علم منه الاستعداد لتلقى ذلك الفيض العظيم . ومن ثم يأمره ربه – بما أنعم عليه بهذا الكتاب – ألا يكون ظهيرا للكافرين ؛ ويحذره أن يصدوه عن آيات الله ويمحض له عقيدة التوحيد خالصة فى وجه الشرك والمشركين (فلا تكونن ظهيرا للكافرين ؛ ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ؛ وادع إلى ربك ، ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلها آخر ، لا إله إلا هو . كل شىء هالك إلا وجهه . له الحكم وإليه ترجعون) إنه الإيقاع الأخير فى السورة ، يفصل ما بين رسول الله ﷺ وطريقه وما بين الكفر والشرك وطريقه . ويبين لأتباع رسول الله ﷺ طريقهم إلى يوم القيامة . . الإيقاع الأخير ورسول الله ﷺ فى طريق هجرته الفاصلة بين عهدين متميزين من عهود التاريخ (فلا تكونن ظهيرا للكافرين) فما يمكن أن يكون هناك تناصر أو تعاون بين المؤمنين والكافرين . وطريقاهما مختلفان ,ومنهجاهما مختلفان . أولئك حزب الله ، وهؤلاء حزب الشيطان . فعلام يتعاونان ؟ وفيم يتعاونان ؟ (ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك) فطريق الكفار دائما أن يصدوا أصحاب الدعوة عن دعوتهم بشتى الطرق والوسائل ؛ وطريق المؤمنين أن يمضوا فى طريقهم لا يلويهم عنها المعوقون ، ولا يصدهم عنها أعداؤهم . وبين أيديهم آيات الله ، وهم عليها مؤتمنون (وادع إلى ربك) دعوة خالصة واضحة لا لبس فيها ولا غموض . دعوة إلى الله لا لقومية ولا لعصبية ، ولا لأرض ولا لراية .

ولا لمصلحة ولا لمغنم ، ولا لتمليق هوى ، ولا لتحقيق شهوة . ومن شاء أن يتبع هذه الدعوة على تجردها فليتبعها ، ومن أراد غيرها معها فليس هذا هو الطريق (ولا تكونن من المشركين) (ولا تدع مع الله إلها آخر) يؤكد هذه القاعدة مرتين بالنهى عن الشرك والنهى عن اتخاذ إله آخر مع الله . ذلك أنها مفرق الطريق فى العقيدة بين النصاعة والغموض . وعلى هذه القاعدة يقوم بناء هذه العقيدة كلها ، وآدابها وأخلاقها وتكاليفها وتشريعاتها جميعا . وهى المحور الذى يلتف عليه كل توجيه وكل تشريع . ومن ثم هى تذكر قبل كل توجيه وقبل كل تشريع . ثم يمضى فى التوكيد والتقرير (لا إله إلا هو) (كل شىء هالك إلا وجهه) (له الحكم) (وإليه ترجعون) فلا إسلام إلا لله ، ولا عبودية – إلا له ، ولا قوة إلا قوته ,ولا ملاذ إلا حماه . فكل شىء زائل . وكل شىء ذاهب . المال والجاه . والسلطان والقوة . والحياة والمتاع . وهذه الأرض ومن عليها . وتلك السماوات وما فيها ومن فيها . وهذا الكون كله ما نعلمه منه وما نجهله . . كله . كله . هالك فلا يبقى إلا وجه الله الباقى . متفردا بالبقاء . له الحكم . . يقضى بما يشاء ويحكم كما يشاء ، لا يشركه فى حكمه أحد ، ولا يرد قضاءه أحد ، ولا يقف لأمره أمر . وما يشاؤه فهو الكائن دون سواه (وإليه ترجعون) فلا مناص من حكمه ، ولا مفر من قضائه ، ولا ملجأ دونه ولا مهرب . وهكذا تختم السورة التى تتجلى فيها يد القدرة ، تحرس الدعوة إلى الله وتحميها , وتدمر القوى الطاغية والباغية وتمحوها . تختم بتقرير قاعدة الدعوة:وحدانية الله سبحانه وتفرده بالألوهية والبقاء والحكم والقضاء . ليمضى أصحاب الدعوات فى طريقهم على هدى ، وعلى ثقة ، وعلى طمأنينة ، وفى يقين . .

سورة العنكبوت

مكية و آياتها ٦٩

سورة العنكبوت مكية . وقد ذكرت بعض الروايات أن الإحدى عشرة آية الأولى مدنية . وذلك لذكر "الجهاد" فيها وذكر " المنافقين " .. ولكننا نرجح أن السورة كلها مكية . وقد ورد في سبب نزول الآية الثامنة أنها نزلت في إسلام سعد بن أبي وقاص كما سيجيء . وإسلام سعد كان في مكة بلا جدال . وهذه الآية ضمن الآيات الإحدى عشرة التي قيل إنها مدنية . لذلك نرجح مكية الآيات كلها . أما تفسير ذكر الجهاد فيها فيسير . لأنها واردة بصدد الجهاد ضد الفتنة . أي جهاد النفس لتصبر ولا تفتن . وهذا واضح في السياق . وكذلك ذكر النفاق فقد جاء بصدد تصوير حالة نموذج من الناس . والسورة كلها متماسكة في خط واحد منذ البدء إلى الختام . إنها تبدأ بعد الحروف المقطعة بالحديث عن الإيمان والفتنة ، وعن تكاليف الإيمان الحقة التي تكشف عن معدنه في النفوس . فليس الإيمان كلمة تقال باللسان ، إنما هو الصبر على المكاره والتكاليف في طريق هذه الكلمة المحفوفة بالمكاره والتكاليف . ويكاد هذا أن يكون محور السورة وموضوعها ؛ فإن سياقها يمضي بعد ذلك المطلع يستعرض قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب ، وقصص عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان ، استعراضا سريعا يصور ألوانا من العقبات والفتن في طريق الدعوة إلى الإيمان . على امتداد الأجيال . ثم يعقب على هذا القصص وما تكشف فيه من قوى مرصودة في وجه الحق والهدى ، بالتصغير من قيمة هذه القوى والتهوين من شأنها ، وقد أخذها الله جميعا (فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا) ويضرب لهذه القوى كلها مثلا مصورا يجسم وهنها وتفاهتها (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) ويربط بعد ذلك بين الحق الذي في تلك الدعوات والحق الذي في خلق السماوات والأرض ; ثم يوحد بين تلك الدعوات جميعا ودعوة محمد ﷺ فكلها من عند الله . وكلها دعوة واحدة إلى الله . ومن ثم يمضي في الحديث عن الكتاب الأخير وعن استقبال المشركين له ; وهم يطلبون الخوارق غير مكتفين بهذا الكتاب وما فيه من رحمة وذكرى لقوم يؤمنون . ويستعجلون بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . ويتناقضون في منطقهم (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله !) (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله !) (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) . ولكنهم مع هذا كله يشركون بالله ويفتنون المؤمنين . وفي ثنايا هذا الجدل يدعو المؤمنين إلى الهجرة فرارا بدينهم من الفتنة ، غير خائفين من الموت ، إذ (كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا يرجعون) غير خائفين من فوات الرزق :وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم . ويختم السورة بتمجيد المجاهدين في الله وطمأنتهم على الهدى وتثبيتهم:(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين) فيلتئم الختام مع المطلع وتتضح حكمة السياق في السورة ، وتماسك حلقاتها بين المطلع والختام ، حول محورها الأول وموضوعها الأصيل . ويمضي سياق السورة حول ذلك المحور الواحد في ثلاثة أشواط:

الشوط الأول يتناول حقيقة الإيمان ، وسنة الابتلاء والفتنة ، ومصير المؤمنين والمنافقين والكافرين . ثم فردية التبعة فلا يحمل أحد عن أحد شيئا يوم القيامة (وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون)

والشوط الثاني يتناول القصص الذي أشرنا إليه ، وما يصوره من فتن وعقبات في طريق الدعوات والدعاة ، والتهوين من شأنها في النهاية حين تقاس إلى قوة الله . ويتحدث عن الحق الكامن في دعوة الرسل ، وهو ذاته الحق الكامن في خلق السماوات والأرض . وكله من عند الله .

والشوط الثالث يتناول النهي عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى . إلا الذين ظلموا منهم . وعن وحدة الدين كله ، واتحاده مع هذا الدين الأخير الذي يجحد به الكافرون ، ويجادل فيه المشركون . ويختم بالتثبيت والبشرى والطمأنينة للمجاهدين في الله المهديين إلى سبل الله (وإن الله لمع المحسنين)

ويتخلل السورة من المطلع إلى الختام إيقاعات قوية عميقة حول معنى الإيمان وحقيقته . تهز الوجدان هزا . وتقفه أمام تكاليف الإيمان وقفة جد صارم ؛ فإما النهوض بها وإما النكوص عنها . وإلا فهو النفاق الذى يفضحه الله . وهى إيقاعات لا سبيل إلى تصويرها بغير النصوص القرآنية التى وردت فيها . فنكتفى بالإشارة إليها هنا حتى نستعرضها فى موضعها مع السياق .

(الم{١} أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ{٢} وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ{٣} أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ{٤} مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{٥} وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ{٦} وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ{٧} وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٨} وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ{٩} وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ{١٠} وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ) {١١}

ألف . لام . ميم . . الحروف المقطعة التى اخترنا فى تفسيرها أنها للتنبيه إلى أنها مادة الكتاب الذى أنزله الله على رسوله [ص] مؤلفا من مثل هذه الحروف ، المألوفة للقوم ، الميسرة لهم ليؤلفوا منها ما يشاؤون من القول ؛ ولكنهم لا يملكون أن يؤلفوا منها مثل هذا الكتاب ; لأنه من صنع الله لا من صنع إنسان . وبعد هذا الافتتاح يبدأ الحديث عن الإيمان ، والفتنة التى يتعرض لها المؤمنون لتحقيق هذا الإيمان ؛ وكشف الصادقين والكاذبين بالفتنة والابتلاء (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا:آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) إنه الإيقاع الأول فى هذا المقطع القوى من السورة . يساق فى صورة استفهام استنكارى لمفهوم الناس للإيمان ، وحسبانهم أنه كلمة تقال باللسان (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا:آمنا وهم لا يفتنون ؟) إن الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف ؛ وأمانة ذات أعباء ؛ وجهاد يحتاج إلى صبر ، وجهد يحتاج إلى احتمال . فلا يكفى أن يقول الناس:آمنا . وهم لا يتركون لهذه الدعوى ، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم . كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به – وهذا هو أصل الكلمة اللغوى وله دلالته وظله وإيحاؤه – وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب . هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت ، وسنة جارية ، فى ميزان الله سبحانه (ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ؛ ولكن الابتلاء يكشف فى عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله ، مغيب عن علم البشر ؛ فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم . وهو فضل من الله من جانب ، وعدل من جانب ، وتربية للناس من جانب ، فلا يأخذوا أحدا إلا بما استعلن من أمره ، وبما حققه فعله . فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه ! . وأما الذين يفتنون المؤمنين ، ويعملون السيئات ، فما هم بمفلتين من عذاب الله ولا ناجين . مهما انتفخ باطلهم وانتفش ، وبدا عليه الانتصار والفلاح . وعد الله كذلك وسنته فى نهاية المطاف (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ؟ ساء ما يحكمون !) فلا يحسبن مفسد أنه مفلت ولا سابق ، ومن يحسب هذا فقد ساء حكمه ، وفسد تقديره ، واختل تصوره . فإن الله الذى جعل الابتلاء سنة ليمتحن إيمان المؤمن ويميز بين الصادقين والكاذبين ؛ هو الذى جعل أخذ المسيئين سنة لا تتبدل ولا تتخلف ولا تحيد . وهذا هو الإيقاع الثانى فى مطلع السورة ، الذى يوازن الإيقاع الأول ويعادله . فإذا كانت الفتنة سنة جارية لامتحان القلوب وتمحيص الصفوف ، فخيبة المسيئين وأخذ المفسدين سنة جارية لا بد أن تجىء . أما الإيقاع الثالث فيتمثل فى تطمين الذين يرجون لقاء الله ، ووصل قلوبهم به فى ثقة وفى يقين (من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ، وهو السميع العليم) فلتقر القلوب الراجية فى لقاء الله ولتطمئن ؛ ولتنتظر ما وعدها الله إياه ، انتظار الواثق المستيقن ؛ ولتتطلع إلى يوم اللقاء فى شوق ولكن فى يقين . والتعبير يصور هذه القلوب المتطلعة إلى لقاء الله صورة موحية . صورة الراجى المشتاق ، الموصول بما هناك . ويجيب على التطلع بالتوكيد المريح . ويعقب عليه بالطمأنينة الندية ، يدخلها فى تلك القلوب . فإن الله يسمع لها ، ويعلم تطلعها (وهو السميع العليم) والإيقاع الرابع يواجه القلوب التى تحتمل تكاليف الإيمان ، ومشاق الجهاد ، بأنها إنما تجاهد لنفسها ولخيرها ولاستكمال فضائلها ، ولإصلاح أمرها وحياتها ؛ وإلا فما بالله من حاجة إلى أحد ، وإنه لغنى عن كل أحد (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغنى عن العالمين) فإذا كتب الله على المؤمنين الفتنة وكلفهم أن يجاهدوا أنفسهم لتثبت على احتمال المشاق ، فإنما ذلك لإصلاحهم ، وتكميلهم ، وتحقيق الخير

لهم في الدنيا والآخرة . والجهاد يصلح من نفس المجاهد وقلبه ؛ ويرفع من تصوراته وآفاقه ؛ ويستعلى به على الشح بالنفس والمال ، ويستجيش أفضل ما فى كيانه من مزايا واستعدادات . وذلك كله قبل أن يتجاوز به شخصه إلى الجماعة المؤمنة ، وما يعود عليها من صلاح حالها ، واستقرار الحق بينها ، وغلبة الخير فيها على الشر ، والصلاح فيها على الفساد (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه) فلا يقفن أحد فى وسط الطريق ، وقد مضى فى الجهاد شوطا ؛ يطلب من الله ثمن جهاده ; ويمن عليه وعلى دعوته ، ويستبطئ المكافأة على ما ناله ! فإن الله لا يناله من جهاده شىء . وليس فى حاجة إلى جهد بشر ضعيف هزيل: (إن الله لغنى عن العالمين). وإنما هو فضل من الله أن يعينه فى جهاده ، وأن يستخلفه فى الأرض به ، وأن يأجره فى الآخرة بثوابه (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ، ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) فليطمئن المؤمنون العاملون على ما لهم عند الله ، من تكفير للسيئات ، وجزاء على الحسنات . وليصبروا على تكاليف الجهاد ؛ وليثبتوا على الفتنة والابتلاء ؛ فالأمل المشرق والجزاء الطيب ، ينتظرانهم فى نهاية المطاف . وإنه لحسب المؤمن حتى لو فاته فى الحياة الانتصاف . ثم يجىء إلى لون من ألوان الفتنة أشرنا إليه فى مطلع السورة:فتنة الأهل والأحباء . فيفصل فى الموقف الدقيق بالقول الحازم الوسط ، لا إفراط فيه ولا تفريط (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا . وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما , إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) إن الوالدين لأقرب الأقرباء . وإن لهما لفضلا ، وإن لهما لرحما ؛ وإن لهما لواجبا مفروضا:واجب الحب والكرامة والإحترام والكفالة . ولكن ليس لهما من طاعة فى حق الله . وهذا هو الصراط (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا . وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما) إن الصلة فى الله هى الصلة الأولى ، والرابطة فى الله هى العروة الوثقى . فإن كان الوالدان مشركين فلهما الإحسان والرعاية , لا الطاعة ولا الاتباع . وإن هى إلا الحياة الدنيا ثم يعود الجميع إلى الله (إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) ويفصل ما بين المؤمنين والمشركين . فإذا المؤمنون أهل ورفاق ، ولو لم يعقد بينهم نسب ولا صهر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) وهكذا يعود الموصولون بالله جماعة واحدة ، كما هم فى الحقيقة ؛ وتذهب روابط الدم والقرابة والنسب والصهر ، وتنتهى بانتهاء الحياة الدنيا ، فهى روابط عارضة لا أصيلة , لانقطاعها عن العروة الوثقى التى لا انفصام لها . ثم يرسم صورة كاملة لنموذج من النفوس فى استقبال فتنة الإيذاء بالاستخذاء ، ثم الادعاء العريض عند الرخاء . يرسمها فى كلمات معدودات ، صورة واضحة الملامح بارزة السمات (ومن الناس من يقول:امنا بالله . فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن:إنا كنا معكم . أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ؟ وليعلمن الله الذين آمنوا ، وليعلمن المنافقين) ذلك النموذج من الناس ، يعلن كلمة الإيمان فى الرخاء يحسبها خفيفة الحمل ، هينة المؤونة , لا تكلف إلا نطقها باللسان (فإذا أوذى فى الله) بسبب الكلمة التى قالها وهو آمن معافى(جعل فتنة الناس كعذاب الله)فاستقبلها فى جزع ، واختلت فى نفسه القيم , واهتزت فى ضميره العقيدة ؛ وتصور أن لا عذاب بعد هذا الأذى الذى يلقاه ، حتى عذاب الله ; وقال فى نفسه:ها هو ذا عذاب شديد أليم ليس وراءه شىء ، فعلام أصبر على الإيمان , وعذاب الله لا يزيد على ما أنا فيه من عذاب ؟ وإن هو إلا الخلط بين أذى يقدر على مثله البشر ، وعذاب الله الذى لا يعرف أحد مداه . هذا موقف ذلك النموذج من الناس فى استقبال الفتنة فى ساعة الشدة (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن:إنا كنا معكم)! إنا كنا معكم . . وذلك كان موقفهم فى ساعة العسرة من التخاذل والتهافت والتهاوى , وسوء التصوير وخطأ التقدير . ولكن حين يجىء الرخاء تنبث الدعوى العريضة ، وينتفش المنزوون المتخاذلون ، ويستأسد الضعفاء المهزومون ، فيقولون: إنا كنا معكم ! (أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ؟) أو ليس يعلم ما تنطوى عليه تلك الصدور من صبر أو جزع ، ومن إيمان أو نفاق ؟ فمن الذى يخدعه هؤلاء وعلى من يموهون ؟ (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) وليكشفنهم فيعرفون ؛ فما كانت الفتنة إلا ليتبين الذين آمنوا ويتبين المنافقون . وأخيرا يعرض فتنة الإغواء والإغراء ؛ ويعرض معها فساد تصور الذين كفروا للتبعة والجزاء ; ويقرر فردية التبعة وشخصية الجزاء وهو المبدأ الإسلامى الكبير ، الذى يحقق العدل فى أجلى مظاهره ، وأفضل أوضاعه (وقال الذين كفروا للذين آمنوا:اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم . و ما هم بحاملين من خطاياهم من شىء . إنهم لكاذبون . وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) وقد كان الذين كفروا يقولون هذا تمشيا مع تصورهم القبلى فى احتمال العشيرة للديات المشتركة والتبعات المشتركة . يحسبون أنهم قادرون على احتمال جريرة الشرك بالله عن سواهم وإعفائهم منها . ذلك إلى التهكم على قصة الجزاء فى الآخرة إطلاقا (اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) ومن ثم يرد عليهم الرد الحاسم ، فيرد كل إنسان إلى ربه فردا ، يؤاخذه بعمله ، لا يحمل أحد عنه شيئا (وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء) ويجبههم بما فى قولتهم هذه من كذب وادعاء (إنهم لكاذبون) ويحملهم وزر ضلالهم وشركهم وافترائهم ، ووزر إضلالهم للآخرين . دون أن يعفى هؤلاء من تبعة الضلال

(وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم . وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) ويغلق هذا الباب من أبواب الفتنة ؛ فيعلم الناس أن الله لا يحاسبهم جماعات . إنما يحاسبهم أفرادا ، وأن كل امرىء بما كسب رهين . .

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{١٢} وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ{١٣} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ{١٤} فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ{١٥} وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{١٦} إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{١٧} وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ{١٨} أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ{١٩} قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{٢٠} يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ{٢١} وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ{٢٢} وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{٢٣} فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{٢٤} وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ{٢٥} فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{٢٦} وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ{٢٧} وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ{٢٨} أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{٢٩} قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ{٣٠} وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ{٣١} قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ{٣٢} وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ{٣٣} إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ{٣٤} وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{٣٥} وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ{٣٦} فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ{٣٧} وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ{٣٨} وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ{٣٩} فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{٤٠} مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ{٤١} إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{٤٢} وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ{٤٣} خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ{٤٤} اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ){٤٥}

في هذا الشوط يعرض نماذج من الفتن التي اعترضت دعوة الإيمان في تاريخ البشرية الطويل من لدن نوح عليه السلام . يعرضها ممثلة فيما لقيه الرسل حملة دعوة الله منذ فجر البشرية . مفصلا بعض الشيء في قصة إبراهيم ولوط ، مجملا فيما عداها . وفي هذا القصص تتمثل ألوان من الفتن ، ومن الصعاب والعقبات في طريق الدعوة .

ففي قصة نوح – عليه السلام – تتبدى ضخامة الجهد وضآلة الحصيلة ، فقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم لم يؤمن له إلا القليل (فأخذهم الطوفان وهم ظالمون)

وفي قصة إبراهيم مع قومه يتبدى سوء الجزاء وطغيان الضلال . فقد حاول هداهم ما استطاع , وجادلهم بالحجة والمنطق (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا:اقتلوه أو حرقوه)

وفى قصة لوط يتبدى تبجح الرذيلة واستعلانها ، وسفورها بلا حياء ولا تحرج ، وانحدار البشرية إلى الدرك الأسفل من الانحراف والشذوذ ؛ مع الاستهتار بالنذير (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا:ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين)

وفى قصة شعيب مع مدين يتبدى الفساد والتمرد على الحق والعدل ، والتكذيب (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين)

وتذكر الإشارة إلى عاد وثمود بالاعتزاز بالقوة والبطر بالنعمة . كما تذكر الإشارة إلى قارون وفرعون وهامان بطغيان المال ، واستبداد الحكم ، وتمرد النفاق . ويعقب على هذا القصص بمثل يضربه لهوان القوى المرصودة فى طريق دعوة الله ، وهى مهما علت واستطالت (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا . وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) وينتهى هذ الشوط بدعوة الرسول ﷺ أن يتلو الكتاب ، وأن يقيم الصلاة ، وأن يدع الأمر بعد ذلك لله (والله يعلم ما تصنعون)

(ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) والراجح أن فترة رسالته التى دعا فيها قومه كانت ألف سنة إلا خمسين عاما . وقد سبقتها فترة قبل الرسالة غير محددة ، وأعقبتها فترة كذلك بعد النجاة من الطوفان غير محددة . وهو عمر طويل مديد ، يبدو لنا الآن غير طبيعى ولا مألوف فى أعمار الأفراد . ولكننا نتلقاه من أصدق مصدر فى هذا الوجود – وهذا وحده برهان صدقه – فإذا أردنا له تفسيرا فإننا نستطيع أن نقول:إن عدد البشرية يومذاك كان قليلا ومحدودا ، فليس ببعيد أن يعوض الله هذه الأجيال عن كثرة العدد طول العمر ، لعمارة الأرض وامتداد الحياة . حتى إذا تكاثر الناس وعمرت الأرض لم يعد هناك داع لطول الأعمار وهذه الظاهرة ملحوظة فى أعمار كثير من الأحياء . فكلما قل العدد وقل النسل طالت الأعمار ، كما فى النسور وبعض الزواحف كالسلحفاة . حتى ليبلغ عمر بعضها مئات الأعوام . بينما الذباب الذى يتوالد بالملايين لا تعيش الواحدة منه أكثر من أسبوعين

وبعد قصة نوح يطوى السياق القرون حتى يصل إلى الرسالة الكبرى . رسالة إبراهيم (وإبراهيم إذ قال لقومه:اعبدوا الله واتقوه . ذلكم خير لكم إن كنت تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثانا ، وتخلقون إفكا . إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ، واشكروا له ، إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين) لقد دعاهم دعوة بسيطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض ؛ وهى مرتبة فى عرضها ترتيبا دقيقا يحسن أن يتملاه أصحاب الدعوات . . لقد بدأ ببيان حقيقة الدعوة التى يدعوهم إليها (اعبدوا الله واتقوه) ثم ثنى بتحبيب هذه الحقيقة إليهم ، وما تتضمنه من الخير لهم ، لو كانوا يعلمون أين يكون الخير (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) وفى هذا التعقيب ما يحفزهم إلى نفى الجهل عنهم ، واختيار الخير لأنفسهم . وهو فى الوقت ذاته حقيقة عميقة لا مجرد تهييج خطابى ! وفى الخطوة الثالثة بين لهم فساد ما هم عليه من العقيدة من عدة وجوه:أولها أنهم يعبدون من دون الله أوثانا – والوثن:التمثال من الخشب – وهى عبادة سخيفة ، وبخاصة إذا كانوا يعدلون بها عن عبادة الله . . وثانيها:أنهم بهذه العبادة لا يستندون إلى برهان أودليل ، وإنما يخلقون إفكا وينشئون باطلا ، يخلقونه خلقا بلا سابقة أو مقدمة , وينشئونه إنشاء من عند أنفسهم بلا أصل ولا قاعدة . . وثالثها:أن هذه الأوثان لا تقدم لهم نفعا ، ولا ترزقهم شيئا (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا) وفى الخطوة الرابعة يوجههم إلى الله ليطلبوا منه الرزق . الأمر الذى يهمهم ويمس حاجتهم (فابتغوا عند الله الرزق) والرزق مشغلة النفوس ، وبخاصة تلك التى لم يستغرقها الإيمان . و لكن ابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة لا مجرد استثارة للميول الكامنة فى النفوس . وفى النهاية يهتف بهم إلى واهب الأرزاق المتفضل بالنعم ، ليعبدوه ويشكروه (واعبدوه واشكروا له) وأخيرا يكشف لهم أنه لا مفر من الله ، فمن الخير أن يثوبوا إليه مؤمنين عابدين شاكرين (إليه ترجعون) فإن كذبوا – بعد ذلك كله – فما أهون ذلك ! فلن يضر الله شيئا ، ولن يخسر رسوله شيئا . فقد كذب الكثيرون من قبل ، وما على الرسول إلا واجب التبليغ ، وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين . وهكذا يأخذهم خطوة خطوة ، ويدخل إلى قلوبهم من مداخلها ، ويوقع على أوتارها فى دقة عميقة ، وهذه الخطوات تعد نموذجا لطريقة الدعوة جديرا بأن يتملاه أصحاب كل دعوة , لينسجوا على منواله فى مخاطبة النفوس والقلوب . وقبل أن يمضى السياق إلى نهاية القصة ، يقف وقفة يخاطب بها كل منكر لدعوة الإيمان بالله على الإطلاق ؛ المكذبين بالرجعة إلى الله والبعث والمآب (أو لم يروا كيف يبدى ء الله الخلق ؟ ثم يعيده . إن ذلك على

الله يسير) وإنهم ليرون كيف يبدى ء الله الخلق . يرونه فى النبتة النامية . وفى البيضة والجنين ,وفى كل ما لم يكن ثم يكون ؛ مما لا تملك قدرة البشر مجتمعين ومنفردين أن يخلقوه أو يدعوا أنهم خالقوه ! وإن سر الحياة وحده لمعجز ، كان وما يزال ؛ معجز فى معرفة منشئه وكيف جاء – ودع عنك أن يحاوله أحد أو يدعيه – ولا تفسير له إلا أنه من صنع الله الذى يبدى ء الخلق فى كل لحظة تحت أعين الناس وإدراكهم ، وهم يرون ولا يملكون الإنكار !فإذا كانوا يرون إنشاء الخلق بأعينهم ؛ فالذى أنشأه يعيده (إن ذلك على الله يسير) وليس فى خلق الله شيء عسير عليه تعالى . ولكنه يقيس للبشر بمقاييسهم . فالإعادة أيسر من البدء فى تقديرهم . وإلا فالبدء كالإعادة ، والإعادة كالبدء بالقياس إلى قدرة الله سبحانه . وإنما هو توجه الإرادة وكلمة:كن فيكون . ثم يدعوهم إلى السير فى الأرض ، وتتبع صنع الله وآياته فى الخلق والإنشاء ، فى الجامد والحى سواء ، ليدركوا أن الذى أنشأ يعيد بلا عناء (قل:سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ؛ ثم الله ينشىء النشأة الآخرة . إن الله على كل شيء قدير) والسير فى الأرض يفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة التى لم تألفها العين ولم يملها القلب . وهى لفتة عميقة إلى حقيقة دقيقة . وإن الإنسان ليعيش فى المكان الذى ألفه فلا يكاد ينتبه إلى شيء من مشاهده أو عجائبه ؛ حتى إذا سافر وتنقل وساح استيقظ حسه وقلبه إلى كل مشهد ، وإلى كل مظهر فى الأرض الجديدة ، مما كان يمر على مثله أو أروع منه فى موطنه دون التفات ولا انتباه . وربما عاد إلى موطنه بحس جديد وروح جديد ليبحث ويتأمل ويعجب بما لم يكن يهتم به قبل سفره وغيبته . وعادت مشاهد موطنه وعجائبها تنطق له بعد ما كان غافلا عن حديثها ؛ أو كانت لا تفصح له بشى ء ولا تناجيه ! فسبحان منزل هذا القرآن ، الخبير بمداخل القلوب وأسرار النفوس (قل:سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) إن التعبير هنا بلفظ الماضى (كيف بدأ الخلق) بعد الأمر بالسير فى الأرض لينظروا كيف بدأ الخلق . يثير فى النفس خاطرا معينا . . ترى هنالك فى الأرض ما يدل على نشأة الحياة الأولى ، وكيفية بدء الخليقة فيها . كالحفريات التى يتتبعها بعض العلماء اليوم ليعرفوا منها خط الحياة ؛ كيف نشأت ؟ وكيف انتشرت ؟ وكيف ارتقت ؟ – وإن كانوا لم يصلوا إلى شيء فى معرفة سر الحياة:ما هى ؟ ، ومن أين جاءت إلى الأرض ؟ وكيف وجد فيها أول كائن حي ؟ – ويكون ذلك توجيها من الله للبحث عن نشأة الحياة الأولى والاستدلال به عند معرفتها على النشأة الآخرة . . (إن الله على كل شيء قدير) يبدأ الحياة ويعيدها بهذه القدرة المطلقة التى لا تتقيد بتصورات البشر القاصرة ، وما يحسبونه قوانين يقيسون عليها الممكن وغير الممكن ، بما يعرفونه من تجاربهم المحدودة !

ومن قدرة الله على كل شيء:تعذيبه لمن يشاء ورحمته لمن يشاء ، وإليه وحده المآب ؛ لا يعجزه أحد ، ولا يمتنع عليه أحد (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ، وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء . وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) والعذاب والرحمة يتبعان مشيئة الله ؛ من حيث أنه بين طريق الهدى وطريق الضلال ؛ وخلق للإنسان من الاستعداد ما يختار به هذا أو ذاك ، ويسر له الطريقين سواء ، وهو بعد ذلك ، وما يختار غير أن اتجاهه إلى الله ورغبته فى هداه ، ينتهيان به إلى عون الله له – كما كتب على نفسه – وإعراضه عن دلائل الهدى وصده عنها يؤديان به إلى الإنقطاع والضلال . ومن ثم تكون الرحمة ويكون العذاب (وإليه تقلبون) تعبير عن المآب فيه عنف ، يناسب المعنى بعده (وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء) فليس لكم من قوة فى هذا الوجود تمتنعون بها من الانقلاب إلى الله . لا من قوتكم فى الأرض ، ولا من قوة ما تعبدونه أحيانا من الملائكة والجن وتحسبون له قوة فى السماء (وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) وأين من دون الله الولى والنصير ؟ أين الولى والنصير من الناس ؟ أو من الملائكة والجن ? وكلهم عباد من خلق الله لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا فوق أن يملكوا لسواهم شيئا ؟ (والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم) ذلك أنه لا ييأس الإنسان من رحمة الله إلا حين يكفر قلبه ، وينقطع ما بينه وبين ربه . وكذلك هو لا يكفر إلا وقد يئس من اتصال قلبه بالله ، وجفت نداوته ، ولم يعد له إلى رحمة الله سبيل . والعاقبة معروفة: (وأولئك لهم عذاب أليم) وبعد هذا الخطاب المعترض فى ثنايا القصة ، الذى جاء خطابا لكل منكر لدعوة الإيمان ولقوم إبراهيم ضمنا . . بعد هذا الخطاب يعود لبيان جواب قوم إبراهيم ، فيبدو هذا الجواب غريبا عجيبا ، ويكشف عن تبجح الكفر والطغيان ، بما يملك من قوة ومن سلطان (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا:اقتلوه أو حرقوه . فأنجاه الله من النار . إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) اقتلوه أو حرقوه . . ردا على تلك الدعوة الواضحة البسيطة المرتبة التى خاطب بها قلوبهم وعقولهم على النحو الذى بينا قيمته فى عرض الدعوات . وإذ أن الطغيان أسفر عن وجهه الكالح ؛ ولم يكن إبراهيم – عليه السلام – يملك له دفعا ,ولا يستطيع منه وقاية . وهو فرد أعزل لا حول له ولا طول . فهنا تتدخل القدرة سافرة كذلك . تتدخل بالمعجزة الخارقة لمألوف البشر (فأنجاه الله من النار) وكان فى نجاته من النار على النحو الخارق الذى تمت به آية لمن تهيأ قلبه للإيمان . ولكن القوم لم يؤمنوا على الرغم من هذه الآية الخارقة ، فدل هذا على

أن الخوارق لا تهدى القلوب ، إنما هوالاستعداد للهدى والإيمان (إن فى ذلك لايات لقوم يؤمنون) الآية الأولى هى تلك النجاة من النار . والآية الثانية هى عجز الطغيان عن إيذاء رجل واحد يريد الله له النجاة . والآية الثالثة هى أن الخارقة لا تهدى القلوب الجاحدة ذلك لمن يريد أن يتدبر تاريخ الدعوات ، وتصريف القلوب ، وعوامل الهدى والضلال . ويمضى فى القصة بعد نجاة إبراهيم من النار . فلقد يئس من إيمان القوم الذين لم تلن قلوبهم للمعجزة الواضحة . فإذا هو يجبههم بحقيقة أمرهم ، قبل أن يعتزلهم جميعا (وقال:إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ، ومأواكم النار ، وما لكم من ناصرين) إنه يقول لهم:إنكم اتخذتم الأوثان من دون الله ، لا اعتقادا واقتناعا بأحقية هذه العبادة ; إنما يجامل بعضكم بعضا ، ويوافق بعضكم بعضا ، على هذه العبادة ؛ ولا يريد الصاحب أن يترك عبادة صاحبه - حين يظهر الحق له - استبقاء لما بينكم من مودة على حساب الحق والعقيدة ! وإن هذا ليقع فى الجماعات التى لا تأخذ العقيدة مأخذ الجد ، فيسترضى الصاحب صاحبه على حساب العقيدة ؛ ويرى أمرها أهون من أن يخالف عليه صديقه ! وهى الجد كل الجد . الجد الذى لا يقبل تهاونا ولا استرخاء ولا استرضاء . ثم يكشف لهم عن صفحتهم فى الآخرة . فإذا المودة التى يخشون أن يمسوها بالخلاف على العقيدة ، والتى يبقون على عبادة الأوثان محافظة عليه . . إذا هى يوم القيامة عداء ولعن وانفصام (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا) يوم يتنكر التابعون للمتبوعين ، ويكفر الأولياء بالأولياء ، ويتهم كل فريق صاحبه أنه أضله ، ويلعن كل غوى صاحبه الذى أغواه ! ثم لا يجدى ذلك الكفر والتلاعن شيئا ، ولا يدفع عن أحد عذابا (ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) النار التى أرادوا أن يحرقوه بها ، فنصره الله منها ونجاه . فأما هم فلا نصرة لهم ولا نجاة ! وانتهت دعوة إبراهيم لقومه ، والمعجزة التى لا شك فيها . انتهت هذه وتلك بإيمان فرد واحد غير امرأته هو لوط . ابن أخيه فيما تذكر بعض الروايات . وهاجر معه من أور الكلدانيين فى العراق ، إلى ما وراء الأردن حيث استقر بهما المقام (فآمن له لوط ، وقال:إنى مهاجر إلى ربى ، إنه هو العزيز الحكيم) ونقف أمام قولة لوط (إنى مهاجر إلى ربى) لنرى فيم هاجر . إنه لم يهاجر للنجاة . ولم يهاجر إلى أرض أو كسب أو تجارة . إنما هاجر إلى ربه . هاجر متقربا له ملتجئا إلى حماه . هاجر إليه بقلبه وعقيدته قبل أن يهاجر بلحمه ودمه . هاجر إليه ليخلص له عبادته ويخلص له قلبه ويخلص له كيانه كله فى مهجره ، بعيدا عن موطن الكفر والضلال . بعد أن لم يبق رجاء فى أن يفيء القوم إلى الهدى والإيمان بحال . وعوض الله إبراهيم عن وطنه وعن قومه وعن أهله - عوضه عن هذا كله ذرية تمضى فيها رسالة الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . فكل الأنبياء وكل الدعوات بعده كانت فى ذريته . وهو عوض ضخم فى الدنيا وفى الآخرة (ووهبنا له إسحاق ويعقوب . وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب . وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) وهو فيض من العطاء جزيل ، يتجلى فيه رضوان الله سبحانه على الرجل الذى يتمثل فيه الخلوص لله بكليته ، والذى أجمع الطغيان على حرقه بالنار ، فكان كل شيء من حوله بردا وسلاما ، وعطفا وإنعاما . جزاء وفاقا . ثم تأتى قصة لوط عقب قصة إبراهيم ، بعد ما هاجر إلى ربه مع إبراهيم ، فنزلا بوادى الأردن ; ثم عاش لوط وحده فى إحدى القبائل على ضفاف البحر الميت أو بحيرة لوط كما سميت فيما بعد . وكانت تسكن مدينة سدوم . وصار لوط منهم بالصهر والمعيشة . ثم حدث أن فشا فى القوم شذوذ عجيب ، يذكر القرآن أنه يقع لأول مرة فى تاريخ البشرية . ذلك هو الميل الجنسى المنحرف إلى الذكور بدلا من الإناث اللاتى خلقهن الله للرجال ، لتتكون من الجنسين وحدات طبيعية منتجة تكفل امتداد الحياة بالنسل وفق الفطرة المطردة فى جميع الأحياء . إذ خلقها الله أزواجا:ذكرانا وإناثا . فلم يقع الشذوذ والانحراف إلى الجنس المماثل قبل قوم لوط هؤلاء (ولوطا إذ قال لقومه:إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . أئنكم لتأتون الرجال ، وتقطعون السبيل ، وتأتون فى ناديكم المنكر . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا:ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين . قال:رب انصرنى على القوم المفسدين) ومن خطاب لوط لقومه يظهر أن الفساد قد استشرى فيهم بكل ألوانه . فهم يأتون الفاحشة الشاذة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين: ويقطعون السبيل ، فينهبون المال ، ويروعون المارة ، ويعتدون على الرجال بالفاحشة كرها . وهى خطوة أبعد فى الفاحشة الأولى ، إلى جانب السلب والنهب والإفساد فى الأرض . . والقصة هنا مختصرة ، وظاهر أن لوطا أمرهم فى أول الأمر ونهاهم بالحسنى ; وأنهم أصروا على ما هم فيه ، فخوفهم عذاب الله ، وجبههم بشناعة جرائمهم الكبرى (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا:ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) فهو التبجح فى وجه الإنذار ، والتحدى المصحوب بالتكذيب ، والشرود الذى لا تنتظر منه أوبة . وقد أعذر إليهم رسولهم فلم يبق إلا أن يتوجه إلى ربه طالبا نصره الأخير (قال:رب انصرنى على القوم المفسدين) وهنا يسدل الستار على دعاء لوط ، ليرفع عن الاستجابة . و فى الطريق يلم الملائكة المكلفون بالتنفيذ بإبراهيم ، يبشرونه بولد صالح من زوجه التى كانت من قبل عقيما (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا:إنا مهلكو أهل هذه القرية ، إن أهلها كانوا ظالمين . قال:إن فيها لوطا . قالوا:نحن أعلم بمن فيها ،

لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) وهذا المشهد . مشهد الملائكة مع إبراهيم . مختصر فى هذا الموضع لأنه ليس مقصودا ; قد سبق فى قصة إبراهيم أن الله وهب له إسحاق ويعقوب ؛ وولادة اسحاق هى موضوع البشرى , ومن ثم لم يفصل قصتها هنا لأن الغرض هو إتمام قصة لوط . فذكر أن مرور الملائكة بإبراهيم كان للبشرى . ثم أخبروه بمهمتهم الأولى: إنا مهلكوا أهل هذه القرية . إن أهلها كانوا ظالمين . . وأدركت إبراهيم رقته ورأفته ، فراح يذكر الملائكة أن فى هذه القرية لوطا ؛ وهو صالح وليس بظالم ! وأجابه الرسل بما يطمئنه من ناحيته ، ويكشف له عن معرفتهم بمهمتهم وأنهم أولى بهذه المعرفة ! (قالوا:نحن أعلم بمن فيها ؛ لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) وقد كان هواها مع القوم ، تقر جرائمهم وانحرافهم ، وهو أمر عجيب . وينتقل إلى مشهد ثالث . مشهد لوط وقد جاء إليه الملائكة فى هيئة فتية صباح ملاح ; وهو يعلم شنشنة قومه ، وما ينتظر ضيوفه هؤلاء منهم من سوء لا يملك له دفعا . فضاق صدره وساءه حضورهم إليه ، فى هذا الظرف العصيب (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا) ويختصر هنا هجوم القوم على الضيوف ، ومحاورة لوط لهم ، وهم فى سعار الشذوذ المريض . . ويمضى إلى النهاية الأخيرة . إذ يكشف له الرسل عن حقيقتهم ، ويخبرونه بمهمتهم , وهو فى هذا الكرب وذلك الضيق (وقالوا:لا تخف ولا تحزن . إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون) وترسم هذه الآية مشهد التدمير الذى أصاب القرية وأهلها جميعا - إلا لوطا وأهله المؤمنين - وقد كان هذا التدمير بأمطار وأحجار ملوثة بالطين . ويغلب أنها ظاهرة بركانية قلبت المدينة وابتلعتها ؛ وأمطرت عليها هذا المطر الذى يصاحب البراكين . وما تزال آثار هذا التدمير باقية تحدث عن آيات الله لمن يعقلها ويتدبرها من القرون (ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) وكان هذا هو المصير الطبيعى لهذه الشجرة الخبيثة التى فسدت وأنتنت ، فلم تعد صالحة للإثمار وللحياة . ولم تعد تصلح إلا للاجتثاث والتحطيم ثم إشارة إلى قصة شعيب ومدين (وإلى مدين أخاهم شعيبا ، فقال:يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . فكذبوه فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين) وهى إشارة تبين وحدة الدعوة ، ولباب العقيدة: (اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر). وعبادة الله الواحد هى قاعدة العقيدة . ورجاء اليوم الآخر كفيل بتحويلهم عما كانوا يرجونه فى هذه الحياة الدنيا من الكسب المادى الحرام بالتطفيف فى الكيل والميزان ، وغصب المارين بطريقهم للتجارة ، وبخس الناس أشياءهم ، والإفساد فى الأرض ، والاستطالة على الخلق .وفى اختصار يذكر انتهاء أمرهم إلى تكذيب رسولهم ؛ وأخذهم بالهلاك والتدمير ، على سنة الله فى أخذ المكذبين (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) وقد تقدم بيان الرجفة التى زلزلت عليهم بلادهم ورجتها بعد الصيحة المدوية التى أسقطت قلوبهم وتركتهم مصعوقين حيث كانوا فى دارهم لا يتحركون . فأصبحوا فيها جاثمين . جزاء ما كانوا يروعون الناس وهم يخرجون عليهم مغيرين صائحين ! وإشارة كذلك إلى مصرع عاد وثمود (وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم ؛ وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) وعاد كانت تسكن بالأحقاف فى جنوب الجزيرة بالقرب من حضرموت ، وثمود كانت تسكن بالحجر فى شمال الجزيرة بالقرب من وادى القرى . وقد هلكت عاد بريح صرصر عاتية ، وهلكت ثمود بالصيحة المزلزلة . وبقيت مساكنها معروفة للعرب يمرون عليها فى رحلتى الشتاء والصيف ، ويشهدون آثار التدمير ، بعد العز والتمكين . وهذه الإشارة المجملة تكشف عن سر ضلالهم ، وهو سر ضلال الآخرين (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) فقد كانت لهم عقول ، وكانت أمامهم دلائل الهدى ؛ ولكن الشيطان استهواهم وزين لهم أعمالهم . وأتاهم من هذه الثغرة المكشوفة ، وهى غرورهم بأنفسهم ، وإعجابهم بما يأتونه من الأعمال ، وانخداعهم بما همفيه من قوة ومال ومتاع (فصدهم عن السبيل) سبيل الدى الواحد المؤدى إلى الإيمان . وضيع عليهم الفرصة (وكانوا مستبصرين) يملكون التبصر ، وفيهم مدارك ولهم عقول . وإشارة إلى قارون وفرعون وهامان . (ولقد جاءهم موسى بالبينات ، فاستكبروا فى الأرض , وما كانوا سابقين) وقارون كان من قوم موسى فبغى عليهم بثروته وعلمه ، ولم يستمع نصح الناصحين بالإحسان والاعتدال والتواضع وعدم البغى والفساد . وفرعون كان طاغية غشوما ، يرتكب أبشع الجرائم وأغلظها ، ويسخر الناس ويجعلهم شيعا ، ويقتل ذكور بنى إسرائيل ويستحيى نساءهم عتوا وظلما . وهامان كان وزيره المدبر لمكائده ، المعين له على ظلمه وبطشه (ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض) فلم يعصمهم الثراء والقوة والدهاء . لم تعصمهم من أخذ الله ، ولم تجعلهم ناجين ولا مفلتين من عذاب الله ، بل أدركهم وأخذهم كما سيجىء (وما كانوا سابقين) هؤلاء الذين ملكوا القوة والمال وأسباب البقاء والغلبة ، قد أخذهم الله جميعا . بعد ما فتنوا الناس وآذوهم طويلا (فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا . وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) فعاد أخذهم حاصب وهو الريح الصرصر التى تتطاير معها حصباء الأرض فتضربهم وتقتلهم , وثمود أخذتهم الصيحة . وقارون خسف به وبداره الأرض ،

وفرعون وهامان غرقا فى اليم . وذهبوا جميعا مأخوذين بظلمهم (وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) والآن . وعلى مصارع العتاة البغاة من الكفرة والظلمة والفسقة على مدار القرون . . والآن . وبعد الحديث فى مطالع السورة عن الفتنة والابتلاء والإغراء . . الآن يضرب المثل لحقيقة القوى المتصارعة فى هذا المجال . . إن هنالك قوة واحدة هى قوة الله . وما عداها من قوة الخلق فهو هزيل واهن ، من تعلق به أو احتمى ، فهو كالعنكبوت الضعيفة تحتمى ببيت من خيوط واهية . فهى وما تحتمى به سواء (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شئ وهوالعزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون) إنه تصوير عجيب صادق لحقيقة القوى فى هذا الوجود . الحقيقة التى يغفل عنها الناس أحيانا , فيسوء تقديرهم لجميع القيم ، ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات ، وتختل فى أيديهم جميع الموازين . ولا يعرفون إلى أين يتوجهون . ماذا يأخذون وماذا يدعون ؟ وعندئذ تخدعهم قوة الحكم والسلطان يحسبونها القوة القادرة التى تعمل فى هذه ، وتخدعهم قوة المال ، يحسبونها القوة المسيطرة على أقدار الناس وأقدار الحياة وتخدعهم قوة العلم يحسبونها أصل القوة وأصل المال ، وأصل سائر القوى التى يصول بها من يملكها ويجول ، تخدعهم هذه القوى الظاهرة . تخدعهم فى أيدى الأفراد وفى أيدى الجماعات وفى أيدى الدول , فيدورون حولها ، ويتهافتون عليها ، كما يدور الفراش على المصباح ، وكما يتهافت الفراش على النار ! وينسون القوة الوحيدة التى تخلق سائر القوى الصغيرة ، وتملكها ، وتمنحها ، وتوجهها , وتسخرها كما تريد ، حيثما تريد . وينسون أن الالتجاء إلى تلك القوى سواء كانت فى أيدى الأفراد ، أو الجماعات ، أو الدول . . كالتجاء العنكبوت إلى بيت العنكبوت . . . حشرة ضعيفة رخوة واهنة لا حماية لها من تكوينها الرخو ، ولا وقاية لها من بيتها الواهن . وليس هنالك إلا حماية الله ، وإلا حماه ، وإلا ركنه القوى الركين . هذه الحقيقة الضخمة هى التى عنى القرآن بتقريرها فى نفوس الفئة المؤمنة ، فكانت بها أقوى من جميع القوى التى وقفت فى طريقها ؛ وداست بها على كبرياء الجبابرة فى الأرض ودكت بها المعاقل والحصون . لقد استقرت هذه الحقيقة الضخمة فى كل نفس ، وعمرت كل قلب ، واختلطت بالدم ، وجرت معه فى العروق ، ولم تعد كملة تقال باللسان ، ولا قضية تحتاج إلى جدل . بل بديهة مستقرة فى النفس ، لا يجول غيرها فى حس ولا خيال . قوة الله وحدها هى القوة . وولاية الله وحدها هى الولاية . وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل ؛ مهما علا واستطال ، ومهما تجبر وطغى ، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل . إنها العنكبوت:وما تملك من القوى ليست سوى خيوط العنكبوت (وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) إن الله يعلم ما يدعون من دونه شيء . . إنهم يستعينون بأولياء يتخذونهم من دون الله والله يعلم حقيقة هؤلاء الأولياء . وهى الحقيقة التى صورت فى المثل السابق . . عنكبوت تحتمى بخيوط العنكبوت ! (وهو العزيز الحكيم) هو وحده العزيز القادر الحكيم المدبر لهذا الوجود (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) فلقد اتخذها جماعة من المشركين المغلقى القلوب والعقول مادة للسخرية والتهكم . وقالوا:إن رب محمد يتحدث عن الذباب والعنكبوت . ولم يهز مشاعرهم هذا التصوير العجيب لأنهم لا يعقلون ولا يعلمون (وما يعقلها إلا العالمون) ثم يربط تلك الحقيقة الضخمة التى قدمها بالحق الكبير فى تصميم هذا الكون كله على طريقة القرآن فى ربط كل حقيقة بذلك الحق الكبير (خلق الله السماوات والأرض بالحق . إن فى ذلك لآية للمؤمنين) وهكذا تجىء هذه الآية عقب قصص الأنبياء ، وعقب المثل المصور لحقيقة القوى فى الوجود , متناسقة معها مرتبطة بها ، بتلك الصلة الملحوظة . صلة الحقائق المتناثرة كلها بالحق الكامن فى خلق السماوات والأرض ؛ والذى قامت به السماوات والأرض ، فى ذلك النظام الدقيق الذى لا يتخلف ولا يبطئ ولا يختلف ولا يصدم بعضه بعضا ، لأنه حق متناسق لا عوج فيه ! (إن فى ذلك لآية للمؤمنين) الذين تتفتح قلوبهم لآيات الله الكونية المبثوثة فى تضاعيف هذا الكون وحناياه ، المشهودة فى تنسيقه وتنظيمه ، المنثورة فى جوانبه حيثما امتدت الأبصار . والمؤمنون هم الذين يدركونها ، لأنهم مفتوحو البصائر والمشاعر للتلقى والإدراك . وفى نهاية الشوط يربط الكتاب الذى أنزل على محمد ﷺ ويربط الصلاة وذكر الله ، بالحق الذى فى السماوات والأرض ، وبسلسلة الدعوة إلى الله من لدن نوح عليه السلام (اتل ما أوحى إليك من الكتاب ، وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر , ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون) وأقم الصلاة إن الصلاة – حين تقام – تنهى عن الفحشاء والمنكر . فهى اتصال بالله يخجل صاحبه ويستحيى أن يصطحب معه كبائر الذنوب وفواحشها ليلقى الله بها ، وهى تطهر وتجرد لا يتسق معها دنس الفحشاء والمنكر وثقلتهما . " من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعدا " . وما أقام الصلاة كما هى إنما أداها أداء ولم يقمها . . وفرق كبير بينهما . . فهى حين تقام ذكر لله (ولذكر الله أكبر) أكبر إطلاقا أكبر من كل اندفاع ومن كل نزوع . وأكبر من كل تعبد وخشوع (والله يعلم ما تصنعون) فلا يخفى عليه شيء ، ولا يلتبس عليه أمر . وأنتم إليه راجعون . فمجازيكم بما تصنعون .

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ{٤٦} وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ{٤٧} وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ{٤٨} بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ{٤٩} وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ{٥٠} أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{٥١} قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{٥٢} وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{٥٣} يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ{٥٤} يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ{٥٥} يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ{٥٦} كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ{٥٧} وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ{٥٨} الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{٥٩} وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{٦٠} وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ{٦١} اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{٦٢} وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ{٦٣} وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ{٦٤} فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ{٦٥} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٦٦} أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ{٦٧} وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ{٦٨} وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) {٦٩}

وفى الشوط الأخير يستطرد فى الحديث عن هذا الكتاب ، والعلاقة بينه وبين الكتب قبله . ويأمر المسلمين ألا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن – إلا الذين ظلموا منهم فبدلوا فى كتابهم ، وانحرفوا إلى الشرك ، والشرك ظلم عظيم – وأن يعلنوا إيمانهم بالدعوات كلها وبالكتب جميعها ، فهى حق من عند الله مصدق لما معهم . ثم يتحدث عن إيمان بعض أهل الكتاب بهذا الكتاب الأخير على حين يكفر به المشركون الذين أنزل الله الكتاب على نبيهم ، غير مقدرين لهذه المنة الضخمة ، ولا مكتفين بهذا الفضل المتمثل فى تنزيل الكتاب على رسول منهم ، يخاطبهم به ، ويحدثهم بكلام الله . ولم يكن يتلو من قبله كتابا ولا يخطه بيمينه ، فتكون هناك أدنى شبهة فى أنه من عمله ومن تأليفه ! ويحذر المشركين استعجالهم بعذاب الله ، ويهددهم بمجيئه بغتة ، ويصور لهم قربه منهم ، وإحاطة جهنم بهم ، وحالهم يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم . ثم يلتفت إلى المؤمنين الذين يتلقون الفتنة والإيذاء فى مكة ؛ يحضهم على الهجره بدينهم إلى الله ليعبدوه وحده . يلتفت إليهم فى أسلوب عجيب ، يعالج كل هاجسة تخطر فى ضمائرهم ، وكل معوق يقعد بهم ، ويقلب قلوبهم بين أصابع الرحمن فى طسات تشهد بأن منزل هذا القرآن هو خالق هذه القلوب ؛ فما يعرف مساربها ومداخلها الخفية ، ويلمسها هكذا إلا خالقها اللطيف الخبير . وينتقل من هذا إلى التعجيب من حال أولئك المشركين ، وهم يتخبطون فى تصوراتهم فيقرون لله – سبحانه – بخلق السماوات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر ، وتنزيل الماء من السماء ، وإحياء الأرض الموات ؛ وإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله وحده مخلصين له الدين . . ثم هم بعد ذلك يشركون بالله ، ويكفرون بكتابه ، ويؤذون رسوله ، ويفتنون المؤمنين به . ويذكر المشركين بنعمة الله عليهم بهذا الحرم الآمن الذى يعيشون فيه ، والناس من حولهم فى خوف وقلق . وهم يفترون على الله الكذب ويشركون به آلهة مفتراة . ويعدهم على هذا جهنم وفيها مثوى للكافرين . وتختم السورة بوعد من الله أكيد بهداية المجاهدين فى الله ، يريدون أن يخلصوا إليه ، مجتازين العوائق والفتن والمشاق وطول الطريق ، وكثرة المعوقين (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن – إلا الذين ظلموا منهم – وقولوا:امنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون) إن دعوة الله التى حملها نوح – عليه السلام – والرسل بعده حتى وصلت إلى خاتم النبيين محمد ﷺ لهى دعوة واحدة من عند إله واحد ، ذات هدف واحد ، هو رد البشرية الضالة إلى ربها ، وهدايتها إلى طريقه ، وتربيتها بمنهاجه . وإن المؤمنين بكل رسالة لإخوة للمؤمنين بسائر الرسالات:كلهم أمة واحدة ، تعبد إلها واحدا

ومن ثم يكشف المسلمين عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى ؛ لبيان حكمة مجيء الرسالة الجديدة ، والكشف عما بينها وبين الرسالات قبلها من صلة ، والإقناع بضرورة الأخذ بالصورة الأخيرة من صور دعوة الله (إلا الذين ظلموا منهم) فانحرفوا عن التوحيد الذى هو قاعدة العقيدة الباقية ؛ وأشركوا بالله وأخلوا بمنهجه فى الحياة . فهؤلاء لا جدال معهم ولا محاسنة . وهؤلاء هم الذين حاربهم الإسلام عندما قامت له دولة فى المدينة (وقولوا:آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، و إلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون) وإذن فلا حاجة إلى الشقاق والنزاع ، والجدل والنقاش . وكلهم يؤمنون بإله واحد ، والمسلمون يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل إلى من قبلهم ، وهو فى صميمه واحد ، والمنهج الإلهى متصل الحلقات (وكذلك أنزلنا إليك الكتاب . فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ، ومن هؤلاء من يؤمن به ، وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) (كذلك) على النهج الواحد المتصل . وعلى السنة الواحدة التى لا تتبدل . وعلى الطريقة التى يوحى بها الله لرسله (وكذلك أنزلنا إليك الكتاب) فوقف الناس بإزائه فى صفين:صف يؤمن به من أهل الكتاب ومن قريش ، وصف يجحده ويكفر به مع إيمان أهل الكتاب وشهادتهم بصدقة , وتصديقه لما بين أيديهم (وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) فهذه الآيات من الوضوح والاستقامة بحيث لا ينكرها إلا الذى يغطى روحه عنا ويسترها ، فلا يراها ولا يتملاها ! والكفر هو التغطية والحجاب فى أصل معناه اللغوى ، وهو ملحوظ فى مثل هذا التعبير (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك . إذن لارتاب المبطلون) وهكذا يتتبع القرآن الكريم مواضع شبهاتهم حتى الساذج الطفولى منها . فرسول الله ﷺ عاش بينهم فترة طويلة من حياته ، لا يقرأ ولا يكتب ؛ ثم جاءهم بهذا الكتاب العجيب الذى يعجز القارئين الكاتبين . ولربما كانت تكون لهم شبهة لو أنه كان من قبل قارئا كاتبا . فما شبهتهم وهذا ماضيه بينهم ؟ (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) فهو دلائل واضحة فى صدور الذين وهبهم الله العلم ، لا لبس فيها ولا غموض ، ولا شبهة فيها ولا ارتياب . دلائل يجدونها بينة فى صدورهم ، تطمئن إليها قلوبهم ، قلا تطلب عليها دليلا وهى الدليل (وقالوا:لولا أنزل عليه آيات من ربه . قل:إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين) يعنون بذلك الخوارق المادية التى صاحبت الرسالات من قبل فى طفولة البشرية . والتى لا تقوم حجة إلا على الجيل الذى يشاهدها . بينما هذه هى الرسالة الأخيرة التى تقوم حجتها على كل من بلغته دعوتها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ومن ثم جاءت آياتها الخوارق آيات متلوة من القرآن الكريم المعجز الذى لا تنفد عجائبه (قل:إنما الآيات عند الله) يظهرها عند الحاجة إليها ، وفق تقديره وتدبيره . وليس لى أن أقترح على الله شيئا . ليس هذا من شأنى ولا من أدبى (وإنما أنا نذير مبين) أنذر وأحذر وأكشف وأبين ؛ فأؤدى ما كلفته . ولله الأمر بعد ذلك والتدبير . إنه تجريد العقيدة من كل وهم وكل شبهة . وإيضاح حدود الرسول وهو بشر مختار . فلا تتلبس بصفات الله الواحد القهار . ولا تغيم حولها الشبهات التى غامت على الرسالات حين برزت فيها الخوارق المادية ، حتى اختلطت فى حس الناس والتبست بالأوهام والخرافات . ونشأت عنها الانحرافات . وهؤلاء الذين يطلبون الخوارق يغفلون عن تقدير فضل الله عليهم بتنزيل هذا القرآن (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؛ إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) وإنه للبطر بنعمة الله ورعايته التى تجل عن الشكر والتقدير . أو لم يكفهم أن يعيشوا مع هذا القرآن ؟ وهو يتنزل عليهم ، يحدثهم بما فى نفوسهم ، ويكشف لهم عما حولهم ؛ ويشعرهم أن عين الله عليهم ، وأنه معنى بهم حتى ليحدثهم بأمرهم ، ويقص عليهم القصص ويعلمهم (إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) فالذين يؤمنون هم الذين يجدون مس هذه الرحمة فى نفوسهم ، وهم الذين يتذكرون فضل الله وعظيم منته على البشرية بهذا التنزيل ؛ ويستشعرون كرمه وهو يدعوهم إلى حضرته وإلى مائدته وهو العلى الكبير . وهم الذين ينفعهم هذا القرآن ، لأنه يحيا فى قلوبهم , ويفتح لهم عن كنوزه ويمنحهم ذخائره ، ويشرق فى أرواحهم بالمعرفة والنور . فأما الذين لا يشعرون بهذا كله ، فيطلبون آية يصدقون بها هذا القرآن ! هؤلاء المطموسون الذين لا تتفتح قلوبهم للنور . هؤلاء لا جدوى من المحاولة معهم ؛ وليترك أمر الفصل بينه وبينهم إلى الله ! (قل:كفى بالله بينى وبينكم شهيدا ، يعلم ما فى السموات والأرض ، والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) وشهادة من يعلم ما فى السماوات والأرض أعظم شهادة . وهو الذى يعلم أنهم على الباطل (والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) الخاسرون على الإطلاق . الخاسرون لكل شىء . الخاسرون للدنيا والآخرة . الخاسرون لأنفسهم وللهدى والاستقامة والطمأنينة والحق والنور . إن الإيمان بالله كسب . كسب فى ذاته . والأجر عليه بعد ذلك فضل من الله . إنه طمأنينة فى القلب واستقامة على الطريق ، وثبات على الأحداث ؛ وثقة بالسند ، واطمئنان للحمى ، ويقين بالعاقبة . وإن هذا فى ذاته لهو الكسب ؛ وهو هو الذى يخسره الكافرون و(أؤلئك هم الخاسرون) ثم يمضى فى الحديث عن أولئك المشركين . عن استعجالهم بالعذاب . وجهنم منهم قريب (ويستعجلونك بالعذاب ، ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ، وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . يوم

يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ويقول:ذوقوا ما كنتم تعملون) ولقد كان المشركون يسمعون النذير ، ولا يدركون حكمة الله فى إمهالهم إلى حين ؛ فيستعجلون الرسول ﷺ بالعذاب على سبيل التحدى . وكثيرا ما يكون إمهال الله استدراجا للظالمين ليزدادوا عتوا وفسادا . أو امتحانا للمؤمنين ليزدادوا إيمانا وثباتا ; وليتخلف عن صفوفهم من لا يطيق الصبر والثبات . أو استبقاء لمن يعلم سبحانه أن فيهم خيرا من أولئك المنحرفين حتى يتبين لهم الرشد من الغى فيثوبوا إلى الهدى . أو استخراجا لذرية صالحة من ظهورهم تعبد الله وتنحاز إلى حزبه ولو كان اباؤهم من الضالين . . أو لغير هذا وذاك من تدبير الله المستور . . ولكن المشركين لم يكونوا يدركون شيئا من حكمة الله وتدبيره ، فكانوا يستعجلون بالعذاب على سبيل التحدى (ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب) وهنا يوعدهم الله بمجىء العذاب الذى يستعجلونه . مجيئه فى حينه . ولكن حيث لا ينتظرونه ولا يتوقعونه . وحيث يبهتون له ويفاجأون به (وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون) وبعد الوعيد بعذاب الدنيا الذى يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ، جعل يكرر استنكاره لاستعجالهم بالعذاب ، وجهنم لهم بالمرصاد (يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) وعلى طريقة القرآن فى التصوير ، وفى استحضار المستقبل كأنه مشهود ، صور لهم جهنم محيطة بالكافرين . وذلك بالقياس إليهم مستقبل مستور ؛ ولكنه بالقياس إلى الواقع المكشوف لعلم الله حاضر مشهود . وتصويره على حقيقته المستورة يوقع فى الحس رهبة ، ويزيد استعجالهم بالعذاب نكارة . فأنى يستعجل من تحيط به جهنم ، وتهم أن تطبق عليه وهو غافل مخدوع ؟! ويرسم لهم صورتهم فى جهنم هذه المحيطة بهم ؛ وهم يستعجلون بالعذاب (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ويقول:ذوقوا ما كنتم تعملون) وهو مشهد مفزع فى ذاته ، يصاحبه التقريع المخزى والتأنيب المرير: (ذوقوا ما كنتم تعملون . .(فهذه نهاية الاستعجال بالعذاب ؛ والاستخفاف بالنذير . ويدع الجاحدين المكذبين المستهترين فى مشهد العذاب يغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم , ليلتفت إلى المؤمنين ، الذين يفتنهم أولئك المكذبون عن دينهم ، ويمنعونهم من عبادة ربهم . . يلتفت إليهم يدعوهم إلى الفرار بدينهم ، والنجاة بعقيدتهم . فى نداء حبيب وفى رعاية سابغة ، وفى أسلوب يمس كل أوتار القلوب (يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة ، فإياى فاعبدون . كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، نعم أجر العاملين ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون . وكأى من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم ، وهو السميع العليم) إن خالق هذه القلوب ، الخبير بمداخلها ، العليم بخفاياها ، العارف بما يهجس فيها , وما يستكن فى حناياها . . إن خالق هذه القلوب لينادىها هذا النداء الحبيب:يا عبادى الذين آمنوا:يناديها هكذا وهو يدعوها إلى الهجرة بدينها ، لتحس منذ اللحظة الأولى بحقيقتها . ينسبتها إلى ربها وإضافتها إلى مولاها (يا عبادى) هذه هى اللمسة الأولى . واللمسة الثانية هى (إن أرضى واسعة) أنتم عبادى . وهذه أرضى . وهى واسعة . فسيحة تسعكم . فما الذى يمسككم فى مقامكم الضيق , والذى تفتنون فيه عن دينكم ، ولا تملكون أن تعبدوا الله مولاكم ؟ غادروا هذا الضيق يا عبادى إلى أرضى الواسعة ، ناجين بدينكم ، أحرارا فى عبادتكم (فإياى فاعبدون) ثم يمضى يتتبع هواجس القلوب وخواطرها . فإذا الخاطر الثانى هو الخوف من خطر الهجرة . خطر الموت الكامن فى محاولة الخروج – وقد كان المشركون يمسكون بالمؤمنين فى مكة ، ولا يسمحون لهم بالهجرة عندما أحسوا بخطرهم بعد خروج المهاجرين الأولين – ثم خطر الطريق لو قدر لهم أن يخرجوا من مكة . ومن هنا تجىء اللمسة الثانية (كل نفس ذائقة الموت . ثم إلينا ترجعون) فالموت حتم فى كل مكان ، فلا داعى أن يحسبوا حسابه ، وهم لا يعلمون أسبابه . وإلى الله المرجع والمآب . فهم مهاجرون إليه ، فى أرضه الواسعة ، وهم عائدون إليه فى نهاية المطاف . وهم عباده الذين يؤويهم إليه فى الدنيا والآخرة . فمن ذا يساوره الخوف , أو يهجس فى ضميره القلق ، بعد هذه اللمسات ؟ ومع هذا فإنه لا يدعهم إلى هذا الإيواء وحده ؛ بل يكشف عما أعده لهم هناك . وإنهم ليفارقون وطنا فلهم فى الأرض عنه سعة . ويفارقون بيوتا فلهم فى الجنة منها عوض . عوض من نوعها وأعظم منها (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها) وهنا يهتف لهم بالعمل والصبر والتوكل على الله: نعم أجر العاملين ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون . وهى لمسة التثبيت والتشجيع لهذه القلوب ، فى موقف القلقلة والخوف والحاجة إلى التثبيت والتشجيع . ثم يهجس فى النفس خاطر القلق على الرزق ، بعد مغادرة الوطن والمال ومجال العمل والنشاط المألوف ، وأسباب الرزق المعلومة . فلا يدع هذا الخاطر دون لمسة تقر لها القلوب (وكأى من دابة لا تحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم) لمسة توقظ قلوبهم إلى الواقع المشهود فى حياتهم . فكم من دابة لا تحصل رزقها ولا تجمعه ولا تحمله ولا تهتم به ، ولا تعرف كيف توفره لنفسها ، ولا كيف تحتفظ به معها . ومع هذا فإن الله يرزقها ولا يدعها تموت جوعا . وكذلك يرزق الناس . ويختم هذه اللمسات الرفيقة العميقة بوصلهم بالله ، وإشعارهم برعايته وعنايته ، فهو يسمع لهم ويعلم حالهم ، ولا يدعهم وحدهم (وهو السميع العليم) وتنتهى هذه الجولة القصيرة ؛ وقد لمست كل حنية فى تلك القلوب . وبعد هذه الجولة مع

المؤمنين يرجع السياق إلى التناقض في موقف المشركين وتصوراتهم . فهم يقرون بخلق الله للسماوات والأرض وتسخيره للشمس والقمر وإنزاله الماء من السماء وإحيائه الأرض بعد موتها . وما يتضمنه هذا من بسط الرزق لهم أو تضييقه عليهم . وهم يتوجهون لله وحده بالدعاء عند الخوف . . ثم هم بعد ذلك كله يشركون بالله ، ويؤذون من يعبدونه وحده ، ويفتنونهم عن عقيدتهم التي لا تناقض فيها ولا اضطراب ، وينسون نعمة الله عليهم في تأمينهم في البيت الحرام ، وهم يروعون عباده في بيته الحرام (ولئن سألتهم:من خلق السماوات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ليقولن:الله . فأنى يؤفكون ? الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ، إن الله بكل شيء عليم . ولئن سألتهم:من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن:الله . قل:الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون . وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ، لو كانوا يعلمون . فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين . فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون . أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ? أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ? ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه ? أليس في جهنم مثوى للكافرين ?)

وهذه الآيات ترسم صورة لعقيدة العرب إذ ذاك ؛ وتوحي بأنه كان لها أصل من التوحيد ; ثم وقع فيها الانحراف . ولا عجب في هذا فهم من أبناء إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - وقد كانوا بالفعل يعتقدون أنهم على دين إبراهيم ، وكانوا يعتزون بعقيدتهم على هذا الأساس ؛ ولم يكونوا يحفلون كثيرا بالديانة الموسوية أو المسيحية وهما معهم في الجزيرة العربية ، اعتزازا منهم بأنهم على دين إبراهيم . غير منتبهين إلى ما صارت إليه عقيدتهم من التناقض والانحراف . كانوا إذا سئلوا عن خالق السماوات والأرض ، ومسخر الشمس والقمر ، ومنزل الماء من السماء ، ومحيي الأرض بعد موتها بهذا الماء . . يقرون أن صانع هذا كله هو الله . ولكنهم مع هذا يعبدون أصنامهم ، أو يعبدون الجن ، أو يعبدون الملائكة ؛ ويجعلونهم شركاء لله في العبادة ، وإن لم يجعلوهم شركاء له في الخلق . . هو تناقض عجيب . تناقض يعجب الله منه في هذه الآيات: (فأنى يؤفكون ?) أي كيف يصرفون عن الحق إلى هذا التخليط العجيب ? (بل أكثرهم لا يعقلون) فليس يعقل من يقبل عقله هذا التخليط ! وبين السؤال عن خالق السماوات والأرض ومسخر الشمس والقمر ؛ والسؤال عن منزل الماء من السماء ومحيي الأرض بعد موتها . يقرر أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له فيربط سنة الرزق بخلق السماوات والأرض وسائر آثار القدرة والخلق ، ويكل هذا إلى علم الله بكل شيء: إن الله بكل شيء عليم . . والرزق ظاهر الارتباط بدورة الأفلاك ، وعلاقتها بالحياة والماء والزرع والإنبات . وبسط الرزق وتضييقه بيد الله ؛ وفق الأوضاع والظواهر العامة المذكورة في الآيات . فموارد الرزق من ماء ينزل ، وأنهار تجري ، وزروع تنبت ، وحيوان يتكاثر . ومن معادن وفلزات في جوف الأرض ، وصيد في البر والبحر . . إلى نهاية موارد الرزق العامة ، تتبع كلها نواميس السماوات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر تبعية مباشرة ظاهرة . ولو تغيرت تلك النواميس عما هي عليه أدنى تغيير لظهر أثر هذا في الحياة كلها على سطح الأرض ؛ وفي المخبوء فيها من الثروات الطبيعية الأخرى سواء بسواء . فحتى هذا المخبوء في جوف الأرض ؛ إنما يتم تكوينه وتخزينه واختلافه من مكان إلى مكان وفق أسباب من طبيعة الأرض ومن مجموعة تأثراتها بالشمس والقمر ! وبمناسبة الحديث عن الحياة في الأرض وعن الرزق والبسط فيه والقبض ، يضع أمامه الميزان الدقيق للقيم كلها . فإذا الحياة الدنيا بأرزاقها ومتاعها لهو ولعب حين تقاس بالحياة في الدار الآخرة (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ، لو كانوا يعلمون) فهذه الحياة الدنيا في عمومها ليست إلا لهوا ولعبا حين لا ينظر فيها إلى الآخرة . حين تكون هي الغاية العليا للناس . حين يصبح المتاع فيها هو الغاية من الحياة . فأما الحياة الآخرة فهي الحياة الفائضة بالحيوية . هي(الحيوان) لشدة ما فيها من الحيوية والامتلاء . والقرآن لا يعني بهذا أن يحض على الزهد في متاع الحياة الدنيا والفرار منه وإلقائه بعيدا . إن هذا ليس روح الإسلام ولا اتجاهه . إنما يعني مراعاة الآخرة في هذا المتاع ، والوقوف فيه عند حدود الله . كما يقصد الاستعلاء عليه فلا تصبح النفس أسيرة له ، يكلفها ما يكلفها فلا تتأبى عليه ! والمسألة مسألة قيم يزنها بميزانها الصحيح . فهذه قيمة الدنيا وهذه قيمة الآخرة كما ينبغي أن يستشعرها المؤمن ؛ ثم يسير في متاع الحياة الدنيا على ضوئها ، مالكا لحريته معتدلا في نظرته:الدنيا لهو ولعب , والآخرة حياة مليئة بالحياة . وبعد هذه الوقفة للوزن والتقويم يمضي في عرض ما هم فيه من متناقضات (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين . فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) وهذا كذلك من التناقض والاضطراب . فهم إذا ركبوا في الفلك ؛ وأصبحوا على وجه اليم كاللعبة تتقاذفها الأمواج ؛ لم يذكروا إلا الله . ولم يشعروا إلا بقوة واحدة يلجأون إليها هي قوة الله . ووحدوه في مشاعرهم وعلى ألسنتهم سواء ؛ وأطاعوا فطرتهم التي تحس وحدانية الله (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) ونسوا وحي الفطرة المستقيم ونسوا دعاءهم لله وحده

مخلصين له الدين وانحرفوا إلى الشرك بعد الإقرار والتسليم ! وغاية هذا الانحراف أن ينتهى بهم إلى الكفر بما آتاهم الله من النعمة ، وما آتاهم من الفطرة ، وما آتاهم من البينة ؛ وأن يتمتعوا متاع الحياة الدنيا المحدود إلى الأجل المقدور . ثم يكون بعد ذلك ما يكون ، وهو الشر والسوء (ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون) وهو التهديد من طرف خفى بسوء ما سوف يعلمون ! ثم يذكرهم بنعمة الله عليهم فى إعطائهم هذا الحرم الآمن الذى يعيشون فيه ؛ فلا يذكرون نعمة الله ولا يشكرونها بتوحيده وعبادته . بل إنهم ليروعون المؤمنين فيه (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ؟ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ؟) ولقد كان أهل الحرم المكى يعيشون فى أمن ، يعظمهم الناس من أجل بيت الله ، ومن حولهم القبائل تتناحر ، ويفزع بعضهم بعضا ، فلا يجدون الأمان إلا فى ظل البيت الذى آمنهم الله به وفيه . فكان عجيبا أن يجعلوا من بيت الله مسرحا للأصنام ، ولعبادة غير الله أيا كان ! (أفبالباطل يؤمنون ؟ وبنعمة الله يكفرون ؟) (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه ؟ أليس فى جهنم مثوى للكافرين) وهم قد افتروا على الله الكذب بنسبة الشركاء إليه . وهم كذبوا بالحق لما جاءهم وجحدوا به . أليس فى جهنم مثوى للكافرين ؟ بلى وعن يقين ! ويختم السورة بصورة الفريق الآخر . الذين جاهدوا فى الله ليصلوا إليه ؛ ويتصلوا به . الذين احتملوا فى الطريق إليه ما احتملوا فلم ينكصوا ولم ييأسوا . الذين صبروا على فتنة النفس وعلى فتنة الناس . الذين حملوا أعباءهم وساروا فى ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب . . أولئك لن يتركهم الله وحدهم ولن يضيع إيمانهم ، ولن ينسى جهادهم . إنه سينظر إليهم من عليائه فيرضاهم . وسينظر إلى جهادهم إليه فيهديهم . وسينظر إلى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم . وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم فيجازيهم خير الجزاء (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا . وإن الله لمع المحسنين)

سورة الروم مكية

و آياتها ٦٠

نزلت الآيات الأولى من هذه السورة بمناسبة معينة . ذلك حين غلبت فارس على الروم فيما كانت تضع يدها من جزيرة العرب . وكان ذلك فى إبان احتدام الجدل حول العقيدة بين المسلمين السابقين إلى الإسلام فى مكة قبل الهجرة والمشركين . . ولما كان الروم فى ذلك الوقت أهل كتاب دينهم النصرانية ، وكان الفرس غير موحدين ديانتهم المجوسية ، فقد وجد المشركون من أهل مكة فى الحادث فرصة لاستعلاء عقيدة الشرك على عقيدة التوحيد , وفألا بانتصار ملة الكفر على ملة الإيمان . ومن ثم نزلت الآيات الأولى من هذه السورة تبشر بغلبة أهل الكتاب من الروم فى بضع سنين غلبة يفرح لها المؤمنون ، الذين يودون انتصار ملة الإيمان من كل دين . ولكن القرآن لم يقف بالمسلمين وخصومهم عند هذا الوعد ، ولا فى حدود ذلك الحادث . إنما كانت هذه مناسبة لينطلق بهم إلى آفاق أبعد وآماد أوسع من ذلك الحادث الموقوت . وليصلهم بالكون كله ، وليربط بين سنة الله فى نصر العقيدة السماوية والحق الكبير الذى قامت عليه السماوات والأرض وما بينهما . وليصل بين ماضى البشرية وحاضرها ومستقبلها . ثم يستطرد بها إلى الحياة الأخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، وإلى العالم الآخر بعد عالم الأرض المحدود . ثم يطوف بهم فى مشاهد الكون ، وفى أغوار النفس ، وفى أحوال البشر ، وفى عجائب الفطر . . فإذا هم فى ذلك المحيط الهائل الضخم الرحيب يطلعون على آفاق من المعرفة ترفع حياتهم وتطلقها ، وتوسع آمادها وأهدافها ، وتخرجهم من تلك العزلة الضيقة . عزلة المكان والزمان والحادث . إلى فسحة الكون كله:ماضيه وحاضره ومستقبله ، وإلى نواميس الكون وسننه وروابطه . ويمضى سياق السورة فى عرض تلك الارتباطات ، وتحقيق دلالاتها فى نظام الكون ، وتثبيت مدلولاتها فى القلوب . . يمضى سياق السورة فى شوطين مترابطين:

فى الشوط الأول يربط بين نصر المؤمنين والحق الذى تقوم عليه السماوات والأرض وما بينهما , ويرتبط به أمر الدنيا والآخرة . ويوجه قلوبهم إلى سنة الله فيمن مضى قبلهم من القرون . ويقيس عليها قضية البعث والإعادة . ومن ثم يعرض عليهم مشهدا من مشاهد القيامة وما يجرى فيه للمؤمنين والكافرين . ثم يعود من هذه الجولة إلى مشاهد الكون , وآيات الله المبثوثة فى ثناياه ؛ ودلالة تلك المشاهد وإيحائها للقلوب . ويضرب لهم من أنفسهم ومما ملكت أيمانهم مثلا يكشف عن سخافة فكرة الشرك ، وقيامها على الأهواء التى لا تستند إلى حق أو علم . . وينهى هذا الشوط بتوجيه الرسول ﷺ إلى اتباع طريق الحق الواحد الثابت الواضح . طريق الفطرة التى فطر الناس عليها ؛ والتى لا تتبدل ولا تدور مع الهوى ؛ ولا يتفرق متبعوها فرقا وشيعا ، كما تفرق الذين اتبعوا الهوى .

وفى الشوط الثانى يكشف عما فى طبيعة الناس من تقلب لا يصلح أن تقام عليه الحياة . ما لم يرتبطوا بمعيار ثابت لا يدور مع الأهواء ، ويصور حالهم فى الرحمة والضر ، وعند بسط الرزق وقبضه . ويستطرد بهذه المناسبة إلى وسائل إنفاق هذا الرزق وتنميته . ويعود إلى قضية الشرك والشركاء فيعرضها من هذه الزاوية ؛ فإذا هم لا يرزقون ولا يميتون ولا يحيون . ويربط بين ظهور الفساد فى البر والبحر وعمل الناس وكسبهم ؛ ويوجههم إلى السير فى الأرض ، والنظر فى عواقب المشركين من قبل . ومن ثم يوجه الرسول ﷺ إلى الاستقامة على دين الفطرة ، من قبل أن يأتى اليوم الذى يجزى فيه كل بما كسبت يداه . ويعود بهم بعد ذلك إلى آيات الله فى مشاهد الكون كما عاد بهم فى الشوط الأول . ويعقب عليها بأن الهدى هدى الله ؛ وأن الرسول ﷺ لا يملك إلا البلاغ , فهو لا يهدى العمى ولا يسمع الصم . ثم يطوف بهم فى جولة جديدة فى ذات أنفسهم ويذكرهم بأطوار نشأتهم من بدئها إلى منتهاها ، منذ الطفولة الواهنة الضعيفة إلى الموت والبعث والقيامة ، ويعرض عليهم مشهدا من مشاهدها . ثم ينهى هذا الشوط ويختم معه السورة بتوجيه الرسول ﷺ إلى الصبر على دعوته ، وما يلقاه من الناس فيها ; والاطمئنان إلى أن وعد الله حق لا بد آت ؛ فلا يقلقه ولا يستخفه الذين لا يوقنون . وجو السورة وسياقها معا يتعاونان فى تصوير موضوعها الرئيسى . و هو الكشف عن الارتباطات الوثيقة بين أحوال الناس ، وأحداث الحياة ، وماضى البشرية وحاضرها ومستقبلها , وسنن الكون ونواميس الوجود . وفى ظلال هذه الارتباطات يبدو أن كل حركة وكل نأمة ، وكل حادث وكل حالة ، وكل نشأة وكل عاقبة ، وكل نصر وكل هزيمة . . كلها مرتبطة برباط وثيق ، محكومة بقانون دقيق . وأن مرد الأمر فيها كله لله: (لله الأمر من قبل ومن بعد). وهذه هى الحقيقة الأولى

التي يؤكدها القرآن كله ، بوصفها الحقيقة الموجهة فى هذه العقيدة . الحقيقة التى تنشأ عنها جميع التصورات والمشاعر والقيم والتقديرات ؛ والتى بدونها لا يستقيم تصور ولا تقدير . .

(الم{١} غُلِبَتِ الرُّومُ{٢} فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ{٣} فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ{٤} بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{٥} وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{٦} يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ){٧}

بدأت السورة بالأحرف المقطعة: ألف . لام . ميم التى اخترنا فى تفسيرها أنها للتنبيه إلى أن هذا القرآن – ومنه هذه السورة – مصوغ من مثل هذه الأحرف ، التى يعرفها العرب ؛ وهو مع هذا معجز لهم ، لا يملكون صياغة مثله ، والأحرف بين أيديهم ، ومنها لغتهم . ثم جاءت النبوءة الصادقة الخاصة بغلبة الروم فى بضع سنين . وقد روى ابن جرير – بإسناده – عن عبد الله ابن مسعود – رضى الله عنه – قال:كانت فارس ظاهرة على الروم . وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ؛ و كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب ، وهم أقرب إلى دينهم . فلما نزلت: الم . غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين . قالوا:يا أبا بكر . إن صاحبك يقول:إن الروم تظهر على فارس فى بضع سنين . قال:صدق . قالوا:هل لك أن نقامرك ؟ فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين . فمضت السبع ولم يكن شيء . ففرح المشركون بذلك ، فشق على المسلمين فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال:" ما بضع سنين عندكم ؟ " قالوا:دون العشر . قال:" اذهب فزايدهم وازدد سنتين فى الأجل " . قال:فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس . ففرح المؤمنون بذلك . وأول هذه الإيحاءات ذلك الترابط بين الشرك والكفر فى كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والإيمان . ومع أن الدول قديما لم تكن شديدة الاتصال ، والأمم لم تكن وثيقة الارتباط كما هو الشأن فى عصرنا الحاضر . مع هذا فإن المشركين فى مكة كانوا يحسون أن انتصار المشركين فى أى مكان على أهل الكتاب هو انتصار لهم ؛ وكان المسلمون كذلك يحسون أن هناك ما يربطهم بأهل الكتاب ، وكان يسوءهم أن ينتصر المشركون فى أى مكان ؛ وكانوا يدركون أن دعوتهم وأن قضيتهم ليست فى عزلة عما يجرى فى أنحاء العالم من حولهم , ويؤثر فى قضية الكفر والإيمان . والإيحاء الآخر هو تلك الثقة المطلقة فى وعد الله ، كما تبدو فى قولة أبى بكر – رضى الله عنه – فى غير تلعثم ولا تردد ، والمشركون يعجبونه من قول صاحبه ؛ فما يزيد على أن يقول:صدق . ويراهنونه فيراهن وهو واثق . ثم يتحقق وعد الله ، فى الأجل الذى حدد (فى بضع سنين) وهذه الثقة المطلقة على هذا النحو الرائع هى التى ملأت قلوب المسلمين قوة ويقينا وثباتا فى وجه العقبات والآلام والمحن ، حتى تمت كلمة الله وحق وعد الله . وهى عدة كل ذى عقيدة فى الجهاد الشاق الطويل . والإيحاء الثالث هو فى تلك الجملة المعترضة فى مساق الخبر ، من قول الله سبحانه (لله الأمر من قبل ومن بعد) والمسارعة برد الأمر كله لله . فى هذا الحادث وفى سواه . وتقرير هذه الحقيقة الكلية ، لتكون ميزان الموقف وميزان كل موقف . فالنصر والهزيمة ,وظهور الدول ودثورها ، وضعفها وقوتها . شأنه شأن سائر ما يقع فى هذا الكون من أحداث ومن أحوال ، مرده كله إلى الله ، يصرفه كيف شاء ، وفق حكمته ووفق مراده . وما الأحداث والأحوال إلا آثار لهذه الإرادة المطلقة ، التى ليس لأحد عليها من سلطان ؛ ولا يدرى أحد ما وراءها من الحكمة ؛ ولا يعرف مصادرها وموارداها إلا الله . و إذن فالتسليم والاستسلام هو أقصى ما يملكه البشر أمام الأحوال والأحداث التى يجريها الله وفق قدر مرسوم . ولقد صدق وعد الله ، وفرح المؤمنون بنصر الله (ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم) فالأمر له من قبل ومن بعد . وهو ينصر من يشاء . لا مقيد لمشيئته سبحانه . والمشيئة التى تريد النتيجة هى ذاتها التى تيسر الأسباب . فلا تعارض بين تعليق النصر بالمشيئة ووجود الأسباب . والنواميس التى تصرف هذا الوجود كله صادرة عن المشيئة الطليقة . وقد أرادت هذه المشيئة أن تكون هناك سنن لا تتخلف ؛ وأن تكون هناك نظم لها استقرار وثبات . والنصر والهزيمة أحوال تنشأ عن مؤثرات ، وفق تلك السنن التى اقتضتها تلك المشيئة الطليقة (وعد الله . لا يخلف الله وعده . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) ذلك النصر وعد من الله ، فلابد من تحققه فى واقع الحياة (لا يخلف الله وعد) فوعده صادر عن إرادته الطليقة ، وعن حكمته العميقة . وهو قادر على تحقيقه ، لا راد لمشيئته ، ولا معقب لحكمه ، ولا يكون فى الكون إلا ما يشاء (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ولو بدا فى الظاهر أنهم علماء ، وأنهم يعرفون الكثير . ذلك أن علمهم سطحى ، يتعلق بظواهر الحياة ، ولا يتعمق سننها الثابتة ، وقوانينها الأصيلة ؛ ولا يدرك نواميسها الكبرى ، وارتباطاتها الوثيقة (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا) ثم لا يتجاوزون هذا الظاهر ؛ ولا يرون ببصيرتهم ما وراءه . وظاهر الحياة الدنيا محدود صغير ، مهما بدا للناس واسعا شاملا ،

يستغرق جهودهم بعضه ,ولا يستقصونه (وهم عن الآخرة هم غافلون) فالآخرة حلقة فى سلسلة النشأة ، وصفحة من صفحات الوجود الكثيرة . والذين لا يدركون حكمة النشأة ، ولا يدركون ناموس الوجود يغفلون عن الآخرة ، ولا يقدرونها قدرها ، ولا يحسبون حسابها ، ولا يعرفون أنها نقطة فى خط سير الوجود ، لا تتخلف مطلقا ولا تحيد .

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ{٨} أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{٩} ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ{١٠} اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{١١} وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ{١٢} وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاء وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ{١٣} وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ{١٤} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ{١٥} وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الْآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ{١٦} فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ{١٧} وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ{١٨} يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ{١٩} وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ{٢٠} وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ{٢١} وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ{٢٢} وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ{٢٣} وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{٢٤} وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ{٢٥} وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ{٢٦} وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{٢٧} ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{٢٨} بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ{٢٩} فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)}٣٠{نِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ{٣١} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ){٣٢}

(أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى . و إن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) فطبيعة تكوينهم هم أنفسهم ، وطبيعة هذا الكون كله من حولهم توحى بأن هذا الوجود قائم على الحق ، ثابت على الناموس ، لا يضطرب ، ولا تتفرق به السبل ، ولا تتخلف دورته , ولا يصطدم بعضه ببعض ،ولا يسير وفق المصادفة العمياء ، ولا وفق الهوى المتقلب ، إنما يمضى فى نظامه الدقيق المحكم المقدر تقديرا . وأن من مقتضيات هذا الحق الذى يقوم عليه الوجود أن تكون هناك آخرة ، يتم فيها الجزاء على العمل ، ويلقى الخير والشر عاقبتهما كاملة . إنما كل شىء إلى أجله المرسوم . وفق الحكمة المدبرة ؛ وكل أمر يجىء فى موعده لا يستقدم لحظة ولا يستأخر . وإذا لم يعلم البشر متى تكون الساعة ، فإن هذا ليس معناه أنها لا تكون ! ولكن تأجيلها يغرى الذين لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ويخدعهم (وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) وهى دعوة إلى التأمل فى مصائر الغابرين ؛ وهم ناس من الناس ، وخلق من خلق الله ، تكشف مصائرهم الماضية عن مصائر خلفائهم الآتية . فسنة الله هى سنة الله فى الجميع . وسنة الله حق ثابت يقوم عليه هذا الوجود ، بلا محاباة لجيل من الناس ، ولا هوى يتقلب فتتقلب معه العواقب . حاشا لله رب العالمين ! فهؤلاء أقوام عاشوا قبل جيل المشركين فى مكة (كانوا أشد منهم قوة) (وأثاروا الأرض) فحرثوها وشقوا عن باطنها ، وكشفوا عن ذخائرها (وعمروها أكثر مما عمروها) فقد كانوا أكثر حضارة من العرب ، وأقدر منهم على عمارة الأرض . . . ثم وقفوا عند ظاهر الحياة الدنيا لا يتجاوزونه إلى ما وراءه (وجاءتهم رسلهم بالبينات) فلم تتفتح بصائرهم لهذه البينات ؛ و لم يؤمنوا فتتصل ضمائرهم بالنور الذى يكشف الطريق . فمضت فيهم سنة الله فى المكذبين ؛ ولم تنفعهم قوتهم ؛ ولم يغن عنهم علمهم ولا حضارتهم ; ولقوا جزاءهم العادل الذى يستحقونه (فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى . . كانت السوأى هى العاقبة التى لقيها المسيئون وكانت جزاء وفاقا على (أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون) ومن هاتين الجولتين فى أغوار الكون وأغوار التاريخ يردهم إلى الحقيقة التى يغفل عنها الغافلون . حقيقة البعث والمآب . وهى طرف

من الحق الأكبر الذى يقوم عليه الوجود (الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون) وهى حقيقة بسيطة واضحة . و الترابط والتناسق بين جزئيها أو بين حلقتيها واضح كذلك . فالإعادة كالبدء لا غرابة فيها . وهما حلقتان فى سلسلة النشأة ، مترابطتان لا انفصام بينهما . والرجعة فى النهاية إلى رب العالمين ، الذى أنشأ النشأة الأولى والنشأة الآخرة ، لتربية عباده ورعايتهم ومجازاتهم فى النهاية على ما يعملون . وعندما يصل السياق إلى البعث والمآب يعرض مشهدا من مشاهد القيامة ، ويرسم مصائر المؤمنين والمكذبين حين يرجعون ؛ ويكشف عن عبث اتخاذ الشركاء وسخف عقيدة المشركين (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ، ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين . ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون) فها هى ذى الساعة التى يغفل عنها الغافلون ، ويكذب بها المكذبون . ها هى ذى تجىء ، أو ها هى ذى تقوم ! وهؤلاء هم المجرمون حائرين يائسين ، لا أمل لهم فى نجاة ، ولا رجاء لهم فى خلاص . ولا شفاعة لهم من شركائهم الذين اتخذوهم فى الحياة الدنيا ضالين مخدوعين ! هؤلاء هم حائرين يائسين لا منقذ لهم ولا شفيع . ثم ها هم أولاء يكفرون بشركائهم الذين عبدوهم فى الأرض وأشركوهم مع الله رب العالمين . ثم ها هو ذا مفرق الطريق بين المؤمنين والكافرين: (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) ويتلقون فيها ما يفرح القلب ويسر الخاطر ويسعد الضمير (وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون) وتلك نهاية المطاف . وعاقبة المحسنين والمسيئين . ومن هذه الجولة فى مشاهد القيامة فى العالم الآخر يعود بهم إلى هذا العالم ، وإلى مشاهد الكون والحياة . وإلى عجائب الخلق وأسرار النفس ، وإلى خوارق الأحداث ومعجزات التكوين . ويبدأ هذه الجولة بتسبيح الله حين تقلب الليل والنهار وحمد الله فى الكون العريض بالعشى والأظهار (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون . يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله . إن فى ذلك لآياتلقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده – وهو أهون عليه – وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) إنها جولة ضخمة هائلة ، لطيفة عميقة ، بعيدة الآماد والأغوار . جولة تطوف بالقلب البشرى فى الأمسيات والأصباح ، والسماوات والأرض ، والعشى والأظهار ، وتفتح هذا القلب لتدبر الحياة والموت والعمليات الدائبة فى النشوء والدثور . وترتد به إلى نشأة الإنسان الأولى ، وإلى ما ركب فى فطرته من ميول ونوازع ، وقوى وطاقات ، وما يقوم بين زوجيه من علائق وروابط ، وفق تلك الميول والنوازع وهذه القوى والطاقات . وتوجهه إلى آيات الله فى خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان وفقا لاختلاف البيئة والمكان . وإلى تدبر ما يعترى الكائن البشرى من نوم ويقظة وراحة وكد . وإلى ما يعترى الكون من ظواهر البرق والمطر ، وما تثيره فى نفوس البشر من خوف وطمع ، وفى بنية الأرض من حياة وازدهار . وتمضى هذه الجولة العجيبة فى النهاية بالقلب البشرى إلى قيام السماوات والأرض فى هذا كله بأمر الله ؛ وإلى توجه من فى السماوات والأرض كلهم لله . وتنتهى بالحقيقة التى تتجلى حينئذ واضحة هينة يسيرة:إن الله هو يبدىء ويعيد . والإعادة أهون عليه . و له المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون) إن ذلك التسبيح وهذا الحمد يجيئان تعقيبا على مشهد القيامة فى الفقرة السابقة ، وفوز المؤمنين بروضة فيها يحبرون ، وانتهاء الكافرين المكذبين إلى شهود العذاب . ومقدمة لهذه الجولة فى ملكوت السماوات والأرض ، وأغوار النفس وعجائب الخلق . فيتسقان مع التعقيب على المشهد وعلى التقديم للجولة كل الاتساق . والنص يربط التسبيح والحمد بالأوقات:الإمساء والإصباح والعشى والأظهار ؛ كما يربطهما بآفاق السماوات والأرض . فيتقصى بهما الزمان والمكان ؛ ويربط القلب البشرى بالله فى كل بقعة وفى كل أوان ؛ ويشعر بتلك الرابطة فى الخالق مع هيكل الكون ودورة الأفلاك وظواهر الليل والنهار والعشى والأظهار (يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها) تلك العملية الدائبة التى لا تكف ولا تنى لحظة واحدة من لحظات الليل والنهار فى كل مكان ، على سطح الأرض ، وفى أجواز الفضاء ، وفى أعماق البحار . . ففى كل لحظة يتم هذا التحول . بل هذه المعجزة الخارقة التى لا ننتبه إليها لطول الألفة والتكرار . فى كل لحظة يخرج حى من ميت ويخرج ميت من حى . وفى كل لحظة يتحرك برعم

ساكن من جوف حبة أو نواة فيفلقها ويخرج إلى وجه الحياة ؛ وفى كل لحظة يجف عود أو شجرة تستوفى أجلها فتتحول إلى هشيم أو حطام . ومن خلال الهشيم والحطام توجد الحبة الجديدة الساكنة المتهيئة للحياة والإنبات ؛ ويوجد الغاز الذى ينطلق فى الجو أو تتغذى به التربة ، وتستعد ، إنها دورة دائبة عجيبة رهيبة لمن يتأملها بالحس الواعى والقلب البصير ، ويراها على هدى القرآن ونوره المستمد من نور الله . (وكذلك تخرجون) فالأمر عادى واقعى لا غرابة فيه وليس بدعا مما يشهده الكون فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار فى كل مكان ! (ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) والتراب ميت ساكن ؛ ومنه نشأ الإنسان . وهذه المعجزة الخارقة آية من آيات القدرة ، وإيحاء كذلك بالصلة الوثيقة بين البشر وهذه الأرض التى يعيشورن عليها ؛ و التى يلتقون بها فى أصل تكوينهم ، وفى النواميس التى تحكمها وتحكمهم فى نطاق الوجود الكبير . والنقلة الضخمة من صورة التراب الساكن الزهيد إلى صورة الإنسان المتحرك الجليل القدر . . نقلة تثير التأمل فى صنع الله ؛ وتستجيش الضمير للحمد والتسبيح لله ؛ وتحرك القلب لتمجيد الصانع المتفضل الكريم . ومن مجال الخلقة الأولى لنوع البشر ينتقل إلى مجال الحياة المشتركة بين جنسى البشر(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) والناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الأخر ، وتشغل أعصابهم ومشاعرهم تلك الصلة بين الجنسين ، وتدفع خطاهم وتحرك نشاطهم تلك المشاعر المختلفة الأنماط والاتجاهات بين الرجل والمرأة . ولكنهم قلما يتذكرون يد الله التى خلقت لهم من أنفسهم أزواجا ، وأودعت نفوسهم هذه العواطف والمشاعر ، وجعلت فى تلك الصلة سكنا للنفس والعصب ، وراحة للجسم والقلب ، واستقرارا للحياة والمعاش ، وأنسا للأرواح والضمائر ، واطمئنانا للرجل والمرأة على السواء والتعبير القرآنى اللطيف الرفيق يصور هذه العلاقة تصويرا موحيا ، وكأنما يلتقط الصورة من أعماق القلب وأغوار الحس (لتسكنوا إليها) (وجعل بينكم مودة ورحمة) (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فيدركون حكمة الخالق فى خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقا للآخر . ملبيا لحاجته الفطرية:نفسية وعقلية وجسدية . بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار ؛ ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء ، والمودة والرحمة ، لأن تركيبهما النفسى والعصبى والعضوى ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما فى الآخر ، وائتلافهما وامتزاجهما فى النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثل فى جيل جديد (ومن آياته خلق السماوات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن فى ذلك لآيات للعالمين) إن خلق السماوات والأرض معناه إنشاء هذا الخلق الهائل الضخم العظيم الدقيق ؛ الذى لا نعرف عنه إلا أقل من القليل . هذا الحشد الذى لا يحصى من الأفلاك والمدارات والنجوم والكواكب والسدم والمجرات . تلك التى لا تزيد أرضنا الصغيرة عن أن تكون ذرة تائهة بينها تكاد أن تكون لا وزن لها ولا ظل ! ومع الضخامة الهائلة ذلك التناسق العجيب بين الأفلاك والمدارات والدورات والحركات ؛ وما بينها من مسافات وأبعاد تحفظها من التصادم والخلل والتخلف والاضطراب ؛ وتجعل كل شىء فى أمرها بمقدار . ومع آية السماوات والأرض عجيبة اختلاف الألسنة والألوان . . بين بنى الإنسان . ولا بد أنها ذات علاقة بخلق السماوات والأرض . فاختلاف الأجواء على سطح الأرض واختلاف البيئات ذلك الاختلاف الناشى ء من طبيعة وضع الأرض الفلكى ، ذو علاقة باختلاف الألسنة والألوان . مع اتحاد الأصل والنشأة فى بنى الإنسان . وعلماء هذا الزمان يرون اختلاف اللغات والألوان ؛ ثم يمرون عليه دون أن يروا فيه يد الله ، وآياته فى خلق السماوت والأرض . وقد يدرسون هذه الظاهرة دراسة موضوعية . ولكنهم لا يقفون ليمجدوا الخالق المدبر للظواهر والبواطن (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله . إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) وهذه آية كذلك تجمع بين ظواهر كونية وما يتعلق بها من أحوال البشرية ، وتربط بين هذه وتلك . وتنسق بينهما فى صلب هذا الوجود الكبير . . تجمع بين ظاهرتى الليل والنهار ونوم البشر ونشاطهم ابتغاء رزق الله ، الذى يتفضل به على العباد ، بعد أن يبذلوا نشاطهم فى الكد والابتغاء (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا ، وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) وظاهرة البرق ظاهرة ناشئة من النظام الكونى ؛ ويعللها بعضهم بأنها تنشأ من انطلاق شرارة كهربائية بين سحابتين محملتين بالكهرباء ، أو بين سحابة وجسم أرضى كقمة جبل مثلا . ينشأ عنها تفريغ فى الهواء يتمثل فى الرعد الذى يعقب البرق . وفى الغالب يصاحب هذا وذلك تساقط المطر نتيجة لذلك التصادم . وأيا ما كان السبب فالبرق ظاهرة ناشئة عن نظام هذا الكون كما خلقه البارىء وقدره تقديرا. و من آيات الله أن يريهم البرق (خوفا وطمعا) وهما الشعوران الفطريان اللذان يتعاوران النفس البشرية أمام تلك الظاهرة . شعور الخوف من الصواعق التى تحرق الناس والأشياء أحيانا عندما يبرق البرق . أو الخوف الغامض من رؤية البرق وما يوقعه فى الحس من الشعور بالقوة المصرفة لهيكل هذا الكون الهائل . وشعور الطمع فى الخير من وراء المطر الذى يصاحب البرق فى معظم الأحوال ؛ والذى عقب بذكره فى الآية بعد ذكر البرق ، والتعبير بالحياة والموت بالقياس إلى الأرض تعبير يخيل أن الأرض كائن حى ، يحيا ويموت . وإنها لكذلك فى حقيقتها التى

يصورها القرآن الكريم . فهذا الكون خليقة حية متعاطفة متجاوبة ، مطيعة لربها خاضعة خاشعة ، ملبية لأمره مسبحة عابدة . والإنسان الذى يدب على هذا الكوكب الأرضى واحد من خلائق الله هذه ، يسير معها فى موكب واحد متجه إلى الله رب العالمين (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) فهنا للعقل مجال للتدبر والتفكير . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون). وقيام السماء والأرض منتظمة سليمة مقدرة الحركات لا يكون إلا بقدرة من الله وتدبير . وما من مخلوق يملك أن يدعى أنه هو أو سواه يفعل هذا . وما من عاقل يملك أن يقول:إن هذا كله يقع بدون تدبير . وإذن فهى آية من آيات الله أن تقوم السماء والأرض بأمره , ملبية لهذا الأمر ، طائعة له ، دون انحراف ولا تلكؤ ولا اضطراب (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) ومن يرى هذا التقدير فى نظام الكون ، وهذه السلطة على مقدراته ، لا يشك فى تلبية البشر الضعاف لدعوة تصدر إليهم من الخالق القادر العظيم ، بالخروج من القبور ! ثم يأتى الإيقاع الأخير ختاما لهذا التقرير ؛ فإذا كل من فى السماوت والأرض من خلائق قانتون لله طائعون (وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون) ولقد نرى أن الكثيرين من الناس لا قانتين لله ولا عابدين . ولكن هذا التقرير إنما يعنى خضوع كل من فى السماوات والأرض لإرادة الله ومشيئته التى تصرفهم وفق السنة المرسومة التى لا تتخلف ولا تحيد . فهم محكومون بهذه السنة ولو كانوا عصاة كافرين . إنما تعصى عقولهم وتكفر قلوبهم ولكنهم مع هذا محكومون بالناموس مأخوذون بالسنة , يتصرف فيهم خالقهم وفق ما يريد تصرفه بباقى العبيد وهم لا يملكون إلا الخضوع والقنوت . ثم يختم تلك الجولة الضخمة الهائلة اللطيفة العميقة بتقرير قضية البعث والقيامة التى يغفل عنها الغافلون (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده – وهو أهون عليه – وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض , وهو العزيز الحكيم) وقد سبق فى السورة تقرير البدء والإعادة ، وهو يعاد هنا بعد تلك الجولة العريضة ويضاف إليه جديد: (وهو أهون عليه). وليس شىء أهون على الله ولا أصعب .(إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له:كن . فيكون)ولكنه إنما يخاطب الناس بحسب إدراكهم ، ففى تقدير الناس أن بدء الخلق أصعب من إعادته ، فما بالهم يرون الإعادة عسيرة على الله . وهى فى طبيعتها أهون وأيسر ؟! (وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض) فهو سبحانه ينفرد فى السماوات والأرض بصفاته لا يشاركه فيها أحد ، وليس كمثله شىء ، إنما هو الفرد الصمد (وهو العزيز الحكيم) العزيز القاهر الذى يفعل ما يريد . الحكيم الذى يدبر الخلق بإحكام وتقدير . وعندما تنتهى تلك الجولة التى طوف فيها القلب البشرى بتلك الآفاق والآماد ، والأعماق والأغوار ، والظواهر والأحوال ، يواجهه سياق السورة بإيقاع جديد (ضرب لكم مثلا من أنفسكم:هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم . فأنتم فيه سواء ، تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ؟ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) وهو يفصل لهم هذا المثل خطوة خطوة (ضرب لكم مثلا من أنفسكم) ليس بعيدا عنكم ولا يحتاج إلى رحلة أو نقلة لملاحظته وتدبره (هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ؟) وهم لا يرضون أن يشاركهم ما ملكت أيمانهم فى شىء من الرزق فضلا على أن يساووهم فيه (تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) أى تحسبون حسابهم معكم كما تحسبون حساب الشركاء الأحرار ، وتخشون أن يجوروا عليكم ، وتتحرجوا كذلك من الجور عليهم ، لأنهم أكفاء لكم وأنداد ؟ هل يقع شىء من هذا فى محيطكم القريب وشأنكم الخاص ؟ وإذا لم يكن شىء من هذا يقع فكيف ترضونه فى حق الله وله المثل الأعلى ؟ وهو مثل واضح بسيط حاسم لا مجال للجدل فيه ، وهو يرتكن إلى المنطق البسيط وإلى العقل المستقيم (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) وعند هذا الحد من عرض تناقضهم فى دعوى الشرك المتهافتة ، يكشف عن العلة الأصلية فى هذا التناقض المريب:إنه الهوى الذى لا يستند على عقل أو تفكير (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم . فمن يهدى من أضل الله ؟ وما لهم من ناصرين) والهوى لا ضابط له ولا مقياس . إنما هو شهوة النفس المتقلبة ونزوتها المضطربة ، ورغباتها ومخاوفها . وآمالها ومطامعها التى لا تستند إلى حق ولا تقف عند حد ولا تزن بميزان . وهو الضلال الذى لا يرجى عمه هدى ، والشرود الذى لا ترجى معه أوبة (فمن يهدى من أضل الله ؟) نتيجة لاتباعه هواه ؟ (وما لهم من ناصرين) يمنعونهم من سوء المصير . وعند هذا الحد يفرغ من أمر هؤلاء الذين يتبعون أهواءهم المتقلبة المضطربة ؛ ويتجه بالخطاب إلى الرسول ﷺ ليستقيم على دين الله الثابت المستند على فطرة الله التى فطر الناس عليها ؛ وهو عقيدة واحدة ثابتة لا تتفرق معها السبل كما تفرق المشركون شيعا وأحزابا مع الأهواء والنزوات ! (فأقم وجهك للدين حنيفا . فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) هذا التوجيه لإقامة الوجه للدين القيم يجىء فى موعده ، وفى موضعه ، بعد تلك الجولات فى ضمير الكون ومشاهده ، وفى أغوار النفس وفطرتها . . يجىء فى أوانه وقد تهيأت القلوب المستقيمة الفطرة لاستقباله ؛ كما أن القلوب المنحرفة قد فقدت كل حجة لها وكل دليل ، ووقفت مجردة من كل عدة لها وكل

سلاح . . وهذا هو السلطان القوى الذى يصدع به القرآن . السلطان الذى لا تقف له القلوب ولا تملك رده النفوس (فأقم وجهك للدين حنيفا) واتجه إليه مستقيما . فهذا الدين هو العاصم من الأهواء المتفرقة التى لا تستند على حق ، ولا تستمد من علم ، إنما تتبع الشهوات ، والنزوات بغير ضابط ولا دليل . . أقم وجهك للدين حنيفا مائلا عن كل ما عداه ، مستقيما على نهيه دون سواه (فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين ؛ وكلاهما من صنع الله ؛ و كلاهما موافق لناموس الوجود ; وكلاهما متناسق مع الآخر فى طبيعته واتجاهه . والله الذى خلق القلب البشرى هو الذى أنزل إليه هذا الدين ليحكمه ويصرفه ويطب له من المرض ويقومه من الانحراف . وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير . والفطرة ثابتة والدين ثابت (لا تبديل لخلق الله) فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة لم يردها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة . فطرة البشر وفطرة الوجود . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . . فيتبعون أهواءهم بغير علم ويضلون عن الطريق الواصل المستقيم . والتوجيه بإقامة الوجه للدين القيم ، ولو أنه موجه إلى الرسول ﷺ إلا أن المقصود به جميع المؤمنين . لذلك يستمر التوجيه لهم مفصلا معنى إقامة الوجه للدين (منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا . كل حزب بما لديهم فرحون) فهى الإنابة إلى الله والعودة فى كل أمر إليه . وهى التقوى وحساسية الضمير ومراقبة الله فى السر والعلانية ؛ والشعور به عند كل حركة وكل سكنة . وهى إقامة الصلاة للعبادة الخالصة لله . وهى التوحيد الخالص الذى يميز المؤمنين من المشركين . ويصف المشركين بأنهم (الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا) والشرك ألوان وأنماط كثيرة . منهم من يشركون الجن ، ومنهم من يشركون الملائكة ، ومنهم من يشركون الأجداد والآباء . و منهم من يشركون الملوك والسلاطين . ومنهم من يشركون الكهان والأحبار . ومنهم من يشركون الأشجار والأحجار . ومنهم من يشركون الكواكب والنجوم . ومنهم من يشركون النار . ومنهم من يشركون الليل والنهار . ومنهم من يشركون القيم الزائفة والرغائب والأطماع . ولا تنتهى أنماط الشرك وأشكاله . بينما الدين القيم واحد لا يتبدل ولا يتفرق ، ولا يقود أهله إلا إلى الله الواحد.

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ{٣٣} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ{٣٤} أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ{٣٥} وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ{٣٦} أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{٣٧} فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{٣٨} وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ{٣٩} اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَل مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ{٤٠} ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{٤١} قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ{٤٢} فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ{٤٣} مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ{٤٤} لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ{٤٥} وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{٤٦} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ{٤٧} اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ{٤٨} وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ{٤٩} فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{٥٠} وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ{٥١} فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ{٥٢} وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ{٥٣} اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ{٥٤} وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ{٥٥} وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ{٥٦} فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ{٥٧} وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ{٥٨} كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ{٥٩} فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ){٦٠}

يمضى هذا الشوط من السورة فى مجالها الأصيل . المجال الكونى العام الذى ترتبط به أقدار الناس وأقدار الأحداث ؛ والذى تتناسق فيه سنن الحياة وسنن الكون وسنن الدين القيم بلا تعارض ولا اصطدام . وفى هذا الشوط يرسم صورة لتقلب الأهواء البشرية أمام ثبات السنن ؛ ووهن عقائد الشرك أمام قوة الدين القيم . ويصور نفوس البشر فى السراء والضراء وعند قبض الرزق وبسطه , وهى تضطرب فى تقديراتها وتصوراتها ما لم تستند إلى ميزان الله الذى لا يضطرب أبدا ؛ وما لم ترجع إلى قدر الله الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وبمناسبة الرزق يوجههم إلى الطريقة التى تنمى المال وتزكيه . الطريقة المتفقة مع النهج القيم والطريق الواصل . ويردهم بهذا إلى معرفة الخالق الرازق الذى يميت ويحيى . أما الشركاء الذين يتخذونهم من دون الله فماذا يفعلون ؟ وينبههم إلى الفساد الذى تنشئه عقيدة الشرك فى كل مكان . كما يوجه الرسول ﷺ والمسلمين إلى الاستقامة على منهجهم القيم . قبل أن يأتى اليوم الذى لا عمل فيه ولا كسب ، ولكن حساب وجزاء عما كانوا يعملون . وفى معرض الحديث عن رزق الله يوجه قلوبهم إلى أنماط من هذا الرزق . منها ما يتعلق بحياتهم المادية كالماء النازل من السماء الذى يحيى الأرض بعد موتها . وتجرى الفلك فيه بأمره . ومنها تلك الآيات البينات التى تنزل على الرسول لإحياء موات القلوب والنفوس ، ولكنهم لا يهتدون ولا يسمعون . ويطوف بهم فى جولة مع أطوار نشأتهم وحياتهم حتى ينتهوا إلى خالقهم ، فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون . . ويختم هذا الشوط بتثبيت الرسول ﷺ وتوجيهه إلى الصبر حتى يتحقق وعد الله الحق اليقين (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ، ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم ، فتمتعوا فسوف تعلمون . أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ؟ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون . أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) إنها صورة للنفس البشرية التى لا تستمد من قيمة ثابتة ، ولا تسير على نهج واضح . صورة لها وهى تتأرجح بين الانفعالات الطارئة ، والتصورات العارضة ، والاندفاعات مع الأحداث والتيارات . فعند مس الضر يذكر الناس ربهم ، ويلجأون إلى القوة التى لا عاصم إلا إياها ، ولا نجاة إلا بالإنابة إليها . حتى إذا انكشفت الغمة ، وانفرجت الشدة , وأذاقهم الله رحمة منه: (إذا فريق منهم بربهم يشركون). . وهو الفريق الذى لا يستند إلى عقيدة صحيحة تهديه إلى نهج مستقيم . ذلك أن الرخاء يرفع عنهم الأضطرار الذى ألجأهم إلى الله ؛ وينسيهم الشدة التى ردتهم إليه . فيقودهم هذا إلى الكفر بما آتاهم الله من الهدى وما آتاهم من الرحمة ، بدلا من الشكر والاستقامة على الإنابة . وهنا يعاجل هذا الفريق بالتهديد فى أشخاص المشركين الذين كانوا يواجهون الرسالة المحمدية , فيوجه إليهم الخطاب ، ويحدد أنهم من هذا الفريق الذى يعنيه (فتمتعوا فسوف تعلمون) وهو تهديد ملفوف ، هائل مخيف . وإن الإنسان ليخاف من تهديد حاكم أو رئيس فكيف وهذا التهديد من فاطر هذا الكون الهائل ، الذى أنشأه كله بقولة:كن ! (فتمتعوا فسوف تعلمون) وبعد هذه المعاجلة بالتهديد الرعيب يعود فيسأل فى استنكار عن سندهم فى هذا الشرك الذى يجازون به نعمة الله ورحمته ؛ وهذا الكفر الذى ينتهون إليه (أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ؟) فإنه لا ينبغى لبشر أن يتلقى شيئا فى أمر عقيدته إلا من الله . فهل أنزلنا عليهم حجة ذات قوة وسلطان تشهد بهذا الشرك الذى يتخذونه ؟ وهو سؤال استنكارى تهكمى ، يكشف عن تهافت عقيدة الشرك ، التى لا تستند إلى حجة ولا تقوم على دليل . ثم هو سؤال تقريرى من جانب آخر ، يقرر أنه لا عقيدة إلا ما يتنزل من عند الله . وما يأتى بسلطان من عنده . وإلا فهو واهن ضعيف . ثم يعرض صفحة أخرى من صفحات النفس البشرية فى الفرح بالرحمة فرح الخفة والاغترار ; والقنوط من الشدة واليأس من رحمة الله (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون) وهى كذلك صورة للنفس التى لا ترتبط بخط ثابت تقيس إليه أمرها فى جميع الأحوال ؛ وميزان دقيق لا يضطرب مع التقلبات . والناس هنا مقصود بهم أولئك الذين لا يرتبطون بذلك الخط ولا يزنون بهذا الميزان . فهم يفرحون بالرحمة فرح البطر الذى ينسيهم مصدرها وحكمتها ، فيطيرون بها ، ويستغرقون فيها ، ولا يشكرون المنعم ، ولا يستيقظون إلى ما فى النعمة من امتحان وابتلاء . ويعقب على هذه الصورة بسؤال استنكارى يعجب فيه من أمرهم ، وقصر نظرهم وعمى بصيرتهم . فالأمر فى السراء والضراء يتبع قانونا ثابتا ، ويرجع إلى مشيئة الله سبحانه , فهو الذى ينعم بالرحمة ، ويبتلى بالشدة ؛ ويبسط الرزق ويضيقه وفق سنته ، وبمقتضى حكمته . وهذا ما يقع كل آن ، ولكنهم هم لا يبصرون (أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟). . فلا داعى للفرح والبطر عند البسط ، ولا لليأس والقنوط عند القبض ؛ فإنما هى أحوال تتعاور الناس وفق حكمة الله ، وفيها للقلب المؤمن دلالة على أن مرد الأمر كله لله , ودلالة على اطراد السنة ، وثبات النظام ، رغم تقلب الأحوال (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) وإذا كان الله هو الذى يبسط الرزق ويقبضه ؛ وهو الذى يعطى ويمنع وفق مشيئته ؛ فهو يبين للناس الطريق الذى تربو أموالهم فيه وتربح . لا كما يظنون هم ، بل كما يهديهم الله (فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل . ذلك خير للذين يريدون وجه الله ؛ وأولئك

هم المفلحون . وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ؛ و ما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئک هم المضعفون) وما دام المال مال الله ، أعطاه رزقا لبعض عباده ، فالله صاحب المال الأول قد قرر قسما منه لفئات من عباده ، يؤديها إليهم من يضع يده على ذلک المال . ومن ثم سماها حقا . ويذكر هنا من هذه الفئات (ذا القربى والمسكين وابن السبيل) ولم تكن الزكاة بعد قد حددت ولا مستحقوها قد حصروا . ولكن المبدأ كان قد تقرر . مبدأ أن المال مال الله ، بما أنه هو الرازق به , وأن لفئات من المحتاجين حقا فيه مقررا لهم من صاحب المال الحقيقي ، يصل إليهم عن طريق واضع اليد على هذا المال . . . وهذا هو أساس النظرية الإسلامية في المال . وإلى هذا الأساس ترجع جميع التفريعات في النظرية الاقتصادية للإسلام . فما دام المال مال الله ، فهو خاضع إذن لكل ما يقرره الله بشأنه بوصفه المالک الأول ، سواء فى طريقة تملكه أو فى طريقة تنميته ، أو فى طريقة إنفاقه . وليس واضع اليد حرا في أن يفعل به ما يشاء . وهو هنا يوجه أصحاب المال الذين اختارهم ليكونوا أمناء عليه إلى خير الطرق للتنمية والفلاح . وهى إيتاء ذى القربى والمسكين وابن السبيل ، والإنفاق بصفة عامة فى سبيل الله (ذلک خير للذين يريدون وجه الله وأولئک هم المفلحون) وكان بعضهم يحاول تنمية ماله بإهداء هدايا إلى الموسرين من الناس ، كي ترد عليه الهدية مضاعفة ! فبين لهم أن هذا ليس الطريق للنماء الحقيقى (وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله) هذا ما تذكره الروايات عن المقصود بالآية وإن كان نصها بإطلاقه يشمل جميع الوسائل التى يريد بها أصحابها أن ينموا أموالهم بطريقة ربوية فى أى شكل من الأشكال . وبين لهم فى الوقت ذاته وسيلة النماء الحقيقية (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئک هم المضعفون) هذه هى الوسيلة المضمونة لمضاعفة المال:إعطاؤه بلا مقابل وبلا انتظار رد ولا عوض من الناس . إنما هى إرادة وجه الله . أليس هو الذى يبسط الرزق ويقدر ؟ أليس هو الذى يعطى الناس ويمنع ؟ فهو الذى يضاعف إذن للمنفقين ابتغاء وجهه ؛ وهو الذى ينقص مال المرابين الذين يبتغون وجوه الناس . . ذلک حساب الدينا ، وهناک حساب الآخرة وفيه أضعاف مضاعفة . فهى التجارة الرابحة هنا وهناک ! ومن زاوية الرزق والكسب يعالج قضية الشرک ، وآثارها فى حياتهم وفى حياة من قبلهم ,ويعرض نهاية المشركين من قبل وعاقبتهم التى تشهد بها آثارهم (الله الذى خلقكم ، ثم رزقكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم . هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون . ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدى الناس , ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون . قل:سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين) وهو يواجههم بواقع أمرهم وحقائق حالهم التى لا يملكون أن يماروا في أن الله وحده هو موجدها ؛ أو التى لا يملكون أن يزعموا أن لآلهتهم المدعاة مشاركة فيها . يواجههم بأن الله هو الذى خلقهم . وأنه هو الذى رزقهم . وأنه هو يميتهم . وأنه هو يحييهم . فأما الخلق فهم يقرون به . وأما الرزق فهم لا يملكون أن يزعموا أن آلهتهم المدعاة ترزقهم شيئا . وأما الإماتة فلا حجة لهم على غير ما يقرره القرآن فيها . بقى الإحياء وكانوا يمارون فى وقوعه . وهو يسوقه إليهم ضمن هذه المسلمات ليقرره فى وجدانهم بهذه الوسيلة الفريدة ، التى تخاطب فطرتهم من وراء الانحراف الذى أصابهم . وما تملک الفطرة أن تنكر أمر البعث والإعادة . ثم يسألهم: (هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ؟) ولا ينتظر جوابا منهم ، فهو سؤال للنفى فى صورة التقريع غير محتاج إلى جواب ! إنما يعقب عليه بتنزيه الله (سبحانه وتعالى عما يشركون) ثم يكشف لهم عن ارتباط أحوال الحياة وأوضاعها بأعمال الناس وكسبهم ؛ وأن فساد قلوب الناس وعقائدهم وأعمالهم يوقع في الأرض الفساد ، ويملؤها برا وبحرا بهذا الفساد , ويجعله مسيطرا على أقدارها ، غالبا عليها (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس) فظهور الفساد هكذا واستعلاؤه لا يتم عبثا ، ولا يقع مصادفة ؛ إنما هو تدبير الله وسنته (ليذيقهم بعض الذى عملوا) من الشر والفساد ، حينما يكتوون بناره ، ويتألمون لما يصيبهم منه (لعلهم يرجعون) فيعزمون على مقاومة الفساد ، ويرجعون إلى الله وإلى العمل الصالح وإلى المنهج القويم . ويحذرهم فى نهاية هذه الجولة أن يصيبهم ما أصاب المشركين قبلهم ، وهم يعرفون عاقبة الكثيرين منهم ، ويرونها فى آثارهم حين يسيرون فى الأرض ، ويمرون بهذه الآثار فى الطريق (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين) وكانت عاقبتهم ما يرون حين يسيرون فى الأرض ؛ وهى عاقبة لا تشجع أحدا على سلوک ذلک الطريق ! وعند هذا المقطع يشير إلى الطريق الآخر الذى لا يضل سالكوه ، وإلى الأفق الآخر الذى لا يخيب قاصدوه (فأقم وجهک للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله . يومئذ يصدعون . من كفر فعليه كفره ؛ ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون . ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله . إنه لا يحب الكافرين) والصورة التى يعبر بها عن الاتجاه إلى الدين القيم صورة موحية معبرة عن كمال الاتجاه , وجديته ، واستقامته (فأقم وجهک للدين القيم) وفيها الاهتمام والانتباه والتطلع ، واستشراف الوجهة السامية والأفق العالى والاتجاه السديد . وقد جاء هذا التوجيه أول مرة فى السورة بمناسبة الكلام عن الأهواء المتفرقة والأحزاب المختلفة . أما هنا فيجيء بمناسبة الشركاء ، والرزق ومضاعفته ، والفساد الناشئ

من الشرك ، وما يذوقه الناس في الأرض من ظهور الفساد واستعلائه ، وعاقبة المشركين في الأرض . يجيء بهذه المناسبة فيبين جزاء الآخرة ونصيب المؤمنين والكافرين فيها ؛ ويحذرهم من يوم لا مرد له من الله . يوم يتفرقون فريقين (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون) ويمهد معناها يمهد ويعبد ، ويعد المهد الذي فيه يستريح ، ويهيىء الطريق أو المضجع المريح . وكلها ظلال تتجمع وتتناسق ، لتصور طبيعة العمل الصالح ووظيفته . فالذي يعمل العمل الصالح إنما يمهد لنفسه ويهيىء أسباب الراحة في ذات اللحظة التي يقوم فيها بالعمل الصالح لا بعدها . وهذا هو الظل الذي يلقيه التعبير . وذلك (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات) (من فضله) فما يستحق أحد من بني آدم الجنة بعمله . وما يبلغ مهما عمل أن يشكر الله على جزء من فضله . إنما هو فضل الله ورحمته بالمؤمنين . وكراهيته سبحانه للكافرين (إنه لا يحب الكافرين) بعد ذلك يأخذ معهم في جولة أخرى تكشف عن بعض آيات الله ، وما فيها من فضل الله ورحمته ، فيما يهبهم من رزق وهدى ينزل عليهم ، فيعرفون بعضه وينكرون بعضه . ثم لا يشكرون ولا يهتدون (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ، وليذيقكم من رحمته ، ولتجرى الفلك بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ، فانتقمنا من الذين أجرموا ، وكان حقا علينا نصر المؤمنين . الله الذي يرسل الرياح ، فتثير سحابا ، فيبسطه في السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفا ، فترى الودق يخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين . فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها . إن ذلك لمحيي الموتى ، وهو على كل شيء قدير . ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون) إنه يجمع في هذه الآيات بين إرسال الرياح مبشرات ، وإرسال الرسل بالبينات ، ونصر المؤمنين بالرسل ، وإنزال المطر المحيي ، وإحياء الموتى وبعثهم . . وهو جمع له مغزاه . . إنها كلها من رحمة الله ، وكلها تتبع سنة الله . وبين نظام الكون ، ورسالات الرسل بالهدى ، ونصر المؤمنين ، صلة وثيقة . وكلها من آيات الله . ومن نعمته ورحمته ، وبها تتعلق حياتهم ، وهي مرتبطة كلها بنظام الكون الأصيل (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات). . تبشر بالمطر . وهم يعرفون الريح الممطرة بالخبرة والتجربة فيستبشرون بها (وليذيقكم من رحمته) بآثار هذه البشرى من الخصب والنماء ولتجرى الفلك بأمره سواء بدفع الرياح لها ؛ أو بتكوين الأنهار من الأمطار فتجرى السفن فيها . وهي تجرى – مع هذا – بأمر الله . ووفق سنته التي فطر عليها الكون ؛ وتقديره الذي أودع كل شيء خاصيته ووظيفته ، وجعل من شأن هذا أن تخف الفلك على سطح الماء فتسير ، وأن تدفعها الرياح فتجرى مع التيار وضد التيار . وكل شيء عنده بمقدار (ولتبتغوا من فضله) في الرحلات التجارية ، وفي الزرع والحصاد ، وفي الأخذ والعطاء . وكله من فضل الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا (ولعلكم تشكرون) على نعمة الله في هذا كله . . وهذا توجيه إلى ما ينبغي أن يقابل به العباد نعمة الله الوهاب . ومثل إرسال الرياح مبشرات إرسال الرسل بالبينات (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات) ولكن الناس لم يستقبلوا رحمة الله هذه – وهي أجل وأعظم – استقبالهم للرياح المبشرات . ولا انتفعوا بها – وهي أنفع وأدوم – انتفاعهم بالمطر والماء ! ووقفوا تجاه الرسل فريقين:مجرمين لا يؤمنون ولا يتدبرون ولا يكفون عن إيذاء الرسل والصد عن سبيل الله . و مؤمنين يدركون آيات الله ، ويشكرون رحمته ، ويثقون بوعده ، ويحتملون من المجرمين ما يحتملون . . ثم كانت العاقبة التي تتفق مع عدل الله ووعده الوثيق (فانتقمنا من الذين أجرموا . وكان حقا علينا نصر المؤمنين) وسبحان الذي أوجب على نفسه نصر المؤمنين ؛ وجعله لهم حقا ، فضلا وكرما . وأكده لهم في هذه الصيغة الجازمة التي لا تحتمل شكا ولا ريبا . وكيف والقائل هو الله القوي العزيز الجبار المتكبر ، القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . يقولها سبحانه معبرة عن إرادته التي لا ترد ، وسنته التي لا تتخلف ، وناموسه الذي يحكم الوجود . وقد يبطئ هذا النصر أحيانا – في تقدير البشر – لأنهم يحسبون الأمور بغير حساب الله , ويقدرون الأحوال لا كما يقدرها الله . والله هو الحكيم الخبير . يصدق وعده في الوقت الذي يريده ويعلمه ، وفق مشيئته وسنته . وقد تتكشف حكمة توقيته وتقديره للبشر وقد لا تتكشف . ولكن إرادته هي الخير وتوقيته هو الصحيح . ووعده القاطع واقع عن يقين ، يرتقبه الصابرون واثقين مطمئنين . بعد ذلك يمضي السياق يقرر أن الله هو الذي يرسل الرياح ، وينزل المطر ، ويحيي الأرض بعد موتها ، وكذلك يحيي الموتى فيبعثون . . سنة واحدة ، وطريقة واحدة ، وحلقات في سلسلة الناموس الكبير (الله الذي يرسل الرياح) وفق ناموسه في تكوين هذا الكون وتنظيمه وتصريفه (فتثير سحابا) بما تحمله من بخار الماء المتصاعد من كتلة الماء في الأرض (فيبسطه في السماء) ويفرشه ويمده (ويجعله كسفا) بتجميعه وتكثيفه وتراكمه بعضه فوق بعض , أو يصطدم بعضه ببعض ، أو تنبعث شرارة كهربائية بين طبقة منه وطبقة ، أو كسفة منه وكسفة (فترى الودق يخرج من خلاله) وهو المطر يتساقط من خلال السحاب (فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون) ولا يعرف هذا الاستبشار على حقيقته كما يعرفه الذين يعيشون مباشرة على المطر . والعرب أعرف الناس بهذه الإشارة . وحياتهم كلها تقوم على ماء السماء ، وقد

تضمنت ذكره أشعارهم وأخبارهم فى لهفة وحب وإعزاز ! (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين) من اليأس والقنوط والهمود . . ثم هم يستبشرون (فانظر إلى آثار رحمة الله) ! انظر إليها فى النفوس المستبشرة بعد القنوط ، وفى الأرض المستبشرة بعد الهمود ؛ وفى الحياة التى تدب فى التربة وتدب فى القلوب (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها) إنها حقيقة واقعة منظورة , لا تحتاج إلى أكثر من النظر والتدبر . ومن ثم يتخذها برهانا على قضية البعث والإحياء فى الآخرة . على طريقة الجدل القرآنى ، الذى يتخذ من مشاهد الكون المنظورة , وواقع الحياة المشهودة ، مادته وبرهانه ؛ ويجعل من ساحة الكون العريض مجاله وميدانه (إن ذلك لمحيى الموتى) (وهو على كل شىء قدير) وهذه آثار رحمة الله فى الأرض تنطق بصدق هذا الوعد وتؤكد هذا المصير . وبعد تقرير هذه الحقيقة يمضى فى تصوير حال القوم الذين يستبشرون بالرياح المحملة بالماء ; ويستروحون بآثار رحمة الله عند نزوله من السماء . . يمضى فى تصوير حالهم لو كانت الريح التى رأوها مصفرة بما تحمل من رمل وتراب لا من ماء وسحاب – وهى الريح المهلكة للزرع والضرع – أو التى يصفر منها الزرع فيصير حطاما (ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون) يكفرون سخطا ويأسا ، بدلا من أن يستسلموا لقضاء الله ، ويتوجهوا إليه بالضراعة ليرفع عنهم البلاء . وهى حال من لا يؤمن بقدر الله ، ولا يهتدى ببصيرته إلى حكمة الله فى تدبيره ، ولا يرى من وراء الأحداث يد الله التى تنسق هذا الكون كله ؛ وتقدر كل أمر وكل حادث . وفق ذلك التنسيق الشامل للوجود المترابط الأجزاء . وعند هذا الحد من تصوير تقلبات البشر وفق أهوائهم ، وعدم انتفاعهم بآيات الله التى يرونها ماثلة فى الكون من حولهم ؛ وعدم إدراكهم لحكمة الله من وراء ما يشهدونه من وقائع وأحداث . . عند هذا يتوجه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ يعزيه عن إخفاق جهوده فى هداية الكثير منهم ؛ ويرد هذا إلى طبيعتهم التى لا حيلة له فيها ، وانطماس بصيرتهم وعماها . (فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ، إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) وهو يصورهم موتى لا حياة فيهم ، صما لا سمع لهم ، عميا لا يهتدون إلى طريق . . والذى ينفصل حسه عن الوجود فلا يدرك نواميسه وسننه ميت لا حياة فيه . إنما هى حياة حيوانية بل أضل وأقل ، فالحيوان مهدى بفطرته التى قلما تخونه ! والذى لا يستجيب لما يسمع من آيات الله ذات السلطان النافذ فى القلوب أصم ولو كانت له أذنان تسمعان ذبذبة الأصوات ! والذى لا يبصر آيات الله المبثوثة فى صفحات الوجود أعمى ولو كانت له عينان كالحيوان ! (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) وهؤلاء هم الذين يسمعون الدعوة ، لأن قلوبهم حية ، وبصائرهم مفتوحة ، وإدراكهم سليم . فهم يسمعون فيسلمون . ولا تزيد الدعوة على أن تنبه فطرتهم فتستجيب . بعد ذلك يعود السياق ليجول بهم جولة جديدة ، لا فى مشاهد الكون من حولهم ، ولكن فى ذوات أنفسهم ، وفى أطوار نشأتهم على هذه الأرض ؛ ويمتد بالجولة إلى نهايتها هنالك فى الحياة الأخرى . فى ترابط بين الحياتين وثيق (الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة – يخلق ما يشاء – وهو العليم القدير . ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة . كذلك كانوا يؤفكون . وقال الذين أوتوا العلم والإيمان:لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ، ولكنكم كنتم لا تعلمون . فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون) إنها جولة مديدة ، يرون أوائلها فى مشهود حياتهم ؛ ويرون أواخرها مصورة تصويرا مؤثرا كأنها حاضرة أمامهم . وهى جولة موحية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (الله الذى خلقكم من ضعف) ولم يقل خلقكم ضعافا أو فى حالة ضعف إنما قال (خلقكم من ضعف) كأن الضعف مادتهم الأولى التى صيغ منها كيانهم . . والضعف الذى تشير الآية إليه ذو معان ومظاهر شتى فى تكوين هذا الإنسان . إنه ضعف البنية الجسدية الممثل فى تلك الخلية الصغيرة الدقيقة التى ينشأ منها الجنين . ثم فى الجنين وأطواره وهو فيها كلها واهن ضعيف . ثم فى الطفل والصبى حتى يصل إلى سن الفتوة وضلاعة التكوين . ثم هو ضعف المادة التى ذرأ منها الإنسان . الطين . الذى لولا نفخة من روح الله لظل فى صورته المادية أو فى صورته الحيوانية ، وهى بالقياس إلى الخلقة الإنسانية ضعيفة ضعيفة . ثم هو ضعف الكيان النفسى أمام النوازع والدفعات ، والميول والشهوات ، التى لولا النفخة العلوية وما خلقت فى تلك البنية من عزائم واستعدادات ، لكان هذا الكائن أضعف من الحيوان المحكوم بالإلهام (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة) قوة بكل تلك المعانى التى جاءت فى الحديث عن الضعف . قوة فى الكيان الجسدى ، وفى البناء الإنسانى ، وفى التكوين النفسى والعقلى . (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) ضعفا فى الكيان الإنسانى كله . فالشيخوخة انحدار إلى الطفولة بكل ظواهرها . وقد يصاحبها انحدار نفسى ناشئ من ضعف الإرادة حتى ليهفو الشيخ أحيانا كما يهفو الطفل ، ولا يجد من إرادته عاصما . ومع الشيخوخة الشيب ، يذكر تجسيما وتشخيصا لهيئة الشيخوخة ومنظرها . وإن هذه الأطوار التى لا يفلت منها أحد من أبناء الفناء ، والتى لا تتخلف مرة فيمن يمد له فى العمر ، ولا تبطئ مرة فلا تجىء فى موعدها المضروب . إن هذه الأطوار التى تتعاور تلك الخليقة البشرية لتشهد بأنها فى قبضة

مدبرة ، تخلق ما تشاء ، وتقدر ما تشاء ، وترسم لكل مخلوق أجله وأحواله وأطواره ، وفق علم وثيق وتقدير دقيق (يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) ولا بد لهذه النشأة المحكمة المقدرة من نهاية كذلك مرسومة مقدرة . هذه النهاية يرسمها فى مشهد من مشاهد القيامة ، حافل بالحركة والحوار على طريقة القرآن (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) فهكذا يتضاءل فى حسهم كل ما وراءهم قبل هذا اليوم ، فيقسمون:ما لبثوا غير ساعة . ويحتمل أن يكون قسمهم منصبا على مدة لبثهم فى القبور ، كما يحتمل أن يكون ذلك عن لبثهم فى الأرض أحياء وأمواتا (كذلك كانوا يؤفكون) ويصرفون عن الحق والتقدير الصحيح حتى يردهم أولو العلم الصحيح إلى التقدير الصحيح (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان:لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث . فهذا يوم البعث . ولكنكم كنتم لا تعلمون) وأولو العلم هؤلاء هم فى الغالب المؤمنون ، الذين آمنوا بالساعة ، وأدركوا ما وراء ظاهر الحياة الدنيا ، فهم أهل العلم الصحيح وأهل الإيمان البصير . وهم يردون الأمر هنا إلى تقدير الله وعلمه (لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) فهذا هو الأجل المقدور ، ولا يهم طويلا كان أم كان قصيرا . فقد كان ذلك هو الموعد ، وقد تحقق : (فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون) ثم يختم المشهد بالنتيجة الكلية فى إجمال يصور ما وراءه مما لحق بالظالمين الذين كانوا يكذبون بيوم الدين (فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون) فلا معذرة منهم تقبل ولا يعتب عليهم أحد فيما فعلوه ، أو يطلب إليهم الاعتذار . فاليوم يوم العقاب لا يوم العتاب ! . ومن هذا المشهد البائس يردهم إلى ما هم فيه من عناد وتكذيب ، وتلك كانت عاقبة العناد والتكذيب (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ؛ ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا:إن أنتم إلا مبطلون . كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) وهى نقلة بعيدة فى الزمان والمكان ؛ ولكنها تجىء فى السياق ، وكأنها قريب من قريب . وينطوى الزمان والمكان ، فإذا هم مرة أخرى أمام القرآن ، وفيه من كل مثل ؛ وفيه من كل نمط من أنماط الخطاب ؛ وفيه من كل وسيلة لإيقاظ القلوب والعقول ؛ وفيه من شتى اللمسات الموحية العميقة التأثير . وهو يخاطب كل قلب وكل عقل فى كل بيئة وكل محيط . وهو يخاطب النفس البشرية فى كل حالة من حالاتها ، وفى كل طور من أطوارها . ولكنهم – بعد هذا كله – يكذبون بكل آية ، ولا يكتفون بالتكذيب ، بل يتطاولون على أهل العلم الصحيح ، فيقولون عنهم:إنهم مبطلون (ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا:إن أنتم إلا مبطلون) ويعقب على هذا الكفر والتطاول (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) كذلك . بمثل هذه الطريقة ، ولمثل هذا السبب . فهؤلاء الذين لا يعلمون مطموسو القلوب ، لا تتفتح بصيرتهم لإدراك آيات الله ، متطاولون على أهل العلم والهدى . ومن ثم يستحقون أن يطمس الله على بصيرتهم ، وأن يطبع على قلوبهم ، لما يعلمه سبحانه عن تلك البصائر وهذه القلوب ! ثم يأتى الإيقاع الأخير فى السورة بعد تلك الجولات مع المشركين فى الكون والتاريخ وفى ذوات أنفسهم وفى أطوار حياتهم ، ثم هم بعد ذلك كله يكفرون ويتطاولون . . يأتى الإيقاع الأخير فى صورة توجيه لقلب الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين (فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) إنه الصبر وسيلة المؤمنين فى الطريق الطويل الشائك الذى قد يبدو أحيانا بلا نهاية ! والثقة بوعد الله الحق ، والثبات بلا قلق ولا زعزعة ولا حيرة ولا شكوك . . الصبر والثقة والثبات على الرغم من اضطراب الآخرين ، ومن تكذيبهم للحق وشكهم فى وعد الله . ذلك أنهم محجوبون عن العلم محرومون من أسباب اليقين . فأما المؤمنون الواصلون الممسكون بحبل الله فطريقهم هو طريق الصبر والثقة واليقين . مهما يطل هذا الطريق ، ومهما تحتجب نهايته وراء الضباب والغيوم ! وهكذا تختم السورة التى بدأت بوعد الله فى نصر الروم بعد بضع سنين ، ونصر المؤمنين . تختم بالصبر حتى يأتى وعد الله ؛ والصبر كذلك على محاولات الاستخفاف والزعزعة من الذين لا يوقنون . فيتناسق البدء والختام . وتنتهى السورة وفى القلب منا إيقاع التثبيت القوى بالوعد الصادق الذى لا يكذب ، واليقين الثابت الذى لا يخون . .

سورة لقمان

مكيةو آياتها ٣٤

جاء هذا القرآن الكريم ليخاطب الفطرة البشرية بمنطقها . نزله الذى خلق هذه الفطرة , والذى يعلم ما يصلح لها وما يصلحها ، ويعلم كيف يخاطبها ، ويعرف مداخلها ومساربها . جاء يعرض على هذه الفطرة الحقيقة المكنونة فيها من قبل ؛ والتى تعرفها قبل أن تخاطب بهذا القرآن ، لأنها قائمة عليها أصلا فى تكوينها الأول . . تلك هى حقيقة الاعتراف بوجود الخالق وتوحيده ، والتوجه إليه وحده بالإنابة والعبادة مع موكب الوجود كله المتجه إلى خالقه بالحمد والتسبيح . وهذه السورة المكية نموذج من نماذج الطريقة القرآنية فى مخاطبة القلب البشرى . وهى تعالج قضية العقيدة فى نفوس المشركين الذين انحرفوا عن تلك الحقيقة . إنها القضية التى تعالجها السور المكية فى أساليب شتى ، ومن زوايا منوعة ، تتناول القلب البشرى من جميع أقطاره ؛ وتلمس جوانبه بشتى المؤثرات التى تخاطب الفطرة وتوقظها . هذه القضية الواحدة – قضية العقيدة – تتلخص هنا فى توحيد الخالق وعبادته وحده وشكر الائه . وفى اليقين بالآخرة وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل . وفى اتباع ما أنزل الله والتخلى عما عداه من مألوفات ومعتقدات . والسورة تتولى عرض هذه القضية بطريقة تستدعى التدبر لإدراك الأسلوب القرآنى العجيب فى مخاطبة الفطر والقلوب . وكل داع إلى الله فى حاجة إلى تدبر هذا الأسلوب . إنها تعرض هذه القضية فى مجال العرض القرآنى . وهو هذا الكون الكبير . سماؤه وأرضه . شمسه وقمره . نهاره وليله . أجواؤه وبحاره ، أمواجه وأمطاره . نباته وأشجاره . . وهذا المجال الكونى يتكرر فى القرآن الكريم . فيحيل الكون كله مؤثرات ناطقة , وآيات مبثوثة عن الإيمان والشمائل ، تخاطب القلوب البشرية وتؤثر فيها وتستحييها , وتأخذ عليها المسالك والدروب تبدأ الجولة الأولى بعد افتتاح السورة بالأحرف المقطعة ؛ فتقرر أن هذه السورة من جنس تلك الأحرف ، هى آيات الكتاب الحكيم ، وهى هدى ورحمة للمحسنين . وهؤلاء المحسنون هم (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) فتقرر قضية اليقين بالآخرة وقضية العبادة لله . ومعها مؤثر نفسى ملحوظ هو أن (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) ومن ذا الذى لا يريد أن يكون من المفلحين ؟ وفى الجانب الآخر فريق من الناس يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ، ويتخذ تلك الآيات هزوا . وهؤلاء يعاجلهم بمؤثر نفسى مخيف مناسب لاستهزائهم بآيات الله (أولئك لهم عذاب مهين) ثم يمضى فى وصف حركات هذا الفريق (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها) ومع الوصف مؤثر نفسى يحقر هذا الفريق (كأن فى أذنيه وقرا) ومؤثر آخر يخيفه مع التهكم الواضح فى التعبير (فبشره بعذاب أليم) والبشارة هنا فيها ما فيها من التهكم الملحوظ ! . . ثم يعود إلى المؤمنين يفصل شيئا من فلاحهم الذى أجمله فى أول السورة و يبين جزاءهم فى الآخرة ، كما كشف عن جزاء المستهزئين المستكبرين (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقا , وهو العزيز الحكيم) وهنا يعرض صفحة الكون الكبير محالا للبرهان الذى يطالع الفطرة من كل جانب ، ويخاطبها بكل لسان ، ويواجهها بالحق الهائل الذى يمر عليه الناس غافلين (خلق السماوات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) وأمام هذه الأدلة الكونية التى تهول الحس وتبده الشعور يأخذ بتلابيب القلوب الشاردة , التى تجعل لله شركاء وهى ترى خلقه الهائل العظيم (هذا خلق الله . فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ؟ بل الظالمون فى ضلال مبى) وعند هذا الإيقاع الكونى الضخم العميق تنتهى الجولة الأولى بقضاياها ومؤثراتها معروضة فى ساحة الكون الكبير .

فأما الجولة الثانية فتبدأ من خلال نفوس آدمية ، وتتناول القضية ذاتها فى المجال ذاته بأسلوب جديد ومؤثرات جديدة (ولقد آتينا لقمان الحكمة) فما طبيعة هذه الحكمة وما مظهرها الفريد ؟ إنها تتلخص فى الاتجاه لله بالشكر (أن اشكر لله) فهذه هى الحكمة وهذا هو الاتجاه الحكيم . والخطوة التالية هى اتجاه لقمان لابنه بالنصيحة:نصيحة حكيم لابنه . فهى نصيحة مبرأة من العيب ، صاحبها قد أوتى الحكمة . هذه النصيحة تقرر قضية التوحيد التى قررتها الجولة الأولى وقضية الآخرة كذلك مصحوبة بهذه المؤثرات النفسية ومعها مؤثرات جديدة (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه:يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) ويؤكد هذه القضية بمؤثر آخر فيعرض لعلاقة الأبوة والأمومة بأسلوب يفيض انعطافا ورحمة (ووصينا

الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين) ويقرن قضية الشكر لله بالشكر لهذين الوالدين ، فيقدمها عليها: أن اشكر لى ولوالديك . . ثم يقرر القاعدة الأولى فى قضية العقيدة ، وهى أن وشيجة العقيدة هى الوشيجة الأولى ، المقدمة على وشيجة النسب والدم . وعلى ما فى هذه الوشيجة من انعطاف وقوة إلا أنها تالية للوشيجة الأولى (وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلى) ويقرر معها قضية الآخرة (ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) ويتبع هذه القضية بمؤثر هائل وهويصور عظمة علم الله ودقته وشموله وإحاطته ، تصويرا يرتعش له الوجدان البشرى وهو يتابعه فى المجال الكونى الرحيب (يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن فى صخرة ، أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بها الله . إن الله لطيف خبير) ثم يتابع لقمان وصيته لابنه بتكاليف العقيدة ، بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والصبر على ما يستتبعه هذا وذلك من مواجهة المتاعب التى لا بد أن تواجه صاحب العقيدة ، وهو يخطو بها الخطوة الطبيعية ، فيتجاوز بها نفسه إلى غيره (واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) ومع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على المصاب الأدب الواجب . أدب الداعى إلى الله . ألا يتطاول على الناس ، فيفسد بالقدوة ما يصلح بالكلام (ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك . إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) والمؤثر النفسى بتحقير التصعير والنفخة ملحوظ فى التعبير . وبه تنتهى هذه الجولة الثانية ، وقد عالجت القضية ذاتها فى مجالها المعهود , بمؤثرات جديدة وبأسوب جديد . ثم تبدأ الجولة الثالثة . . تبدأ بعرض القضية المعهودة فى مجال السماوات والأرض , مصحوبة بمؤثر منتزع من علاقة البشر بالسماوات والأرض وما فيها من نعم سخرها الله للناس وهم لا يشكرون (ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة . ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) وفى ظل هذا المؤثر يبدو الجدل فى الله مستنكرا من الفطرة ، تمجه القلوب المستقيمة . ثم يتابع استنكار موقف الكفر والجمود (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا:بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) وهو موقف سخيف مطموس ، يتبعه بمؤثر مخيف (أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟) ومن ثم يعرض قضية الجزاء فى الآخرة مرتبطة بقضية الإيمان والكف (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور . . ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم ، فننبئهم بما عملوا) ويشير إلى علم الله الواسع الدقيق (إن الله عليم بذات الصدور) ويصحب ذلك العرض بتهديد مخيف (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) وقرب ختام الجولة يقفهم وجها لوجه أمام منطق الفطرة وهى تواجه هذا الكون ، فلا تملك إلا الاعتراف بالخالق الواحد الكبير (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن:الله . قل:الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون) ويختم الجولة بمشهد كونى يصور امتداد علم الله بلا نهاية ، وانطلاق مشيئته فى الخلق والإنشاء بلا حدود ؛ ويجعل من هذا دليلا كونيا على البعث والإعادة وعلى الخلق والإنشاء: لو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله . إن الله عزيز حكيم . ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير . وتبدأ الجولة الرابعة بمشهد كونى ذى إيقاع خاص فى القلب البشرى . مشهد الليل وهو يطول فيدخل فى جسم النهار ويمتد ؛ والنهار وهو يطول فيدخل فى جسم الليل ويمتد . ومشهد الشمس والقمر مسخرين فى فلكيهما يجريان فى حدود مرسومة إلى وقت لا يعلمه إلا خالقهما الخبير بهما وبالناس وبما يعملون (ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى ، وأن الله بما تعملون خبير) ويتخذ من هذا المشهد الكونى دليله إلى الفطرة على القضية المعهودة(ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير) ويلمس القلوب بمؤثر آخر من نعمة الله على الناس فى صورة الفلك التى تجرى فى البحر (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ؟) ويعقب على هذا بوقفهم أمام منطق الفطرة حين تواجه هول البحر مجردة من غرور القدرة والعلم الذى يبعدها عن بارئها ؛ ويتخذ من هذا المنطق دليلا على قضية التوحيد (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ؛ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) وبمناسبة موج البحر وهو له يذكرهم بالهول الأكبر ، وهو يقرر قضية الآخرة . الهول الذى يفصم وشائج الدم التى لا يفصلها فى الدنيا هول (يا أيها الناس اتقوا ربكم . واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا . إن وعد الله حق . فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) وعند هذا المقطع وهذا المؤثر الذى يرتجف له الكيان يختم السورة بآية تقرر القضايا التى عالجتها جميعا ، فى إيقاع قوى عميق مرهوب (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام . وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير) هذه الجولات الأربع بأساليبها ومؤثراتها ودلائلها وآياتها

نموذج من أسلوب القرآن الكريم فى معالجة القلوب . هذا الأسلوب المختار من خالق هذه القلوب العليم بمداخلها . الخبير بما يصلح لها وما تصلح به من الأساليب . .

والآن نأخذ فى تفصيل هذا الإجمال . فنعرض هذه الجولات الأربع فى درسين لما بين كل اثنين منها من ترابط و اتساق . .

(الم{١} تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ{٢} هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ{٣} الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ{٤} أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{٥} وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ{٦} وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{٧} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ{٨} خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{٩} خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ{١٠} هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{١١} وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ{١٢} وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ{١٣} وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ{١٤} وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{١٥} يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ{١٦} يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ{١٧} وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ{١٨} وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ){١٩}

(ألم . تلك آيات الكتاب الحكيم . هدى ورحمة للمحسنين ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) الإفتتاح بالأحرف المقطعة (ألف . لام . ميم) والإخبار عنها بأنها (تلك آيات الكتاب الحكيم) للتنبيه إلى أن آيات الكتاب من جنس تلك الأحرف – على نحو ما تقدم فى السور المبدوءة بالأحرف – واختيار وصف الكتاب هنا بالحكمة ، لأن موضوع الحكمة مكرر فى هذه السورة ، فناسب أن يختار هذا الوصف من أوصاف الكتاب فى جوه المناسب على طريقة القرآن الكريم . ووصف الكتاب بالحكمة يلقى عليه ظلال الحياة والإرادة ، فكأنما هو كائن حى متصف بالحكمة فى قوله وتوجيهه ، قاصد لما يقول ، مريد لما يهدف إليه . وإنه لكذلك فى صميمه . فيه روح . وفيه حياة . وفيه حركة . وله شخصية ذاتية مميزة . وفيه إيناس . وله صحبة يحس بها من يعيشون معه ويحيون فى ظلاله ، ويشعرون له بحنين وتجاوب كالتجاوب بين الحي والحى ، وبين الصديق والصديق ! هذا الكتاب الحكيم . أو آياته (هدى ورحمة للمحسنين) فهذه حاله الأصيلة الدائمة . . أن يكون هدى ورحمة للمحسنين . هدى يهديهم إلى الطريق الواصل الذى لا يضل سالكوه . ورحمة بما يسكبه الهدى فى القلب من راحة وطمأنينة وقرار ؛ وما يقود إليه من كسب وخير وفلاح ؛ وبما يعقده من الصلات والروابط بين قلوب المهتدين به ؛ ثم بين هذه القلوب ونواميس الكون الذى تعيش فيه ، والقيم والأحوال والأحداث التى تتعارف عليها القلوب المهتدية ، وتتعارف الفطر التى لا تزيغ . والمحسنون هم (الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون) وإقامة الصلاة وأداؤها على وجهها وفى وقتها أداء كاملا تتحقق به حكمتها وأثرها فى الشعور والسلوك ، وتنعقد به تلك الصلة الوثيقة بين القلب والرب ، ويتم به هذا الأنس بالله وتذوق حلاوته التى تعلق القلوب بالصلاة . . وإيتاء الزكاة يحقق استعلاء النفس على شحها الفطرى ، وإقامة نظام لحياة الجماعة يرتكن إلى التكافل والتعاون . ويجد الواجدون فيه والمحرومون الثقة والطمأنينة ومودات القلوب التى لم يفسدها الترف ولا الحرمان . . واليقين بالآخرة هو الضمان ليقظة القلب البشرى ، وتطلعه إلى ما عند الله ، واستعلائه على أوهاق الأرض ، وترفعه على متاع الحياة الدنيا ؛ ومراقبة الله فى السر والعلن وفى الدقيق والجليل ؛ والوصول إلى درجة الإحسان التى سئل عنها رسول الله ﷺ فقال: " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " وأولئك الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم يوقنون بالآخرة (أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون) ومن هدى فقد أفلح ، فهو سائر على النور ، واصل إلى الغاية ، ناج من الضلال فى الدنيا ، ومن عواقب الضلال فى الآخرة ؛ وهو مطمئن فى رحلته على هذا الكوكب تتناسق خطاه مع دورة الأفلاك ونواميس

الوجود ؛ فيحس بالأنس والراحة والتجاوب مع كل كائن في الوجود . أولئك المهتدون بالكتاب وآياته ، المحسنون ، المقيمون للصلاة ، المؤتون للزكاة ، الموقنون بالآخرة ، المفلحون فى الدنيا والآخرة . . أولئك فريق . . وفى مقابلهم فريق(ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا . أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها ، كأن فى أذنيه وقرا . فبشره بعذاب أليم) ولهو الحديث كل كلام يلهي القلب ويأكل الوقت ، ولا يثمر خيرا ولا يؤتي حصيلة تليق بوظيفة الإنسان المستخلف فى هذه الأرض لعمارتها بالخير والعدل والصلاح . هذه الوظيفة التى يقرر الإسلام طبيعتها وحدودها ووسائلها ، ويرسم لها الطريق (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) يشتريه بماله ويشتريه بوقته ، ويشتريه بحياته . يبذل تلك الأثمان الغالية فى لهو رخيص ، يفنى فيه عمره المحدود ، الذى لا يعاد ولا يعود ، يشترى هذا اللهو (ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا) فهو جاهل محجوب ، لا يتصرف عن علم ، ولا يرمي عن حكمة وهوسيىء النية والغاية , يريد ليضل عن سبيل الله . يضل نفسه ويضل غيره بهذا اللهو الذى ينفق فيه الحياة ، ومن ثم يعالج القرآن هذا الفريق بالمهانة والتهديد قبل أن يكمل رسم الصورة (أولئك لهم عذاب مهين) ووصف العذاب بأنه مهين مقصود هنا للرد على سوء الأدب والاستهزاء بمنهج الله وسبيله القويم . ثم يمضى فى استكمال صورة ذلك الفريق (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها) وهو مشهد فيه حركة ترسم هيئة المستكبر المعرض المستهين . ومن ثم يعالجه بوخزة مهينة تدعو إلى تحقير هذه الهيئة (كأن فى أذنيه وقرا) وكأن هذا الثقل فى أذنيه يحجبه عن سماع آيات الله الكريمة ، وإلا فما يسمعها إنسان له سمع ثم يعرض عنها هذا الإعراض الذميم . ويتمم هذه الإشارة المحقرة بتهكم ملحوظ (فبشره بعذاب أليم) فما البشارة فى هذا الموضوع إلا نوع من التهكم المهين ؛ يليق بالمتكبرين المستهزئين ! وبمناسبة الحديث عن جزاء الكافرين المستكبرين المعرضين يتحدث عن جزاء المؤمنين العاملين , الذين تحدث عنهم فى صدر السورة ؛ ويفصل شيئا من أمر فلاحهم الذى أجمله هناك (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم ، خالدين فيها وعد الله حقا ، وهو العزيز الحكيم) وحيثما ذكر الجزاء فى القرآن الكريم ذكر قبله العمل الصالح مع الإيمان . فطبيعة هذه العقيدة تقتضى ألا يظل الإيمان فى القلب حقيقة مجردة راكدة معطلة مكنونة ؛ إنما هو حقيقة حية فاعلة متحركة ، ما تكاد تستقر فى القلب ويتم تمامها حتى تتحرك لتحقق ذاتها فى العمل والحركة والسلوك ؛ ولتترجم عن طبيعتها بالآثار البارزة فى عالم الواقع , المنبثة عما هو كائن منها فى عالم الضمير . وهؤلاء الذين آمنوا وحققوا إيمانهم بالعمل الصالح (لهم جنات النعيم خالدين فيها) لهم هذه الجنات وهذا الخلود تحقيقا لوعد الله الحق (وعد الله حقا) فقد بلغ من فضل الخالق على العباد أن يوجب على نفسه الإحسان إليهم جزاء إحسانهم لأنفسهم لا له سبحانه ! وهو الغنى عن الجميع (وهو العزيز الحكيم) القادر على تحقيق وعده ، الحكيم فى الخلق والوعد والتحقيق.... وآية القدرة ، وآية الحكمة ، وبرهان تلك القضايا السابقة فى سياق السورة . . آية ذلك كله وبرهانه هو هذا الكون الكبير الهائل ، الذى لا يدعى أحد من البشر أنه خلقه , ولا أن أحدا آخر خلقه من دون الله ؛ وهو ضخم هائل دقيق النظام ، متناسق التكوين ، يأخذ بالقلب ، ويبهر اللب ، ويواجه الفطرة مواجهة جاهرة لا تملك الإفلات منها أو الإعراض عنها ؛ ولا تملك إلا التسليم بوحدانية الخالق العظيم ، وضلال من يشرك به آلهة أخرى ظلما للحق الواضح المبين (خلق السماوات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ؟ بل الظالمون فى ضلال مبين) وهذه السماوات – بظاهر مدلولها ودون تعمق فى أية بحوث علمية معقدة – تواجه النظر والحس , هائلة فسيحة سامقة . وسواء أكانت السماوات هى هذه الكواكب والنجوم والمجرات والسدم السابحة فى الفضاء الذى لا يعلم سره ومداه إلا الله ؛ أو كانت هى هذه القبة التى تراها العين ولا يعرف أحد ما هى على وجه التحقيق . ومن هذه الرحلة الهائلة فى أجواز الفضاء على إيقاع تلك الإشارة السريعة: (خلق السماوات بغير عمد ترونها)يرتد السياق بالقلب البشرى إلى الأرض فيستقر عليها وما يكاد ! إلى الأرض الصغيرة . الذرة ، التى لا تبلغ أن تكون هباءة فى كتلة الكون الضخمة . يرتد إلى هذه الأرض التى يراها الإنسان فسيحة لا يبلغ أطرافها فرد واحد فى عمره القصير ، ولو قضاه فى رحلة دائمة على هذا الكوكب الصغير ؟ يرتد بالقلب إلى هذه الأرض ليعيد النظر إليها بحس مفتوح يقظ ، وليجلو عنه ملالة التكرار والألفة لمشاهد هذه الأرض العجيبة (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) والرواسى هى الجبال . ويقول علماء طبقات الأرض ؛ إنها تضاريس فى قشرة الكرة الأرضية تنشأ من برودة جوف الأرض وتجمد الغازات فيه ، ونقص حجمها ، فتنكمش القشرة الأرضية وتتجعد , وتقع فيها المرتفعات والمنخفضات وفق الانكماشات الداخلية فى حجم الغازات حين تبرد ويصغر حجمها هنا وهناك . وسواء أصحت هذه النظرية أم لم تصح ، فهذا كتاب الله يقرر أن وجود هذه الجبال يحفظ توازن الأرض فلا تميد ولا تتأرجح ولا تهتز . و قد تكون نظرية علماء الأرض صحيحة ويكون بروز الجبال على هذا النحو حافظا لتوازن الأرض عند انكماش الغازات وتقبض القشرة

الأرضية هنا وهناك ، ويكون نتوء الجبال هنا موازنا لانخفاض فى قشرة الأرض هناك . وكلمة الله هى العليا على كل حال . والله هو أصدق القائلين (وبث فيها من كل دابة) وهذه إحدى عجائب الوجود الكبيرة . فوجود الحياة على هذه الأرض سر لا يدعى أحد – حتى اليوم – إدراكه ولا تفسيره . الحياة فى أول صورها . فى الخلية الواحدة الساذجة الصغيرة . فكيف بضخامة هذا السر والحياة تتنوع وتتركب وتتعدد أنواعها وأجناسها وفصائلها وأنماطها إلى غير حد يعلمه الإنسان أو يحصيه ؟ (وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) وإنزال الماء من السماء إحدى العجائب الكونية التى نمر عليها كذلك غافلين . هذا الماء الذى تفيض به مجارى الأنهار ، والذى تمتلئ به البحيرات ، والذى تتفجر به العيون . . هذا كله ينزل من السماء وفق نظام دقيق ، مرتبط بنظام السماوات والأرض ، وما بينهما من نسب وأبعاد ، ومن طبيعة وتكوين . . وإنبات النبات من الأرض بعد نزول الماء عجيبة أخرى لا ينقضى منها العجب . عجيبة الحياة ، وعجيبة التنوع ، وعجيبة الوراثة للخصائص الكامنة فى البذرة الصغيرة ، لتعيد نفسها فى النبتة وفى الشجرة الكبيرة . وإن دراسة توزيع الألوان فى زهرة واحدة من نبتة واحدة لتقود القلب المفتوح إلى أعماق الحياة وأعماق الإيمان بالله مبدع هذه الحياة . والنص القرآنى يقرر أن الله أنبت النبات أزواجا (من كل زوج كريم) وهى حقيقة ضخمة اهتدى إليها العلم بالاستقراء قريبا جدا . فكل نبات له خلايا تذكير وخلايا تأنيث ، إما مجتمعة فى زهرة واحدة ، أو فى زهرتين فى العود الواحد ، وإما منفصلة فى عودين أو شجرتين ، ولا توجد الثمرة إلا بعد عملية التقاء وتلقيح بين زوج النبات ، كما هو الشأن فى الحيوان والإنسان سواء . ووصف الزوج بأنه (كريم) يلقى ظلا خاصا مقصودا فى هذا الموضع ليصبح لائقا بأن يكون (خلق الله) وليرفعه أمام الأنظار مشيرا إليه (هذا خلق الله) وليتحداهم به ويتحدى دعواهم المتهافتة (فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) وليعقب على هذا التحدى فى أنسب وقت (بل الظالمون فى ضلال مبين) وأى ضلال وأى ظلم بعد هذا الشرك ، فى هذا المعرض الكونى الباهر الجليل ؟ وعند هذا الإيقاع القوى يختم الجولة الأولى فى السورة ذلك الختام المؤثر العميق . بعد ذلك يبدأ الجولة الثانية . يبدؤها فى نسق جديد . نسق الحكاية والتوجيه غير المباشر . ويعالج قضية الشكر لله وحده ، وتنزيهه عن الشرك كله ، وقضية الآخرة والعمل والجزاء فى خلال الحكاية (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ؛ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غنى حميد) ولقمان الذى اختاره القرآن ليعرض بلسانه قضية التوحيد وقضية الآخرة تختلف فى حقيقته الروايات:فمن قائل:إنه كان نبيا ، ومن قائل:إنه كان عبدا صالحا من غير نبوة – والأكثرون على هذا القول الثانى – ثم يقال:إنه كان عبدا حبشيا ، ويقال:إنه كان نوبيا . كما قيل:إنه كان فى بنى إسرائيل قاضيا من قضاتهم . . وأيا من كان لقمان فقد قرر القرآن أنه رجل آتاه الله الحكمة . الحكمة التى مضمونها ومقتضاها الشكر لله ، وهذا توجيه قرآنى ضمنى إلى شكر الله اقتداء بذلك الرجل الحكيم المختار الذى يعرض قصته وقوله . وإلى جوار هذا التوجيه الضمنى توجيه آخر ، فشكر الله إنما هو رصيد مذخور للشاكر ينفعه هو ، والله غنى عنه . فالله محمود بذاته ولو لم يحمده أحد من خلقه (ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه . ومن كفر فإن الله غنى حميد) وإذن فأحمق الحمقى هو من يخالف عن الحكمة ؛ ولا يدخر لنفسه مثل ذلك الرصيد . ثم تجىء قضية التوحيد فى صورة موعظة من لقمان الحكيم لابنه (وإذ قال لقمان لابنه – وهو يعظه –:يا بنى لا تشرك بالله . إن الشرك لظلم عظيم) وإنها لعظة غير متهمة ؛ فما يريد الوالد لولده إلا الخير ؛ وما يكون الوالد لولده إلا ناصحا . وهذا لقمان الحكيم ينهى ابنه عن الشرك ؛ ويعلل هذا النهى بأن الشرك ظلم عظيم . ويؤكد هذه الحقيقة مرتين . مرة بتقديم النهى وفصل علته . و مرة بإن واللام . . وهذه هى الحقيقة التى يعرضها محمد ﷺ على قومه ، فيجادلونه فيها ; ويشكون فى غرضه من وراء عرضها ؛ ويخشون أن يكون وراءها انتزاع السلطان منهم والتفضل عليهم ! فما القول ولقمان الحكيم يعرضها على ابنه ويأمره بها ؟ والنصيحة من الوالد لولده مبرأة من كل شبهة ، بعيدة من كل ظنة ؟ ألا إنها الحقيقة القديمة التى تجرى على لسان كل من آتاه الله الحكمة من الناس ؛ يراد بها الخير المحض ، ولا يراد بها سواه . . وهذا هو المؤثر النفسى المقصود . وفى ظل نصيحة الأب لابنه يعرض للعلاقة بين الوالدين والأولاد فى أسلوب رقيق ؛ ويصور هذه العلاقة صورة موحية فيها انعطاف ورقة . ومع هذا فإن رابطة العقيدة مقدمة على تلك العلاقة الوثيقة (ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله فى عامين ، أن اشكر لى ولوالديك ، إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما , وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلى . ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) وتوصية الولد بالوالدين تتكرر فى القرآن الكريم ، وفى وصايا رسول الله ﷺ ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلا . ومعظمها فى حالة الوأد – وهى حالة خاصة فى ظروف خاصة – ذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه . وهذه الصورة الموحية (حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين) ترسم ظلال هذا البذل النبيل . والأم بطبيعة الحال تحتمل النصيب الأوفر ؛ وتجود به فى انعطاف أشد وأعمق وأحنى وأرفق . وفى ظلال تلك الصورة الحانية يوجه إلى شكر الله المنعم الأول ، وشكر الوالدين المنعمين

التاليين ؛ ويرتب الواجبات ، فيجيء شكر الله أولا ويتلوه شكر الوالدين (أن اشكر لي ولوالديك) ويربط بهذه الحقيقة حقيقة الآخرة (إلي المصير) حيث ينفع رصيد الشكر المذخور . ولكن رابطة الوالدين بالوليد – على كل هذا الانعطاف وكل هذه الكرامة – إنما تأتى فى ترتيبها بعد وشيجة العقيدة . فبقية الوصية للإنسان فى علاقته بوالديه (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) فإلى هنا ويسقط واجب الطاعة ,وتعلو وشيجة العقيدة على كل وشيجة . فمهما بذل الوالدان من جهد ومن جهاد ومن مغالبة ومن اقناع ليغرياه بأن يشرك بالله ما يجهل ألوهيته – وكل ما عدا الله لا ألوهية له فتعلم ! – فهو مأمور بعدم الطاعة من الله صاحب الحق الأول في الطاعة . ولكن الاختلاف فى العقيدة ، والأمر بعدم الطاعة فى خلافها ، لا يسقط حق الوالدين فى المعاملة الطيبة والصحبة الكريمة (وصاحبهما فى الدنيا معروفا) فهى رحلة قصيرة على الأرض لا تؤثر فى الحقيقة الأصيلة (واتبع سبيل من أناب إلي) من المؤمنين (ثم إلي مرجعكم)بعد رحلة الأرض المحدودة (فأنبئكم بما كنتم تعملون) ولكل جزاء ما عمل من كفران أو شكران ، ومن شرك أو توحيد . وبعد هذا الاستطراد المعترض فى سياق وصية لقمان لابنه ، تجيء الفقرة التالية في الوصية , لتقرر قضية الآخرة وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل . ولكن هذه الحقيقة لا تعرض هكذا مجردة ، إنما تعرض فى المجال الكونى الفسيح ، وفي صورة مؤثرة يرتعش لها الوجدان ، وهو يطالع علم الله الشامل الهائل الدقيق اللطيف (يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن فى صخرة ، أو في السماوات ، أو فى الأرض ، يأت بها الله . إن الله لطيف خبير) وما يبلغ تعبير مجرد عن دقة علم الله وشموله ، وعن قدرة الله سبحانه ، وعن دقة الحساب وعدالة الميزان ما يبلغه هذا التعبير المصور . وهذا فضل طريقة القرآن المعجزة الجميلة الأداء ، العميقة الإيقاع . . حبة من خردل . صغيرة ضائعة لا وزن لها ولا قيمة (فتكن فى صخرة) صلبة محشورة فيها لا تظهر ولا يتوصل إليها (أو في السماوات) فى ذلك الكيان الهائل الشاسع الذى يبدو فيه النجم الكبير ذو الجرم العظيم نقطة سابحة أو ذرة تائهة (أو فى الأرض) ضائعة فى ثراها وحصاها لا تبين (يأت بها الله) فعلمه يلاحقها ، وقدرته لا تفلتها (إن الله لطيف خبير) تعقيب يناسب المشهد الخفي اللطيف . ويظل الخيال يلاحق تلك الحبة من الخردل فى مكامنها تلك العميقة الوسيعة ؛ ويتملى علم الله الذى يتابعها . حتى يخشع القلب وينيب ، إلى اللطيف الخبير بخفايا الغيوب . وتستقر من وراء ذلك تلك الحقيقة التى يريد القرآن إقرارها فى القلب . بهذا الأسلوب العجيب . ويمضى السياق فى حكاية قول لقمان لابنه وهو يعظه . فإذا هو يتابع معه خطوات العقيدة بعد استقرارها فى الضمير . بعد الإيمان بالله لا شريك له ؛ واليقين بالآخرة لا ريب فيها ; والثقة بعدالة الجزاء لا يفلت منه مثقال حبة من خردل . . فأما الخطوة التالية فهي التوجه إلى الله بالصلاة ، والتوجه إلى الناس بالدعوة إلى الله ، والصبر على تكاليف الدعوة ومتاعبها التى لا بد أن تكون (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك . إن ذلك من عزم الأمور) وعزم الأمور:قطع الطريق على التردد فيها بعد العزم والتصميم . ويستطرد لقمان فى وصيته التى يحكيها القرآن هنا إلى أدب الداعية إلى الله . فالدعوة إلى الخير لا تجيز التعالي على الناس ؛ والتطاول عليهم باسم قيادتهم إلى الخير . ومن باب أولى يكون التعالي والتطاول بغير دعوة إلى الخير أقبح وأرذل (ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش في الأرض مرحا . إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك . إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) والصعر داء يصيب الإبل فيلوى أعناقها . والأسلوب القرآني يختار هذا التعبير للتنفير من الحركة المشابهة للصعر . حركة الكبر والازورار ، وإمالة الخد للناس في تعال واستكبار ! والمشي في الأرض مرحا هو المشى فى تخايل ونفخة وقلة مبالاة بالناس . وهي حركة كريهة يمقتها الله ويمقتها الخلق . وهى تعبير عن شعور مريض بالذات ، يتنفس في مشية الخيلاء ! (إن الله لا يحب كل مختال فخور) ومع النهى عن مشية المرح ، بيان للمشية المعتدلة القاصدة واقصد فى مشيك . . والقصد هنا من الاقتصاد وعدم الإسراف . وعدم إضاعة الطاقة فى التبختر والتثني والاختيال . ومن القصد كذلك . لأن المشية القاصدة إلى هدف ، لا تتلكأ ولا تتخايل ولا تتبختر ، إنما تمضى لقصدها فى بساطة وانطلاق . والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته . وما يزعق أو يغلظ في الخطاب إلا سيء الأدب ، أو شاك فى قيمة قوله ، أو قيمة شخصه ؛ يحاول إخفاء هذا الشك بالحدة والغلظة والزعاق ! والأسلوب القرآني يرذل هذا الفعل ويقبحه فى صورة منفرة محتقرة بشعة حين يعقب عليه بقوله (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) فيرتسم مشهد مضحك يدعو إلى الهزء والسخرية , مع النفور والبشاعة . ولا يكاد ذو حس يتصور هذا المشهد المضحك من وراء التعبير المبدع ، ثم يحاول . . شيئا من صوت هذا الحمير . . ! و هكذا تنتهى الجولة الثانية ، بعدما عالجت القضية الأولى ، بهذا التنويع فى العرض ,والتجديد فى الأسلوب .

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ {٢٠} وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا

وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ{٢١} وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ{٢٢} وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ{٢٣} نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ{٢٤} وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{٢٥} لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ{٢٦} وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{٢٧} مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ{٢٨} أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{٢٩} ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ{٣٠} أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ{٣١} وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ{٣٢} يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ{٣٣} إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ){٣٤}

تبدأ الجولة الثالثة بنسق جديد . تبدأ بعرض الدليل الكوني مرتبطا بالناس ، متلبسا بمصالحهم وحياتهم ومعاشهم ، متعلقا بنعم الله عليهم ، نعمه الظاهرة ونعمه الباطنة , تلك التي يستمتعون بها ، ولا يستحيون معها أن يجادلوا في الله المنعم المتفضل الوهاب . . ثم تسير على هذا النسق في تقرير القضية الأولى التي عالجتها الجولتان الأولى والثانية (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض ؛ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ؟ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . وإذا قيل لهم:اتبعوا ما أنزل الله قالوا:بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا . أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟) وهذه اللفتة المكررة في القرآن بشتى الأساليب تبدو جديدة في كل مرة ، لأن هذا الكون لا يزال يتجدد في الحس كلما نظر إليه القلب ، وتدبر أسراره ، وتأمل عجائبه التي لا تنفد ؛ ولا يبلغ الإنسان في عمره المحدود أن يتقصاها ؛ وهي تبدو في كل نظرة بلون جديد ، وإيقاع جديد . والسياق يعرضها هنا من زاوية التناسق بين حاجات الإنسان على الأرض وتركيب هذا الكون ! مما يقطع بأن هذا التناسق لا يمكن أن يكون فلتة ولا مصادفة ؛ وأنه لا مفر من التسليم بالإرادة الواحدة المدبرة ، التي تنسق بين تركيب هذا الكون الهائل وحاجات البشر على هذا الكوكب الصغير الضئيل . . الأرض . . ! وقد سخر الله لهذا المخلوق الإنساني ما في السماوات ، فجعل في مقدوره الانتفاع بشعاع الشمس ونور القمر وهدى النجوم ، وبالمطر والهواء والطير السابح فيه . وسخر له ما في الأرض . وهذا أظهر وأيسر ملاحظة وتدبرا . فقد أقامه خليفة في هذا الملك الطويل العريض ، ومكنه من كل ما تذخر به الأرض من كنوز . ومنه ما هو ظاهر ومنه ما هو مستتر . ومنه ما يعرفه الإنسان ومنه ما لا يدرك إلا آثاره ؛ ومنه ما لم يعرفه أصلا من أسرار القوى التي ينتفع بها دون أن يدري . وإنه لمغمور في كل لحظة من لحظات الليل والنهار بنعمة الله السابغة الوافرة التي لا يدرك مداها ، ولا يحصى أنماطها . . ومع هذا كله فإن فريقا من الناس لا يشكرون ولا يذكرون ولا يتدبرون ما حولهم ، ولا يوقنون بالمنعم المتفضل الكريم (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) وتبدو هذه المجادلة مستغربة مستنكرة في ظل ذلك البرهان الكوني ، وفي جوار هذه النعمة السابغة ويبدو الجحود والإنكار بشعا شنيعا قبيحا ، تنفر منه الفطرة ، ويقشعر منه الضمير . ويبدو هذا الفريق من الناس الذي يجادل في حقيقة الله ، وعلاقة الخلق بهذه الحقيقة . يبدو منحرف الفطرة ولا يستجيب لداعي الكون كله من حوله ؛ جاحدا النعمة لا يستحيي أن يجادل في المنعم بكل هذه النعم السابغة . ويزيد موقفه بشاعة أنه لا يرتكن في هذا الجدال إلى علم ، ولا يهتدي بهدى ، ولا يستند إلى كتاب ينير له القضية ويقدم له الدليل (وإذا قيل لهم:اتبعوا ما أنزل الله قالوا:بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) فهذا هو سندهم الوحيد ، وهذا هو دليلهم العجيب ! التقليد الجامد المتحجر الذي لا يقوم على علم ولا يعتمد على تفكير . التقليد الذي يريد الإسلام أن يحررهم منه ؛ وأن يطلق عقولهم لتتدبر ؛ ويشيع فيها اليقظة والحركة والنور ، فيأبوا هم الانطلاق من إسار الماضي المنحرف ، ويتمسكوا بالأغلال والقيود (أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟) فهذا الموقف إنما هو دعوة من الشيطان لهم ، لينتهي بهم إلى عذاب السعير . فهل هم مصرون عليه ولو قادهم إلى ذلك المصير ؟ . . لمسة موقظة ومؤثر مخيف ، بعد ذلك الدليل الكوني العظيم اللطيف . وبمناسبة ذلك الجدال المتعنت الذي لا يستند إلى علم ، ولا يهتدي بهدى ، ولا يستمد من كتاب . يشير إلى السلوك الواجب تجاه الدليل الكوني والنعمة السابغة (ومن يسلم وجهه إلى الله – وهو محسن – فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وإلى الله عاقبة الأمور) إنه الاستسلام المطلق لله – مع إحسان العمل والسلوك – الاستسلام بكامل معناه ، والطمأنينة لقدر الله . والانصياع لأوامر الله وتكاليفه وتوجيهاته مع

الشعور بالثقة والاطمئنان للرحمة ، والاسترواح للرعاية ، والرضى الوجداني ، رضى السكون والارتياح .كل أولئك يرمز له بإسلام الوجه إلى الله . والوجه أكرم وأعلى ما فى الإنسان (فقد استمسك بالعروة الوثقى) العروة التى لا تنقطع ولا تهن ولا تخون ممسكا بها فى سراء أو ضراء ، ولا يضل من يشد عليها فى الطريق الوعر والليلة المظلمة ، بين العواصف والأنواء ! هذه العروة الوثقى هى الصلة الوثيقة الثابتة المطمئنة بين قلب المؤمن المستسلم وربه . هى الطمأنينة إلى كل ما يأتى به قدر الله فى رضى وفى ثقة وفى قبول ، طمأنينة تحفظ للنفس هدوءها وسكينتها ورباطة جأشها فى مواجهة الأحداث ، وفى الاستعلاء على السراء فلا تبطر ، وعلى الضراء فلا تصغر ؛ وعلى المفاجآت فلا تذهل ؛ وعلى اللأواء فى طريق الإيمان ، والعقبات تتناثر فيه من هنا ومن هناك (ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم ، فننبئهم بما عملوا ، إن الله عليم بذات الصدور . نمتعهم قليلا ، ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) تلك نهاية من يسلم وجهه إلى الله وهو محسن . وهذه نهاية من يكفر ويخدعه متاع الحياة . نهايته فى الدنيا تهوين شأنه على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين (ومن كفر فلا يحزنك كفره) فشأنه أهون من أن يحزنك ، وأصغر من أن يهمك ونهايته فى الأخرى التهوين من شأنه كذلك . وهو فى قبضة الله لا يفلت وهو مأخوذ بعمله ، والله أعلم بما عمل وبما يخفيه فى صدره من نوايا (إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا . إن الله عليم بذات الصدور) ومتاع الحياة الذى يخدعه قليل ، قصير الأجل ، زهيد القيمة (نمتعهم قليلا) والعاقبة بعد ذلك مروعة فظيعة وهو مدفوع إليها دفعا لا يملك لها ردا: (ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) ووصف العذاب بالغلظ يجسمه – على طريقة القرآن – والتعبير بالاضطرار يلقى ظل الهول الذى يحاول الكافر ألا يواجهه ، مع العجز عن دفعه ، أو التلكؤ دونه ! فأين هذا ممن يسلم وجهه إلى الله ويستمسك بالعروة الوثقى ، ويصير إلى ربه فى النهاية هادىء النفس مطمئن الضمير ؟ ثم يقفهم أمام منطق فطرتهم ، حين تواجه الكون ، فلا تجد مناصا من الاعتراف بالحقيقة الكامنة فيها وفى فطرة الكون على السواء ؛ ولكنهم يزيغون عنها وينحرفون ، ويغفلون منطقها القويم (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ؟ ليقولن:الله . قل:الحمد لله . بل أكثرهم لا يعلمون . لله ما فى السماوات والأرض . إن الله هو الغنى الحميد) وأولئك الذين كانوا يواجهون عقيدة التوحيد بالشرك ؛ ويقابلون دعوة رسول الله ﷺ بالجدال العنيف ؛ لم يكونوا يستطيعون أن يزيفوا منطق فطرتهم حين تواجه بالدليل الكونى الممثل فى وجود السماوات والأرض ، وقيامهما أمام العين ، لا تحتاجان إلى أكثر من النظر ! ومن ثم لم يكونوا يتلجلجون فى الجواب لو سئلوا (من خلق السماوات والأرض(؟ وجوابهم (الله) لذلك يوجه الله رسوله ﷺ ليعقب على جوابهم هذا بحمد الله (قل:الحمد لله) الحمد لله على وضوح الحق فى الفطرة ، والحمد لله على هذا الإقرار القهرى أمام الدليل الكونى . والحمد لله على كل حال . ثم يضرب عن الجدل والتعقيب بتعقيب آخر (بل أكثرهم لا يعلمون) ومن ثم يجادلون ويجهلون منطق الفطرة ، ودلالة هذا الكون على خالقه العظيم. و بمناسبة إقرار فطرتهم بخلق الله للسماوات والأرض يقرر كذلك ملكية الله المطلقة لكل ما فى السماوات والأرض . ما سخره للإنسان وما لم يسخره . وهو مع ذلك الغنى عن كل ما فى السماوات والأرض ، المحمود بذاته ولو لم يتوجه إليه الناس بالحمد (لله ما فى السماوات والأرض إن الله هو الغنى الحميد) والآن تختم هذه الجولة بمشهد كونى يرمز إلى غنى الله الذى لا ينفد ، وعلمه الذى لا يحد ، وقدرته على الخلق والتكوين المتجددين بغير ما نهاية ، ومشيئته المطلقة التى لا نهاية لما تريد (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله . إن الله عزيز حكيم . ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير) إنه مشهد منتزع من معلومات البشر ومشاهداتهم المحدودة ، ليقرب إلى تصورهم معنى تجدد المشيئة الذى ليس له حدود ؛ والذى لا يكاد تصورهم البشرى يدركه بغير هذا التجسيم والتمثيل . إن البشر يكتبون علمهم ، ويسجلون قولهم ، ويمضون أوامرهم ، عن طريق كتابتها بأقلام – كانت تتخذ من الغاب والبوص – يمدونها بمداد من الحبر ونحوه . لا يزيد هذا الحبر على ملء دواة أو ملء زجاجة ! فها هو ذا يمثل لهم أن جميع ما فى الأرض من شجر تحول أقلاما . و جميع ما فى الأرض من بحر تحول مدادا . بل إن هذا البحر أمدته سبعة أبحر كذلك . . وجلس الكتاب يسجلون كلمات الله المتجددة ، الدالة على علمه ، المعبرة عن مشيئته . . فماذا ؟ لقد نفدت الأقلام ونفد المداد . نفدت الأشجار ونفدت البحار . . و كلمات الله باقية لم تنفد ، ولم تأت لها نهاية . . إنه المحدود يواجه غير المحدود . ومهما يبلغ المحدود فسينتهى ؛ ويبقى غير المحدود لم ينقص شيئا على الإطلاق . . إن كلمات الله لا تنفد ، لأن علمه لا يحد ، ولأن إرادته لا تكف ، ولأن مشيئته – سبحانه – ماضية ليس لها حدود ولا قيود . وتتوارى الأشجار والبحار ، وتنزوى الأحياء والأشياء ؛ وتتوارى الأشكال والأحوال . ويقف القلب البشرى خاشعا أمام جلال الخالق الباقى الذى لا يتحول ولا يتبدل ولا يغيب ; وأمام قدرة الخالق القوى المدبر الحكيم: إن الله عزيز حكيم . وأمام هذا المشهد الخاشع يلقى بالإيقاع الأخير فى هذه الجولة ؛ متخذا من ذلك المشهد دليلا كونيا على يسر الخلق وسهولة البعث (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير) والإرادة التى تخلق بمجرد توجه المشيئة إلى الخلق ، يستوى عندها

الواحد والكثير ; فهى لا تبذل جهدا محدودا فى خلق كل فرد ، ولا تكرر الجهد مع كل فرد . وعندئذ يستوى خلق الواحد و خلق الملايين . وبعث النفس الواحدة وبعث الملايين . إنما هى الكلمة . هى المشيئة (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) ومع القدرة العلم والخبرة مصاحبين للخلق والبعث وما وراءهما من حساب وجزاء دقيق: إن الله سميع بصير) وتأتى الجولة الأخيرة تعالج القضية التى عالجتها الجولات الثلاث من قبل . فتقرر أن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل . وتقرر إخلاص العبادة لله وحده . و تقرر قضية اليوم الآخر الذى لا يجزى فيه والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا . . وتستصحب مع هذه القضايا مؤثرات منوعة جديدة . وتعرضها فى المجال الكونى الفسيح (ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ؟ وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى ؟ وأن الله بما تعملون خبير ؟ ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير) ومشهد دخول الليل فى النهار . ودخول النهار فى الليل ، وتناقصهما وامتدادهما عند اختلاف الفصول ، مشهد عجيب حقا ، ولكن طول الألفة والتكرار يفقد أكثر الناس الحساسية تجاهه فلا يلحظون هذه العجيبة ، التى تتكرر بانتظام دقيق ، لا يتخلف مرة ولا يضطرب ؛ ولا تنحرف تلك الدورة الدائبة التى لا تكل ولا تحيد . . والله وحده هو القادر على إنشاء هذا النظام وحفظه ؛ ولا يحتاج إدراك هذه الحقيقة إلى أكثر من رؤية تلك الدورة الدائبة التى لا تكل ولا تحيد . وعلاقة تلك الدورة بالشمس والقمر وجريانهما المنتظم علاقة واضحة . وتسخير الشمس والقمر عجيبة أضخم من عجيبة الليل والنهار ونقصهما وزيادتهما . وما يقدر على هذا التسخير إلا الله القدير الخبير . وهو الذى يقدر ويعلم أمد جريانهما إلى الوقت المعلوم . ومع حقيقة إيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل ؛ وحقيقة تسخير الشمس والقمر - وهما حقيقتان كونيتان بارزتان - حقيقة أخرى مثلهما يقررها معهما فى آية واحدة (وأن الله بما تعملون خبير) وهكذا تبرز هذه الحقيقة الغيبية ، إلى جانب الحقائق الكونية . حقيقة مثلها ، ذات ارتباط بها وثيق . ثم يعقب على هذه الحقائق الثلاث بالحقيقة الكبرى التى تقوم عليها الحقائق جميعا . الحقيقة الأولى التى تنبثق منها الحقائق جميعا . وهى الحقيقة التى تعالجها الجولة ; وتقدم لها بهذا الدليل (ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير) ذلك . . ذلك النظام الكونى الثابت الدائم المنسق الدقيق . . ذلك النظام قائم بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل . قائم بهذه الحقيقة الكبرى التى تعتمد عليها كل حقيقة ، والتى يقوم بها هذا الوجود . فكون الله هو الحق . سبحانه . هو الذى يقيم هذا الكون ، وهو الذى يحفظه ، وهو الذى يدبره ، وهو الذى يضمن له الثبات والاستقرار والتماسك والتناسق ، ما شاء الله له أن يكون (ذلك بأن الله هو الحق) كل شىء غيره يتبدل . ولك شىء غيره يتحول . وكل شىء غيره تلحقه الزيادة والنقصان ، وتتعاوره القوة والضعف ، والازدهار والذبول ، والإقبال والإدبار . وكل شىء غيره يوجد بعد أن لم يكن ، ويزول بعد أن يكون . وهو وحده - سبحانه - الدائم الباقى الذى لا يتغير ولا يتبدل ولا يحول ولا يزول . ويعقب السياق على ذلك المشهد الكونى ، وهذه اللمسة الوجدانية ، بمشهد آخر من مألوف حياة البشر . مشهد الفلك تجرى فى البحر بفضل الله . ويقفهم فى هذا المشهد أمام منطق الفطرة حين تواجه هول البحر وخطره ، مجردة من القوة والبأس والبطر والغرور (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ؟ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور . وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) والفلك تجرى فى البحر وفق النواميس التى أودعها الله البحر والفلك والريح والأرض والسماء . فخلقة هذه الخلائق بخواصها هذه هى التى جعلت الفلك تجرى فى البحر ولا تغطس أو تقف . ولو اختلت تلك الخواص أى اختلال ما جرت الفلك فى البحر . لو اختلت كثافة الماء أو كثافة مادة الفلك . لو اختلت نسبة ضغط الهواء على سطح البحر . لو اختلت التيارات المائية والهوائية . لو اختلت درجة الحرارة عن الحد الذى يبقى الماء ماء ,ويبقى تيارات الماء والهواء فى الحدود المناسبة . . لو اختلت نسبة واحدة أى اختلال ما جرت الفلك فى الماء ، وبعد ذلك كله يبقى أن الله هو حارس الفلك وحاميها فوق ثبج الأمواج وسط العواصف والأنواء ، حيث لا عاصم لها إلا الله . فهى تجرى بنعمة الله وفضله على كل حال . ثم هى تجرى حاملة نعمة الله وفضله كذلك . والتعبير يشمل هذا المعنى وذاك (ليريكم من آياته) وهى معروضة للرؤية ، يراها من يريد أن يرى ؛ وليس بها من غموض ولا خفاء (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) صبار فى الضراء , شكور فى السراء ؛ وهما الحالتان اللتان تتعاوران الإنسان . ولكن الناس لا يصبرون ، ولا يشكرون ، إنما يصيبهم الضر فيجأرون ، وينجيهم الله من الضر فلا يشكر منهم إلا القليل (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين) فهم أمام هذا الخطر ، كالريشة الحائرة فى الخضم الهائل . . تتعرى النفوس من القوة الخادعة ، وتتجرد من القدرة الموهومة ، التى تحجب عنها فى ساعات الرضاء حقيقة فطرتها ، وتقطع ما بين هذه الفطرة وخالقها . حتى إذا سقطت هذه الحوائل ، وتعرت الفطرة من كل ستار ، استقامت إلى ربها ، واتجهت إلى بارئها , وأخلصت له الدين ، ونفت كل شريك ، ونبذت كل دخيل . ودعوا الله مخلصين له الدين (فلما

نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد) لا يجرفه الأمن والرخاء إلى النسيان والاستهتار إنما يظل ذاكرا شاكرا ، وإن لم يوف حق الله فى الذكر والشكر فأقصى ما يبلغه ذاكر شاكر أن يكون مقتصدا فى الأداء . ومنهم من يجحد وينكر آيات الله بمجرد زوال الخطر وعودة الرخاء: (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور). والختار الشديد الغدر ، والكفور الشديد الكفر ؛ وهذه المبالغة الوصفية تليق هنا بمن يجحد آيات الله بعد هذه المشاهد الكونية ، ومنطق الفطرة الخالص الواضح المبين . وبمناسبة هول البحر وخطره الذى يعرى النفوس من غرور القوة والعلم والقدرة ، ويسقط عنها هذه الحواجز الباطلة ، ويقفها وجها لوجه أمام منطق الفطرة . بمناسبة هذا الهول يذكرهم بالهول الأكبر ، الذى يبدو هول البحر فى ظله صغيرا هزيلا . هول اليوم الذى يقطع أواصر الرحم والنسب ، ويشغل الوالد عن الولد ، ويحول بين المولود والوالد ، وتقف كل نفس فيه وحيدة فريدة ، مجردة من كل عون ومن كل سند ، موحشة من كل قربى ومن كل وشيجة (يا أيها الناس اتقوا ربكم ، واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا . إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور) إن الهول هنا هول نفسى ، يقاس بمداه فى المشاعر والقلوب . وما تتقطع أواصر القربى والدم ، ووشائج الرحم والنسب بين الوالد ومن ولد ، وبين المولود والوالد . وما يستقل كل بشأنه ، فلا يجزى أحد عن أحد ، ولا ينفع أحدا إلا عمله وكسبه . ما يكون هذا كله إلا لهول لا نظير له فى مألوف الناس . . فالدعوة هنا إلى تقوى الله تجىء فى موضعها الذى فيه تستجاب ؛ وقضية الآخرة تعرض فى ظلال هذا الهول الغامر فتسمع لها القلوب (إن وعد الله حق) فلا يخلف ولا يتخلف ؛ ولا مفر من مواجهة هذا الهول العصيب . ولا مفر من الحساب الدقيق والجزاء العادل ، الذى لا يغنى فيه والد عن ولد ولا مولود عن والد (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) وما فيها من متاع ولهو ومشغلة ؛ فهى مهلة محدودة وهى ابتلاء واستحقاق للجزاء (ولا يغرنكم بالله الغرور) من متاع يلهى ، أو شغل ينسى ، أو شيطان يوسوس فى الصدور . والشياطين كثير . الغرور بالمال شيطان . والغرور بالعلم شيطان . والغرور بالعمر شيطان . والغرور بالقوة شيطان . والغرور بالسلطان شيطان . ودفعة الهوى شيطان . ونزوة الشهوة شيطان . وتقوى الله وتصور الآخرة هما العاصم من كل غرور ! وفى ختام الجولة الرابعة وختام السورة ، وفى ظل هذا المشهد المرهوب يجىء الإيقاع الأخير فى السورة قويا عميقا مرهوبا ، يصور علم الله الشامل وقصور الإنسان المحجوب عن الغيوب . ويقرر القضية التى تعالجها السورة بكل أجزائها ، ويخرج هذا كله فى مشهد من مشاهد التصوير القرآنى العجيب (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير) والله -سبحانه - قد جعل الساعة غيبا لا يعلمه سواه ؛ ليبقى الناس على حذر دائم ,وتوقع دائم ، ومحاولة دائمة أن يقدموا لها ، وهم لا يعلمون متى تأتى ، فقد تأتيهم بغتة فى أية لحظة ، ولا مجال للتأجيل فى اتخاذ الزاد ، وكنز الرصيد . والله ينزل الغيث وفق حكمته ، بالقدر الذى يريده ؛ وقد يعرف الناس بالتجارب والمقاييس قرب نزوله ؛ ولكنهم لا يقدرون على خلق الأسباب التى تنشئه . والنص يقرر أن الله هو الذى ينزل الغيث ، لأنه سبحانه هو المنشىء للأسباب الكونية التى تكونه والتى تنظمه . فاختصاص الله فى الغيث هو اختصاص القدرة . كما هو ظاهر من النص . وقد وهم الذين عدوه فى الغيبيات المختصة بعلم الله . و إن كان علم الله وحده هو العلم فى كل أمر وشأن . فهو وحده العلم الصحيح الكامل الشامل الدائم الذى لا يلحق به زيادة ولا نقصان (ويعلم ما فى الأرحام) اختصاص بالعلم كالاختصاص فى أمر(الساعة) فهو سبحانه الذى يعلم وحده . علم يقين . ماذا فى الأرحام فى كل لحظة وفى كل طور . من فيض وغيض . ومن حمل حتى حين لا يكون للحمل حجم ولا جرم . ونوع هذا الحمل ذكرا أم أنثى ، حين لا يملك أحد أن يعرف عن ذلك شيئا فى اللحظة الأولى لاتحاد الخلية والبويضة . وملامح الجنين وخواصه وحالته واستعداداته . . فكل أولئك مما يختص به علم الله تعالى (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا) ماذا تكسب من خير وشر ، ومن نفع وضر ، ومن يسر وعسر ,ومن صحة ومرض ، ومن طاعة ومعصية . فالكسب أعم من الربح المالى وما فى معناه ; وهو كل ما تصيبه النفس فى الغداة . و هو غيب مغلق ، عليه الأستار . والنفس الإنسانية تقف أمام سدف الغيب ، لا تملك أن ترى شيئا مما وراء الستار . وكذلك (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) فذلك أمر وراء الستر المسبل السميك الذى لا تنفذ منه الأسماع والأبصار . وإن النفس البشرية لتقف أمام هذه الأستار عاجزة خاشعة ، تدرك بالمواجهة حقيقة علمها المحدود ، وعجزها الواضح ، ويتساقط عنها غرور العلم والمعرفة المدعاة . وتعرف أمام ستر الغيب المسدل أن الناس لم يؤتوا من العلم إلا قليلا ؛ وأن وراء الستر الكثير مما لم يعلمه الناس . ولو علموا كل شيء آخر فسيظلون واقفين أمام ذلك الستر لا يدرون ماذا يكون غدا ! بل ماذا يكون اللحظة التالية . وعندئذ تطامن النفس البشرية من كبريائها وتخشع لله . والسياق القرآنى يعرض هذه المؤثرات العميقة التأثير فى القلب البشرى فى رقعة فسيحة هائلة . . رقعة فسيحة فى الزمان والمكان ، وفى الحاضر الواقع ، والمستقبل المنظور ، والغيب السحيق . وفى خواطر النفس ، و وثبات الخيال:ما بين الساعة البعيدة المدى ، والغيث البعيد المصدر ، وما فى الأرحام الخافى عن العيان .

والكسب فى الغد ، وهو قريب فى الزمان ومغيب فى المجهول . . وموضع الموت والدفن ، وهو مبعد فى الظنون . إنها رقعة فسيحة الآماد والأرجاء . ولكن اللمسات التصويرية العريضة بعد أن تتناولها من أقطارها تدق فى أطرافها ، وتجمع هذه الأطراف كلها عند نقطة الغيب المجهول ; ونقف بها جميعا أمام كوة صغيرة مغلقة ، لو انفتح منها سم الخياط لاستوى القريب خلفها بالبعيد ، ولانكشف القاصى منها والدان . . ولكنها تظل مغلقة فى وجه الإنسان , لأنها فوق مقدور الإنسان ، و وراء علم الإنسان . تبقى خالصة لله لا يعلمها غيره ، إلا بإذن منه وإلا بمقدار (إن الله عليم خبير) وليس غيره بالعليم ولا بالخبير . . وهكذا تنتهى السورة ، كما لو كانت رحلة هائلة بعيدة الآماد والآفاق والأغوار والأبعاد . ويؤوب القلب من هذه الرحلة المديدة البعيدة ، الشاملة الشاسعة ، وئيد الخطى لكثرة ما طوف ، ولجسامة ما يحمل ، ولطول ما تدبر وما تفكر ، فى تلك العوالم والمشاهد والحيوات ! وهى بعد سورة لا تتجاوز الأربع والثلاثين آية . فتبارك الله خالق القلوب ، ومنزل هذا القرآن شفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين .

سورة السجدة
مكية و آياتها٣٠

هذه السورة المكية نموذج آخر من نماذج الخطاب القرآنى للقلب البشرى بالعقيدة الضخمة التى جاء القرآن ليوقظها فى الفطر ، ويركزها فى القلوب:عقيدة الدينونة لله الأحد الفرد الصمد ، خالق الكون والناس ، ومدبر السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما من خلائق لا يعلمها إلا الله . والتصديق برسالة محمد ﷺ الموحى إليه بهذا القرآن لهداية البشر إلى الله . والاعتقاد بالبعث والقيامة والحساب والجزاء . هذه هى القضية التى تعالجها السورة ؛ وهى القضية التى تعالجها سائر السور المكية . كل منها تعالجها بأسلوب خاص ، ومؤثرات خاصة ؛ تلتقى كلها فى أنها تخاطب القلب البشرى خطاب العليم الخبير ، المطلع على أسرار هذه القلوب وخفاياها ، ومنحنياتها ودروبها ، العارف بطبيعتها وتكوينها ، وما يستكن فيها من مشاعر ، وما يعتريها من تأثرات واستجابات فى جميع الأحوال والظروف . وسورة السجدة تعالج تلك القضية بأسلوب وبطريقة غير أسلوب وطريقة سورة لقمان السابقة . فهى تعرضها فى آياتها الأولى ؛ ثم تمضى بقيتها تقدم مؤثرات موقظة للقلب ، منيرة للروح ، مثيرة للتأمل والتدبر ؛ كما تقدم أدلة وبراهين على تلك القضية معروضة فى صفحة الكون ومشاهده ؛ وفى نشأة الإنسان وأطواره ؛ وفى مشاهد من اليوم الآخر حافلة بالحياة والحركة ؛ وفى مصارع الغابرين وآثارهم الناطقة بالعبرة لمن يسمع لها ويتدبر منطقها ! وفى كل هذه المعارض والمشاهد تواجه القلب البشرى بما يوقظه ويحركه ويقوده إلى التأمل والتدبر مرة ، وإلى الخوف والخشية مرة ، وإلى التطلع والرجاء مرة . وتطالعه تارة بالتحذير والتهديد ، وتارة بالإطماع ، وتارة بالإقناع . . ثم تدعه فى النهاية تحت هذه المؤثرات وأمام تلك البراهين . تدعه لنفسه يختار طريقه ، وينتظر مصيره على علم وعلى هدى وعلى نور . ويمضى سياق السورة فى عرض تلك القضية فى أربعة مقاطع أو خمسة متلاحقة متصلة:يبدأ بالأحرف المقطعة (ألف . لام . ميم)منبها بها إلى تنزيل الكتاب من جنس هذه الأحرف . ونفى الريب عن تنزيله والوحي به: (من رب العالمين). . ويسأل سؤال استنكار عما إذا كانوا يقولون:افتراه . ويؤكد أنه الحق من ربه لينذر قومه (لعلهم يهتدون). . وهذه هى القضية الأولى من قضايا العقيدة: قضية الوحى وصدق الرسول ﷺ فى التبليغ عن رب العالمين . ثم يعرض قضية الألوهية وصفتها فى صفحة الوجود:فى خلق السماوات والأرض وما بينهما ، وفى الهيمنة على الكون وتدبير الأمر فى السماوات والأرض ، ورفع الأمر إليه فى اليوم الآخر . . ثم فى نشأة الإنسان وأطواره وما وهبه الله من السمع والبصر والإدراك . والناس بعد ذلك قليلا ما يشكرون . وهذه هى القضية الثانية:قضية الألوهية وصفتها:صفة الخلق ، وصفة التدبير ، وصفة الإحسان ، وصفة الإنعام ، وصفة العلم . وصفة الرحمة . وكلها مذكورة فى سياق آيات الخلق والتكوين . ثم يعرض قضية البعث ، وشكهم فيه بعد تفرق ذراتهم فى التراب: وقالوا:أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد ؟ ويرد على هذا الشك بصيغة الجزم واليقين . وهذه هى القضية الثالثة:قضية البعث والمصير . ومن ثم يعرض مشهدا من مشاهد القيامة: إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم يعلنون يقينهم بالآخرة ويقينهم بالحق الذى جاءتهم به الدعوة . ويقولون الكلمة التى لو قالوها فى الدنيا لفتحت لهم أبواب الجنة ؛ ولكنها فى موقفهم ذاك لا تجدى شيئا ولا تفيد . لعل هذا المشهد أن يوقظهم – قبل فوات الأوان – لقول الكلمة التى سيقولونها فى الموقف العصيب . فيقولوها الآن فى وقتها المطلوب . وإلى جوار هذا المشهد البائس المكروب يعرض مشهد المؤمنين فى هذه الأرض:إذا ذكروا بآيات ربهم . . (خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون). . وهي صورة موحية شفيفة ترف حولها القلوب . يعرض إلى جوارها ما أعده الله لهذه النفوس الخاشعة الخائفة الطامعة من نعيم يعلو على تصور البشر الفانين:(فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون). . ويعقب عليه بمشهد سريع لمصائر المؤمنين والفاسقين فى جنة المأوى وفى نار الجحيم وبتهديد المجرمين بالانتقام منهم فى الأرض أيضا قبل أن يلاقوا مصيرهم الأليم . ثم ترد إشارة إلى موسى – عليه السلام – ووحدة رسالته ورسالة محمد ﷺ والمهتدين من قومه ، وصبرهم على الدعوة ، وجزائهم على هذا الصبر بأن جعلهم الله أئمة . وفى هذه الإشارة إيحاء بالصبر على ما يلقاه الدعاة إلى الإسلام من كيد ومن تكذيب .

وتعقب هذه الإشارة جولة فى مصارع الغابرين من القرون ، وهم يمشون فى مساكنهم غافلين . . ثم جولة فى الأرض الميتة ينزل عليها الماء بالحياة والنماء ؛ فيتقابل مشهد البلى ومشهد الحياة فى سطور .

وتختم السورة بحكاية قولهم: (متى هذا الفتح ؟)وهم يتساءلون فى شك عن يوم الفتح الذى يتحقق فيه الوعيد . والجواب بالتخويف من هذا اليوم والتهديد . وتوجيه الرسول ﷺليعرض عنهم ويدعهم لمصيرهم المحتوم .

الم{١} تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{٢} أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ{٣} اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ{٤} يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ{٥} ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{٦} الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ{٧} ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ{٨} ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ{٩} وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ{١٠} قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ{١١} وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ{١٢} وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ{١٣} فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{١٤} إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ{١٥} تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{١٦} فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{١٧} أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ{١٨} أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{١٩} وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ{٢٠} وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{٢١} وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ{٢٢} وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ{٢٣} وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ{٢٤} إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{٢٥} أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ{٢٦} أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ{٢٧} وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٢٨} قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ{٢٩} فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ{٣٠}

والآن نأخذ فى عرض السورة بالتفصيل:

. . (ألم . تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون:افتراه ؟ بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون)

ألف . لام . ميم . . هذه الأحرف التى يعرفها العرب المخاطبون بهذا الكتاب ؛ ويعرفون ما يملكون أن يصوغوا منها ومن نظائرها من كلام ، ويدركون الفارق الهائل بين ما يملكون أن يصوغوه منها وبين هذا القرآن ؛ وهو فارق يدركه كل خبير بالقول ، وكل من يمارس التعبير باللفظ عن المعانى والأفكار . كما يدرك أن فى النصوص القرآنية قوة خفية ، وعنصرا مستكنا ، يجعل لها سلطانا وإيقاعا فى القلب والحس ليسا لسائر القول المؤلف من أحرف اللغة ، مما يقوله البشر فى جميع الأعصار . وهى ظاهرة ملحوظة لا سبيل إلى الجدال فيها ، لأن السامع يدركها ، ويميزها ، ويهتز لها ، من بين سائر القول ، ولو لم يعلم سلفا أن هذا قرآن ! والتجارب الكثيرة تؤكد هذه الظاهرة فى شتى أوساط الناس . والفارق بين القرآن وما يصوغه البشر من هذه الحروف من كلام ، هو كالفارق بين صنعة الله وصنعة البشر فى سائر الأشياء . صنعة الله واضحة مميزة ، لا تبلغ إليها صنعة البشر فى أصغر الأشياء . وإن توزيع الألوان فى زهرة واحدة ليبدو معجزة لأمهر الرسامين فى جميع العصور . . وكذلك صنع الله فى القرآن وصنع البشر فيما يصوغون من هذه الحروف من كلام ! ألف . لام . ميم ، تنزيل الكتاب – لا ريب فيه – من رب العالمين . . قضية مقطوع بها ، لا سبيل إلى الشك فيها . قضية تنزيل الكتاب من رب العالمين . . ويعجل السياق بنفى الريب فى منتصف الآية ، بين المبتدأ فيها والخبر ، لأن هذا هو صلب القضية ، والنقطة المقصودة فى النص . والتمهيد لها بذكر هذه الأحرف المقطعة يضع المرتابين الشاكين وجها لوجه أمام واقع الأمر ، الذى لا سبيل إلى الجدل فيه . فهذا الكتاب مصوغ من جنس هذه الأحرف التى يعرفون ؛ ونمطه هو هذا النمط المعجز الذى لا يمارون فى إعجازه ، (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ

لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) (٣) أمام التجربة الواقعة ، وأمام موازين القول التى يقر بها الجميع . إن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز فى هذا القرآن ؛ وتشى بالقوة الخفية المودعة فى هذا الكلام . وإن الكيان الإنسانى ليهتز ويرتجف ويتزايل ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن ، كلما تفتح القلب ، وصفا الحس ، وارتفع الإدراك ، وارتفعت حساسية التلقى والاستجابة . وإن هذه الظاهرة لتزداد وضوحا كلما اتسعت ثقافة الإنسان ، ومعرفته بهذا الكون وما فيه ومن فيه . فليست هى مجرد وهلة تأثيرية وجدانية غامضة . فهى متحققة حين يخاطب القرآن الفطرة خطابا مباشرا . وهى متحققة كذلك حين يخاطب القلب المجرب ، والعقل المثقف ، والذهن الحافل بالعلم والمعلومات . وإن نصوصه ليتسع مدى مدلولاتها ومفهوماتها وإيقاعاتها على السواء كلما ارتفعت درجة العلم والثقافة والمعرفة ، ما دامت الفطرة مستقيمة لم تنحرف ولم تطمس عليها الأهواء مما يجزم بأن هذا القرآن صنعة غير بشرية على وجه اليقين ، وأنه تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . (أم يقولون:افتراه ؟). . ولقد قالوها فيما زعموه متعنتين . ولكن السياق هنا يصوغ هذا القول فى صيغة المستنكر لأن يقال هذا القول أصلا: (أم يقولون:افتراه ؟). . هذه القولة التى لا ينبغى أن تقال ؛ فتاريخ محمد [ص] فيهم ينفى هذه الكلمة الظالمة من جهة ؛ وطبيعة هذا الكتاب ذاتها تنفيه أصلا ، ولا تدع مجالا للريب والتشكك: (بل هو الحق من ربك). . الحق . . بما فى طبيعته من صدق ومطابقة لما فى الفطرة من الحق الأزلى ؛ وما فى طبيعة الكون كله من هذا الحق الثابت ، المستقر فى كيانه ، الملحوظ فى تناسقه ، واطراد نظامه ، وثبات هذا النظام ، وشموله وعدم تصادم أجزائه ، أو تناثرها ، وتعارف هذه الأجزاء وتلاقيها . الحق . . بترجمته لنواميس هذا الوجود الكبير ترجمة مستقيمة ؛ وكأنما هو الصورة اللفظية المعنوية لتلك النواميس الطبيعية الواقعية العاملة فى هذا الوجود . الحق . . بما يحققه من اتصال بين البشر الذين يرتضون منهجه وهذا الكون الذى يعيشون فيه ونواميسه الكلية ، وما يعقده بينهم وبين قوى الكون كله من سلام وتعاون وتفاهم وتلاق . حيث يجدون أنفسهم فى صداقة مع كل ما حولهم من هذا الكون الكبير .

(لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك ، لعلهم يهتدون). . والعرب الذين أرسل إليهم محمد ﷺ لم يرسل إليهم أحد قبله ؛ ولا يعرف التاريخ رسولا بين إسماعيل – عليه السلام – جد العرب الأول وبين محمد ﷺ وقد نزل الله عليه هذا الكتاب الحق ، لينذرهم به . (لعلهم يهتدون)فهدايتهم مرجوة بهذا الكتاب ، لما فيه من الحق الذى يخاطب الفطر والقلوب .

الدرس الثانى:٤ – ٩ بعض صفات الله وأفعاله الدالة على وحدانيته

هؤلاء القوم الذين نزل الله الكتاب لينذرهم به رسوله ﷺ كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى . فهنا يبدأ ببيان صفة الله التى يعرفون بها حق ألوهيته سبحانه ، ويميزون بها بين من يستحق هذا الوصف العظيم:(الله)ومن لا يستحقونه ولا يجوز أن يقرنوا إلى مقام الله رب العالمين

(الله الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع . أفلا تتذكرون ؟ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون . ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة . قليلا ما تشكرون). .

ذلك هو الله ، وهذه هى آثار ألوهيته ودلائلها . هذه هى فى صفحة الكون المنظور . وفى ضمير الغيب المترامى وراء إدراك البشر المحدود . وفى نشأة الإنسان وأطواره التى يعرفها الناس ، والتى يطلعهم عليها الله فى كتابه الحق المبين . (الله الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام). . والسماوات والأرض وما بينهما هى هذه الخلائق الهائلة التى نعلم عنها القليل ونجهل عنها الكثير . . هى هذا الملكوت الطويل العريض الضخم المترامى الأطراف ، الذى يقف الإنسان أمامه مبهورا مدهوشا متحيرا فى الصنعة المتقنة الجميلة المنسقة الدقيقة التنظيم . . هى هذا الخلق الذى يجمع إلى العظمة الباهرة ، الجمال الأخاذ . الجمال الحقيقى الكامل ، الذى لا يرى فيه البصر ، ولا الحس ، ولا القلب ، موضعا للنقص ؛ ولا يمل المتأمل التطلع إليه مهما طالت وقفته ؛ ولا يذهب التكرار والألفة بجاذبيته . المتجددة العجيبة . ثم هى هذه الخلائق المنوعة ، المتعددة الأنواع والأجناس والأحجام والأشكال والخواص والمظاهر والاستعدادات والوظائف ، الخاضعة كلها لناموس واحد ، المتناسقة كلها فى نشاط واحد ، المتجهة كلها إلى مصدر واحد تتلقى منه التوجيه والتدبير ، وتتجه إليه بالطاعة والاستسلام . والله . . هو الذى خلق السماوات والأرض

وما بينهما . . فهو الحقيق – سبحانه – بهذا الوصف العظيم . . (خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام). . وليست هى قطعا من أيام هذه الأرض التى نعرفها . فأيام هذه الأرض مقياس زمنى ناشى ء من دورة هذه

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥)

الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة ، تؤلف ليلا ونهارا على هذه الأرض الصغيرة الضئيلة ، التى لا تزيد على أن تكون هباءة منثورة فى فضاء الكون الرحيب ! وقد وجد هذا المقياس الزمنى بعد وجود الأرض والشمس . وهو مقياس يصلح لنا نحن أبناء هذه الأرض الصغيرة الضئيلة ! أما حقيقة هذه الأيام الستة المذكورة فى القرآن فعلمها عند الله ؛ ولا سبيل لنا إلى تحديدها وتعيين مقدارها . فهى من أيام الله التى يقول عنها: (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون). . لكى الأيام الستة قد تكون ستة أطوار مرت بها السماوات والأرض وما بينهما حتى انتهت إلى ما هى عليه . أو ستة مراحل فى النشأة والتكوين . أو ستة أدهار لا يعلم ما بين أحدها والآخر إلا الله . . وهى على أية حال شىء آخر غير الأيام الأرضية التى تعارف عليها أبناء الفناء . فلنأخذها كما هى غيبا من غيب الله لا سبيل إلى معرفته على وجه التحديد . إنما يقصد التعبير إلى تقرير التدبير والتقدير فى الخلق ، وفق حكمة الله وعلمه . وإحسانه لكل شىء خلقه فى الزمن والمراحل والأطوار المقدرة لهذا الخلق العظيم (ثم استوى على العرش). . والاستواء على العرش رمز لاستعلائه على الخلق كله . أما العرش ذاته فلا سبيل إلى قول شىء عنه ، ولا بد من الوقوف عند لفظه . وليس كذلك الاستواء . فظاهر أنه كناية عن الاستعلاء . ولفظ . . ثم ، لا يمكن قطعا أن يكون للترتيب الزمنى ، لأن الله سبحانه - لا تتغير عليه الأحوال . ولا يكون فى حال أو وضع – سبحانه – ثم يكون فى حال أو وضع تال . إنما هو الترتيب المعنوى . فالاستعلاء درجة فوق الخلق ، يعبر عنها هذا التعبير . وفى ظلال الاستعلاء المطلق يلمس قلوبهم بالحقيقة التى تمسهم: (ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع). . وأين ?ومن ؟ وهو سبحانه المسيطر على العرش والسماوات والأرض وما بينهما ؟ وهو خالق السماوات والأرض وما بينهما ؟ فأين هو الولى من دونه ؟ وأين هو الشفيع الخارج على سلطانه ؟ (أفلا تتذكرون ؟). . وتذكر هذه الحقيقة يرد القلب إلى الإقرار بالله ، والإتجاه إليه وحده دون سواه . ومع الخلق والاستعلاء . . التدبير والتقدير . . فى الدنيا والآخرة . . فكل أمر يدبر فى السماوات والأرض وما بينهما يرفع إليه سبحانه فى يوم القيامة ، ويرجع إليه مآله فى ذلك اليوم الطويل: (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض . ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون)والتعبير يرسم مجال التدبير منظورا واسعا شاملا: (من السماء إلى الأرض)ليلقى على الحس البشرى الظلال التى يطيقها ويملك تصورها ويخشع لها . وإلا فمجال تدبير الله أوسع وأشمل من السماء إلى الأرض . ولكن الحس البشرى حسبه الوقوف أمام هذا المجال الفسيح ، ومتابعة التدبير شاملا لهذه الرقعة الهائلة التى لا يعرف حتى الأرقام التى تحدد مداها ! ثم يرتفع كل تدبير وكل تقدير بمآله ونتائجه وعواقبه . يرتفع إليه سبحانه فى علاه فى اليوم الذى قدره لعرض مآلات الأعمال والأقوال ، والأشياء والأحياء (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون). . وليس شىء من هذا كله متروكا سدى ولا مخلوقا عبثا ، إنما يدبر بأمر الله إلى أجل مرسوم . . يرتفع . فكل شىء (ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) وكل أمر وكل تدبير وكل مآل هو دون مقام الله ذى الجلال ، فهو يرتفع إليه أو يرفع بإذنه حين يشاء . (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم). . ذلك . . الذى خلق السماوات والأرض . والذى استوى على العرش . والذى يدبر الأمر من السماء إلى الأرض . . (ذلك عالم الغيب والشهادة). . المطلع على ما يغيب وما يحضر . وهو الخالق المسيطر المدبر . وهو (العزيز الرحيم). . القوى القادر على ما يريد . الرحيم فى إرادته وتدبيره للمخاليق . (الذى أحسن كل شىء خلقه). . (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧)يرى حينئذ من ورائه جمال الله وجلاله . إن هذا الوجود جميل . وإن جمّاله لا ينفد . وإن الإنسان ليرتقى فى إدراك هذا الجمال والاستمتاع به إلى غير ما حدود . قدر ما يريد . وفق ما يريده له مبدع الوجود . وإن عنصر الجمال لمقصود قصدا فى هذا الوجود . فإتقان الصنعة يجعل كمال الوظيفة فى كل شىء ، يصل إلى حد الجمال . وكمال التكوين يتجلى فى صورة جميلة فى كل عضو ، وفى كل خلق . . انظر . . هذه النحلة . هذه الزهرة . هذه النجمة . هذا الليل . هذا الصبح . هذه الظلال . هذه السحب . هذه الموسيقى السارية فى الوجود كله . هذا التناسق الذى لا عوج فيه ولا فطور ! إنها رحلة ممتعة فى هذا الوجود الجميل الصنع البديع التكوين ؛ يلفتنا القرآن إليها لنتملاها ، ونستمتع بها وهو يقول: (الذى أحسن كل شىء خلقه). . فيوقظ القلب لتتبع مواضع الحسن والجمال فى هذا الوجود الكبير . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ

قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٩) من ماء النطفة الذى هو المرحلة الأولى فى تطور الجنين:من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام إلى كمال التكوين الجنينى ، فى هذه السلالة التى تبدأ بالماء المهين . وإنها لرحلة هائلة حين ينظر إلى طبيعة التطورات التى تمر بها تلك النقطة الضائعة من ذلك الماء المهين . حتى تصل إلى الإنسان المعقد البديع التكوين ! وإنها لمسافة شاسعة ضخمة بين الطور الأول والطور الأخير . وذلك ما يعبر عنه القرآن فى آية واحدة تصور هذه الرحلة المديدة: (ثم سواه ، ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة). . يا الله . ما أضخم الرحلة ! وما أبعد الشقة ! وما أعظم المعجزة التى يمر عليها الناس غافلين !

الدرس الثالث:١٠ – ١١ رد على إنكار الكفار للبعث

وفى ظل مشهد النشأة الأولى للإنسان ، وأطوار هذه النشأة العجيبة ، الخارقة لكل مألوف , وإن كانت

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣)

تتكرر فى كل لحظة ، وتقع أمام الأنظار والأسماع . فى ظل هذا المشهد يعرض اعتراضهم على النشأة الآخرة ، وشكهم فى البعث والنشور . فيبدو هذا الشك وذلك الاعتراض غريبين كل الغرابة: وقالوا:أإذا ضللنا فى الأرض أإنا لفى خلق جديد ؟ بل هم بلقاء ربهم كافرون . . إنهم يستبعدون أن يخلقهم الله خلقا جديدا ، بعد موتهم ودفنهم ، وتحول أجسامهم إلى رفات يغيب فى الأرض ، ويختلط بذراتها ، ويضل فيها ، فماذا فى هذا من غرابة أمام النشأة الأولى ؟ لقد بدأ الله خلق الإنسان من طين . من هذه الأرض التى يقولون إن رفاتهم سيضل فيها ويختلط بها . فالنشأة الآخرة شبيهة بالنشأة الأولى ، وليس فيها غريب ولا جديد ! (بل هم بلقاء ربهم كافرون). . ومن ثم يقولون ما يقولون . فهذا الكفر بلقاء الله هو الذى يلقى على أنفسهم ظل الشك والاعتراض على الأمر الواضح الذى وقع مرة ، والذى يقع ما هو قريب منه فى كل لحظة . لذلك يرد على اعتراضهم بتقرير وفاتهم ورجعتهم ، مكتفيا بالبرهان الحى الماثل فى نشأتهم الأولى ولا زيادة: (قل:يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ، ثم إلى ربكم ترجعون). . هكذا فى صورة الخبر اليقين . . فأما ملك الموت من هو ؟ وكيف يتوفى الأنفس فهذا من غيب الله ، الذى نتلقى خبره من هذا المصدر الوثيق الأكيد . ولا زيادة على ما نتلقاه من هذا المصدر الوحيد .

الدرس الرابع:١٢ – ١٤ مشهد خزى وعذاب الكفار يوم القيامة

وبمناسبة البعث الذى يعترضون عليه والرجعة التى يشكون فيها ، يقفهم وجها لوجه أمام مشهد من مشاهد القيامة ؛ مشهد حى شاخص حافل بالتأثرات والحركات والحوار كأنه واقع مشهود: ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم . ربنا أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحا , إنا موقنون – ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين – فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ، إنا نسيناكم ، وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون . . إنه مشهد الخزى والاعتراف بالخطيئة ، والإقرار بالحق الذى جحدوه ، وإعلان اليقين بما شكوا فيه ، وطلب العودة إلى الأرض لإصلاح ما فات فى الحياة الأولى . . وهم ناكسو رؤوسهم خجلا وخزيا . . (عند ربهم). . الذى كانوا يكفرون بلقائه فى الدنيا . . ولكن هذا كله يجىء بعد فوات الأوان حيث لا يجدى اعتراف ولا إعلان . وقبل أن يعلن السياق جواب استخذائهم الذليل ، يقرر الحقيقة التى تتحكم فى الموقف كله ; وتتحكم قبل ذلك فى حياة الناس ومصائرهم: (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها . ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين . .).

ولو شاء الله لجعل لجميع النفوس طريقا واحدا . هو طريق الهدى ، كما وحد طريق المخلوقات التى تهتدى بإلهام كامن فى فطرتها ، وتسلك طريقة واحدة فى حياتها من الحشرات والطير والدواب ؛ أو الخلائق التى لا تعرف إلا الطاعات كالملائكة . لكن إرادة الله اقتضت أن يكون لهذا الخلق المسمى بالإنسان طبيعة خاصة ، يملك معها الهدى والضلال ; ويختار الهداية أو يحيد عنها ؛ ويؤدى دوره فى هذا الكون بهذه الطبيعة الخاصة , التى فطره الله عليها لغرض ولحكمة فى تصميم هذا الوجود . ومن ثم كتب الله فى قدره أن يملأ جهنم من الجنة ومن الناس الذين يختارون الضلالة ، ويسلكون الطريق المؤدى إلى جهنم) وهؤلاء

المجرمون المعروضون على ربهم وهم ناكسو رؤوسهم . هؤلاء ممن حق عليهم هذا القول . ومن ثم يقال لهم: (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا). . يومكم هذا الحاضر . فنحن فى المشهد في اليوم الآخر . . ذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم ، وإهمالكم الاستعداد له وأنتم فى فسحة من الوقت . ذوقوا (إنا نسيناكم). . والله لا ينسى أحدا . ولكنهم يعاملون معاملة المهملين المنسيين ، معاملة فيها مهانة وفيها إهمال وفيها ازدراء . (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون). . ويسدل الستار على المشهد . وقد قيلت الكلمة الفاصلة فيه . وترك المجرمون لمصيرهم المهين . ويحس قارئ القرآن وهو يجاوز هذه الآيات كأنه تركهم هناك ، وكأنهم شاخصون حيث تركهم ! وهذه إحدى خصائص التصوير القرآنى المحيى للمشاهد الموحى للقلوب .

الدرس الخامس:١٥-١٧ من صفات المؤمنين وجزاؤهم يوم القيامة

يسدل الستار على ذلك المشهد ليرفعه عن مشهد آخر ، فى ظل آخر ، وفى جو آخر ، له عطر آخر تستروح له الأرواح وتخفق له القلوب . إنه مشهد المؤمنين . مشهدهم خاشعين مخبتين عابدين ، داعين إلى ربهم وقلوبهم راجفة من خشية الله ، طامعة راجية فى فضل الله . وقد ذخر لهم ربهم من الجزاء ما لا يبلغ إلى تصوره خيال:

(إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم ، وهم لا يستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون (١٦) فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون (١٧) أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون (١٨) أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون) ١٩ (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون (٢٠) ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون (٢١)

. وهي صورة وضيئة للأرواح المؤمنة ، اللطيفة ، الشفيفة الحساسة المرتجفة من خشية الله وتقواه ، المتجهة إلى ربها بالطاعة المتطلعة إليه بالرجاء ، فى غير ما استعلاء ولا استكبار . هذه الأرواح هى التى تؤمن بآيات الله ، وتتلقاها بالحس المتوفز والقلب المستيقظ والضمير المستنير .

ؤلاء إذا ذكروا بآيات ربهم (خروا سجدا)تأثرا بما ذكروا به ، وتعظيما لله الذى ذكروا بآياته ، وشعورا بجلاله الذى يقابل بالسجود أول ما يقابل ، تعبيرا عن الإحساس الذى لا يعبر عنه إلا تمريغ الجباه بالتراب (وسبحوا بحمد ربهم). مع حركة الجسد بالسجود) . وهم لا يستكبرون). . فهى استجابة الطائع الخاشع المنيب الشاعر بجلال الله الكبير المتعال . ثم مشهدهم المصور لهيئتهم الجسدية ومشاعرهم القلبية فى لمحة واحدة . فى التعبير العجيب الذى يكاد يجسم حركة الأجسام والقلوب: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا). . إنهم يقومون لصلاة الليل . صلاة العشاء الآخرة . الوتر . ويتهجدون بالصلاة ، ودعاء الله . ولكن التعبير القرآنى يعبر عن هذا القيام بطريقة أخرى: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع). . فيرسم صورة المضاجع فى الليل تدعو الجنوب إلى الرقاد والراحة والتذاذ المنام . ولكن هذه الجنوب لا تستجيب . وإن كانت تبذل جهدا فى مقاومة دعوة المضاجع المشتهاة . لأن لها شغلا عن المضاجع اللينة والرقاد اللذيذ . شغلا بربها . شغلا بالوقوف فى حضرته . وبالتوجه إليه فى خشية وفى طمع يتنازعها الخوف والرجاء . الخوف من عذاب الله والرجاء فى رحمته . والخوف من غضبه والطمع فى رضاه . والخوف من معصيته والطمع فى توفيقه . والتعبير يصور هذه المشاعر المرتجفة فى الضمير بلمسة واحدة ، حتى لكأنها مجسمة ملموسة: (يدعون ربهم خوفا وطمعا). . وهم إلى جانب هذه الحساسية المرهفة , والصلاة الخاشعة ، والدعاء الحار يؤدون واجبهم للجماعة المسلمة طاعة لله وزكاة) . . ومما رزقناهم ينفقون). . هذه الصورة المشرفة الوضيئة الحساسة الشفيفة ترافقها صورة للجزاء الرفيع الخاص الفريد . الجزاء الذى تتجلى فيه ظلال الرعاية الخاصة ، والإعزاز الذاتى ، والإكرام الإلهى والحفاوة الربانية بهذه النفوس: (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون). . تعبير عجيب يشى بحفاوة الله - سبحانه - بالقوم ؛ وتوليه بذاته العلية إعداد المذخور لهم عنده من الحفاوة والكرامة مما تقر به العيون . هذا المذخور الذى لا يطلع عليه أحد سواه . والذى يظل عنده خاصة مستورا حتى يكشف لأصحابه عنه يوم لقائه ! عند لقياه ! وإنها لصورة وضيئة لهذا اللقاء الحبيب الكريم فى حضرة الله . يا لله ! كم ذا يفيض الله على عباده من كرمه ! وكم ذا يغمرهم سبحانه بفضله ! ومن هم - كائنا ما كان عملهم وعبادتهم وطاعتهم وتطلعهم - حتى يتولى الله جل جلاله إعداد ما يدخره لهم من جزاء ، فى عناية ورعاية وود واحتفال ؟ لولا أنه فضل الله الكريم المنان !?

الدرس السادس:١٨ – ٢٢ صور لنعيم المؤمنين مقارنا بعذاب الكافرين

وأمام مشهد المجرمين البائس الذليل ؛ ومشهد المؤمنين الناعم الكريم ، يعقب بتلخيص مبدأ الجزاء العادل ، الذى يفرق بين المسيئين والمحسنين فى الدنيا أو الآخرة ; والذى يعلق الجزاء بالعمل ، على أساس العدل الدقيق:

(أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لا يستوون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار . كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وقيل لهم:ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون . ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون . ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ؟ إنا من المجرمين منتقمون). .

وما يستوى المؤمنون والفاسقون فى طبيعة ولا شعور ولا سلوك ، حتى يستووا فى الجزاء فى الدنيا وفى الآخرة سواء . والمؤمنون مستقيمو الفطرة متجهون إلى الله ، عاملون على منهاجه القويم . والفاسقون منحرفون شاردون مفسدون فى الأرض لا يستقيمون على الطريق الواصل المتفق مع نهج الله للحياة ، وقانونه الأصيل . فلا عجب إذن أن يختلف طريق المؤمنين والفاسقين فى الآخرة ، وأن يلقى كل منهما الجزاء الذى يناسب رصيده وما قدمت يداه . (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى)التى تؤويهم وتضمهم)نزلا)ينزلون فيه ويثوون ، جزاء (بما كانوا يعملون). .

ذلك مصير الفاسقين فى الآخرة . وليسوا مع هذا متروكين إلى ذلك الموعد . فالله يتوعدهم بالعذاب فى هذه الدنيا قبل عذاب الآخرة:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (23) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)

)ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر). .

لكن ظلال الرحمة تتراءى من وراء هذا العذاب الأدنى ؛ فالله سبحانه و تعالى لا يحب أن يعذب عباده إذا لم يستحقوا العذاب بعملهم ، وإذا لم يصروا على موجبات العذاب . فهو يوعدهم بأن يأخذهم بالعذاب فى الأرض (لعلهم يرجعون). . وتستيقظ فطرتهم ، ويردهم ألم العذاب إلى الصواب . ولو فعلوا لما صاروا إلى مصير الفاسقين الذين رأيناه فى مشهدهم الأليم . فأما إذا ذكروا بآيات ربهم فأعرضوا عنها وجاءهم العذاب الأدنى فلم يرجعوا ولم يعتبروا فإنهم إذن ظالمون (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ؟)وإنهم إذن يستحقون الانتقام فى الدنيا والآخرة: (إنا من المجرمين منتقمون . .(ويا هوله من تهديد . والجبار المتكبر هو الذى يتوعد هؤلاء الضعاف المساكين بالانتقام الرعيب !

الدرس السابع:٢٣ نموذج للتمكين للمؤمنين الصالحين فى الأرض

وتنتهى تلك الجولة مع مصائر المجرمين والصالحين ، وعواقب المؤمنين والفاسقين ، ومشاهد هؤلاء وهؤلاء فى اليوم الذى يشكون فيه ويستريبون . ثم يأخذ سياق السورة فى جولة جديدة مع موسى وقومه ورسالته . جولة مختصرة لا تزيد على إشارة إلى كتاب موسى – عليه السلام – الذى جعله الله هدى لبنى إسرائيل ؛ كما جعل القرآن كتاب محمد [ص] هدى للمؤمنين . وإلى التقاء صاحب القرآن مع صاحب التوراة على الأصل الواحد والعقيدة الثابتة . وإلى اصطفاء الصابرين الموقنين من قوم موسى ليكونوا أئمة لقومهم إيحاء للمسلمين فى ذلك الحين بالصبر واليقين ، وبيانا للصفة التى تستحق بها الإمامة فى الأرض والتمكين:

(ولقد آتينا موسى الكتاب – فلا تكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى إسرائيل . وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون . إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون). .

وتفسير هذه العبارة المعترضة: (فلا تكن فى مرية من لقائه)على معنى تثبيت الرسولﷺ على الحق الذى جاء به ؛ وتقرير أنه الحق الواحد الثابت الذى جاء به موسى فى كتابه ; والذى يلتقى عليه الرسولان

ويلتقى عليه الكتابان . . هذا التفسير أرجح عندى مما أورده بعض المفسرين من أنها إشارة إلى لقاء النبى [ص] لموسى عليه السلام فى ليلة الإسراء والمعراج . فإن اللقاء على الحق الثابت ، والعقيدة الواحدة ، هو الذى يستحق الذكر ، والذى ينسلك فى سياق التثبيت على ما يلقاه النبى ﷺ من التكذيب والإعراض ، ويلقاه المسلمون من الشدة واللأواء . وكذلك هو الذى يتسق مع ما جاء بعده فى الآية:(وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) . للإيحاء للقلة المسلمة يومذاك فى مكة أن تصبر كما صبر المختارون من بنى إسرائيل ، وتوقن كما أيقنوا ، ليكون منهم أئمة للمسلمين كما كان أولئك أئمة لبنى إسرائيل . ولتقرير طريق الإمامة والقيادة ، وهو الصبر واليقين .

أما اختلاف بنى إسرائيل بعد ذلك فأمرهم فيه متروك إلى الله (إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) . .

الدرس الثامن:٢٦ لفت نظر الكافرين لمصارع السابقين

وبعد هذه الإشارة يأخذ السياق المكذبين فى جولة مع مصارع الغابرين:

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)
أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)

ومصارع الغابرين من القرون تنطق بسنة الله فى المكذبين ، وسنة الله ماضية لا تتخلف ولا تحابى . وهذه البشرية تخضع لقوانين ثابتة فى نشوئها ودثورها ، وضعفها وقوتها . والقرآن الكريم ينبه إلى ثبات هذه القوانين ، واطراد تلك السنن ، ويتخذ من مصارع القرون ، وآثار الماضين ، الدارسة الخربة ، أو الباقية بعد سكانها موحشة . يتخذ منها معارض للعبرة ، وإيقاظ القلوب ، وإثارة الحساسية ، والخوف من بطش الله وأخذه للجبارين ، كما يتخذ منها معارض لثبات السنن والنواميس . ويرفع بهذا مدارك البشر ومقاييسهم ، فلا ينعزل شعب أو جيل فى حدود الزمان والمكان ؛ وينسى النظام الثابت فى حياة البشر ، المطرد على توالى القرون . وإن كان الكثيرون ينسون العبرة حتى يلاقوا نفس المصير ! (إن فى ذلك لآيات . أفلا يسمعون ؟) . . يسمعون قصص الغابرين الذين يمشون فى مساكنهم ، أو يسمعون هذا التحذير ، قبل أن يصدق بهم النذير ، ويأخذهم النكير !

الدرس التاسع:٢٧ لفت نظرهم إلى آيات الله فيما حولهم

وبعد لمسة البلى والدثور ، وما توقعه فى الحس من رهبة وروعة ، وما تثيره فى القلب من رجفة ورعشة . يلمس قلوبهم بريشة الحياة النابضة فى الموات ؛ ويجول بهم جولة فى الأرض الميتة تدب فيها الحياة ، كما جال بهم من قبل فى الأرض التى كانت حية فأدركها البلى والممات:

أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ؟ .

فهذه الأرض الميتة البور ، يرون أن يد الله تسوق إليها الماء المحيى ؛ فإذا هى خضراء ممرعة بالزرع النابض بالحياة . الزرع الذى تأكل منه أنعامهم وتأكل منه أنفسهم . وإن مشهد الأرض الجدبة والحيا يصيبها فإذا هى خضراء . . إن هذا المشهد ليفتح نوافذ القلب المغلقة لاستجلاء هذه الحياة النامية واستقبالها ؛ والشعور بحلاوة الحياة ونداوتها ؛ والإحساس بواهب هذه الحياة الجميلة الناضرة ؛ إحساس حب وقربى وانعطاف ؛ مع الشعور بالقدرة المبدعة واليد الصناع ، التى تشيع الحياة والجمال فى صفحات الوجود .

الدرس العاشر:٢٨ – ٣٠ الرد على استعجالهم العذاب

وفى النهاية يجىء المقطع الأخير فى السورة بعد هذا المطاف الطويل . فيحكى استعجالهم بالعذاب الذى يوعدون ؛ وشكهم فى صدق الإنذار والتحذير . ويرد عليهم مخوفا محذرا من تحقيق ما يستعجلون به ، يوم لا ينفعهم إيمان ، ولا يمهلون لإصلاح ما فات . ويختم السورة بتوجيه الرسول ﷺ

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)

إلى الإعراض عنهم ، وتركهم لمصيرهم المحتوم:

(ويقولون:متى هذا الفتح إن كنتم صادقين . قل:يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون . فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون). .

والفتح هو الفصل فيما بين الفريقين من خلاف ؛ وتحقق الوعيد الذى كان يخدعهم أنه لا يجيئهم من قريب ؛ وهم غافلون عن حكمة الله فى تأخيره إلى أجله الذى قدره ، والذى لا يقدمه استعجالهم ولا يؤخره . وما هم بقادرين على دفعه ولا الإفلات منه . (قل:يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون). .

سواء كان هذا اليوم فى الدنيا . إذ يأخذهم الله وهم كافرون ، فلا يمهلهم بعده ، ولا ينفعهم إيمانهم فيه . أو كان هذا اليوم فى الآخرة إذ يطلبون المهلة فلا يمهلون: وهذا الرد يخلخل المفاصل ، ويزعزع القلوب . . ثم يعقبه الإيقاع الأخير فى السورة : (فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون). .

وفى طياته تهديد خفى بعاقبة الانتظار ، بعد أن ينفض الرسول ﷺ يده من أمرهم ، ويدعهم لمصيرهم المحتوم .

وتختم السورة على هذا الإيقاع العميق ، بعد تلك الجولات والإيحاءات والمشاهد والمؤثرات , وخطاب القلب البشرى بشتى الإيقاعات التى تأخذه من كل جانب ، وتأخذ عليه كل طريق . .

سورة الأحزاب
مدنية و آياتها ٧٣

هذه السورة تتناول قطاعا حقيقيا من حياة الجماعة المسلمة ، فى فترة تمتد من بعد غزوة بدر الكبرى ، إلى ما قبل صلح الحديبية ، وتصور هذه الفترة من حياة المسلمين فى المدينة تصويرا واقعيا مباشرا . وهى مزدحمة بالأحداث التى تشير إليها خلال هذه الفترة , والتنظيمات التى أنشأتها أو أقرتها فى المجتمع الإسلامى الناشىء . ولهذه الفترة التى تتناولها السورة من حياة الجماعة المسلمة سمة خاصة ، فهى الفترة التى بدأ فيها بروز ملامح الشخصية المسلمة فى حياة الجماعة وفى حياة الدولة ; ولم يتم استقرارها بعد ولا سيطرتها الكاملة . كالذى تم بعد فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، واستتباب الأمر للدولة الإسلامية ، وللنظام الإسلامى . والسورة تتولى جانبا من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة ، وإبراز تلك الملامح وتثبيتها فى حياة الأسرة والجماعة ؛ وبيان أصولها من العقيدة والتشريع ؛ كما تتولى تعديل الأوضاع والتقاليد أو إبطالها ؛ وإخضاعها فى هذا كله للتصور الإسلامى الجديد . وفى ثنايا الحديث عن تلك الأوضاع والنظم يرد الحديث عن غزوة الأحزاب ، وغزوة بنى قريظة , ومواقف الكفار والمنافقين واليهود فيهما ، ودسائسهم فى وسط الجماعة المسلمة , وما وقع من خلخلة وأذى بسبب هذه الدسائس وتلك المواقف . كما تعرض بعدها دسائسهم وكيدهم للمسلمين فى أخلاقهم وآدابهم وبيوتهم ونسائهم . ونقطة الاتصال فى سياق السورة بين تلك الأوضاع والنظم وهاتين الغزوتين وما وقع فيهما من أحداث ، هى علاقة هذه وتلك بمواقف الكافرين والمنافقين واليهود ؛ وسعى هذه الفئات لإيقاع الاضطراب فى صفوف الجماعة المسلمة . ومن هذا الجانب وذاك تبدو وحدة السورة ، وتماسك سياقها ، وتساوق موضوعاتها المنوعة . وهذا وذلك إلى جانب وحدة الزمن التى تربط بين الأحداث والتنظيمات التى تتناولها السورة . تبدأ السورة بتوجيه الرسول ﷺ إلى تقوى الله وعدم الطاعة للكافرين والمنافقين , واتباع ما يوحى إليه ربه ، والتوكل عليه وحده . وبعد ذلك يلقى بكلمة الحق والفصل فى بعض التقاليد والأوضاع الاجتماعية . مبتدئا بإيقاع حاسم يقرر حقيقة واقعة (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) يرمز بها إلى أن الإنسان لا يملك أن يتجه إلى أكثر من أفق واحد ، ولا أن يتبع أكثر من منهج واحد , وإلا نافق ، واضطربت خطاه . وما دام لا يملك إلا قلبا واحدا ، فلا بد أن يتجه إلى إله واحد وأن يتبع نهجا واحدا ؛ وأن يدع ما عداه من مألوفات وتقاليد وأوضاع وعادات . ومن ثم يأخذ فى إبطال عادة الظهار – وهو أن يحلف الرجل على امرأته أنها عليه كظهر أمه فتحرم عليه حرمة أمه (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) ويقرر أن هذا الكلام يقال بالأفواه ولا ينشئ حقيقة وراءه ، بل تظل الزوجة زوجة ولا تصير أما بهذا الكلام . . ويثنى بإبطال عادة التبنى وآثاره (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) فلا يعودون بعد اليوم يتوارثون ، ولا تترتب على هذا التبنى آثاره الأخرى ، ويستبقى بعد ذلك أو ينشىء الولاية العامة لرسول الله ﷺ على المؤمنين جميعا ؛ ويقدم هذه الولاية على ولايتهم لأنفسهم ؛ كما ينشىء صلة الأمومة الشعورية بين أزواج النبى ﷺ وجميع المؤمنين (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) ثم يبطل آثار المؤاخاة التى تمت فى أول الهجرة ; ويرد الأمر إلى القرابة الطبيعية فى الإرث والدية وما إليها (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين) وبذلك يعيد تنظيم الجماعة الإسلامية على الأسس الطبيعية ويبطل ما عداها من التنظيمات الوقتية . ويعقب على هذا التنظيم الجديد ، الذى يستمد من منهج الإسلام وحكم الله ؛ بالإشارة إلى أن ذلك مسطور فى كتاب الله القديم ، وإلى الميثاق المأخوذ على النبيين , وعلى أولى العزم منهم بصفة خاصة . على طريقة القرآن فى التعقيب على النظم والتشريعات , والمبادئ ، والتوجيهات ، لتقر فى الضمائر والأخلاد . وهذا هو إجمال الشوط الأول فى السورة .

ويتناول الشوط الثانى بيان نعمة الله على المؤمنين ، إذ رد عنهم كيد الأحزاب والمهاجمين . ثم يأخذ فى تصوير وقعتى الأحزاب وبنى قريظة تصويرا حيا ، فى مشاهد متعاقبة , ترسم المشاعر الباطنة ، والحركات الظاهرة ، والحوار بين الجماعات والأفراد . وفى خلال رسم المعركة وتطوراتها تجىء التوجيهات فى موضعها المناسب ؛ وتجىء التعقيبات على الأحداث مقررة للمنهج القرانى فى إنشاء القيم الثابتة التى يقررها

للحياة ، من خلال ما وقع فعلا ، وما جاش فى الأخلاد والضمائر . بعد ذلك يجىء قرار تخيير أزواج النبى ﷺ اللواتى طالبنه بالتوسعة فى النفقة عليهن بعدما وسع الله عليه وعلى المسلمين من فىء بنى قريظة العظيم وما قبله من الغنائم . تخييرهن بين متاع الحياة الدنيا وزينتها وإيثار الله ورسوله والدار الآخرة . وقد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، ورضين هذا المقام الكريم عند الله ورسول الله ﷺ وآثرنه على متاع الحياة . ومن ثم جاءهن البيان عن جزائهن المضاعف فى الأجر إن اتقين وفى العذاب إن ارتكبن فاحشة مبينة . وعلل هذه المضاعفة بمقامهن الكريم وصلتهن برسول الله ﷺ ونزول القرآن فى بيوتهن وتلاوته ، والحكمة التى يسمعنها من النبى ﷺ واستطرد فى بيان جزاء المؤمنين كافة والمؤمنات .

وكان هذا هو الشوط الثالث .

فأما الشوط الرابع فتناول إشارة غير صريحة إلى موضوع تزويج زينب بنت جحش القرشية الهاشمية بنت عمة رسول الله ﷺ من زيد بن حارثة مولاه . وما نزل فى شأنه أولا من رد أمر المؤمنين والمؤمنات كافة إلى الله ، ليس لهم منه شىء ، وليس لهم فى أنفسهم خيرة . إنما هى إرادة الله وقدره الذى يسير كل شىء ، ويستسلم له المؤمن الاستسلام الكامل الصريح (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبين ا) ثم يعقب حادث الزواج حادث الطلاق ؛ وما وراءه من إبطال آثار التبنى ، الذى سبق الكلام عليه فى أول السورة . إبطاله بسابقة عملية ؛ يختار لها رسول الله ﷺ بشخصه ، لشدة عمق هذه العادة فى البيئة العربية ، وصعوبة الخروج عليها . فيقع الابتلاء على رسول الله ﷺ ليحملها فيما يحمل من أعباء الدعوة وتقرير أصولها فى واقع المجتمع ، بعد تقريرها فى أعماق الضمير (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا . وكان أمر الله مفعولا) وبهذه المناسبة يوضح حقيقة العلاقة بين رسول الله ﷺ والمؤمنين كافة (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) ويختم هذا الشوط بتوجيهات للرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا)

ويبدأ الشوط الخامس ببيان حكم المطلقات قبل الدخول . ثم يتناول تنظيم الحياة الزوجية للنبى ﷺ فيبين من يحل له من النساء المؤمنات ومن يحرمن عليه . ويستطرد إلى تنظيم علاقة المسلمين ببيوت النبى وزوجاته ، فى حياته وبعد وفاته وتقرير احتجابهن إلا على آبائهن أو أبنائهن أو إخوانهن أو أبناء إخوانهن أو أبناء أخواتهن أو نسائهن ، أو ما ملكت أيمانهن . وإلى بيان جزاء الذين يؤذون رسول الله ﷺ فى أزواجه وبيوته وشعوره ؛ ويلعنهم فى الدنيا والآخرة . مما يشى بأن المنافقين وغيرهم كانوا يأتون من هذا شيئا كثيرا . ويعقب على هذا بأمر أزواج النبى وبناته ونساء المؤمنين كافة أن (يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) وبتهديد المنافقين والذين فى قلوبهم مرض والمرجفين فى المدينة بإغراء النبى ﷺ بهم وإخراجهم من المدينة كما خرج من قبل بنو قينقاع وبنو النضير ، أو القضاء عليهم كما وقع لبنى قريظة أخيرا . وكل هذا يشير إلى شدة إيذاء هذه المجموعة للمجتمع الإسلامى فى المدينة بوسائل شريرة خبيثة .

والشوط السادس والأخير فى السورة يتضمن سؤال الناس عن الساعة ، والإجابة على هذا التساؤل بأن علم الساعة عند الله ، والتلويح بأنها قد تكون قريبا . ويتبع هذا مشهد من مشاهد القيامة (يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون:يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) ونقمتهم على سادتهم وكبرائهم الذين أطاعوهم فأضلوهم (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا)

ثم تختم السورة بإيقاع هائل عميق الدلالة والتأثير (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوما جهولا . ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات . وكان الله غفورا رحيما) وهو إيقاع يكشف عن جسامة العبء الملقى على عاتق البشرية ، وعلى عاتق الجماعة المسلمة بصفة خاصة ؛ وهى التى تنهض وحدها بعبء هذه الأمانة الكبرى . أمانة العقيدة والاستقامة عليها . والدعوة والصبر على تكاليفها ، والشريعة والقيام على تنفيذها فى أنفسهم وفى الأرض من حولهم . مما يتمشى مع موضوع السورة ، وجوها ؛ وطبيعة المنهج الإلهى الذى تتولى السورة تنظيم المجتمع الإسلامى على أساسه .

والآن نتناول السورة بالتفصيل بعد هذا الإجمال السريع .

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{١} وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً{٢} وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً{٣} مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ{٤} ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{٥} النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً{٦} وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً{٧} لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً){٨}

إن الإسلام ليس مجموعة إرشادات ومواعظ ، ولا مجموعة آداب وأخلاق ، ولا مجموعة شرائع وقوانين ، ولا مجموعة أوضاع وتقاليد . . إنه يشتمل على هذا كله . ولكن هذا كله ليس هو الإسلام . إنما الإسلام الاستسلام . الاستسلام لمشيئة الله وقدره ؛ والاستعداد ابتداء لطاعة أمره ونهيه ؛ ولاتباع المنهج الذى يقرره دون التلفت إلى أى توجيه آخر وإلى أى اتجاه . ودون اعتماد كذلك على سواه . ومن ثم كان التوجيه الأول فى السورة التى تتولى تنظيم الحياة الاجتماعية للمسلمين بتشريعات وأوضاع جديدة ، هو التوجيه إلى تقوى الله . وكان القول موجها إلى النبى ﷺ القائم على تلك التشريعات والتنظيمات (يا أيها النبى اتق الله) فتقوى الله والشعور برقابته واستشعار جلاله هى القاعدة الأولى ، وهى الحارس القائم فى أعماق الضمير على التشريع والتنفيذ . وهى التى يناط بها كل تكليف فى الإسلام وكل توجيه . وكان التوجيه الثانى هو النهى عن طاعة الكافرين والمنافقين ، واتباع توجيههم أو اقتراحهم , والاستماع إلى رأيهم أو تحريضهم (ولا تطع الكافرين والمنافقين) وتقديم هذا النهى على الأمر باتباع وحى الله يوحى بأن ضغط الكافرين والمنافقين فى المدينة وما حولها كان فى ذلك الوقت عنيفا ، فاقتضى هذا النهى عن اتباع آرائهم وتوجيهاتهم , والخضوع لدفعهم وضغطهم . ثم يبقى ذلك النهى قائما فى كل بيئة وكل زمان , يحذر المؤمنين أن يتبعوا آراء الكافرين والمنافقين إطلاقا ، وفى أمر العقيدة وأمر التشريع وأمر التنظيم الاجتماعى بصفة خاصة . ليبقى منهجهم خالصا لله ، غير مشوب بتوجيه من سواه . ولا ينخدع أحد بما يكون عند الكافرين والمنافقين من ظاهر العلم والتجربة والخبرة - كما يسوغ بعض المسلمين لأنفسهم فى فترات الضعف والانحراف - فإن الله هو العليم الحكيم ; وهو الذى اختار للمؤمنين منهجهم وفق علمه وحكمته (إن الله كان عليما حكيما) وما عند البشر إلا قشور ، وإلا قليل ! والتوجيه الثالث المباشر (واتبع ما يوحى إليك من ربك) فهذه هى الجهة التى تجىء منها التوجيهات ، وهذا هو المصدر الحقيق بالاتباع . والنص يتضمن لمسات موحية تكمن فى صياغة التعبير (واتبع ما يوحى إليك من ربك) فالوحى إليك بهذا التخصيص . والمصدر (من ربك) بهذه الإضافة . فالاتباع هنا متعين بحكم هذه الموحيات الحساسة ، فوق ما هو متعين بالأمر الصادر من صاحب الأمر المطاع . . والتعقيب (إن الله كان بما تعملون خبيرا) فهو الذى يوحى عن خبرة بكم وبما تعملون ؛ وهو الذى يعلم حقيقة ما تعملون ، ودوافعكم إلى العمل من نوازع الضمير . والتوجيه الأخير (وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا) فلا يهمنك أكانوا معك أم كانوا عليك ؛ ولا تحفل كيدهم ومكرهم ؛ وألق بأمرك كله إلى الله ، يصرفه بعلمه وحكمته وخبرته . . ورد الأمر إلى الله فى النهاية والتوكل عليه وحده ، هو القاعدة الثابتة المطمئنة التى يفيء إليها القلب ؛ فيعرف عندها حدوده ، وينتهى إليها ؛ ويدع ما وراءها لصاحب الأمر والتدبير ، في ثقة وفى طمأنينة وفى يقين . وهذه العناصر الثلاثة: تقوى الله . واتباع وحيه . والتوكل عليه - مع مخالفة الكافرين والمنافقين - هى العناصر التى تزود الداعية بالرصيد ؛ وتقيم الدعوة على منهجها الواضح الخالص . من الله ، وإلى الله ، وعلى الله . (وكفى بالله وكيلا) ويختم هذه التوجيهات بإيقاع حاسم مستمد من مشاهدة حسية (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) إنه قلب واحد ، فلا بد له من منهج واحد يسير عليه . ولا بد له من تصور كلى واحد للحياة وللوجود يستمد منه . ولا بد له من ميزان واحد يزن به القيم ، ويقوم به الأحداث والأشياء . وإلا تمزق وتفرق ونافق والتوى ، ولم يستقم على اتجاه . ولا يملك الإنسان أن يستمد آدابه وأخلاقه من معين ؛ ويستمد شرائعه وقوانينه من معين آخر ؛ ويستمد أوضاعه الاجتماعية أو الاقتصادية من معين ثالث ؛ ويستمد فنونه وتصوراته من معين رابع . . فهذا الخليط لا يكون إنسانا له قلب . إنما يكون مزقا وأشلاء ليس لها قوام ! لا يملك صاحب العقيدة أن يقول عن فعل فعله:فعلت كذا بصفتى الشخصية . وفعلت كذا بصفتى الإسلامية ! كما يقول رجال السياسة أو رجال الشركات . أو رجال الجمعيات الاجتماعية أو العلمية

وما إليها فى هذه الأيام ! إنه شخص واحد له قلب واحد ، تعمره عقيدة واحدة . وله تصور واحد للحياة ، وميزان واحد للقيم . وتصوره المستمد من عقيدته متلبس بكل ما يصدر عنه ، فى كل حالة من حالاته على السواء . وبهذا القلب الواحد يعيش فردا ، ويعيش فى الأسرة ، ويعيش فى الجماعة ، ويعيش فى الدولة . ويعيش فى العالم . ويعيش سرا وعلانية . ويعيش عاملا وصاحب عمل . ويعيش حاكما ومحكوما . ويعيش فى السراء والضراء . . فلا تتبدل موازينه ، ولا تتبدل قيمه ، ولا تتبدل تصوراته (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) وبعد هذا الإيقاع الحاسم فى تعيين المنهج والطريق يأخذ فى إبطال عادة الظهار وعادة التبنى . ليقيم المجتمع على أساس الأسرة الواضح السليم المستقيم (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم . وما جعل أدعياءكم أبناءكم . ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله . فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم . وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم . وكان الله غفورا رحيما) كان الرجل فى الجاهلية يقول لامرأته:أنت على كظهر أمى . أى حرام محرمة كما تحرم على أمى . ومن ساعتئذ يحرم عليه وطؤها ؛ ثم تبقى معلقة ، لا هى مطلقة فتتزوج غيره ، ولا هى زوجة فتحل له . وكان فى هذا من القسوة ما فيه ؛ وكان طرفا من سوء معاملة المرأة فى الجاهلية والاستبداد بها ، وسومها كل مشقة وعنت . فلما أخذ الإسلام يعيد تنظيم العلاقات الإجتماعية فى محيط الأسرة ؛ ويعتبر الأسرة هى الوحدة الاجتماعية الأولى ؛ ويوليها من عنايته ما يليق بالمحضن الذى تنشأ فيه الأجيال . جعل يرفع عن المرأة هذا الخسف ؛ وجعل يصرف تلك العلاقات بالعدل واليسر . وكان مما شرعه هذه القاعدة (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) فإن قولة باللسان لا تغير الحقيقة الواقعة ، وهى أن الأم أم والزوجة زوجة ; ولا تتحول طبيعة العلاقة بكلمة ! ومن ثم لم يعد الظهار تحريما أبديا كتحريم الأم كما كان فى الجاهلية . أما مسألة التبنى ، ودعوة الأبناء إلى غير آبائهم ، فقد كانت كذلك تنشأ من التخلخل فى بناء الأسرة ، وفى بناء المجتمع كله . ومع ما هو مشهور من الاعتزاز بالعفة فى المجتمع العربى ، والاعتزاز بالنسب ، فإنه كانت توجد إلى جانب هذا الاعتزاز ظواهر أخرى مناقضة فى المجتمع ، فى غير البيوت المعدودة ذات النسب المشهور . كان يوجد فى المجتمع أبناء لا يعرف لهن آباء ! وكان الرجل يعجبه أحد هؤلاء فيتبناه . يدعوه ابنه ، ويلحقه بنسبه ، فيتوارث وإياه توارث النسب . وكان هناك أبناء لهم آباء معروفون . ولكن كان الرجل يعجب بأحد هؤلاء فيأخذه لنفسه ,ويتبناه ، ويلحقه بنسبه ، فيعرف بين الناس باسم الرجل الذى تبناه ، ويدخل فى أسرته . وكان هذا يقع بخاصة فى السبى ، حين يؤخذ الأطفال والفتيان فى الحروب والغارات ; فمن شاء أن يلحق بنسبه واحدا من هؤلاء دعاه ابنه ، وأطلق عليه اسمه ، وعرف به ، وصارت له حقوق البنوة وواجباتها . ومن هؤلاء زيد بن حارثة الكلبى . وهو من قبيلة عربية . سبى صغيرا فى غارة أيام الجاهلية ; فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة – رضى الله عنها – فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له . ثم طلبه أبوه وعمه فخيره رسول الله ﷺ فاختار رسول الله ﷺفأعتقه ، وتبناه ، وكانوا يقولون عنه:زيد بن محمد . وكان أول من آمن به من الموالى . فلما شرع الإسلام ينظم علاقات الأسرة على الأساس الطبيعى لها ، ويحكم روابطها ، ويجعلها صريحة لا خلط فيها ولا تشويه . . أبطل عادة التبنى هذه ؛ ورد علاقة النسب إلى أسبابها الحقيقية . علاقات الدم والأبوة والبنوة الواقعية وقال (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) (ذلكم قولكم بأفواهكم) والكلام لا يغير واقعا ، ولا ينشئ علاقة غير علاقة الدم ، وعلاقة الوراثة للخصائص التى تحملها النطفة ، وعلاقة المشاعر الطبيعية الناشئة من كون الولد بضعة حية من جسم والده الحى ! (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) يقول الحق المطلق الذى لا يلابسه باطل . ومن الحق إقامة العلاقات على تلك الرابطة الحقة المستمدة من اللحم والدم ، لا على كلمة تقال بالفم (وهو يهدى السبيل) المستقيم ، المتصل بناموس الفطرة الأصيل ، الذى لا يغنى غناءه سبيل آخر من صنع البشر ، يصنعونه بأفواههم . بكلمات لا مدلول لها من الواقع . فتغلبها كلمة الحق والفطرة التى يقولها الله ويهدى بها السبيل (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) وإنه لقسط وعدل أن يدعى الولد لأبيه . عدل للوالد الذى نشأ هذا الولد من بضعة منه حية . وعدل للولد الذى يحمل اسم أبيه ، ويرثه ويورثه ، ونظرا للفوضى فى علاقات الأسرة فى الجاهلية والفوضى الجنسية كذلك ، التى تخلف عنها أن تختلط الأنساب ، وأن يجهل الآباء فى بعض الأحيان ، فقد يسر الإسلام الأمر – وهو بصدد إعادة تنظيم الأسرة ، وإقامة النظام الاجتماعى على أساسها – فقرر فى حالة عدم الاهتداء إلى معرفة الآباء الحقيقيين مكانا للأدعياء فى الجماعة الإسلامية ، قائما على الأخوة فى الدين والموالاة فيه (فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم) وهى علاقة أدبية شعورية ؛ لا تترتب عليها التزامات محددة ، كالتزام التوارث والتكافل فى دفع الديات – وهى التزامات النسب بالدم ، التى كانت تلتزم كذلك بالتبنى – وذلك كى لا يترك هؤلاء الأدعياء بغير رابطة فى الجماعة بعد إلغاء رابطة التبنى . وبعد الاجتهاد فى رد الأنساب إلى حقائقها فليس على المؤمنين من مؤاخذة فى الحالات التى يعجزون عن الاهتداء فيها إلى النسب الصحيح (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ؛ ولكن ما تعمدت قلوبكم) وهذه السماحة مردها

إلى أن الله سبحانه وتعالى يتصف بالغفران والرحمة ، فلا يعنت الناس بما لا يستطيعون (وكان الله غفورا رحيما) بعد ذلك يقرر إبطال نظام المؤاخاة كما أبطل نظام التبنى . ونظام المؤاخاة لم يكن جاهليا ; إنما هو نظام استحدثه الإسلام بعد الهجرة ، لمواجهة حالة المهاجرين الذين تركوا أموالهم وأهليهم فى مكة ؛ ومواجهة الحالة كذلك بين المسلمين فى المدينة ممن انفصلت علاقاتهم بأسرهم نتيجة لإسلامهم . . وذلك مع تقرير الولاية العامة للنبى ﷺ وتقديمها على جميع ولايات النسب ؛ وتقرير الأمومة الروحية بين أزواجه ﷺ وجميع المؤمنين (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم ؛ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين . إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا . كان ذلك فى الكتاب مسطورا)لقد هاجر المهاجرون من مكة إلى المدينة ، تاركين وراءهم كل شيء ، فارين إلى الله بدينهم , مؤثرين عقيدتهم على وشائج القربى ، وذخائر المال ، وأسباب الحياة ، وذكريات الطفولة والصبا ، وموادات الصحبة والرفقة ، ناجين بعقيدتهم وحدها ، متخلين عن كل ما عداها . وكانوا بهذه الهجرة على هذا النحو ، وعلى هذا الانسلاخ من كل عزيز على النفس ، بما فى ذلك الأهل والزوج والولد – المثل الحى الواقع فى الأرض على تحقق العقيدة في صورتها الكاملة ، واستيلائها على القلب ، بحيث لا تبقى فيه بقية لغير العقيدة .وعلى توحيد الشخصية الإنسانية كذلك وقع فى المدينة شيء من هذا فى صورة أخرى . فقد دخل فى الإسلام أفراد من بيوت , وظل آخرون فيها على الشرك . فانبتت العلاقة بينهم وبين قرابتهم . ووقع على أية حال تخلخل فى الروابط العائلية ؛ وتخلخل أوسع منه فى الارتباطات الاجتماعية . وكان المجتمع الإسلامي لا يزال وليدا , والدولة الإسلامية الناشئة أقرب إلى أن تكون فكرة مسيطرة على النفس ، من أن تكون نظاما مستندا إلى أوضاع مقررة . نزل المهاجرون على إخوانهم الأنصار ، الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ؛ فاستقبلوهم فى دورهم وفى قلوبهم ، وفى أموالهم . وتسابقوا إلى إيوائهم ؛ وتنافسوا فيهم حتى لم ينزل مهاجرى فى دار أنصارى إلا بقرعة . إذ كان عدد المهاجرين أقل من عدد الراغبين في إيوائهم من الأنصار . وشاركوهم كل شيء عن رضى نفس ، وطيب خاطر ، وفرح حقيقى مبرأ من الشح الفطرى ، كما هو مبرأ من الخيلاء والمراءاة ! وأخى رسول الله ﷺ بين رجال من المهاجرين ورجال من الأنصار . وكان هذا الإخاء صلة فريدة في تاريخ التكافل بين أصحاب العقائد . وقام هذا الإخاء مقام أخوة الدم ، فكان يشمل التوارث والالتزامات الأخرى الناشئة عن وشيجة النسب كالديات وغيرها . وارتفع المد الشعورى فى هذا إلى ذروة عالية ؛ وأخذ المسلمون هذه العلاقة الجديدة مأخذ الجد – شأنهم فيها شأنهم فى كل ما جاءهم به الإسلام – وقام هذا المد فى إنشاء المجتمع الإسلامي وحياطته مقام الدولة المتمكنة والتشريع المستقر والأوضاع المسلمة . بل بما هو أكثر . وكان ضروريا لحفظ هذه الجماعة الوليدة وتماسكها في مثل تلك الظروف الاستثنائية المتشابكة التى قامت فيها . وإن مثل هذا المد الشعورى لضرورى لنشأة كل جماعة تواجه مثل تلك الظروف ، حتى توجد الدولة المتمكنة والتشريع المستقر والأوضاع المسلمة ، التى توفر الضمانات الاستثنائية لحياة تلك الجماعة ونموها وحمايتها . وذلك إلى أن تنشأ الأحوال والأوضاع الطبيعية . ومن ثم عاد القرآن الكريم – بمجرد استقرار الأحوال فى المدينة شيئا ما بعد غزوة بدر , واستتباب الأمر للدولة الإسلامية ، وقيام أوضاع اجتماعية مستقرة بعض الاستقرار , ووجود أسباب معقولة للارتزاق ، وتوفر قدر من الكفاية للجميع على إثر السرايا التى جاءت بعد غزوة بدر الكبرى ، وبخاصة ما غنمه المسلمون من أموال بني قينقاع بعد إجلائهم . . عاد القرآن الكريم بمجرد توفر هذه الضمانات إلى إلغاء نظام المؤاخاة من ناحية الالتزامات الناشئة من الدم والنسب ، مستبقيا إياه من ناحية العواطف والمشاعر ، ليعود إلى العمل إذا دعت الضرورة . ورد الأمور إلى حالتها الطبيعية في الجماعة الإسلامية . فرد الإرث والتكافل فى الديات إلى قرابة الدم والنسب – كما هى أصلا فى كتاب الله القديم وناموسه الطبيعى: وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا . كان ذلك فى الكتاب مسطورا . وقرر فى الوقت ذاته الولاية العامة للنبى ﷺ وهى ولاية تتقدم على قرابة الدم , بل على قرابة النفس ! (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) وقرر الأمومة الشعورية لأزواج النبى ﷺ بالنسبة لجميع المؤمنين (وأزواجه أمهاتهم) وولاية النبى ﷺ ولاية عامة تشمل رسم منهاج الحياة بحذافيرها ، وأمر المؤمنين فيها إلى الرسول – عليه صلوات الله وسلامه – ليس لهم أن يختاروا إلا ما اختاره لهم بوحي من ربه:" لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به " ويشد هذه الإجراءات كلها إلى العروة الأولى ، ويقرر أن هذه إرادة الله التى سبق بها كتابه الأزلى (كان ذلك فى الكتاب مسطورا) فتقر القلوب وتطمئن ؛ وتستمسك بالأصل الكبير الذى يرجع إليه كل تشريع وكل تنظيم . بذلك تستوى الحياة على أصولها الطبيعية ؛ وتسير فى يسر وهوادة ؛ ولا تظل معلقة مشدودة إلى آفاق لا تبلغها عادة إلا فى فترات استثنائية محدودة فى حياة الجماعات والأفراد . وبمناسبة ما سطر فى كتاب الله ، وما سبقت به مشيئته ، ليكون هو الناموس الباقى ، والمنهج المطرد ، يشير إلى ميثاق الله مع النبيين عامة ، والنبى ﷺ وأولى العزم من الرسل خاصة ، فى حمل أمانة هذا المنهج ، والاستقامة عليه ، وتبليغه للناس ، والقيام عليه فى الأمم التى أرسلوا

إليها ؛ وذلك حتى يكون الناس مسؤولين عن هداهم وضلالهم وإيمانهم وكفرهم ، بعد انقطاع الحجة بتبليغ الرسل عليهم صلوات الله وسلامه (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ؛ وأخذنا منهم ميثاقا غليظا . ليسأل الصادقين عن صدقهم ، وأعد للكافرين عذابا أليما) إنه ميثاق واحد مطرد من لدن نوح – عليه السلام – إلى خاتم النبيين محمد ﷺ ميثاق واحد ، ومنهج واحد ، وأمانة واحدة يتسلمها كل منهم حتى يسلمها . وقد عمم النص أولا (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) ثم خصص صاحب القرآن الكريم وصاحب الدعوة العامة إلى العالمين (ومنك) ثم عاد إلى أولى العزم من الرسل , وهم أصحاب أكبر الرسالات – وبعد بيان أصحاب الميثاق عاد إلى وصف الميثاق نفسه (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) ووصف الميثاق بأنه غليظ منظور فيه إلى الأصل اللغوى للفظ ميثاق – وهو الحبل المفتول – الذى استعير للعهد والرابطة . وفيه من جانب آخر تجسيم للمعنوى يزيد إيحاءه للمشاعر . . وإنه لميثاق غليظ متين ذلك الميثاق بين الله والمختارين من عباده , ليتلقوا وحيه ، ويبلغوا عنه ، ويقوموا على منهجه فى أمانة واستقامة (ليسأل الصادقين عن صدقهم) والصادقون هم المؤمنون . فهم الذين قالوا كلمة الصدق , واعتنقوا عقيدة الصدق . ومن سواهم كاذب ، لأنه يعتقد بالباطل ويقول كلمة الباطل . ومن ثم كان لهذا الوصف دلالته وإيحاؤه . وسؤالهم عن صدقهم يوم القيامة كما يسأل المعلم التلميذ النجيب الناجح عن إجابته التى استحق بها النجاح والتفوق ، أمام المدعوين لحفل النتائج ! سؤال للتكريم ، وللإعلان والإعلام على رؤوس الأشهاد ، وبيان الاستحقاق ، والثناء على المستحقين للتكريم فى يوم الحشر العظيم ! فأما غير الصادقين . الذين دانوا بعقيدة الباطل ، وقالوا كلمة الكذب فى أكبر قضية يقال فيها الصدق أو يقال فيها الكذب . قضية العقيدة . فأما هؤلاء فلهم جزاء آخر حاضر مهيأ ، يقف لهم فى الانتظار (وأعد للكافرين عذابا أليما)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً{٩} إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا{١٠} هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً{١١} وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً{١٢} وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً{١٣} وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً{١٤} وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً{١٥} قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً{١٦} قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً{١٧} قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً{١٨} أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءِ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً{١٩} يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً{٢٠} لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً{٢١} وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً{٢٢} مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً{٢٣} لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً{٢٤} وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً{٢٥} وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً{٢٦} وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً){٢٧}

هذا المقطع من سورة الأحزاب يتولى تشريح حدث من الأحداث الضخمة فى تاريخ الدعوة الإسلامية , وفى تاريخ الجماعة المسلمة ؛ ويصف موقفا من مواقف الامتحان العسيرة ، وهو غزوة الأحزاب ، فى السنة الرابعة أو الخامسة للهجرة الامتحان لهذه الجماعة الناشئة , ولكل قيمها وتصوراتها . ومن تدبر هذا النص القرآني ، وطريقة عرضه للحادث , وأسلوبه فى الوصف والتعقيب ووقوفه أمام بعض المشاهد والحوادث ، والحركات والخوالج , وإبرازه للقيم والسنن . من ذلك كله ندرك كيف كان الله يربى هذه الأمة بالأحداث والقرآن فى آن (يستحسن الإطلاع على تفاصيل غزوة الأحزاب فى كتاب نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين) إن النص القرآنى يغفل أسماء الأشخاص ، وأعيان الذوات ، ليصور نماذج البشر وأنماط الطباع . ويغفل تفصيلات الحوادث وجزئيات الوقائع ، ليصور القيم الثابتة والسنن الباقية . هذه التى لا تنتهى بانتهاء

الحادث ، ولا تنقطع بذهاب الأشخاص ، ولا تنقضى بانقضاء الملابسات ، ومن ثم تبقى قاعدة ومثلا لكل جيل ولكل قبيل . ويحفل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الأحداث والأشخاص ، ويظهر فيها يد الله القادرة وتدبيره اللطيف ، ويقف عند كل مرحلة فى المعركة للتوجيه والتعقيب والربط بالأصل الكبير . ولا يفهم النصوص القرآنية حق الفهم إلا من يواجه مثل الظروف التى واجهتها أول مرة . هنا تتفتح النصوص عن رصيدها المذخور ، وتتفتح القلوب لإدراك مضامينها الكاملة . وهنا تتحول تلك النصوص من كلمات وسطور إلى قوى وطاقات . وتنتفض الأحداث والوقائع المصورة فيها . تنتفض خلائق حية ، موحية ، دافعة ، دافقة ، تعمل فى واقع الحياة ، وتدفع بها إلى حركة حقيقية ، فى عالم الواقع وعالم الضمير .

يبدأ السياق القرآنى الحديث عن معركة الأحزاب بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم أن رد عنهم الجيش الذى هم أن يستأصلهم ، لولا عون الله وتدبيره اللطيف . ومن ثم يجمل فى الآية الأولى طبيعة ذلك الحادث ، وبدءه ونهايته ، قبل تفصيله وعرض مواقفه . لتبرز نعمة الله التى يذكرهم بها ، ويطلب إليهم أن يتذكروها ؛ وليظهر أن الله الذى يأمر المؤمنين باتباع وحيه ، والتوكل عليه وحده ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، هو الذى يحمى القائمين على دعوته ومنهجه ، من عدوان الكافرين والمنافقين (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود ، فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا) وهكذا يرسم فى هذه البداءة المجملة بدء المعركة وختامها ، والعناصر الحاسمة فيها . . مجىء جنود الأعداء . وإرسال ريح الله وجنوده التى لم يرها المؤمنون . ونصر الله المرتبط بعلم الله بهم ، وبصره بعملهم . ثم يأخذ بعد هذا الإجمال فى التفصيل والتصوير (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ؛ وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض:ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم:يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا . ويستأذن فريق منهم النبى ، يقولون:إن بيوتنا عورة – وما هى بعورة . إن يريدون إلا فرارا) إنها صورة الهول الذى روع المدينة ، والكرب الذى شملها ، والذى لم ينج منه أحد من أهلها . وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بنى قريظة من كل جانب . من أعلاها ومن أسفلها . فلم يختلف الشعور بالكرب والهول فى قلب عن قلب ؛ وإنما الذى اختلف هو استجابة تلك القلوب ، وظنها بالله ، وسلوكها فى الشدة ، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج . ومن ثم كان الابتلاء كاملا والامتحان دقيقا . والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسما لا تردد فيه . وننظر اليوم فنرى الموقف بكل سماته ، وكل انفعالاته ، وكل خلجاته ، وكل حركاته ، ماثلا أمامنا كأننا نراه من خلال هذا النص القصير . ننظر فنرى الموقف من خارجه: إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم . ثم ننظر فنرى أثر الموقف فى النفوس (وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر) وهو تعبير مصور لحالة الخوف والكربة والضيق ، يرسمها بملامح الوجوه وحركات القلوب (وتظنون بالله الظنونا) ولا يفصل هذه الظنون . ويدعها مجملة ترسم حالة الاضطراب فى المشاعر والخوالج ، وذهابها كل مذهب ، واختلاف التصورات فى شتى القلوب . ثم تزيد سمات الموقف بروزا ، وتزيد خصائص الهول فيه وضوحا (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) والهول الذى يزلزل المؤمنين لا بد أن يكون هولا مروعا رعيبا . ولقد كان أشد الكرب على المسلمين ، وهم محصورون بالمشركين داخل الخندق ، ذلك الذى كان يجيئهم من انتقاض بنى قريظة عليهم من خلفهم . فلم يكونوا يأمنون فى أية لحظة أن ينقض عليهم المشركون من الخندق ، وأن تميل عليهم يهود ، وهم قلة بين هذه الجموع ,التى جاءت بنية استئصالهم فى معركة حاسمة أخيرة .

ذلك كله إلى ما كان من كيد المنافقين والمرجفين فى المدينة وبين الصفوف (وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض:ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) فقد وجد هؤلاء فى الكرب المزلزل ، والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد ؛ وفرصة للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة فى وعد الله ووعد رسوله ، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون . فالواقع بظاهره يصدقهم فى التوهين والتشكيك . وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم ؛ فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمل ، وروع نفوسهم ترويعا لا يثبت له إيمانهم المهلهل ! فجهروا بحقيقة ما يشعرون غير مبقين ولا متجملين ! ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون فى كل جماعة ؛ وموقفهم فى الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء . فهم نموذج مكرر فى الأجيال والجماعات على مدار الزمان ! (وإذ قالت طائفة منهم:يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا) فهم يحرضون أهل المدينة على ترك الصفوف ، والعودة إلى بيوتهم ، بحجة أن إقامتهم أمام الخندق مرابطين هكذا ، لا موضع لها ولا محل ، وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم . . وهى دعوة خبيثة تأتى النفوس من الثغرة الضعيفة فيها ، ثغرة الخوف على النساء والذرارى . والخطر محدق والهول جامح ، والظنون لا تثبت ولا تستقر ! (ويستأذن فريق منهم النبى ، يقولون:إن بيوتنا عورة) يستأذنون بحجة أن بيوتهم مكشوفة للعدو . متروكة بلا حماية . وهنا يكشف

القرآن عن الحقيقة ، ويجردهم من العذر والحجة (وما هى بعورة) ويضبطهم متلبسين بالكذب والاحتيال والجبن والفرار (إن يريدون إلا فرارا) ويقف السياق عند هذه اللقطة الفنية المصورة لموقف البلبلة والفزع والمراوغة . يقف ليرسم صورة نفسية لهؤلاء المنافقين والذين فى قلوبهم مرض . صورة نفسية داخلية لوهن العقيدة ، وخور القلب ، والاستعداد للانسلاخ من الصف بمجرد مصادفة غير مبقين على شىء ، ولا متجملين لشىء (ولو دخلت عليهم من أقطارها ، ثم سئلوا الفتنة لآتوها ، وما تلبثوا بها إلا يسيرا) ذلك كان شأنهم والأعداء بعد خارج المدينة ؛ ولم تقتحم عليهم بعد . ومهما يكن الكرب والفزع ، فالخطر المتوقع غير الخطر الواقع ، فاما لو وقع واقتحمت عليهم المدينة من أطرافها (ثم سئلوا الفتنة) وطلبت إليهم الردة عن دينهم (لآتوها) سراعا غير متلبثين ، ولا مترددين (إلا قليلا) من الوقت ، أو إلا قليلا منهم يتلبثون شيئا ما قبل أن يستجيبوا ويستسلموا ويرتدوا كفارا ! فهى عقيدة واهنة لا تثبت ؛ وهو جبن غامر لا يملكون معه مقاومة ! (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار . وكان عهد الله مسؤولا) وعند هذا المقطع – وهم أمام العهد المنقوض ابتغاء النجاة من الخطر والأمان من الفزع - يقرر القرآن إحدى القيم الباقية التى يقررها فى أوانها ؛ ويصحح التصور الذى يدعوهم إلى نقض العهد والفرار (قل:لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ؛ وإذن لا تمتعون إلا قليلا . قل:من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ؛ ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) إن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر ، يدفعها فى الطريق المرسوم ، وينتهى بها إلى النهاية المحتومة . والموت أو القتل قدر لا مفر من لقائه ، فى موعده ، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر . ولن ينفع الفرار فى دفع القدر المحتوم عن فار . فإذا فروا فإنهم ملاقون حتفهم المكتوب ، فى موعده القريب . وكل موعد فى الدنيا قريب ، وكل متاع فيها قليل . ولا عاصم من الله ولا من يحول دون نفاذ مشيئته . سواء أراد بهم سوءا أم أراد بهم رحمة ، ولا مولى لهم ولا نصير ، من دون الله ، يحميهم ويمنعهم من قدر الله . فالاستسلام الاستسلام . والطاعة الطاعة . والوفاء الوفاء بالعهد مع الله ، فى السراء والضراء . ورجعالأمر إليه ، والتوكل الكامل عليه . ثم يفعل الله ما يشاء . ثم يستطرد إلى تقرير علم الله بالمعوقين ، الذين يقعدون عن الجهاد ويدعون غيرهم إلى القعود . ويقولون لهم (لا مقام لكم فارجعوا) ويرسم لهم صورة نفسية مبدعة . وهى - على صدقها – تثير الضحك والسخرية من هذا النموذج المكرور فى الناس . صورة للجبن والانزواء ، والفزع والهلع . فى ساعة الشدة . والانتفاش وسلاطة اللسان عند الرخاء . والشح على الخير والضن ببذل أى جهد فيه . والجزع والاضطراب عند توهم الخطر من بعيد . . والتعبير القرآنى يرسم هذه الصورة فى لمسات فنية مبدعة لا سبيل إلى استبدالها أو ترجمتها فى غير سياقها المعجز (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم:هلم إلينا ، ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم . فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت . فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد . أشحة على الخير . أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا . وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم . ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا) ويبدأ هذا النص بتقرير علم الله المؤكد بالمعوقين الذين يسعون بالتخذيل فى صفوف الجماعة المسلمة . الذين يدعون إخوانهم إلى القعود (ولا يأتون البأس إلا قليلا) ولا يشهدون الجهاد إلا لماما . فهم مكشوفون لعلم الله ، ومكرهم مكشوف . ثم تأخذ الريشة المعجزة فى رسم سمات هذا النموذج (أشحة عليكم) ففى نفوسهم كزازة على المسلمين . كزازة بالجهد وكزازة بالمال ، وكزازة فى العواطف والمشاعر على السواء (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت) وهى صورة شاخصة ، واضحة الملامح ، متحركة الجوارح ، وهى فى الوقت ذاته مضحكة ، تثير السخرية من هذا الصنف الجبان ، الذين تنطق أوصاله وجوارحه فى لحظة الخوف بالجبن المرتعش الخوار ! وأشد إثارة للسخرية صورتهم بعد أن يذهب الخوف ويجىء الأمن (فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) فخرجوا من الجحور ، وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش ، وانتفخت أوداجهم بالعظمة ، ونفشوا بعد الانزواء ، وادعوا فى غير حياء ، ما شاء لهم الادعاء ، من البلاء فى القتال والفضل فى الأعمال ، والشجاعة والاستبسال ثم هم (أشحة على الخير) فلا يبذلون للخير شيئا من طاقتهم وجهدهم وأموالهم وأنفسهم ؛ مع كل ذلك الادعاء العريض وكل ذلك التبجح وطول اللسان ! وهذا النموذج من الناس لا ينقطع فى جيل ولا فى قبيل . فهو موجود دائما . وهو شجاع فصيح بارز حيثما كان هناك أمن ورخاء . وهو جبان صامت منزو حيثما كان هناك شدة وخوف . وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير ، لا ينالهم منهم إلا سلاطة اللسان ! (أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم) فهذه هى العلة الأولى . العلة أن قلوبهم لم تخالطها بشاشة الإيمان ، ولم تهتد بنوره ، ولم تسلك منهجه (فأحبط الله أعمالهم) ولم ينجحوا لأن عنصر النجاح الأصيل ليس هناك (وكان ذلك على الله يسيرا) وليس هنالك عسير على الله ، وكان أمر الله مفعولا . فأما يوم الأحزاب فيمضى النص فى تصويرهم صورة مضحكة زرية (يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) فهم ما يزالون يرتعشون ، ويتخاذلون ، ويخذلون ! ويأبون أن يصدقوا أن الأحزاب قد ذهبت ، وأنه قد

ذهب الخوف ، وجاء الأمان ! (وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم) يا للسخرية ! ويا للتصوير الزرى ! ويا للصورة المضحكة ! وإن يأت الأحزاب يود هؤلاء الجبناء لو أنهم لم يكونوا من أهل المدينة يوما من الأيام . ويتمنون أن لو كانوا من أعراب البادية ، لا يشاركون أهل المدينة في حياة ولا فى مصير . ولا يعلمون - حتى - ما يجرى عند أهلها . إنما هم يجهلونه ، ويسألون عنه سؤال الغريب عن الغريب ! مبالغة فى البعد والانفصال ، والنجاة من الأهوال ! يتمنون هذه الأمنيات المضحكة ، مع أنهم قاعدون ، بعيدون عن المعركة ، لا يتعرضون لها مباشرة ؛ إنما هو الخوف من بعيد ! والفزع والهلع من بعيد ! (ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا) وبهذا الخط ينتهى رسم الصورة . صورة ذلك النموذج الذى كان عائشا في الجماعة الإسلامية الناشئة فى المدينة ؛ والذى ما يزال يتكرر في كل جيل وكل قبيل . بنفس الملامح , وذات السمات . . ينتهى رسم الصورة وقد تركت في النفوس الاحتقار لهذا النموذج , والسخرية منه ، والابتعاد عنه ، وهو انه على الله وعلى الناس . ذلك كان حال المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين فى الصفوف ، وتلك كانت صورتهم الرديئة . ولكن الهول والكرب والشدة والضيق لم تحول الناس جميعا إلى هذه الصورة الرديئة . . كانت هنالك صورة وضيئة في وسط الظلام ، مطمئنة في وسط الزلزال ، واثقة بالله ، راضية بقضاء الله ، مستيقنة من نصر الله ، بعد كل ما كان من خوف وبلبلة واضطراب . ويبدأ السياق هذه الصورة الوضيئة برسول الله ﷺ (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا) وقد كان رسول الله ﷺ على الرغم من الهول المرعب والضيق المجهد ، مثابة الأمان للمسلمين ، ومصدر الثقة والرجاء والاطمئنان . وإن دراسة موقفه ﷺ فى هذا الحادث الضخم لمما يرسم لقادة الجماعات والحركات طريقهم ؛ وفيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ؛ وتطلب نفسه القدوة الطيبة ؛ ويذكر الله ولا ينساه . ثم تأتى صورة الإيمان الواثق المطمئن ؛ وصورة المؤمنين المشرقة الوضيئة ، في مواجهة الهول ، وفى لقاء الخطر . الخطر الذى يزلزل القلوب المؤمنة ، فتتخذ من هذا الزلزال مادة للطمأنينة والثقة والاستبشار واليقين (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا:هذا ما وعدنا الله ورسوله . وصدق الله ورسوله . وما زادهم إلا إيمانا وتسليما) لقد كان الهول الذى واجهه المسلمون فى هذا الحادث من الضخامة ؛ وكان الكرب الذى واجهوه من الشدة ؛ وكان الفزع الذى لقوه من العنف ، بحيث زلزلهم زلزالا شديدا ، كما قال عنهم أصدق القائلين (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) لقد كانوا ناسا من البشر . وللبشر طاقة . لا يكلفهم الله ما فوقها . وعلى الرغم من ثقتهم بنصر الله فى النهاية ؛ وبشارة الرسول ﷺ لهم ، تلك البشارة التى تتجاوز الموقف كله إلى فتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق . . على الرغم من هذا كله , فإن الهول الذي كان حاضرا يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرب أنفاسهم . ولكن كان إلى جانب الزلزلة ، وزوغان الأبصار ، وكرب الأنفاس . . كان إلى جانب هذا كله الصلة التى لا تنقطع بالله ؛ والإدراك الذى لا يضل عن سنن الله ؛ والثقة التى لا تتزعزع بثبات هذه السنن ؛ وتحقق أواخرها متى تحققت أوائلها . ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سببا فى انتظار النصر .. وها هم أولاء يزلزلون . فنصر الله إذن منهم قريب ! ومن ثم قالوا (هذا ما وعدنا الله ورسوله . وصدق الله ورسوله) (وما زادهم إلا إيمانا وتسليما) هذا الهول ، وهذا الكرب ، وهذه الزلزلة ، وهذا الضيق . وعدنا عليه النصر . . فلا بد أن يجيء النصر (وصدق الله ورسوله) صدق الله ورسوله فى الإمارة وصدق الله ورسوله فى دلالتها . . ومن ثم اطمأنت قلوبهم لنصر الله ووعد الله (وما زادهم إلا إيمانا وتسليما) لقد كانوا ناسا من البشر ، لا يملكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر ، وضعف البشر . وليس مطلوبا منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشرى ؛ ولا أن يخرجوا من إطار هذا الجنس ; ويفقدوا خصائصه ومميزاته . فلهذا خلقهم الله . خلقهم ليبقوا بشرا ، ولا يتحولوا جنسا آخر . لا ملائكة ولا شياطين ، وهذا هو التوازن الذى صاغ ذلك النموذج الفريد فى صدر الإسلام . النموذج الذى يذكر عنه القرآن الكريم مواقفه الماضية وحسن بلائه وجهاده ، وثباته على عهده مع الله , فمنهم من لقيه ، ومنهم من ينتظر أن يلقاه (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر . وما بدلوا تبديلا) هذا فى مقابل ذلك النموذج الكريه . نموذج الذين عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار . ثم ولم يوفوا بعهد الله (وكان عهد الله مسؤولا) وهذه الصورة الوضيئة لهذا النموذج من المؤمنين تذكر هنا تكملة لصورة الإيمان ، فى مقابل صورة النفاق ، والضعف ونقض العهد من ذلك الفريق . لتتم المقابلة في معرض التربية بالأحداث وبالقرآن . ويعقب عليها ببيان حكمة الابتلاء ، وعاقبة النقض والوفاء ؛ وتفويض الأمر فى هذا كله لمشيئة الله (ليجزى الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين - إن شاء - أو يتوب عليهم . إن الله كان غفورا رحيما) ومثل هذا التعقيب يتخلل تصوير الحوادث والمشاهد - ليرد الأمر كله إلى الله ، ويكشف عن حكمة الأحداث والوقائع . فليس شيء منها عبثا ولا مصادفة . إنما تقع وفق حكمة مقدرة ، وتدبير قاصد . وتنتهى إلى ما شاء الله من العواقب . وفيها تتجلى رحمة الله بعباده . ورحمته ومغفرته أقرب وأكبر: (إن الله كان غفورا رحيما). ويختم الحديث عن الحدث الضخم بعاقبته التى تصدق ظن المؤمنين بربهم ؛ وضلال المنافقين والمرجفين وخطأ

تصوراتهم ؛ وتثبت القيم الإيمانية بالنهاية الواقعية (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا) وقد بدأت المعركة ، وسارت في طريقها ، وانتهت إلى نهايتها ، وزمامها في يد الله ، يصرفها كيف يشاء . وأثبت النص القرانى هذه الحقيقة بطريقة تعبيره . فأسند إلى الله تعالى إسنادا مباشرا كل ما تم من الأحداث والعواقب ، تقريرا لهذه الحقيقة ، وتثبيتا لها فى القلوب ؛ وإيضاحا للتصور الإسلامي الصحيح . ولم تدر الدائرة على المشركين من قريش وغطفان وحدهم . بل دارت كذلك على بنى قريظة حلفاء المشركين من يهود (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأرضا لم تطؤوها . وكان الله على كل شيء قديرا) فأما قصة هذا فتحتاج إلى شيء من إيضاح قصة اليهود مع المسلمين .إن اليهود فى المدينة لم يهادنوا الإسلام بعد وفوده عليهم إلا فترة قصيرة . وكان الرسول ﷺ قد عقد معهم مهادنة أول مقدمه إليها أوجب لهم فيها النصرة والحماية مشترطا عليهم ألا يغدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدوا ، ولا يمدوا يدا بأذى . ولكن اليهود ما لبثوا أن أحسوا بخطر الدين الجديد على مكانتهم التقليدية بوصفهم أهل الكتاب الأول . وقد كانوا يتمتعون بمكانة عظيمة بين أهل يثرب بسبب هذه الصفة . كذلك أحسوا بخطر التنظيم الجديد الذى جاء به الإسلام للمجتمع بقيادة رسول الله ﷺ فقد كانوا قبل ذلك يستغلون الخلاف القائم بين الأوس والخزرج لتكون لهم الكلمة العليا فى المدينة . فلما وحد الإسلام الأوس والخزرج تحت قيادة نبيهم الكريم لم يجد اليهود الماء العكر الذى كانوا يصطادون بين الفريقين فيه ! وكانت القشة التى قصمت ظهر البعير إسلام حبرهم وعالمهم عبدالله بن سلام . ذلك أن الله شرح صدره للإسلام فأسلم وأمر أهل بيته فأسلموا معه . ولكنه إن هو أعلن إسلامه خاف أن تتقول عليه يهود . فطلب إلى رسول الله ﷺ أن يسألهم عنه قبل أن يخبرهم بإسلامه ! فقالوا:سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا . فخرج عندئذ عبد الله بن سلام إليهم , وطلب منهم أن يؤمنوا بما آمن به . فوقعوا فيه ، وقالوا قالة السوء ، وحذروا منه أحياء اليهود . وأحسوا بالخطر الحقيقى على كيانهم الدينى والسياسى . فاعتزموا الكيد لمحمد ﷺ كيدا لا هوادة فيه . ومنذ هذا اليوم بدأت الحرب التى لم تضع أوزارها قط حتى اليوم بين الإسلام ويهود ! لقد بدأت فى أول الأمر حربا باردة ، بتعبير أيامنا هذه . بدأت حرب دعاية ضد محمد - عليه الصلاة والسلام - وضد الإسلام . واتخذوا فى الحرب أساليب شتى مما عرف به اليهود في تاريخهم كله . اتخذوا خطة التشكيك فى رسالة محمد ﷺ وإلقاء الشبهات حول العقيدة الجديدة . واتخذوا طريقة الدس بين بعض المسلمين وبعض . بين الأوس والخزرج مرة ، وبين الأنصار والمهاجرين مرة . واتخذوا طريقة التجسس على المسلمين لحساب أعدائهم من المشركين . واتخذوا طريقة اتخاذ بطانة من المنافقين الذين يظهرون الإسلام يوقعون بواسطتهم الفتنة فى صفوف المسلمين . . و أخيرا أسفروا عن وجوههم واتخذوا طريق التأليب على المسلمين ، كالذى حدث فى غزوة الأحزاب . وكانت أهم طوائفهم بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة . وكان لكل منها شأن مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين . فأما بنو قينقاع وكانوا أشجع يهود ، فقد حقدوا على المسلمين انتصارهم ببدر ؛ وأخذوا يتحرشون بهم ويتنكرون للعهد الذى بينهم وبين رسول الله ﷺ خيفة أن يستفحل أمره فلا يعودون يملكون مقاومته ، بعدما انتصر على قريش فى أول اشتباك بينه وبينهم .

والآن نجيء إلى غزوة بنى قريظة . وقد مر من شأنهم في غزوة الأحزاب أنهم كانوا إلبا على المسلمين مع المشركين ، بتحريض من زعماء بنى النضير ، وحيى بن أخطب على رأسهم . وكان نقض بنى قريظة لعهدهم مع رسول الله ﷺ فى هذا الظرف أشق على المسلمين من هجوم الأحزاب من خارج المدينة . ومما يصور جسامة الخطر الذى كان يتهدد المسلمين ، والفزع الذى أحدثه نقض قريظة للعهد ما روى من أن رسول الله ﷺ حين انتهى إليه الخبر ، بعث سعد بن معاذ سيد الأوس , وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، ومعهما عبدالله بن رواحة ، وخوات بن جبير - رضى الله عنهم - فقال " انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقا فالحنوا لى لحنا أعرفه ولا تفتوا فى أعضاد الناس . وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس " . . [مما يصور ما كان يتوقعه ﷺ من وقع الخبر فى النفوس] فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم . نالوا من رسول الله ﷺ وقالوا:من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ! . . ثم رجع الوفد فأبلغوا رسول الله ﷺبالتلميح لا بالتصريح . فقال رسول الله ﷺ الله أكبر . أبشروا يا معشر المسلمين " . . [تثبيتا للمسلمين من وقع الخبر السيئ أن يشيع فى الصفوف] . ويقول ابن إسحاق:وعظم عند ذلك البلاء ؛ واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم . حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين . . الخ . فهكذا كان الأمر إبان معركة الأحزاب . ومنذ ذلك اليوم ذلت يهود ، وضعفت حركة النفاق فى المدينة ؛ وطأطأ المنافقون رؤوسهم , وجبنوا عن كثير مما كانوا يأتون . وتبع هذا وذلك أن المشركين لم يعودوا يفكرون فى غزو المسلمين ، بل أصبح المسلمون هم

الذين يغزونهم . حتى كان فتح مكة والطائف . ويمكن أن يقال:إنه كان هناك تلازم بين حركات اليهود وحركات المنافقين وحركات المشركين . وإن طرد اليهود من المدينة قد أنهى هذا التلازم ، وإنه كان فارقا واضحا بين عهدين في نشأة الدولة الإسلامية واستقرارها . فهذا مصداق قول الله سبحانه (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها . وكان الله على كل شيء قديرا) والصياصي: هي الحصون . و الأرض التي ورثها المسلمون ولم يطؤوها ، ربما كانت أرضا مملوكة لبني قريظة خارج محلتهم . وقد آلت للمسلمين فيما آل إليهم من أموالهم . وربما كانت إشارة إلى تسليم بني قريظة أرضهم بغير قتال . ويكون الوطء معناه الحرب التي توطأ فيها الأرض (وكان الله على كل شيء قديرا) فهذا هو التعقيب المنتزع من الواقع ؛ وهو التعقيب الذي يرد الأمر كله إلى الله . وقد مضى السياق في عرض المعركة كلها يرد الأمر كله إلى الله . ويسند الأفعال فيها إلى الله مباشرة . تثبيتا لهذه الحقيقة الكبيرة ، التي يثبتها الله في قلوب المسلمين بالأحداث الواقعة ، وبالقرآن بعد الأحداث ، ليقوم عليها التصور الإسلامي في النفوس . وهكذا يتم استعراض ذلك الحادث الضخم . وقد اشتمل على السنن والقيم والتوجيهات والقواعد التي جاء القرآن ليقيمها في قلوب الجماعة المسلمة وفي حياتها على السواء . وهكذا تصبح الأحداث مادة للتربية ؛ ويصبح القرآن دليلا وترجمانا للحياة وأحداثها , ولاتجاهها وتصوراتها . وتستقر القيم ، وتطمئن القلوب ، بالابتلاء وبالقرآن سواء !

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً{٢٨} وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً{٢٩} يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً{٣٠} وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً{٣١} يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً{٣٢} وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً{٣٣} وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً{٣٤} إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً){٣٥}

هذا الدرس الثالث في سورة الأحزاب خاص بأزواج النبي ﷺ فيما عدا الاستطراد الأخير لبيان جزاء المسلمين كافة والمسلمات – ولقد سبق في أوائل السورة تسميتهن (أمهات المؤمنين) ولهذه الأمومة تكاليفها . و للمرتبة السامية التي استحققن بها هذه الصفة تكاليفها . و لمكانتهن من رسول الله ﷺ تكاليفها . وفي هذا الدرس بيان لشيء من هذه التكاليف ؛ وإقرار للقيم التي أراد الله لبيت النبوة الطاهر أن يمثلها , وأن يقوم عليها ، وأن يكون فيها منارة يهتدي بها السالكون (يا أيها النبي ، قل لأزواجك:إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما) لقد اختار النبي ﷺ لنفسه ولأهل بيته معيشة الكفاف ، لا عجزا عن حياة المتاع , فقد عاش حتى فتحت له الأرض ، وكثرت غنائمها ، وعم فيؤها ، واغتنى من لم يكن له من قبل مال ولا زاد ! ومع هذا فقد كان الشهر يمضي ولا توقد في بيوته نار . مع جوده بالصدقات والهبات والهدايا . ولكن ذلك كان اختيارا للاستعلاء على متاع الحياة الدنيا ورغبة خالصة فيما عند الله . رغبة الذي يملك ولكنه يعف ويستعلي ويختار . ولم يكن رسول الله ﷺ مكلفا من عقيدته ولا من شريعته أن يعيش مثل هذه المعيشة التي أخذ بها نفسه وأهل بيته ، فلم تكن الطيبات محرمة في عقيدته وشريعته ؛ ولم يحرمها على نفسه حين كانت تقدم إليه عفوا بلا تكلف ، وتحصل بين يديه مصادفة واتفاقا ، لا جريا وراءها ولا تشهيا لها ، ولا انغماسا فيها ولا انشغالا بها . . ولم يكلف أمته كذلك أن تعيش عيشته التي اختارها لنفسه ، إلا أن يختارها من يريد ، استعلاء على اللذائذ والمتاع ، وانطلاقا من ثقلتها إلى حيث الحرية التامة من رغبات النفس وميولها . ولكن نساء النبي ﷺ كن نساء ، من البشر ، لهن مشاعر البشر . وعلى فضلهن وكرامتهن وقربهن من ينابيع النبوة الكريمة ، فإن الرغبة الطبيعية في متاع الحياة ظلت حية في نفوسهن . فلما أن رأين السعة والرخاء بعدما أفاض الله على رسوله وعلى المؤمنين راجعن النبي ﷺ في أمر النفقة . فلم يستقبل هذه المراجعة بالترحيب ، إنما استقبلها بالأسى وعدم الرضى ؛ إذ كانت نفسه ﷺ ترغب في أن تعيش فيما اختاره لها من طلاقة وارتفاع ورضى ؛ متجردة من الانشغال بمثل ذلك الأمر والاحتفال به أدنى احتفال ; وأن تظل

حياته وحياة من يلوذون به على ذلك الأفق السامى الوضىء المبرأ من كل ظل لهذه الدنيا وأوشابها . لا بوصفه حلالا وحراما – فقد تبين الحلال والحرام – ولكن من ناحية التحرر والانطلاق والفكاك من هواتف هذه الأرض الرخيصة ! ولقد بلغ الأسى برسول الله ﷺ من مطالبة نسائه له بالنفقة أن احتجب عن أصحابه . وكان احتجابه عنهم أمرا صعبا عليهم يهون كل شىء دونه . وجاءوا فلم يؤذن لهم . روى الإمام أحمد – بإسناده – عن جابر – رضى الله عنه – قال:أقبل أبو بكر – رضى الله عنه – يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس ، والنبى ﷺ جالس ، فلم يؤذن له . ثم أقبل عمر – رضى الله عنه – فاستأذن فلم يؤذن له . ثم أذن لأبى بكر وعمر – رضى الله عنهما – فدخلا ، والنبى ﷺ جالس وحوله نساؤه ، وهو ﷺ ساكت . فقال عمر – رضى الله عنه –:لأكلمن النبى ﷺ لعله يضحك . فقال عمر – رضى الله عنه – يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد – امرأة عمر – سألتنى النفقة آنفا فوجأت عنقها ! فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه ، وقال:" هن حولى يسألننى النفقة " ! فقام أبو بكر – رضى الله عنه – إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر – رضى الله عنه – إلى حفصة ، كلاهما يقولان:تسألان النبى ﷺ ما ليس عنده ؟! فنهاهما الرسول ﷺ فقلن:والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده . . قال:وأنزل الله عز وجل الخيار ، فبدأ بعائشة – رضى الله عنها – فقال:" إنى أذكر لك أمرا ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك " قالت:وما هو ؟ قال:فتلا عليها (يا أيها النبى قل لأزواجك) . . الآية . قالت عائشة – رضى الله عنها –:أفيك أستأمر أبوى ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله . وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت . فقال ﷺ " إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا , ولكن بعثنى معلما ميسرا . لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها لقد جاء القرآن الكريم ليحدد القيم الأساسية فى تصور الإسلام للحياة . هذه القيم التى ينبغى أن تجد ترجمتها الحية فى بيت النبى ﷺ وحياته الخاصة ؛ وأن تتحقق فى أدق صورة وأوضحها فى هذا البيت الذى كان – وسيبقى – منارة للمسلمين وللإسلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها . ونزلت آيتا التخيير تحددان الطريق . فإما الحياة الدنيا وزينتها ، وإما الله ورسوله والدار الآخرة . وقد كانت نساء النبى ﷺ قد قلن:والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده . فنزل القرآن ليقرر أصل القضية . فليست المسألة أن يكون عنده أو لا يكون . إنما المسألة هى اختيار الله ورسوله والدار الآخرة كلية ، أو اختيار الزينة والمتاع . سواء كانت خزائن الأرض كلها تحت أيديهن أم كانت بيوتهن خاوية من الزاد . وقد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة اختيارا مطلقا بعد هذا التخيير الحاسم . وكن حيث تؤهلن مكانتهن من رسول الله ﷺ وفى ذلك الأفق العالى الكريم اللائق ببيت الرسول العظيم . وفى بعض الروايات أن النبى ﷺ فرح بهذا الاختيار... ونعود إلى النص القرآنى . فنجده – بعد تحديد القيم فى أمر الدنيا والآخرة ؛ وتحقيق قوله تعالى (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) فى صورة عملية فى حياة النبى ﷺ وأهل بيته . . نجده بعد هذا البيان يأخذ فى بيان الجزاء المدخر لأزواج النبى ﷺ وفيه خصوصية لهن وعليهن ، تناسب مقامهن الكريم ، ومكانهن من رسول الله المختار (يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا . ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين ، وأعتدنا لها رزقا كريما) إنها تبعة المكان الكريم الذى هن فيه . وهن أزواج رسول الله ﷺ وهن أمهات المؤمنين . وهذه الصفة وتلك كلتاهما ترتبان عليهن واجبات ثقيلة ، وتعصمانهن كذلك من مقارفة الفاحشة . فإذا فرض وقارفت واحدة منهن فاحشة مبينة واضحة لا خفاء فيها ، كانت مستحقة لضعفين من العذاب . وذلك فرض يبين تبعة المكان الكريم الذى هن فيه (وكان ذلك على الله يسيرا) لا تمنعه ولا تصعبه مكانتهن من رسول الله المختار . كما قد يتبادر إلى الأذهان ! (ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا) القنوت هو الطاعة والخضوع . والعمل الصالح هو الترجمة العملية للطاعة والخضوع (نؤتها أجرها مرتين) كما أن العذاب يضاعف للمقارفة ضعفين . (وأعتدنا لها رزقا كريما) فهو حاضر مهيأ ينتظرها فوق مضاعفة الأجر . فضلا من الله ومنة . ثم يبين لأمهات المؤمنين اختصاصهن بما ليس لغيرهن من النساء ؛ ويقرر واجباتهن فى معاملة الناس ، وواجبهن فى عبادة الله ، وواجبهن فى بيوتهن ؛ ويحدثهن عن رعاية الله الخاصة لهذا البيت الكريم ، وحياطته وصيانته من الرجس ؛ ويذكرهن بما يتلى فى بيوتهن من آيات الله والحكمة ، مما يلقى عليهن تبعات خاصة ، ويفردهن بين نساء العالمين (يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن . فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا . وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس – أهل البيت – ويطهركم تطهيرا . واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة . إن الله كان لطيفا خبيرا) لقد جاء الإسلام فوجد المجتمع العربى – كغيره من المجتمعات فى ذلك الحين – ينظر إلى المرأة على أنها أداة للمتاع ، وإشباع الغريزة . ومن ثم ينظر إليها من الناحية الإنسانية نظرة هابطة . كذلك وجد فى المجتمع نوعا من الفوضى فى العلاقات الجنسية . ووجد نظام الأسرة مخلخلا على نحو ما سبق بيانه فى السورة . هذا وذلك إلى هبوط النظرة إلى الجنس ؛ وانحطاط الذوق الجمالى ؛ والاحتفال بالجسديات العارمة ،

وعدم الالتفات إلى الجمال الرفيع الهادئ النظيف . . يبدو هذا فى أشعار الجاهليين حول جسد المرأة ، والتفاتاتهم إلى أغلظ المواضع فيه ، وإلى أغلظ معانيه ! فلما أن جاء الإسلام أخذ يرفع من نظرة المجتمع إلى المرأة ؛ ويؤكد الجانب الإنسانى فى علاقات الجنسين ؛ فليست هى مجرد إشباع لجوعة الجسد ، وإطفاء لفورة اللحم والدم ، إنما هى اتصال بين كائنين إنسانيين من نفس واحدة ، بينهما مودة ورحمة ، وفى اتصالهما سكن وراحة ؛ ولهذا الاتصال هدف مرتبط بإرادة الله فى خلق الإنسان ، وعمارة الأرض ، وخلافة هذا الإنسان فيها بسنة الله . كذلك أخذ يعنى بروابط الأسرة ؛ ويتخذ منها قاعدة للتنظيم الاجتماعى ؛ ويعدها المحضن الذى تنشأ فيه الأجيال وتدرج ؛ ويوفر الضمانات لحماية هذا المحضن وصيانته ، ولتطهيره كذلك من كل ما يلوث جوه من المشاعر والتصورات . والتشريع للأسرة يشغل جانبا كبيرا من تشريعات الإسلام ، وحيزا ملحوظا من آيات القرآن . وإلى جوار التشريع كان التوجيه المستمر إلى تقوية هذه القاعدة الرئيسية التى يقوم عليها المجتمع ؛ وبخاصة فيما يتعلق بالتطهر الروحى ، وبالنظافة فى علاقات الجنسين ، وصيانتها من كل تبذل ، وتصفيتها من عرامة الشهوة ، حتى فى العلاقات الجسدية المحضة . وفى هذه السورة يشغل التنظيم الاجتماعى وشؤون الأسرة حيزا كبيرا . وفى هذه الآيات التى نحن بصددها حديث إلى نساء النبى ﷺ وتوجيه لهن فى علاقتهن بالناس ، وفى خاصة أنفسهن ، وفى علاقتهن بالله . توجيه يقول لهن الله فيه (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس – أهل البيت – ويطهركم تطهيرا)

فلننظر فى وسائل إذهاب الرجس ، ووسائل التطهر ، التى يحدثهن الله – سبحانه – عنها ، ويأخذهن بها . وهن أهل البيت ، وزوجات النبى ﷺ وأطهر من عرفت الأرض من النساء . ومن عداهن من النساء أحوج إلى هذه الوسائل ممن عشن فى كنف رسول الله ﷺ وبيته الرفيع . إنه يبدأ بإشعار نفوسهن بعظيم مكانهن ، ورفيع مقامهن ، وفضلهن على النساء كافة ، وتفردهن بذلك المكان بين نساء العالمين . على أن يوفين هذا المكان حقه ، ويقمن فيه بما يقتضيه (يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن) فأنتن فى مكان لا يشارككن فيه أحد ، ولا تشاركن فيه أحدا . ولكن ذلك إنما يكون بالتقوى . فليست المسألة مجرد قرابة من النبى ﷺ بل لا بد من القيام بحق هذه القرابة فى ذات أنفسكن . وذلك هو الحق الصارم الحاسم الذى يقوم عليه هذا الدين ؛ والذى يقرره رسول الله ﷺ وهو ينادى أهله ألا يغرهم مكانهم من قرابته ، فإنه لا يملك لهم من الله شيئا:" يا فاطمة ابنة محمد . يا صفية ابنة عبد المطلب . يا بنى عبد المطلب . لا أملك لكم من الله شيئا . سلونى من مالى ما شئتم " . وفى رواية أخرى:" يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى كعب أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار . يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار . فإنى والله لا أملك لكم من الله شيئا ، إلا أن لكم رحما سأبلها ببلالها " . وبعد أن يبين لهن منزلتهن التى ينلنها بحقها ، وهو التقوى ، يأخذ فى بيان الوسائل التى يريد الله أن يذهب بها الرجس عن أهل البيت ويطهرهم تطهيرا (فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذى فى قلبه مرض) ينهاهن حين يخاطبن الأغراب من الرجال أن يكون فى نبراتهن ذلك الخضوع اللين الذى يثير شهوات الرجال ، ويحرك غرائزهم ، ويطمع مرضى القلوب ويهيج رغائبهم ! ومن هن اللواتى يحذرهن الله هذا التحذير ؛ إنهن أزواج النبى ﷺ وأمهات المؤمنين ، اللواتى لا يطمع فيهن طامع ، ولا يرف عليهن خاطر مريض ، فيما يبدو للعقل أول مرة . وفى أى عهد يكون هذا التحذير ؟ فى عهد النبى ﷺ وعهد الصفوة المختارة من البشرية فى جميع الأعصار . . ولكن الله الذى خلق الرجال والنساء يعلم أن فى صوت المرأة حين تخضع بالقول ، وتترقق فى اللفظ ، ما يثير الطمع فى قلوب ، ويهيج الفتنة فى قلوب . وأن القلوب المريضة التى تثار وتطمع موجودة فى كل عهد ، وفى كل بيئة ، وتجاه كل امرأة ، ولو كانت هى زوج النبى الكريم ، وأم المؤمنين . وأنه لا طهارة من الدنس ، ولا تخلص من الرجس ، حتى تمتنع الأسباب المثيرة من الأساس . فكيف بهذا المجتمع الذى نعيش اليوم فيه . فى عصرنا المريض الدنس الهابط ، الذى تهيج فيه الفتن وتثور فيه الشهوات ، وترف فيه الأطماع ؟ كيف بنا فى هذا الجو الذى كل شىء فيه يثير الفتنة ، ويهيج الشهوة وينبه الغريزة ، ويوقظ السعار الجنسى المحموم ؟ كيف بنا فى هذا المجتمع ، فى هذا العصر ، فى هذا الجو ، ونساء يتخنثن فى نبراتهن ، ويتميعن فى أصواتهن ، ويجمعن كل فتنة الأنثى ، وكل هتاف الجنس ، وكل سعار الشهوة ؛ ثم يطلقنه فى نبرات ونغمات ؟! وأين هن من الطهارة ؟ وكيف يمكن أن يرف الطهر فى هذا الجو الملوث . وهن بذواتهن وحركاتهن وأصواتهن ذلك الرجس الذى يريد الله أن يذهبه عن عباده المختارين ؟! (وقلن قولا معروفا) نهاهن من قبل عن النبرة اللينة واللهجة الخاضعة ؛ وأمرهن فى هذه أن يكون حديثهن فى أمور معروفة غير منكرة ؛ فإن موضوع الحديث قد يطمع مثل لهجة الحديث . فلا ينبغى أن يكون بين المرأة والرجل الغريب لحن ولا إيماء ، ولا هذر ولا هزل ، ولا دعابة ولا مزاح ، كى لا يكون مدخلا إلى شىء آخر وراءه من قريب أو من بعيد . والله سبحانه الخالق العليم بخلقه وطبيعة تكوينهم هو الذى يقول هذا الكلام لأمهات المؤمنين الطاهرات . كى يراعينه فى

خطاب أهل زمانهن خير الأزمنة على الإطلاق ! (وقرن في بيوتكن) من وقر . يقر . أى ثقل واستقر . وليس معنى هذا الأمر ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقا . إنما هى إيماءة لطيفة إلى أن يكون البيت هو الأصل فى حياتهن ، وهو المقر وما عداه استثناء طارئا لا يثقلن فيه ولا يستقررن . إنما هى الحاجة تقضى ، وبقدرها . والبيت هو مثابة المرأة التى تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله تعالى . غير مشوهة ولا منحرفة ولا ملوثة ، ولا مكدودة فى غير وظيفتها التى هيأها الله لها بالفطرة " . ولكى يهيئ الإسلام للبيت جوه ويهيىء للفراخ الناشئة فيه رعايتها ، أوجب على الرجل النفقة ، وجعلها فريضة ، كى يتاح للأم من الجهد ، ومن الوقت ، ومن هدوء البال ، ما تشرف به على هذه الفراخ الزغب ، وما تهيئ به للمثابة نظامها وعطرها وبشاشتها . فالأم المكدودة بالعمل للكسب ، المرهقة بمقتضيات العمل ، المقيدة بمواعيده ، المستغرقة الطاقة فيه . . لا يمكن أن تهب للبيت جوه وعطره ، ولا يمكن أن تمنح الطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها . وبيوت الموظفات والعاملات ما تزيد على جو الفنادق والخانات ؛ وما يشيع فيها ذلك الأرج الذى يشيع فى البيت . فحقيقة البيت لا توجد إلا أن تخلقها امرأة ، وأرج البيت لا يفوح إلا أن تطلقه زوجة ، وحنان البيت لا يشيع إلا أن تتولاه أم . والمرأة أو الزوجة أو الأم التى تقضى وقتها وجهدها وطاقتها الروحية فى العمل لن تطلق فى جو البيت إلا الإرهاق والكلال والملال . وإن خروج المرأة لتعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة . أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها ، فتلك هى اللعنة التى تصيب الأرواح والضمائر والعقول ,فى عصور الانتكاس والشرور والضلال " . فأما خروج المرأة لغير العمل . خروجها للاختلاط ومزاولة الملاهى . والتسكع فى النوادى والمجتمعات . . . فذلك هو الارتكاس فى الحمأة الذى يرد البشر إلى مراتع الحيوان ! ولقد كان النساء على عهد رسول الله ﷺ يخرجن للصلاة غير ممنوعات شرعا من هذا . ولكنه كان زمان فيه عفة ، وفيه تقوى ، وكانت المرأة تخرج إلى الصلاة متلفعة لا يعرفها أحد ، ولا يبرز من مفاتنها شيء . ومع هذا فقد كرهت عائشة لهن أن يخرجن بعد وفاة رسول الله ﷺ !

فى الصحيحين عن عائشة – رضى الله عنها – أنها قالت: كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس . وفى الصحيحين أيضا أنها قالت: لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد , كما منعت نساء بنى إسرائيل ! فماذا أحدث النساء فى حياة عائشة – رضى الله عنها – ؟ وماذا كان يمكن أن يحدثن حتى ترى أن رسول الله ﷺ كان مانعهن من الصلاة ؟! ماذا بالقياس إلى ما نراه فى هذه الأيام ؟! (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) ذلك حين الاضطرار إلى الخروج ، بعد الأمر بالقرار فى البيوت . ولقد كانت المرأة فى الجاهلية تتبرج . ولكن جميع الصور التى تروى عن تبرج الجاهلية الأولى تبدو ساذجة أو محتشمة حين تقاس إلى تبرج أيامنا هذه فى جاهليتنا الحاضرة ! قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشى بين الرجال . فذلك تبرج الجاهلية ! وقال قتادة: وكانت لهن مشية تكسر وتغنج . فنهى الله تعالى عن ذلك ! وقال مقاتل بن حيان: والتبرج أنها تلقى الخمار على رأسها ولا تشده فيدارى قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها . وذلك التبرج ! وقال ابن كثير فى التفسير: كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء ؛ وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها . فأمر الله المؤمنات أن يستترن فى هيأتهن وأحوالهن . هذه هى صور التبرج فى الجاهلية التى عالجها القرآن الكريم . ليطهر المجتمع الإسلامى من آثارها ويبعد عنه عوامل الفتنة ، ودواعى الغواية ؛ ويرفع آدابه وتصوراته ومشاعره وذوقه كذلك ! ونقول:ذوقه . . فالذوق الإنسانى الذى يعجب بمفاتن الجسد العارى ذوق بدائى غليظ . وهو من غير شك أحط من الذوق الذى يعجب بجمال الحشمة الهادئ ، وما يشى به من جمال الروح , وجمال العفة ، وجمال المشاعر . وهذا المقياس لا يخطئ فى معرفة ارتفاع المستوى الإنسانى وتقدمه . فالحشمة جميلة جمالا حقيقيا رفيعا . ولكن هذا الجمال الراقى لا يدركه أصحاب الذوق الجاهلى الغليظ , الذى لا يرى إلا جمال اللحم العارى ، ولا يسمع إلا هتاف اللحم الجاهر ! ويشير النص القرآنى إلى تبرج الجاهلية ، فيوحى بأن هذا التبرج من مخلفات الجاهلية . التى يرتفع عنها من تجاوز عصر الجاهلية ، وارتفعت تصوراته ومثله ومشاعره عن تصورات الجاهلية ومثلها ومشاعرها . والجاهلية ليست فترة معينة من الزمان . إنما هى حالة اجتماعية معينة ، ذات تصورات معينة للحياة . ويمكن أن توجد هذه الحالة ، وأن يوجد هذا التصور فى أى زمان وفى أى مكان ، فيكون دليلا على الجاهلية حيث كان ! وبهذا المقياس نجد أننا نعيش الآن فى فترة جاهلية عمياء ، غليظة الحس ، حيوانية التصور , هابطة فى درك البشرية إلى حضيض مهين . وندرك أنه لا طهارة ولا زكاة ولا بركة فى مجتمع يحيا هذه الحياة ؛ ولا يأخذ بوسائل التطهر والنظافة التى جعلها الله سبيل البشرية إلى التطهر من الرجس ، والتخلص من الجاهلية الأولى ؛ وأخذ بها ، أول من أخذ ، أهل بيت النبى ﷺ على طهارته ووضاءته ونظافته . والقرآن الكريم يوجه نساء النبى ﷺ إلى تلك الوسائل ؛ ثم يربط قلوبهن بالله ، ويرفع أبصارهن إلى الأفق الوضى الذى

يستمددن منه النور ، والعون على التدرج فى مراقى ذلك الأفق الوضىء (وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله) وعبادة الله ليست بمعزل عن السلوك الاجتماعى أو الأخلاقى فى الحياة ؛ إنما هى الطريق للإرتفاع إلى ذلك المستوى ؛ والزاد الذى يقطع به السالك الطريق . فلا بد من صلة بالله يأتى منها المدد والزاد . ولا بد من صلة بالله تطهر القلب وتزكيه . ولا بد من صلة بالله يرتفع بها الفرد على عرف الناس وتقاليد المجتمع وضغط البيئة ؛ ويشعر أنه أهدى وأعلى من الناس والمجتمع والبيئة . وأنه حرى أن يقود الآخرين إلى النور الذى يراه ؛ لا أن يقوده الآخرون إلى الظلمات وإلى الجاهلية التى تغرق فيها الحياة ,كلما انحرفت عن طريق الله . والإسلام وحدة تجمع الشعائر والآداب والأخلاق والتشريعات والنظم . . كلها فى نطاق العقيدة . ولكل منها دور تؤديه فى تحقيق هذه العقيدة ؛ وتتناسق كلها فى اتجاه واحد ; ومن هذا التجمع والتناسق يقوم الكيان العام لهذا الدين . وبدونهما لا يقوم هذا الكيان . ومن ثم كان الأمر بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وطاعة الله ورسوله ، هو خاتمة التوجيهات الشعورية والأخلاقية والسلوكية لأهل البيت الكريم . لأنه لا يقوم شىء من تلك التوجيهات بغير العبادة والطاعة . . وكل ذلك لحكمة وقصد وهدف (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) وفى التعبير إيحاءات كثيرة ، كلها رفاف ، رفيق ، حنون . . فهو يسميهم (أهل البيت) بدون وصف للبيت ولا إضافة . كأنما هذا البيت هو) (البيت) الواحد فى هذا العالم ، المستحق لهذه الصفة . فإذا قيل (البيت) فقد عرف وحدد ووصف . ومثل هذا قيل عن الكعبة . بيت الله . فسميت البيت . والبيت الحرام . فالتعبير عن بيت رسول الله ﷺ كذلك تكريم وتشريف واختصاص عظيم . وهو يقول: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس – أهل البيت – ويطهركم تطهيرا) وفى العبارة تلطف ببيان علة التكليف وغايته . تلطف يشى بأن الله سبحانه – يشعرهم بأنه بذاته العلية – يتولى تطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم . وهى رعاية علوية مباشرة بأهل هذا البيت . وحين نتصور من هو القائل – سبحانه وتعالى – رب هذا الكون . الذى قال للكون:كن . فكان . الله ذو الجلال والإكرام . المهيمن العزيز الجبار المتكبر . . حين نتصور من هو القائل – جل وعلا – ندرك مدى هذا التكريم العظيم . وهو – سبحانه – يقول هذا فى كتابه الذى يتلى فى الملأ الأعلى ، ويتلى فى هذه الأرض ,فى كل بقعة وفى كل أوان ؛ وتتعبد به ملايين القلوب ، وتتحرك به ملايين الشفاه . وأخيرا فإنه يجعل تلك الأوامر والتوجيهات وسيلة لإذهاب الرجس وتطهير البيت . فالتطهير من التطهر ، وإذهاب الرجس يتم بوسائل يأخذ الناس بها أنفسهم ، ويحققونها فى واقع الحياة العملى . وهذا هو طريق الإسلام . . شعور وتقوى فى الضمير . وسلوك وعمل فى الحياة . يتم بهما معا تمام الإسلام ، وتتحقق بهما أهدافه واتجاهاته فى الحياة .

ويختم هذه التوجيهات لنساء النبى ﷺ بمثل ما بدأها به . . بتذكيرهن بعلو مكانتهن ,وامتيازهن على النساء ، بمكانهن من رسول الله ﷺ وبما أنعم الله عليهن فجعل بيوتهن مهبط القرآن ومنزل الحكمة ، ومشرق النور والهدى والإيمان (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة . إن الله كان لطيفا خبيرا) وإنه لحظ عظيم يكفى التذكير به ، لتحس النفس جلالة قدره ، ولطيف صنع الله فيه ، وجزالة النعمة التى لا يعدلها نعيم . وهذا التذكير يجىء كذلك فى ختام الخطاب الذى بدأ بتخيير نساء النبى ﷺ بين متاع الحياة الدنيا وزينتها ، وإيثار الله ورسوله والدار الآخرة . فتبدو جزالة النعمة التى ميزهن الله بها ؛ وضآلة الحياة الدنيا بمتاعها كله وزينتها . وفى صدد تطهير الجماعة الإسلامية ، وإقامة حياتها على القيم التى جاء بها الإسلام . الرجال والنساء فى هذا سواء . لأنهم فى هذ المجال سواء . . يذكر الصفات التى تحقق تلك القيم فى دقة وإسهاب وتفصيل (إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات , والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات . . أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) وهذه الصفات الكثيرة التى جمعت فى هذه الآية تتعاون فى تكوين النفس المسلمة . فهى الإسلام ، والإيمان ، والقنوت , والصدق ، والصبر ، والخشوع ، والتصدق ، والصوم ، وحفظ الفروج ، وذكر الله كثيرا . . ولكل منها قيمته فى بناء الشخصية المسلمة . والإسلام: هوالاستسلام ، والإيمان هو التصديق . وبينهما صلة وثيقة أو أن أحدهما هو الوجه الثانى للآخر . فالاستسلام إنما هو مقتضى التصديق . والتصديق الحق ينشأ عنه الاستسلام . والقنوت هو:الطاعة الناشئة من الإسلام والإيمان ، عن رضى داخلى لا عن إكراه خارجى . والصدق:هو الصفة التى يخرج من لا يتصف بها من صفوف الأمة المسلمة لقوله تعالى (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) فالكاذب مطرود من صف هذه الأمة الصادقة . والصبر:هو الصفة التى لا يستطيع المسلم حمل عقيدته والقيام بتكاليفها إلا بها . وهى تحتاج إلى الصبر فى كل خطوة من خطواتها . الصبر على شهوات النفس ، وعلى مشاق الدعوة , وعلى أذى الناس . وعلى التواء النفوس وضعفها وانحرافها وتلونها . وعلى الابتلاء والامتحان والفتنة . وعلى السراء والضراء ، والصبر على كلتيهما شاق عسير . والخشوع:صفة القلب والجوارح ، الدالة على تأثر القلب بجلال الله ، واستشعار هيبته وتقواه .

والتصدق:وهو دلالة التطهر من شح النفس ، والشعور بمرحمة الناس ، والتكافل في الجماعة المسلمة . والوفاء بحق المال . وشكر المنعم على العطاء . والصوم:والنص يجعله صفة من الصفات إشارة إلى اطراده وانتظامه . وهو استعلاء على الضرورات ,وصبر عن الحاجات الأولية للحياة . وتقرير للإرادة ، وتوكيد لغلبة الإنسان فى هذا الكائن البشرى على الحيوان . وحفظ الفرج:وما فيه من تطهر ، وضبط لأعنف ميل وأعمقه فى تركيب كيان الإنسان ، وسيطرة على الدفعة التى لا يسيطر عليها إلا تقى يدركه عون الله . وتنظيم للعلاقات ، واستهداف لما هو أرفع من فورة اللحم والدم فى التقاء الرجل والمرأة ، وإخضاع هذا الالتقاء لشريعة الله ، وللحكمة العليا من خلق الجنسين فى عمارة الأرض وترقية الحياة . وذكر الله كثيرا:وهو حلقة الاتصال بين نشاط الإنسان كله وعقيدته فى الله . واستشعار القلب لله فى كل لحظة ؛ فلا ينفصل بخاطر ولا حركة عن العروة الوثقى . وإشراق القلب ببشاشة الذكر ، الذى يسكب فيه النور والحياة . هؤلاء الذين تتجمع فيهم هذه الصفات ، المتعاونة فى بناء الشخصية المسلمة الكاملة . . هؤلاء (أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) وهكذا يعمم النص فى الحديث عن صفة المسلم والمسلمة ومقومات شخصيتهما ، بعدما خصص نساء النبى ﷺ فى أول هذا الشوط من السورة . وتذكر المرأة فى الآية بجانب الرجل كطرف من عمل الإسلام فى رفع قيمة المرأة ، وترقية النظرة إليها فى المجتمع ، وإعطائها مكانها إلى جانب الرجل فيما هما فيه سواء من العلاقة بالله ؛ ومن تكاليف هذه العقيدة فى التطهر والعبادة والسلوك القويم فى الحياة . .

(مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً{٣٦} وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً{٣٧} مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِن حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً{٣٨} الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً{٣٩} مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً{٤٠} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً{٤١} وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً{٤٢} هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً{٤٣} تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً{٤٤} يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً{٤٥} وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً{٤٦} وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً{٤٧} وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً){٤٨}

هذا الدرس شوط جديد فى إعادة تنظيم الجماعة المسلمة على أساس التصور الإسلامى . وهو يختص ابتداء بإبطال نظام التبنى الذى ورد الحديث عنه فى أول السورة . وقد شاء الله أن ينتدب لإبطال هذا التقليد من الناحية العملية رسوله ﷺ وقد كانت العرب تحرم مطلقة الابن بالتبنى حرمة مطلقة الابن من النسب ؛ وما كانت تطيق أن تحل مطلقات الأدعياء عملا ، إلا أن توجد سابقة تقرر هذه القاعدة الجديدة . فانتدب الله رسوله ليحمل هذا العبء فيما يحمل من أعباء الرسالة . وسنرى من موقف النبى ﷺ من هذه التجربة أنه ما كان سواه قادرا على احتمال هذا العبء الجسيم ، ومواجهة المجتمع بمثل هذه الخارقة لمألوفه العميق ! وسنرى كذلك أن التعقيب على الحادث كان تعقيبا طويلا لربط النفوس بالله ولبيان علاقه المسلمين بالله وعلاقتهم بنبيهم ، ووظيفة النبى بينهم . . كل ذلك لتيسير الأمر على النفوس ، وتطييب القلوب لتقبل أمر الله فى هذا التنظيم بالرضى والتسليم . ولقد سبق الحديث عن الحادث تقرير قاعدة أن الأمر لله ورسوله ، وأنه (ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) مما يوحى كذلك بصعوبة هذا الأمر الشاق المخالف لمألوف العرب وتقاليدهم العنيفة (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) روى أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش – رضى الله عنها – حينما أراد النبى ﷺ أن يحطم الفوارق الطبقية الموروثة فى الجماعة المسلمة ؛ فيرد الناس سواسية كأسنان المشط . لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . وكان الموالى – وهم الرقيق المحرر – طبقة أدنى من طبقة السادة . ومن هؤلاء كان زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ الذى تبناه . فأراد رسول الله ﷺ أن يحقق المساواة الكاملة بتزويجه من شريفة من بنى هاشم , قريبته ﷺ زينب بنت جحش ؛ ليسقط تلك الفوارق الطبقية بنفسه ، فى أسرته . وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف بحيث لا يحطمها إلا فعل واقعى من رسول الله ﷺ تتخذ منه الجماعة المسلمة اسوة ، وتسير

البشرية كلها على هداه فى هذا الطريق . روى ابن كثير فى التفسير قال:قال العوفى عن ابن عباس – رضى الله عنهما –:قوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) ... الآية . وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة – رضى الله عنه – فدخل على زينب بنت جحش الأسدية – رضى الله عنها – فخطبها ، فقالت:لست بناكحته ! فقال رسول الله ﷺ:" بلى فانكحيه " . قالت:يا رسول الله . أؤامر فى نفسى ؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا) ... الآية . قالت:قد رضيته لى يا رسول الله منكحا ؟ قال رسول الله ﷺ:" نعم " ! قالت:إذن لا أعصى رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسى ! ولكن نص الآية أعم من أى حادث خاص . وقد تكون له علاقة كذلك بإبطال آثار التبنى ، وإحلال مطلقات الأدعياء ، وحادث زواج رسول الله ﷺ من زينب – رضى الله عنها – بعد طلاقها من زيد . الأمر الذى كانت له ضجة عظيمة فى حينه . والذى ما يزال يتخذه بعض أعداء الإسلام تكأة للطعن على رسول الله ﷺ حتى اليوم ، ويلفقون حوله الأساطير ! ومن هذا البيان ينجلى أن هذا النص القرآنى: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم). . أشمل وأوسع وأبعد مدى من أى حادث خاص يكون قد نزل فيه . وأنه يقرر كلية أساسية ، أو الكلية الأساسية ، فى منهج الإسلام ! ثم يجىء الحديث عن حادث زواج النبى ﷺ من زينب بنت جحش ، وما سبقه وما تلاه من أحكام وتوجيهات (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه:أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ؛ وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه . فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا . وكان أمر الله مفعولا . ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له . سنة الله فى الذين خلوا من قبل . وكان أمر الله قدرا مقدورا . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله . وكفى بالله حسيبا . ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما) نظام التبنى كانت له آثار واقعية فى حياة الجماعة العربية ؛ ولم يكن إبطال هذه الآثار الواقعية فى حياة المجتمع ليمضى بالسهولة التى يمضى بها إبطال تقليد التبنى ذاته . فالتقاليد الاجتماعية أعمق أثرا فى النفوس . ولا بد من سوابق عملية مضادة . ولا بد أن تستقبل هذه السوابق أول أمرها بالاستنكار ؛ وأن تكون شديدة الوقع على الكثيرين . وقد مضى أن رسول الله ﷺ زوج زيد بن حارثة – الذى كان متبناه ، وكان يدعى زيد ابن محمد ثم دعى إلى أبيه – من زينب بنت جحش ، ابنة عمة رسول الله ﷺ ليحطم بهذا الزواج فوارق الطبقات الموروثة ، ويحقق معنى قوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ويقرر هذه القيمة الإسلامية الجديدة بفعل عملى واقعى . ثم شاء الله أن يحمل نبيه بعد ذلك – فيما يحمل من أعباء الرسالة – مؤنة إزالة آثار نظام التبنى ؛ فيتزوج من مطلقة متبناه زيد بن حارثة . ويواجه المجتمع بهذا العمل ، الذى لا يستطيع أحد أن يواجه المجتمع به ، على الرغم من إبطال عادة التبنى فى ذاتها ! وألهم الله نبيه ﷺ أن زيدا سيطلق زينب ؛ وأنه هو سيتزوجها ، للحكمة التى قضى الله بها . وكانت العلاقات بين زيد وزينب قد اضطربت ، وعادت توحى بأن حياتهما لن تستقيم طويلا . وجاء زيد مرة بعد مرة يشكو إلى رسول الله ﷺ اضطراب حياته مع زينب ؛ وعدم استطاعته المضى معها . والرسول ﷺ على شجاعته فى مواجهة قومه فى أمر العقيدة دون لجلجة ولا خشية – يحس ثقل التبعة فيما ألهمه الله من أمر زينب ; ويتردد فى مواجهة القوم بتحطيم ذلك التقليد العميق ؛ فيقول لزيد [الذى أنعم الله عليه بالإسلام وبالقرب من رسوله وبحب الرسول له ، ذلك الحب الذى يتقدم به فى قلبه على كل أحد بلا استثناء . والذى أنعم عليه الرسول بالعتق والتربية والحب] . . يقول له: (أمسك عليك زوجك واتق الله) ويؤخر بهذا مواجهة الأمر العظيم الذى يتردد فى الخروج به على الناس . كما قال الله تعالى: (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه !) وهذا الذى أخفاه النبى ﷺ فى نفسه ، وهو يعلم أن الله مبديه ، هو ما ألهمه الله أن سيفعله . ولم يكن أمرا صريحا من الله . وإلا ما تردد فيه ولا أخره ولا حاول تأجيله . ولجهر به فى حينه مهما كانت العواقب التى يتوقعها من إعلانه . ولكنه ﷺ كان أمام إلهام يجده فى نفسه ، ويتوجس فى الوقت ذاته من مواجهته ، ومواجهة الناس به . حتى أذن الله بكونه . فطلق زيد زوجه فى النهاية . وهو لا يفكر لا هو ولا زينب ، فيما سيكون بعد . لأن العرف السائد كان يعد زينب مطلقة ابن لمحمد لا تحل له . حتى بعد إبطال عادة التبنى فى ذاتها . ولم يكن قد نزل بعد إحلال مطلقات الأدعياء . إنما كان حادث زواج النبى بها فيما بعد هو الذى قرر هذه القاعدة . بعدما قوبل هذا القرار بالدهشة والمفاجأة والاستنكار . وفى هذا ما يهدم كل الروايات التى رويت عن هذا الحادث ؛ والتى تشبث بها أعداء الإسلام قديما وحديثا ، وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات ! إنما كان الأمر كما قال الله تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ، لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا) وكانت هذه إحدى ضرائب الرسالة الباهظة حملها رسول الله ﷺ فيما حمل ؛ وواجه بها المجتمع الكاره لها كل الكراهية . حتى ليتردد فى مواجهته بها وهو الذى لم يتردد فى مواجهته بعقيدة التوحيد ، وذم الآلهة والشركاء ؛ وتخطئة الآباء والأجداد ! (وكان أمر الله مفعولا) لا مرد

له ، ولا مفر منه . واقعا محققا لا سبيل إلى تخلفه ولا إلى الحيدة عنه . وكان زواجه ﷺ من زينب – رضى الله عنها – بعد انقضاء عدتها . أرسل إليها زيدا زوجها السابق . وأحب خلق الله إليه . أرسله إليها ليخطبها عليه . عن أنس – رضى الله عنه – قال:لما انقضت عدة زينب – رضى الله عنها – قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة . " اذهب فاذكرها على " فانطلق حتى أتاها وهى تخمر عجينها . قال:فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ، وأقول:إن رسول الله ﷺ ذكرها ! فوليتها ظهرى ، ونكصت على عقبى ، وقلت:يا زينب . أبشرى . أرسلنى رسول الله ﷺ بذكرك . قالت:ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربى عز وجل . فقامت إلى مسجدها . ونزل القرآن . وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن . وقد روى البخارى – رحمه الله – عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال:إن زينب بنت جحش – رضى الله عنها – كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ فتقول:زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله – تعالى – من فوق سبع سماوات . ولم تمر المسألة سهلة ، فلقد فوجئ بها المجتمع الإسلامى كله ؛ كما انطلقت ألسنة المنافقين تقول: تزوج حليلة ابنه ! ولما كانت المسألة مسألة تقرير مبدأ جديد فقد مضى القرآن يوكدها ؛ ويزيل عنصر الغرابة فيها ، ويردها إلى أصولها البسيطة المنطقية التاريخية (ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له) فقد فرض له أن يتزوج زينب ، وأن يبطل عادة العرب فى تحريم أزواج الأدعياء . وإذن فلا حرج فى هذا الأمر ، وليس النبى ﷺ فيه بدعا من الرسل (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) فهو أمر يمضى وفق سنة الله التى لا تتبدل . والتى تتعلق بحقائق الأشياء ، لا بما يحوطها من تصورات وتقاليد مصطنعة لا تقوم على أساس (وكان أمر الله قدرا مقدورا) فهو نافذ مفعول ، لا يقف فى وجهه شىء ولا أحد . وهو مقدر بحكمة وخبرة ووزن ، منظور فيه إلى الغاية التى يريدها الله منه . و يعلم ضرورتها وقدرها وزمانها ومكانها . وقد أمر الله رسوله أن يبطل تلك العادة ويمحو آثارها عمليا ، ويقرر بنفسه السابقة الواقعية . ولم يكن بد من نفاذ أمر الله . وسنة الله هذه قد مضت فى الذين خلوا من قبل من الرسل (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله) فلا يحسبون للخلق حسابا فيما يكلفهم الله به من أمور الرسالة ، ولا يخشون أحدا إلا الله الذى أرسلهم للتبليغ والعمل والتنفيذ (وكفى بالله حسيبا) فهو وحده الذى يحاسبهم ، وليس للناس عليهم من حساب (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) فزينب ليست حليلة ابنه ، وزيد ليس ابن محمد . إنما هو ابن حارثة . ولا حرج إذن فى الأمر حين ينظر إليه بعين الحقيقة الواقعة . والعلاقة بين محمد ﷺ وبين جميع المسلمين – ومنهم زيد بن حارثة – هى علاقة النبى بقومه ، وليس هو أبا لأحد منهم (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) ومن ثم فهو يشرع الشرائع الباقية ، لتسير عليها البشرية ؛ وفق آخر رسالة السماء إلى الأرض ، التى لا تبديل فيها بعد ذلك ولا تغيير (وكان الله بكل شىء عليما) فهو الذى يعلم ما يصلح لهذه البشرية ، وما يصلحها ؛ وهو الذى فرض على النبى ما فرض ، واختار له ما اختار . ليحل للناس أزواج أدعيائهم ، إذا ما قضوا منهن وطرا ، وانتهت حاجتهم منهن ، وأطلقوا سراحهن . . قضى الله هذا وفق علمه بكل شىء . ومعرفته بالأصلح والأوفق من النظم والشرائع والقوانين ؛ ووفق رحمته وتخيره للمؤمنين . ثم يمضى السياق القرآنى فى ربط القلوب بهذا المعنى الأخير ، ووصلهم بالله الذى فرض على رسوله ما فرض ، واختار للأمة المسلمة ما اختار ؛ يريد بها الخير ، والخروج من الظلمات إلى النور (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ، وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وكان بالمؤمنين رحيما . تحيتهم يوم يلقونه سلام . وأعد لهم أجرا كريما) وذكر الله اتصال القلب به ، والاشتغال بمراقبته ؛ وليس هو مجرد تحريك اللسان . و إقامة الصلاة ذكر لله . بل إنه وردت آثار تكاد تخصص الذكر بالصلاة: وإن كان ذكر الله أشمل من الصلاة . فهو يشمل كل صورة يتذكر فيها العبد ربه ، ويتصل به قلبه . سواء جهر بلسانه بهذا الذكر أم لم يجهر . والمقصود هو الاتصال المحرك الموحى على أية حال . وإن القلب ليظل فارغا أو لاهيا أو حائرا حتى يتصل بالله ويذكره ويأنس به . فإذا هو مليء جاد ، قار ، يعرف طريقه ، ويعرف منهجه ، ويعرف من أين وإلى أين ينقل خطاه ! ومن هنا يحض القرآن كثيرا ، وتحض السنة كثيرا ، على ذكر الله . ويربط القرآن بين هذا الذكر وبين الأوقات والأحوال التى يمر بها الإنسان ، لتكون الأوقات والأحوال مذكرة بذكر الله ومنبهة إلى الاتصال به حتى لا يغفل القلب ولا ينسى (وسبحوه بكرة وأصيلا) وفى البكرة والأصيل خاصة ما يستجيش القلوب إلى الاتصال بالله ، مغير الأحوال ، ومبدل الظلال ؛ وهو باق لا يتغير ولا يتبدل ، ولا يحول ولا يزول . وكل شىء سواه يتغير ويتبدل ، ويدركه التحول والزوال وإلى جانب الأمر بذكر الله وتسبيحه ، إشعار القلوب برحمة الله ورعايته ، وعنايته بأمر الخلق وإرادة الخير لهم ؛ وهو الغنى عنهم ، وهم الفقراء المحاويج ، لرعايته وفضله (هو الذى يصلى عليكم وملائكته ، ليخرجكم من الظلمات إلى النور . وكان بالمؤمنين رحيما) وتعالى الله وجلت نعمته ، وعظم فضله ، وتضاعفت منته ؛ وهو يذكر هؤلاء العباد الضعاف المحاويج الفانين ، الذين لا حول لهم ولا قوة ، ولا بقاء لهم ولا قرار . يذكرهم ، ويعنى بهم ، ويصلى عليهم هو وملائكته ، ويذكرهم بالخير فى الملأ الأعلى فيتجاوب الوجود كله بذكرهم ، كما قال رسول الله ﷺ :" يقول الله تعالى من ذكرنى فى

نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه " ألا إنها لعظيمة لا يكاد الإدراك يتصورها . وهو يعلم أن هذه الأرض ومن عليها وما عليها إن هى إلا ذرة صغيرة زهيدة بالقياس إلى تلك الأفلاك الهائلة . وما الأفلاك وما فيها ومن فيها إلا بعض ملك الله الذى قال له:كن . فكان ! (هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور) ونور الله واحد متصل شامل ؛ وما عداه ظلمات تتعدد وتختلف . وما يخرج الناس من نور الله إلا ليعيشوا فى ظلمة من الظلمات ، أو فى الظلمات مجتمعة ؛ وما ينقذهم من الظلام إلا نور الله الذى يشرق فى قلوبهم ، ويغمر أرواحهم ، ويهديهم إلى فطرتهم . وهى فطرة هذا الوجود . ورحمة الله بهم وصلاة الملائكة ودعاؤها لهم ، هى التى تخرجهم من الظلمات إلى النور حين تتفتح قلوبهم للإيمان (وكان بالمؤمنين رحيما) ذلك أمرهم فى الدنيا دار العمل . فأما أمرهم فى الآخرة دار الجزاء ، فإن فضل الله لا يتخلى عنهم ، ورحمته لا تتركهم ؛ ولهم فيها الكرامة والحفاوة والأجر الكريم (تحيتهم يوم يلقونه سلام ، وأعد لهم أجرا كريما) سلام من كل خوف ، ومن كل تعب ، ومن كل كد . . سلام يتلقونه من الله تحمله إليهم الملائكة . وهم يدخلون عليهم من كل باب ، يبلغونهم التحية العلوية . إلى جانب ما أعد لهم من أجر كريم . . فيا له من تكريم ! فهذا هو ربهم الذى يشرع لهم ويختار . فمن ذا الذى يكره هذا الاختيار ؟! فأما النبى الذى يبلغهم اختيار الله لهم ؛ ويحقق بسنته العملية ما اختاره الله وشرعه للعباد ، فيلتفت السياق التفاتة كذلك إلى بيان وظيفته وفضله على المؤمنين فى هذا المقام (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا . ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) فوظيفة النبى ﷺ فيهم أن يكون (شاهدا) عليهم . فليعملوا بما يحسن هذه الشهادة التى لا تكذب ولا تزور ، ولا تبدل ، ولا تغير . وأن يكون(مبشرا) لهم بما ينتظر العاملين من رحمة وغفران ، ومن فضل وتكريم . وأن يكون (نذيرا) للغافلين بما ينتظر المسيئين من عذاب ونكال ، فلا يؤخذوا على غرة ، ولا يعذبوا إلا بعد إنذار (وداعيا إلى الله) لا إلى دنيا ، ولا إلى مجد ، ولا إلى عزة قومية ، ولا إلى عصبية جاهلية ، ولا إلى مغنم ، ولا إلى سلطان أو جاه . ولكن داعيا إلى الله . فى طريق واحد يصل إلى الله (بإذنه) فما هو بمبتدع ، ولا بمتطوع ، ولا بقائل من عنده شيئا . إنما هو إذن الله له وأمره لا يتعداه (وسراجا منيرا) يجلو الظلمات ، ويكشف الشبهات ، وينير الطريق ، نورا هادئا هاديا كالسراج المنير فى الظلمات . وهكذا كان رسول الله ﷺ وما جاء به من النور . جاء بالتصور الواضح البين النير لهذا الوجود ، ولعلاقة الوجود بالخالق ، ولمكان الكائن الإنسانى من هذا الوجود وخالقه ، وللقيم التى يقوم عليها الوجود كله ، ويقوم عليها وجود هذا الإنسان فيه ; وللمنشأ والمصير ، والهدف والغاية ، والطريق والوسيلة . فى قول فصل لا شبهة فيه ولا غموض . وفى أسلوب يخاطب الفطرة خطابا مباشرا وينفذ إليها من أقرب السبل وأوسع الأبواب وأعمق المسالك والدروب ! ويكرر ويفصل فى وظيفة الرسول مسألة تبشير المؤمنين (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا) بعدما أجملها فى قوله (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) زيادة فى بيان فضل الله ومنته على المؤمنين ، الذين يشرع لهم على يدى هذا النبى ، ما يؤول بهم إلى البشرى والفضل الكبير . وينهى هذا الخطاب للنبى ﷺ بألا يطيع الكافرين والمنافقين ، وألا يحفل أذاهم له وللمؤمنين ، وأن يتوكل على الله وحده وهو بنصره كفيل (ولا تطع الكافرين والمنافقين ، ودع أذاهم ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) وهو ذات الخطاب الوارد فى أول السورة ، قبل ابتداء التشريع والتوجيه ، والتنظيم الاجتماعى الجديد . بزيادة توجيه النبى ﷺ ألا يحفل أذى الكافرين والمنافقين ؛ وألا يتقيه بطاعتهم فى شيء أو الاعتماد عليهم فى شيء . فالله وحده هو الوكيل (وكفى بالله وكيلا) وهكذا يطول التقديم والتعقيب على حادث زينب وزيد ، وإحلال أزواج الأدعياء ، والمثل الواقعى الذى كلفه رسول الله ﷺ مما يشى بصعوبة هذا الأمر ، وحاجة النفوس فيه إلى تثبيت الله وبيانه ، وإلى الصلة بالله والشعور بما فى توجيهه من رحمة ورعاية . كى تتلقى ذلك الأمر بالرضى والقبول والتسليم . .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً{٤٩} يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{٥٠} تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً{٥١} لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً{٥٢} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى

طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً{٥٣} إِن تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً{٥٤} لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً{٥٥} إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً{٥٦} إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً{٥٧} وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً{٥٨} يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{٥٩} لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً{٦٠} مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً{٦١} سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا ً{٦٢}

هذا الشوط من السورة يتضمن فى أوله حكما عاما من أحكام القرآن التشريعية فى تنظيم شؤون الأسرة . ذلك حكم المطلقات قبل الدخول . يجىء بعده أحكام خاصة لتنظيم حياة النبى ﷺ الزوجية الخاصة مع نسائه وعلاقات نسائه كذلك ببقية الرجال ، وعلاقة المسلمين ببيت الرسول . وكرامة الرسول وبيته على الله وعلى ملائكته والملأ الأعلى . وينتهى بحكم عام يشترك فيه نساء النبى وبناته ونساء المؤمنين ، يأمرهن فيه بإرخاء جلابيبهن عند الخروج لقضاء الحاجة حتى يتميزن بهذا الزى السابغ ويعرفن ، فلا يتعرض لهن ذوو السيرة السيئة من المنافقين والمرجفين والفساق الذين كانوا يتعرضون للنساء فى المدينة ! ويختم بتهديد هؤلاء المنافقين والمرجفين بالإجلاء عن المدينة ما لم ينتهوا عن إيذاء المؤمنات وإشاعة الفساد . وهذه التشريعات والتوجيهات طرف من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة على أساس التصور الإسلامي . فأما ما يختص بحياة الرسول الشخصية ، فقد شاء الله أن يجعل حياة هذا البيت صفحة معروضة للأجيال ، فضمنها هذا القرآن الباقي ، المتلو فى كل زمان ومكان ؛ وهى فى الوقت ذاته آية تكريم الله – سبحانه – لهذا البيت ، الذى يتولى بذاته العلية أمره ، ويعرضه للبشرية كافة فى قرآنه الخالد على الزمان (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ، فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا) ولقد سبق فى سورة البقرة بيان حكم المطلقات قبل الدخول فى قوله تعالى (لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره ، متاعا بالمعروف حقا على المحسنين . وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح . وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير) فالمطلقة قبل الدخول إن كان قد فرض لها مهر ، فلها نصف ذلك المهر المسمى . وإن لم يذكر لها مهر فلها متاع يتبع قدرة المطلق سعة وضيقا . . وقد زاد هنا فى آية الأحزاب بيان حكم العدة لهذه المطلقة وهو ما لم يذكر فى آيتى البقرة . فقرر أن لا عدة عليها . إذ أنه لم يكن دخول بها . والعدة إنما هى استبراء للرحم من الحمل ، وتأكد من أنها خالية من آثار الزواج السابق ، كى لا تختلط الأنساب ، ولا ينسب إلى رجل ما ليس منه ، ويسلب رجل ما هو منه فى رحم المطلقة . فأما فى حالة عدم الدخول فالرحم بريئة ، ولا عدة إذن ولا انتظار (فما لكم عليهن من عدة تعتدونها) (فمتعوهن) إن كان هناك مهر مسمى فبنصف هذا المهر ، وإن لم يكن فمتاع مطلق يتبع حالة الزوج المالية (وسرحوهن سراحا جميلا) لا عضل فيه ولا أذى . ولا تعنت ولا رغبة فى تعويقهن عن استئناف حياة أخرى جديدة . وهذا حكم عام جاء فى سياق السورة فى صدد تنظيم الحياة العامة للجماعة المسلمة . بعد ذلك يبين الله لرسوله ﷺ ما يحل له من النساء ، وما فى ذلك من خصوصية لشخصه ولأهل بيته ، بعدما نزلت آية سورة النساء التى تجعل الحد الأقصى للأزواج أربعا (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) وكان فى عصمة النبى ﷺ فى هذا الوقت تسع نساء ، تزوج بكل منهن لمعنى خاص . عائشة وحفصة ابنتا صاحبيه أبى بكر وعمر . وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وأم سلمة ، وسودة بنت زمعة ، وزينب بنت خزيمة من المهاجرات اللواتى فقدن أزواجهن وأراد النبى ﷺ تكريمهن ، ولم يكن ذوات جمال ولا شباب ، إنما كان معنى التكريم لهن خالصا فى هذا الزواج . وزينب بنت جحش وقد علمنا قصة زواجها ، وقد كان هناك تعويض لها كذلك عن طلاقها من زيد الذى زوجها رسول الله ﷺ منه فلم تفلح الزيجة لأمر قضاه الله تعالى ، وعرفناه فى قصتها . ثم جويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، وصفية بنت حيى بن أخطب . وكانتا من السبى فأعتقهما رسول الله وتزوج بهما الواحدة تلو الأخرى ، توثيقا لعلاقته بالقبائل ، وتكريما لهما ، وقد أسلمتا بعدما نزل بأهلهما من الشدة . وكن قد أصبحن (أمهات المؤمنين) ونلن شرف

القرب من رسول الله ﷺ واخترن الله ورسوله والدار الآخرة بعد نزول آيتى التخيير . فكان صعبا على نفوسهن أن يفارقهن رسول الله بعد تحديد عدد النساء . وقد نظر الله إليهن ، فاستثنى رسول الله ﷺ من ذلك القيد ، وأحل له استبقاء نسائه جميعا فى عصمته ، وجعلهن كلهن حلا له ، ثم نزل القرآن بعد ذلك بألا يزيد عليهن أحدا ، ولا يستبدل بواحدة منهن أخرى . فإنما هذه الميزة لهؤلاء اللواتى ارتبطن به وحدهن ، كى لا يحرمن شرف النسبة إليه ، بعدما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة . . وحول هذه المبادئ تدور هذه الآيات (يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن ، وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ، وبنات عمك وبنات عماتك ، وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك ، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها ، خالصة لك من دون المؤمنين ، قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم ، لكى لا يكون عليك حرج ، وكان الله غفورا رحيما . ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ، ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك . ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ، والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليما حليما . لا يحل لك النساء من بعد ، ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن – إلا ما ملكت يمينك – وكان الله على كل شىء رقيبا) ففى الآية يحل الله للنبى ﷺ أنواع النساء المذكورات فيها – ولو كن فوق الأربع – مما هو محرم على غيره . وهذه الأنواع هى:الأزواج اللواتى أمهرهن . وما ملكت يمينه إطلاقا من الفىء ، وبنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته ممن هاجرن معه دون غيرهن ممن لم يهاجرن – إكراما للمهاجرات – وأيما امرأة وهبت نفسها للنبى بلا مهر ولا ولى . إن أراد النبى نكاحها [وقد تضاربت الروايات حول ما إذا كان النبى ﷺ قد تزوج واحدة من هذا الصنف من النساء أم لم يتزوج ، والأرجح أنه زوج اللواتى عرضن أنفسهن عليه من رجال آخرين] وقد جعل الله هذه خصوصية للنبى ﷺ بما أنه ولى المؤمنين والمؤمنات جميعا . فأما الآخرون فهم خاضعون لما بينه الله وفرضه عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم . ذلك كى لا يكون على النبى حرج فى استبقاء أزواجه وفى الاستجابة للظروف الخاصة المحيطة بشخصه . ثم ترك الخيار له ﷺ فى أن يضم إلى عصمته من شاء ممن يعرضن أنفسهن عليه ، أو يؤجل ذلك . ومن أرجأهن فله أن يعود إليهن حين يشاء . . وله أن يباشر من نسائه من يريد ويرجئ من يريد . ثم يعود (ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن) فهى مراعاة الظروف الخاصة المحيطة بشخص الرسول ﷺ والرغبات الموجهة إليه ، والحرص على شرف الاتصال به ، مما يعلمه الله ويدبره بعلمه وحلمه (والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليما حليما) ثم أنزل الله تحريم من عدا نسائه اللواتى فى عصمته فعلا ، لا من ناحية العدد ، ولكن هن بذواتهن لا يستبدل بهن غيرهن ؛ ولم يعرف أن رسول الله ﷺ قد زاد عليهن قبل التحريم (لا يحل لك النساء من بعد ، ولا أن تبدل بهن من أزواج – ولو أعجبك حسنهن) لا يستثنى من ذلك (إلا ما ملكت يمينك) فله منهن ما يشاء (وكان الله على كل شىء رقيبا) والأمر موكول إلى هذه الرقابة واستقرارها فى القلوب . وقد روت عائشة – رضى الله عنها – أن هذا التحريم قد ألغى قبل وفاة النبى ﷺ وتركت له حرية الزواج . ولكنه ﷺ لم يتزوج كذلك غيرهن بعد هذه الإباحة . فكن هن أمهات المؤمنين . . بعد ذلك ينظم القرآن علاقة المسلمين ببيوت النبى ﷺ وبنسائه – أمهات المؤمنين – فى حياته وبعد وفاته كذلك . ويواجه حالة كانت واقعة ، إذ كان بعض المنافقين والذين فى قلوبهم مرض يؤذون النبى ﷺ فى بيوته وفى نسائه . فيحذرهم تحذيرا شديدا ، ويريهم شناعة جرمهم عند الله وبشاعته . و يهددهم بعلم الله لما يخفون فى صدورهم من كيد وشر (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام – غير ناظرين إناه – ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا . ولا مستأنسين لحديث . إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق . وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب . ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن . وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا . إن ذلكم كان عند الله عظيما . إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شىء عليما) روى البخارى – بإسناده – عن أنس بن مالك قال:بنى النبى ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم . فأرسلت على الطعام داعيا . فيجىء قوم فيأكلون ويخرجون . ثم يجىء قوم فيأكلون ويخرجون . فدعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه . فقلت:يا رسول الله ما أجد أحدا أدعوه . قال ":ارفعوا طعامكم " . وبقى ثلاثة رهط يتحدثون فى البيت . فخرج رسول الله ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة – رضى الله عنها – فقال " السلام عليكم – أهل البيت – ورحمة الله وبركاته " . قالت:وعليك السلام ورحمة الله . كيف وجدت أهلك يا رسول الله ؟ " بارك الله لك " . فتقرى حجر نسائه ، كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة ، ويقلن كما قالت عائشة . ثم رجع النبى ﷺ فإذا ثلاثة رهط فى البيت يتحدثون . وكان النبى ﷺشديد الحياء . فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة . فما أدرى أخبرته أم أخبر أن القوم خرجوا . فرجع حتى إذا وضع رجله فى أسكفة الباب داخله والأخرى خارجه . أرخى الستر بينى وبينه ، وأنزلت آية الحجاب . والآية تتضمن آدابا لم تكن تعرفها الجاهلية فى دخول البيوت ، حتى بيت رسول الله ﷺ فقد كان الناس يدخلون البيوت بلا إذن من أصحابها – كما جاء فى شرح

آيات سورة النور الخاصة بالاستئذان – وربما كان هذا الحال أظهر فى بيوت النبى ﷺ بعد أن أصبحت هذه البيوت مهبط العلم والحكمة وكان بعضهم يدخل وحين يرى طعاما يوقد عليه يجلس فى انتظار نضج هذا الطعام ليأكل بدون دعوة إلى الطعام ! وكان بعضهم يجلس بعد الطعام – سواء كان قد دعى إليه أو هجم هو عليه دون دعوة – ويأخذ فى الحديث والسمر غير شاعر بما يسببه هذا من إزعاج للنبى ﷺ وأهله . وفى رواية أن أولئك الثلاثة الرهط الذين كانوا يسمرون كانوا يفعلون هذا وعروس النبى – زينب بنت جحش – جالسة وجهها إلى الحائط ! والنبى ﷺ يستحيى أن ينبههم إلى ثقلة مقامهم عنده حياء منه ، ورغبة فى ألا يواجه زواره بما يخجلهم ! حتى تولى الله – سبحانه – عنه الجهر بالحق (والله لا يستحيى من الحق) ومما يذكر أن عمر – رضى الله عنه – بحساسيته المرهفة كان يقترح على النبى ﷺ الحجاب ; وكان يتمناه على ربه . حتى نزل القرآن الكريم مصدقا لاقتراحه مجيبا لحساسيته ! ثم تقرر الآية الحجاب بين نساء النبى ﷺ والرجال (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) وتقرر أن هذا الحجاب أطهر لقلوب الجميع (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) فلا يقل أحد غير ما قال الله . لا يقل أحد إن الاختلاط ، وإزالة الحجب ، والترخص فى الحديث واللقاء والجلوس والمشاركة بين الجنسين أطهر للقلوب ، وأعف للضمائر ، وأعون على تصريف الغريزة المكبوتة ، وعلى إشعار الجنسين بالأدب وترقيق المشاعر والسلوك . إلى آخر ما يقوله نفر من خلق الله الضعاف المهازيل الجهال المحجوبين . لا يقل أحد شيئا من هذا والله يقول (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) يقول هذا عن نساء النبى الطاهرات . أمهات المؤمنين . وعن رجال الصدر الأول من صحابة رسول الله ﷺ ممن لا تتطاول إليهن وإليهم الأعناق ! وحين يقول الله قولا . ويقول خلق من خلقه قولا . فالقول لله – سبحانه – وكل قول آخر هراء ، لا يردده إلا من يجرؤ على القول بأن العبيد الفانين أعلم بالنفس البشرية من الخالق الباقى الذى خلق هؤلاء العبيد ! وقد ذكرت الآية أن مجيئهم للطعام منتظرين نضجه من غير دعوة ؛ وبقاءهم بعد الطعام مستأنسين للحديث . . كان يؤذى النبى فيستحيى منهم . وفى ختامها تقرر أنه ما يكون للمسلمين أن يؤذوا رسول الله . وكذلك ما يكون لهم أن يتزوجوا أزواجه من بعده ؛ وهن بمنزلة أمهاتهم . ومكانهن الخاص من رسول الله يحرم أن ينكحهن أحد من بعده ، احتفاظا بحرمة هذا البيت وجلاله وتفرده (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) وقد ورد أن بعض المنافقين قال:إنه ينتظر أن يتزوج من عائشة ! (إن ذلكم كان عند الله عظيما) وما أهول ما يكون عند الله عظيما ! ولا يقف السياق عند هذا الإنذار الهائل ، بل يستطرد إلى تهديد آخر هائل (إن تبدوا شيئا أو تخفوه ، فإن الله كان بكل شىء عليما) وإذن فالله هو الذى يتولى الأمر . وهو عالم بما يبدو وما يخفى ، مطلع على كل تفكير وكل تدبير . والأمر عنده عظيم . ومن شاء فليتعرض . فإنما يتعرض لبأس الله الساحق الهائل العظيم . وبعد الإنذار والتهديد يعود السياق إلى استثناء بعض المحارم الذين لا حرج على نساء النبى ﷺ فى أن يظهرن عليهم (لا جناح عليهن فى آبائهن ، ولا أبنائهن ، ولا إخوانهن ، ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ، ولا نسائهن ، ولا ما ملكت أيمانهن . واتقين الله . إن الله كان على كل شىء شهيدا) وهؤلاء المحارم هم الذين أبيح لنساء المسلمين عامة أن يظهرن عليهم . . ولم أستطع أن أتحقق أى الآيات كان أسبق فى النزول ؛ الآية الخاصة بنساء النبى ﷺ هنا ، أم الآية العامة لنساء المسلمين جميعا فى سورة النور . والأرجح أن الأمر كان خاصا بنساء النبى ﷺ ثم عمم . فذلك هو الأقرب إلى طبيعة التكليف . و لا يفوتنا أن نلحظ هذا التوجيه إلى تقوى الله ، والإشارة إلى اطلاعه على كل شىء (واتقين الله ، إن الله كان على كل شىء شهيدا). فالإيحاء بالتقوى ومراقبة الله يطرد فى مثل هذه المواضع ,لأن التقوى هى الضمان الأول والأخير ، وهى الرقيب اليقظ الساهر على القلوب . ويستمر السياق فى تحذير الذين يؤذون النبى ﷺ فى نفسه أو فى أهله ؛ وفى تفظيع الفعلة التى يقدمون عليها . . وذلك عن طريقين: الطريق الأولى تمجيد رسول الله ﷺ وبيان مكانته عند ربه وفى الملأ الأعلى . والطريق الثانية تقرير أن إيذاءه إيذاء لله – سبحانه – وجزاؤه عند الله الطرد من رحمته فى الدنيا والآخرة ، والعذاب الذى يناسب الفعلة الشنيعة (إن الله وملائكته يصلون على النبى . يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما . إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا) وصلاة الله على النبى ذكره بالثناء فى الملأ الأعلى ؛ وصلاة ملائكته دعاؤهم له عند الله سبحانه وتعالى . ويا لها من مرتبة سنية حيث تردد جنبات الوجود ثناء الله على نبيه ؛ ويشرق به الكون كله وتتجاوب به أرجاؤه . ويثبت فى كيان الوجود ذلك الثناء الأزلى القديم الأبدى الباقى . وما من نعمة ولا تكريم بعد هذه النعمة وهذا التكريم . وأين تذهب صلاة البشر وتسليمهم بعد صلاة الله العلى وتسليمه ، وصلاة الملائكة فى الملأ الأعلى وتسليمهم ؛ إنما يشاء الله تشريف المؤمنين بأن يقرن صلاتهم إلى صلاته وتسليمهم إلى تسليمه ؛ وأن يصلهم عن هذا الطريق بالأفق العلوى الكريم الأزلى القديم . وفى ظل هذا التمجيد الإلهى يبدو إيذاء الناس للنبى ﷺ بشعا شنيعا ملعونا قبيحا (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة ، وأعد لهم عذابا مهينا) ويزيده بشاعة وشناعة أنه إيذاء لله من عبيده ومخاليقه . وهم لا

يبلغون أن يؤذوا الله . إنما هذا التعبير يصور الحساسية بإيذاء رسوله ، وكأنما هو إيذاء لذاته جل وعلا . فما أفظع ! وما أبشع ! وما أشنع !ويستطرد كذلك إلى إيذاء المؤمنين والمؤمنات عامة . إيذاؤهم كذبا وبهتانا ، بنسبة ما ليس فيهم إليهم من النقائص والعيوب (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا) وهذا التشديد يشى بأنه كان فى المدينة يومذاك فريق يتولى هذا الكيد للمؤمنين والمؤمنات , بنشر قالة السوء عنهم ، وتدبير المؤامرات لهم ، وإشاعة التهم ضدهم . وهو عام فى كل زمان وفى كل مكان . والمؤمنون والمؤمنات عرضة لمثل هذا الكيد فى كل بيئة من الأشرار المنحرفين ، والمنافقين ، والذين فى قلوبهم مرض . والله يتولى عنهم الرد على ذلك الكيد ، ويصم أعداءهم بالإثم والبهتان . وهو أصدق القائلين .ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر نساءه وبناته ونساء المؤمنين عامة – إذا خرجن لحاجتهن أن يغطين أجسامهن ورؤوسهن وجيوبهن – وهى فتحة الصدر من الثوب – بجلباب كاس . فيميزهن هذا الزى ، ويجعلهن فى مأمن من معابثة الفساق . فإن معرفتهن وحشمتهن معا تلقيان الخجل والتحرج فى نفوس الذين كانوا يتتبعون النساء لمعابثتهن (يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن , ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين . وكان الله غفورا رحيما) قال السدى فى هذه الآية:كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طريق المدينة فيعرضون للنساء . وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة ، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطريق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن . فإذا رأوا المرأة عليها جلباب . قالوا:هذه حرة . فكفوا عنها . وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا:هذه أمة فوثبوا عليها . وقال مجاهد:يتجلببن فيعلم أنهن حرائر ، فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة . وقوله تعالى (وكان الله غفورا رحيما) أى لما سلف فى أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك . ومن ذلك نرى الجهد المستمر فى تطهير البيئة العربية ، والتوجيه المطرد لإزالة كل أسباب الفتنة والفوضى ، وحصرها فى أضيق نطاق ، ريثما تسيطر التقاليد الإسلامية على الجماعة كلها وتحكمها . وفى النهاية يأتى تهديد المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين الذى ينشرون الشائعات المزلزلة فى صفوف الجماعة المسلمة . . تهديدهم القوى الحاسم ، بأنهم إذا لم يرتدعوا عما يأتونه من هذا كله ، وينتهوا عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، والجماعة المسلمة كلها , أن يسلط الله عليهم نبيه ، كما سلطه على اليهود من قبل ، فيطهر منهم جو المدينة , ويطاردهم من الأرض ؛ و يبيح دمهم فحيثما وجدوا أخذوا وقتلوا . كما جرت سنة الله فيمن قبلهم من اليهود على يد النبى ﷺ وغير اليهود من المفسدين فى الأرض فى القرون الخالية (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم , ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ؛ ملعونين ، أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا . سنة الله فى الذين خلوا من قبل . ولن تجد لسنة الله تبديلا) ومن هذا التهديد الحاسم ندرك مدى قوة المسلمين فى المدينة بعد بنى قريظة ، ومدى سيطرة الدولة الإسلامية عليها . وانزواء المنافقين إلا فيما يدبرونه من كيد خفى ، لا يقدرون على الظهور ؛ إلا وهم مهددون خائفون .

(يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً{٦٣} إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً{٦٤} خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً{٦٥} يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا{٦٦} وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{٦٧} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{٦٨} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً{٦٩} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً{٧٠} يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً{٧١} إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً{٧٢} لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيما){٧٣}

فى هذا الدرس الأخير من السورة حديث عن سؤال الناس عن الساعة ، واستعجالهم بها ، وشكهم فيها . وجواب عن هذا السؤال يدع أمرها إلى الله ، مع تحذيرهم من قربها ، واحتمال أن تأخذهم على غرة أخذا سريعا . ثم يعرض السياق مشهدا من مشاهد الساعة لا يسر المستعجلين بها ، يوم تقلب وجوههم فى النار . ويوم يندمون على عدم طاعة الله ورسوله . ويوم يطلبون لسادتهم وكبرائهم ضعفين من العذاب , وهو مشهد مفجع لا يستعجل به مستعجل . . ثم يعود بهم من هذا المشهد فى الآخرة إلى هذه الأرض مرة أخرى ! يعود ليحذر الذين آمنوا أن يكونوا كقوم موسى الذين آذوه واتهموه فبرأه الله مما قالوا – ويبدو أن هذا كان ردا على أمر واقع . ربما كان هو حديث بعضهم عن زواج الرسول ﷺ بزينب , ومخالفته لمألوف العرب – ويدعو المؤمنين أن يقولوا قولا سديدا بعيدا عن اللمز والعيب . ليصلح الله لهم أعمالهم ويغفر لهم ذنوبهم

. ويحببهم فى طاعة الله ورسوله ويعدهم عليها الفوز العظيم . ويختم السورة بالإيقاع الهائل العميق . عن الأمانة التى أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال ، وحملها الإنسان ، وهى ضخمة هائلة ساحقة . ذلك ليتم تدبير الله فى ترتيب الجزاء على العمل ، ومحاسبة الإنسان على ما رضى لنفسه واختار (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما) (يسألك الناس عن الساعة . قل:إنما علمها عند الله . وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا) وقد كانوا ما يفتأون يسألون النبى ﷺ عن الساعة التى حدثهم عنها طويلا ؛ وخوفهم بها طويلا ؛ ووصف القرآن مشاهدها حتى لكأن قارئه يراها . يسألونه عن موعدها ; ويستعجلون هذا الموعد ؛ ويحمل هذا الاستعجال معنى الشك فيها ، أو التكذيب بها ، أو السخرية منها ، بحسب النفوس السائلة ، وقربها من الإيمان أو بعدها . والساعة غيب قد اختص به الله سبحانه ، ولم يشأ أن يطلع عليه أحدا من خلقه جميعا , بما فيهم الرسل والملائكة المقربون . قدر الله هذا لحكمة يعلمها ، نلمح طرفا منها ، فى ترك الناس على حذر من أمرها ، وفى توقع دائم لها ، وفى استعداد مستمر لفجأتها . ذلك لمن أراد الله له الخير ، وأودع قلبه التقوى . فأما الذين يغفلون عن الساعة ، ولا يعيشون فى كل لحظة على أهبة للقائها , فأولئك الذين يختانون أنفسهم ، ولا يقونها من النار . وقد بين الله لهم وحذرهم وأنذرهم ، وجعل الساعة غيبا مجهولا متوقعا فى أية لحظة من لحظات الليل والنهار إنهم يسألون عن الساعة . فهذا مشهد من مشاهد الساعة (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا) إن الله طرد الكافرين من رحمته ، وهيأ لهم نارا مسعرة متوقدة ، فهى معدة جاهزة حاضر (خالدين فيها أبدا) باقين فيها عهدا طويلا ، لا يعلم مداه إلا الله ؛ ولا نهاية له إلا فى علم الله ,حيث يشاء الله . وهم مجردون من كل عون ، محرومون من كل نصير ، فلا أمل فى الخلاص من هذا السعير ، بمعونة من ولى ولا نصير (لا يجدون وليا ولا نصيرا) أما مشهدهم فى هذا العذاب فهو مشهد بائس أليم (يوم تقلب وجوههم فى النار) والنار تغشاهم من كل جهة ، فالتعبير على هذا النحو يراد به تصوير الحركة وتجسيمها , والحرص على أن تصل النار إلى كل صفحة من صفحات وجوههم زيادة فى النكال ! (يقولون:يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) وهى أمنية ضائعة ، لا موضع لها ولا استجابة ، فقد فات الأوان . إنما هى الحسرة على ما كان ! م تنطلق من نفوسهم النقمة على سادتهم وكبرائهم ، الذين أضلوهم ، وبالإنابة إلى الله وحده ، حيث لا تنفع الإنابة:

(وقالوا:ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) هذه هى الساعة . ففيم السؤال عنها ؟ إن العمل لها هو المخلص الوحيد من ذا المصير المشؤوم فيها ! ... ويبدو أن زواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش – رضى الله عنها – مخالفا فى ذلك عرف الجاهلية الذى تعمد الإسلام أن يبطله بهذه السابقة العملية . يبدو أن هذا الزواج لم يمر بسهولة ويسر ؛ وأنه قد انطلقت ألسنة كثيرة من المنافقين ومرضى القلوب , وغير المتثبتين الذين لم يتضح فى نفوسهم التصور الإسلامى الناصع البسيط ، انطلقت تغمز وتلمز ، وتؤول وتعترض ، وتهمس وتوسوس . وتقول قولا عظيما ! والمنافقون والمرجفون لم يكونوا يسكتون . فقد كانوا ينتهزون كل فرصة لبث سمومهم . كالذى رأينا فى غزوة الأحزاب . وفى حديث الإفك . وفى قسمة الفىء . وفى كل مناسبة تعرض لإيذاء النبى ﷺ بغير حق . وفى هذا الوقت – بعد إجلاء بنى قريظة وسائر اليهود من قبل – لم يكن فى المدينة من هو ظاهر بالكفر . فقد أصبح أهلها كلهم مسلمين ، إما صادقين فى إسلامهم وإما منافقين . وكان المنافقون هم الذين يروجون الشائعات ، وينشرون الأكاذيب ، وكان بعض المؤمنين يقع فى حبائلهم ، ويسايرهم فى بعض ما يروجون . فجاء القرآن يحذرهم إيذاء النبى ﷺ كما آذى بنو إسرائيل نبيهم موسى – عليه السلام – ويوجههم إلى تسديد القول , وعدم إلقائه على عواهنه ، بغير ضبط ولا دقة ؛ ويحييهم فى طاعة الله ورسوله وما وراءها من فوز عظيم (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا . وكان عند الله وجيها . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ، يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم . ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) ولم يحدد القرآن نوع الإيذاء لموسى ؛ ولكن وردت روايات تعينه . ونحن لا نرى بنا من حاجة للخوض فى هذا الذى أجمله القرآن . فإنما أراد الله تحذير الذين آمنوا من كل ما يؤذى النبى ﷺ وقد ضرب بنى إسرائيل مثلا للالتواء والانحراف فى مواضع من القرآن كثيرة . فيكفى أن يشير إلى إيذائهم لنبيهم . وتحذير المسلمين من متابعتهم فيه ، لينفر حس كل مؤمن من أن يكون كهؤلاء المنحرفين الملتوين الذين يضربهم القرآن مثلا صارخا للانحراف والالتواء . وقد برأ الله موسى مما رماه به قومه (وكان عند الله وجيها) ذا وجاهة وذا مكانة . والله مبرئ رسله من كل ما يرمون به كذبا وبهتانا . ومحمد ﷺ أفضل الرسل أولاهم بتبرئة الله له والدفاع عنه . ويوجه القرآن المؤمنين إلى تسديد القول وإحكامه والتدقيق فيه ، ومعرفة هدفه واتجاهه , قبل أن يتابعوا المنافقين والمرجفين فيه ؛ وقبل أن يستمعوا فى نبيهم ومرشدهم ووليهم إلى قول طائش ضال أو مغرض خبيث . ويوجههم إلى القول الصالح الذى يقود إلى العمل

الصالح . فالله يرعى المسددين ويقود خطاهم ويصلح لهم أعمالهم جزاء التصويب والتسديد . والله يغفر لذوى الكلمة الطيبة والعمل الصالح ؛ ويكفر عن السيئة التى لا ينجو منها الآدميون الخطاءون . ولا ينقذهم منها إلا المغفرة والتكفير (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) والطاعة بذاتها فوز عظيم . فهى استقامة على نهج الله . والاستقامة على نهج الله مريحة مطمئنة . والاهتداء إلى الطريق المستقيم الواضح الواصل سعادة بذاته ، ولو لم يكن وراءه جزاء سواه . وليس الذى يسير فى الطريق الممهود المنير وكل ما حوله من خلق الله يتجاوب معه ويتعاون كالذى يسير فى الطريق المقلقل المظلم وكل ما حوله من خلق الله يعاديه ويصادمه ويؤذيه ! فطاعة الله ورسوله تحمل جزاءها فى ذاتها ؛ وهى الفوز العظيم , قبل يوم الحساب وقبل الفوز بالنعيم . أما نعيم الآخرة فهو فضل زائد على جزاء الطاعة . فضل من كرم الله وفيضه بلا مقابل . والله يرزق من يشاء بغير حساب ، ولعله فضل نظر الله فيه إلى ضعف هذا الإنسان ، وإلى ضخامة التبعة التى يحملها على عاتقه . وإلى حمله للأمانة التى أشفقت منها السماوات والأرض والجبال . والتى أخذها على عاتقه ، وتعهد بحملها وحده ، وهو على ما هو عليه من الضعف وضغط الشهوات والميول والنزعات ، وقصور العلم ، وقصر العمر ، وحواجز الزمان والمكان ، دون المعرفة الكاملة ورؤية ما وراء الحواجز والآماد (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ; وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) إن السماوات والأرض والجبال – التى اختارها القرآن ليحدث عنها – هذه الخلائق الضخمة الهائلة ، التى يعيش الإنسان فيها أو حيالها فيبدو شيئا صغيرا ضئيلا . هذه الخلائق تعرف بارئها بلا محاولة ، وتهتدى إلى ناموسه الذى يحكمها بخلقتها وتكوينها ونظامها ; وتطيع ناموس الخالق طاعة مباشرة بلا تدبر ولا واسطة . وتجرى وفق هذا الناموس دائبة لا تنى ولا تتخلف دورتها جزءا من ثانية ؛ وتؤدى وظيفتها بحكم خلقتها وطبيعتها غير شاعرة ولا مختارة . هذه الشمس تدور فى فلكها دورتها المنتظمة التى لا تختل أبدا . وترسل بأشعتها فتؤدى وظيفتها التى قدرها الله لها ؛ وتجذب توابعها بلا إرادة منها ؛ فتؤدى دورها الكونى أداء كاملا . وهذه الأرض تدور دورتها ، وتخرج زرعها ، وتقوت أبناءها ، وتوارى موتاها ، وتتفجر ينابيعها . وفق سنة الله بلا إرادة منها . وهذا القمر . وهذه النجوم والكواكب ، وهذه الرياح والسحب . وهذا الهواء وهذا الماء . . وهذه الجبال . وهذه الوهاد . . كلها . . كلها . . تمضى لشأنها ، بإذن ربها ، وتعرف بارئها ، وتخضع لمشيئته بلا جهد منها ولا كد ولا محاولة . . لقد أشفقت من أمانة التبعة . أمانة الإرادة . أمانة المعرفة الذاتية . أمانة المحاولة الخاصة (وحملها الإنسان) الإنسان الذى يعرف الله بإدراكه وشعوره . ويهتدى إلى ناموسه بتدبره وبصره . ويعمل وفق هذا الناموس بمحاولته وجهده . ويطيع الله بإرادته وحمله لنفسه ، ومقاومة انحرافاته ونزغاته ، ومجاهدة ميوله وشهواته . . وهو فى كل خطوة من هذه الخطوات مريد . مدرك . يختار طريقه وهو عارف إلى أين يؤدى به هذا الطريق !

إنها أمانة ضخمة حملها هذا المخلوق الصغير الحجم ، القليل القوة ، الضعيف الحول , المحدود العمر ؛ الذى تناوشه الشهوات والنزعات والميول والأطماع . . وإنها لمخاطرة أن يأخذ على عاتقه هذه التبعة الثقيلة . ومن ثم (كان ظلوما) لنفسه (جهولا) لطاقته . هذا بالقياس إلى ضخامة ما زج بنفسه لحمله . فأما حين ينهض بالتبعة . حين يصل إلى المعرفة الواصلة إلى بارئه ، والاهتداء المباشر لناموسه , والطاعة الكاملة لإرادة ربه . المعرفة والاهتداء والطاعة التى تصل فى طبيعتها وفى آثارها إلى مثل ما وصلت إليه من سهولة ويسر وكمال فى السماوات والأرض والجبال . . الخلائق التى تعرف مباشرة ، وتهتدى مباشرة ، وتطيع مباشرة ، ولا تحول بينها وبين بارئها وناموسه وإرادته الحوائل . ولا تقعد بها المثبطات عن الانقياد والطاعة والأداء . . حين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة وهو واع مدرك مريد . فإنه يصل حقا إلى مقام كريم ، ومكان بين خلق الله فريد . ذلك كان (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات . وكان الله غفورا رحيما) فاختصاص الإنسان بحمل الأمانة ؛ وأخذه على عاتقه أن يعرف بنفسه ، ويهتدى بنفسه ، ويعمل بنفسه ، ويصل بنفسه . . هذا كان ليحتمل عاقبة اختياره ، وليكون جزاؤه من عمله . وليحق العذاب على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات . وليمد الله يد العون للمؤمنين والمؤمنات ، فيتوب عليهم مما يقعون فيه تحت ضغط ما ركب فيهم من نقص وضعف , وما يقف فى طريقهم من حواجز وموانع ، وما يشدهم من جواذب وأثقال . . فذلك فضل الله وعونه . وهو أقرب إلى المغفرة والرحمة بعباده (وكان الله غفورا رحيما) وبهذا الإيقاع الهائل العميق تختم السورة التى بدأت بتوجيه الرسول ﷺ إلى طاعة الله وعصيان الكافرين والمنافقين ، واتباع وحى الله ، والتوكل عليه وحده دون سواه . والتى تضمنت توجيهات وتشريعات يقوم عليها نظام المجتمع الإسلامى ، خالصا لله , متوجها له , مطيعا لتوجيهاته . بهذا الإيقاع الذى يصور جسامة التبعة وضخامة الأمانة . ويحدد موضع الجسامة ومنشأ الضخامة . ويحصرها كلها فى نهوض الإنسان بمعرفة الله والاهتداء إلى ناموسه .

سورة سبأ مكية

و آياتها ٥٤

موضوعات هذه السورة المكية هى موضوعات العقيدة الرئيسية: توحيد الله ، والإيمان بالوحى ، والاعتقاد بالبعث . وإلى جوارها تصحيح بعض القيم الأساسية المتعلقة بموضوعات العقيدة الرئيسية . وبيان أن الإيمان والعمل الصالح – لا الأموال ولا الأولاد – هما قوام الحكم والجزاء عند الله . وأنه ما من قوة تعصم من بطش الله وما من شفاعة عنده إلا بإذنه . والتركيز الأكبر فى السورة على قضية البعث والجزاء ؛ وعلى إحاطة علم الله وشموله ودقته ولطفه . وتتكرر الإشارة فى السورة إلى هاتين القضيتين المترابطتين بطرق منوعة ,وأساليب شتى ؛ وتظلل جو السورة كله من البدء إلى النهاية . فعن قضية البعث يقول (وقال الذين كفروا:لا تأتينا الساعة . قل:بلى وربى لتأتينكم) وعن قضية الجزاء يقول (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم) وفى موضع آخر قريب فى سياق السورة (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ؟ أفترى على الله كذبا أم به جنة ؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) ويورد عدة مشاهد للقيامة ، وما فيها من تأنيب للمكذبين بها ، ومن صور العذاب الذى كانوا يكذبون به ، أو يشكون فى وقوعه كهذا المشهد (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول . يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا:لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا:أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا:بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا . وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ وتتكرر هذه المشاهد وتتوزع فى السورة وتختم بها كذلك: ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب . وقالوا:آمنا به . وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ؟ وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل . إنهم كانوا فى شك مريب . وعن قضية العلم الإلهى الشامل يرد فى مطلع السورة (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) ويرد تعقيبا على التكذيب بمجيء الساعة (قل:بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) ويرد قرب ختام السورة (قل:إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب) وفى موضوع التوحيد تبدأ السورة بالحمد لله (الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ,وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير) ويتحداهم مرات فى شأن الشركاء الذين يدعونهم من دون الله (قل:ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، وما لهم فيهما من شرك ,وما له منهم من ظهير) وتشير الآيات إلى عبادتهم للملائكة وللجن وذلك فى مشهد من مشاهد القيامة (ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة:أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا:سبحانك ! أنت ولينا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) وينفى ما كانوا يظنونه من شفاعة الملائكة لهم عند ربهم (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ، حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا:ماذا قال ربكم ؟ قالوا:الحق وهو العلى الكبير) وبمناسبة عبادتهم للشياطين ترد قصة سليمان وتسخير الجن له ، وعجزهم عن معرفة موته (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته . فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين) وفى موضوع الوحى والرسالة يرد قوله (وقال الذين كفروا:لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه). وقوله:(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا:ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم . وقالوا:ما هذا إلا إفك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم:إن هذا إلا سحر مبين) ويرد عليهم بتقرير الوحى والرسالة (ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ، ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا . ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وفى موضوع تقرير القيم يرد قوله (وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها:إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا:نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين . قل:إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون . والذين يسعون فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون) ويضرب على هذا أمثلة من الواقع

التاريخى فى هذه الأرض:قصة آل داود الشاكرين على نعمة الله . وقصة سبأ المتبطرين الذين لا يشكرون . وما وقع لهؤلاء وهؤلاء . وفيه مصداق مشهود للوعد والوعيد . هذه القضايا التى تعالجها السور المكية فى صور شتى ، تعرض فى كل سورة فى مجال كونى , مصحوبة بمؤثرات منوعة ، جديدة على القلب فى كل مرة . ومجال عرضها فى سورة سبأ هذه هو ذلك المجال ، ممثلاً فى رقعة السماوات والأرض الفسيحة ، وفى عالم الغيب المجهول المرهوب . وفى ساحة الحشر الهائلة العظيمة . وفى أعماق النفس المطوية اللطيفة .وفى صحائف التاريخ المعلومة والمجهولة ، وفى مشاهد من ذلك التاريخ عجيبة غريبة . وفى كل منها مؤثر موح للقلب البشرى ، موقظ له من الغفلة والضيق والهمود .

فمنذ افتتاح السورة وهى تفتح على هذا الكون الهائل ؛ وعلى صحائفه وما فيها من آيات الله ، وعلى مجالى علمه اللطيف الشامل الدقيق الهائل (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها). .(وقال الذين كفروا:لا تأتينا الساعة . قل:بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) والذين يكذبون بالآخرة يتهددهم بأحداث كونية ضخمة (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ؟ إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء . إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب) والذين يعبدون من دون الله ملائكة أو جناً يقفهم وجهاً لوجه أمام الغيب المرهوب فى الملأ الأعلى (ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له . حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا:ماذا قال ربكم ؟ قالوا:الحق . وهو العلى الكبير) أو يواجههم بالملائكة فى ساحة الحشر حيث لا مجال للموارية والمجادلة (ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة:أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) . . . الخ . والمكذبون لرسول الله ﷺ الذين يتهمونه بالافتراء أو أن به جنة يقفهم أمام فطرتهم , وأمام منطق قلوبهم بعيداً عن الغواشى والمؤثرات المصطنعة (قل:إنما أعظكم بواحدة . أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا . ما بصاحبكم من جنة . إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) وهكذا تطوف السورة بالقلب البشرى فى تلك المجالات المتنوعة ، وتواجهه بتلك المؤثرات الموحية الموقظة . حتى تنتهى بمشهد عنيف أخاذ من مشاهد القيامة كما أسلفنا . ويجرى سياق السورة فى عرض موضوعاتها فى تلك المجالات وتحت تلك المؤثرات فى جولات قصيرة متلاحقة متماسكة ؛ يمكن تقسيمها إلى خمسة أشواط لتيسير عرضها وشرحها . وإلا فإنه ليس بينها فواصل تحددها تحديداً دقيقاً . . وهذا هو طابع السورة الذى يميزها . .

تبدأ السورة بالحمد لله ، المالك لما فى السموات والأرض المحمود فى الآخرة ، وهو الحكيم الخبير . وتقرر علمه الشامل الدقيق لما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها . وتحكى إنكار الذين كفروا لمجىء الساعة ورد الله عليهم بتوكيد مجيئها ، وعلم الله الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . ليتم جزاء المؤمنين وجزاء الذين يسعون فى آيات الله معاجزين , عن علم دقيق . وتثبت رأى أولى العلم الحقيقى الذين يشهدون أن ما أنزل الله لنبيه هو الحق . وتحكى عجب الذين كفروا من قضية البعث ، وترد عليهم بأنهم فى العذاب والضلال البعيد ؛ وتهددهم بخسف الأرض من تحتهم أو إسقاط السماء كسفاً عليهم . .

وبذلك ينتهى الشوط الأول .

فأما الشوط الثانى فيتناول طرفاً من قصة آل داود الشاكرين لله على نعمته ، بتسخير قوى كثيرة لداود وسليمان بإذن الله . غير متبطرين ولا مستكبرين ، ومن هذه القوى المسخرة الجن الذين كان يعبدهم بعض المشركين ، ويستفتونهم فى أمر الغيب . وهم لا يعلمون الغيب . وقد ظلوا يعملون لسليمان عملاً شاقاً مهيناً بعد موته وهم لا يعلمون . وفى مقابل قصة الشكر تجىء قصة البطر . قصة سبأ . وما كانوا فيه من نعيم لم يشكروه (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) وذلك أنهم اتبعوا الشيطان ، وما كان له عليهم من سلطان ، لولا أنهم أعطوه قيادهم مختارين !

ويبدأ الشوط الثالث بتحدى المشركين أن يدعوا الذين يزعمونهم آلهة من دون الله . وهم (لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير). . وهم لا يملكون لهم شفاعة عند الله – ولو كانوا من الملائكة – فالملائكة يتلقون أمر الله بالخشوع الراجف ؛ ولا يتحدثون حتى يزول عنهم الفزع والارتجاف العميق . ويسألهم عمن يرزقهم من السماوات والأرض . والله مالك السماوات والأرض , وهو الذى يرزقهم بلا شريك . . ثم يفوض أمره وأمرهم إلى الله ، وهو الذى يفصل

فيما هم مختلفون . . ويختم هذا الشوط بالتحدى كما بدأه ، أن يروه الذين يلحقونهم بالله شركاء (كلا بل هو الله العزيز الحكيم). .

والشوط الرابع والشوط الخامس يعالجان معاً قضية الوحي والرسالة ، وموقفهم منها ، وموقف المترفين من كل دعوة ، واعتزازهم بأموالهم وأولادهم ؛ ويقرران القيم الحقيقية التي يكون عليها الحساب والجزاء ، وهي قيم الإيمان والعمل الصالح لا الأموال والأولاد . ويعرضان مصائر المؤمنين والمكذبين فى عدة مشاهد متنوعة من مشاهد القيامة , يتبرأ فيها التابعون من المتبوعين . كما يتبرأ فيها الملائكة من عبادة الضالين المشركين . . ويدعوهم بين هذه المشاهد إلى أن يرجعوا إلى فطرتهم يستلهمونها مجردة عن الهوى وعن الضجيج في أمر هذا الرسول الذى يندفعون فى تكذيبه بلا دليل . وهو لا يطلب إليهم أجراً على الهدى ، وليس بكاذب ولا مجنون . . ويختم كل من الشوطين بمشهد من مشاهد القيامة . وتنتهى السورة بإيقاعات قصيرة قوية (قل:إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد . قل:إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلىّ ربى إنه سميع قريب) وتختم بمشهد من مشاهد القيامة قصير الخطى قوى عنيف .

والآن نأخذ بعد هذا العرض الإجمالى فى التفصيل . .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ{١} يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ{٢} وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ{٣} لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ{٤} وَالَّذِينَ سَعَوْا فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ{٥} وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ{٦} وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ{٧} أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِى الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ{٨} أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ){٩}

(الحمد لله ، الذى له ما فى السماوات ، وما فى الأرض ، وله الحمد فى الآخرة ، وهو الحكيم الخبير . يعلم ما يلج فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور) ابتداء السورة التى تستعرض إشراك المشركين بالله ، وتكذيبهم لرسوله ، وشكهم فى الآخرة , واستبعادهم للبعث والنشور . ابتداء بالحمد لله . والله محمود لذاته – ولو لم يقم بحمده أحد من هؤلاء البشر – وهو محمود فى هذا الوجود الذى يسبح بحمده ومحمود من شتى الخلائق ولو شذ البشر عن سائر خلائق الله . ومع الحمد صفة الملك لما فى السماوات وما فى الأرض ؛ فليس لأحد معه شىء ، وما لأحد فى السماوات والأرض من شرك ، فله – سبحانه – كل شىء فيهما . . وهذه هى القضية الأولى فى العقيدة . قضية التوحيد . والمالك لكل شىء هو الله الذى لا مالك لشىء سواه فى هذا الكون العريض (وله الحمد فى الآخرة) الحمد الذاتى . والحمد المرتفع من عباده . حتى ممن كانوا يجحدونه فى الدنيا ، أو يشركون معه غيره عن ضلالة ، تتكشف فى الآخرة ، فيتمحض له الحمد والثناء (وهو الحكيم الخبير) الحكيم الذى يفعل كل ما يفعل بحكمة ؛ ويصرف الدنيا والآخرة بحكمة ؛ ويدبر أمر الوجود كله بحكمة . . الخبير الذى يعلم بكل شىء ، وبكل أمر , وبكل تدبير علماً كاملاً شاملاً عميقاً يحيط بالأمور . ثم يكشف صفحة من صحائف علم الله ، مجالها الأرض والسماء (يعلم ما يلج فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها) ويقف الإنسان أمام هذه الصفحة المعروضة فى كلمات قليلة ، فإذا هو أمام حشد هائل عجيب من الأشياء ، والحركات ، والأحجام ، والأشكال ، والصور ، والمعانى ، والهيئات , لا يصمد لها الخيال ! ولو أن أهل الأرض جميعا وقفوا حياتهم كلها يتتبعون ويحصون ما يقع فى لحظة واحدة , مما تشير إليه الآية لأعجزهم تتبعه وإحصاؤه عن يقين ! فكم من شىء فى هذه اللحظة الواحدة يلج فى الأرض ؟ وكم من شىء فى هذا اللحظة يخرج منها ؟ وكم من شىء فى هذه اللحظة ينزل من السماء ؟ وكم من شىء فى هذه اللحظة يعرج فيها ؟ كم من شىء يلج فى الأرض ؟ كم من حبة تختبىء أو تخبأ فى جنبات هذه الأرض ؟ كم من دودة ومن حشرة ومن هامة ومن زاحفة تلج فى الأرض فى أقطارها المترامية ؟ كم من قطرة ماء ومن ذرة غاز ، ومن إشعاع كهرباء تندس فى الأرض فى أرجائها الفسيحة ؟ وكم وكم مما يلج فى الأرض وعين الله

عليه ساهرة لا تنام ؟ وكم يخرج منها ؟ كم من نبتة تنبثق ؟ وكم من نبع يفور ؟ وكم من بركان يتفجر ؟ وكم من غاز يتصاعد ؟ وكم من مستور ينكشف ؟ وكم من حشرة تخرج من بيتها المستور ؟ وكم وكم مما يرى ومما لا يرى ، ومما يعلمه البشر ومما يجهلونه وهو كثير ؟ وكم مما ينزل من السماء ؟ كم من نقطة مطر ؟ وكم من شهاب ثاقب ؟ وكم من شعاع محرق ، وكم من شعاع منير ؟ وكم من قضاء نافذ ومن قدر مقدور ؟ وكم من رحمة تشمل الوجود وتخص بعض العبيد . وكم من رزق يبسطه الله لمن يشاء من عباده ويقدر . وكم وكم مما لا يحصيه إلا الله . وكم مما يعرج فيها ؟ كم من نفس صاعد من نبات أو حيوان أو إنسان أو خلق آخر مما لا يعرفه الإنسان ؟ وكم من دعوة إلى الله معلنة أو مستسرة لم يسمعها إلا الله فى علاه . وكم من روح من أرواح الخلائق التى نعلمها أو نجهلها متوفاة . وكم من ملك يعرج بأمر من روح الله . وكم من روح يرف فى هذا الملكوت لا يعلمه إلا الله . ثم كم من قطرة بخار صاعدة من بحر ، ومن ذرة غاز صاعدة من جسم ؟ وكم وكم مما لا يعلمه سواه ؟! كم فى لحظة واحدة ؟ وأين يذهب علم البشر وإحصاؤهم لما فى اللحظة الواحدة ولو قضوا الأعمار الطوال فى العد والإحصاء ؟ وعلم الله الشامل الهائل اللطيف العميق يحيط بهذا كله فى كل مكان وفى كل زمان . . وكل قلب وما فيه من نوايا وخواطر وما له من حركات وسكنات تحت عين الله ، وهو مع هذا يستر ويغفر . . (وهو الرحيم الغفور). . وإن آية واحدة من القرآن كهذه الآية لمما يوحى بأن هذا القرآن ليس من قول البشر . فمثل هذا الخاطر الكونى لا يخطر بطبيعته على قلب بشر ؛ ومثل هذا التصور الكونى لا دافع إليه من طبيعة تصور البشر ، ومثل هذه الإحاطة باللمسة الواحدة تتجلى فيها صنعة الله بارىء هذا الوجود ! التى لا تشبهها صنعة العبيد ! وبعد تقرير تلك الحقيقة فى تلك الصورة الرائعة الواسعة المدى الفسيحة المجال يحكى إنكار الذين كفروا بمجىء الساعة ؛ وهم القاصرون الذين لا يعلمون ماذا يأتيهم به الغد والله هو العليم بالغيب الذى لا يند عن علمه شىء فى السماء ولا فى الأرض ؛ والساعة لا بد منها ليلاقى المحسن والمسىء جزاء ما قدما فى هذه الأرض (وقال الذين كفروا:لا تأتينا الساعة:قل:بلى وربى لتأتينكم ، عالم الغيب ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين . ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم) وإنكار الذين كفروا للآخرة ناشىء من عدم إدراكهم لحكمة الله وتقديره . فحكمة الله لا تترك الناس سدى ، يحسن منهم من يحسن ويسىء منهم من يسىء ؛ ثم لا يلقى المحسن جزاء إحسانه ، ولا يلقى المسىء جزاء إساءته . وقد أخبر الله على لسان رسله:أنه يستبقى الجزاء كله أو بعضه للآخرة . فكل من يدرك حكمة الله فى خلقه يدرك أن الآخرة ضرورية لتحقيق وعد الله وخبره . . ولكن الذين كفروا محجوبون عن تلك الحكمة . ومن ثم يقولون قولتهم هذه (لا تأتينا الساعة) فيرد عليهم مؤكداً جازماً (قل:بلى وربى لتأتينكم) وصدق الله تعالى وصدق رسول الله – عليه صلوات الله – وهم لا يعلمون الغيب ومع ذلك يتألون على الله ، ويجزمون بما لا علم لهم به . والله الذى يؤكد مجىء الساعة هو: عالم الغيب . . فقوله الحق عن علم بما هنالك وعن يقين . ثم يعرض هذا العلم فى صورة كونية كالتى سبقت فى مطلع السورة ، تشهد هى الأخرى بأن هذا القرآن لا يكون من صنع بشر ، لأن خيال البشر لا تخطر له عادة مثل هذه الصور (لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ؛ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) ومرة أخرى نقول:إن طبيعة هذا التصور ليست بشرية . وإنه ليست لها سابقة فى كلام البشر شعره ونثره على السواء . فعندما يتحدث البشر عن شمول العلم ودقته وإحاطته لا يخطر على بالهم أن يصوروه فى هذه الصورة الكونية العجيبة (لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . . .). . ولست أعرف فى كلام البشر إتجاهاً إلى مثل هذا التصور للعلم الدقيق الشامل . فهو الله ، سبحانه ، الذى يصف نفسه ، ويصف علمه ، بما يعلم من الأوصاف التى لا تخطر للبشر ! وبذلك يرفع تصور المسلمين لإلههم الذى يعبدونه فيعرفونه بصفته فى حدود طاقتهم البشرية المحدودة على كل حال . وأقرب تفسير لقوله تعالى (إلا فى كتاب مبين) أنه علم الله الذى يقيد كل شىء ، ولا يند عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . ونقف أمام لفتة فى قوله تعالى: مثقال ذرة . . . ولا أصغر من ذلك . والذرة كان معروفاً – إلى عهد قريب – أنها أصغر الأجسام . فالآن يعرف البشر – بعد تحطيم الذرة – أن هناك ما هو أصغر من الذرة ، وهو جزيئاتها التى لم تكن فى حسبان أحد يومذاك ! وتبارك الله الذى يعلم عباده ما يشاء من أسرار صفته ومن أسرار خلقه عندما يشاء . مجىء الساعة حتماً وجزماً ، وعلمه الذى لا تند عنه صغيرة ولا كبيرة (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات . أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين ، أولئك لهم عذاب من رجز أليم) فهناك حكمة وقصد وتدبير . وهناك تقدير فى الخلق لتحقيق الجزاء الحق للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وللذين سعوا فى آيات الله معاجزين . فأما الذين آمنوا وحققوا إيمانهم بالعمل الصالح فلهم (مغفرة) لما يقع منهم من خطايا ولهم (رزق كريم) والرزق يجىء ذكره كثيراً فى هذه السورة ، فناسب أن يعبر عن نعيم الآخرة بهذا

الوصف ، وهو رزق من رزق الله على كل حال . وأما الذين سعوا باذلين جهدهم للصد عن آيات الله ، فلهم عذاب من أليم العذاب وسيئه . والرجز هو العذاب السيّىء . جزاء اجتهادهم ومعاجزتهم وكدهم فى سبيل السوء ! وبهذا وذلك تتحقق حكمة الله وتدبيره ، وحكمة الساعة التى يجزمون بأنها لا تأتيهم ; وهى لا بد أن تجيء . وبمناسبة جزمهم بأن الساعة لا تأتيهم – وهى غيب من غيب الله – وتأكيد الله لمجيئها – وهو عالم الغيب – وتبليغ رسول الله ﷺ ما أمره ربه بتبليغه من أمرها يقرر أن (الذين أوتوا العلم) يدركون ويشهدون بأن ما جاءه من ربه هو الحق وأنه يهدى إلى طريق العزيز الحميد (ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ، ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) وقد ورد أن المقصود بالذين أوتوا العلم هم أهل الكتاب ، الذين يعلمون من كتابهم أن هذا القرآن هو الحق ، وأنه يقود إلى صراط العزيز الحميد . ومجال الآية أكبر وأشمل . فالذين أوتوا العلم فى أى زمان وفى أى مكان ، من أى جيل ومن أى قبيل ، يرون هذا متى صح علمهم واستقام ؛ واستحق أن يوصف بأنه (العلم)! والقرآن كتاب مفتوح للأجيال . وفيه من الحق ما يكشف عن نفسه لكل ذى علم صحيح . وهو يكشف عن الحق المستكن فى كيان هذا الوجود كله . وهو أصدق ترجمة وصفية لهذا الوجود وما فيه من حق أصيل (ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) وصراط العزيز الحميد هو المنهج الذى أراده للوجود ؛ واختاره للبشر لينسق خطاهم مع خطى هذا الكون الذى يعيشون فيه . وهو الناموس الذى يهيمن على أقدار هذا الكون كله , بما فيه من الحياة البشرية التى لا تنفصل فى أصلها ونشأتها ، ولا فى نظامها وحركتها عن هذا الكون وما فيه ومن فيه . يهدى إلى صراط العزيز الحميد بما ينشئه فى إدراك المؤمن من تصور للوجود وروابطه وعلاقاته وقيمه ؛ ومكان هذا الإنسان منه ، ودوره فيه ؛ وتعاون أجزاء هذا الكون من حوله – وهو معها – فى تحقيق مشيئة الله وحكمته فى خلقه ؛ وتناسق حركات الجميع وتوافقها فى الاتجاه إلى بارىء الوجود . وبعد هذه اللمسة الموقظة الموجهة يستأنف حكاية حديثهم عن البعث ، ودهشتهم البالغة لهذا الأمر ، الذى يرونه عجيباً غريباً ، لا يتحدث به إلا من أصابه طائف من الجن , فهو يتفوه بكل غريب عجيب ، أو يفترى الكذب ويقول بما لا يمكن أن يكون (وقال الذين كفروا:هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد !أفترى على الله كذباً أم به جنة ؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) إلى هذا الحد من الاستغراب والدهش كانوا يقابلون قضية البعث . فيعجبون الناس من أمر القائل بها فى أسلوب حاد من التهكم والتشهير (هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ؟) هل ندلكم على رجل عجيب غريب ، ينطق بقول مستنكر بعيد , حتى ليقول:إنكم بعد الموت والبلى والتمزق الشديد تخلقون من جديد ، وتعودون للوجود ؟ !

ويمضون فى العجب والتعجيب ، والاستنكار والتشهير (أفترى على الله كذباً أم به جنة) فما يقول مثل هذا الكلام – بزعمهم – إلا كاذب يفترى على الله ما لم يقله , أو مسته الجن فهو يهذى أو ينطق بالعجيب الغريب ! ولم هذا كله ؟ لأنه يقول لهم:إنكم ستخلقون خلقاً جديداً ! وفيم العجب وهم قد خلقوا ابتداء ؟ إنهم لا ينظرون هذه العجيبة الواقعة . عجيبة خلقهم الأول . ولو قد نظروها وتدبروها ما عجبوا أدنى عجب للخلق الجديد . ولكنهم ضالون لا يهتدون . ومن ثم يعقب على تشهيرهم وتعجيبهم تعقيباً شديداً مرهوباً (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) وقد يكون المقصود بالعذاب الذى هم فيه عذاب الآخرة ، فهو لتحققه كأنهم واقعون فيه , وقوعهم فى الضلال البعيد الذى لا يرجى معه اهتداء . . وقد يكون هذا تعبيراً عن معنى آخر . معنى أن الذين لا يؤمنون بالآخرة يعيشون فى عذاب كما يعيشون فى ضلال . وهى حقيقة عميقة . فالذى يعيش بلا عقيدة فى الآخرة يعيش فى عذاب نفسى . لا أمل له ولا رجاء فى نصفة ولا عدل ولا جزاء ولا عوض عما يلقاه فى الحياة (وإن تكن مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بها الله) والذى يحرم هذه النافذة المضيئة الندية المريحة يعيش ولا ريب فى العذاب كما يعيش فى الضلال . يعيش فيهما وهو حى على هذه الأرض قبل أن يلقى عذاب الآخرة جزاء على هذا العذاب الذى لقيه فى دنياه ! إن الإعتقاد بالآخرة رحمة ونعمة يهبهما الله لمن يستحقهما من عباده بإخلاص القلب , وتحرى الحق ، والرغبة فى الهدى . وأرجح أن هذا هو الذى تشير إليه الآية ، وهى تجمع على الذين لا يؤمنون بالآخرة بين العذاب والضلال البعيد ... هؤلاء المكذبون بالآخرة يوقظهم بعنف على مشهد كونى يصور لهم أنه واقع بهم – لو شاء الله – وظلوا هم فى ضلالهم البعيد . مشهد الأرض تخسف بهم والسماء تتساقط قطعاً عليهم (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ؟ إن نشأ نخسف بهم الأرض , أو نسقط عليهم كسفاً من السماء . إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب) وهو مشهد كونى عنيف ، منتزع فى الوقت ذاته من مشاهداتهم أو من مدركاتهم المشهودة على كل حال . فخسف الأرض يقع ويشهده الناس . وترويه القصص والروايات أيضاً . وسقوط قطع من السماء يقع كذلك عند سقوط الشهب وحدوث الصواعق . وهم رأوا شيئاً من هذا أو سمعوا عنه . فهذه اللمسة توقظ الغفاة

الغافلين ، الذين يستبعدون مجيء الساعة . والعذاب أقرب إليهم لو أراد الله أن يأخذهم به فى هذه الأرض قبل قيام الساعة . يمكن أن يقع بهم من هذه الأرض وهذه السماء التى يجدونها من بين أيديهم ومن خلفهم ، محيطة بهم ، وليست بعيدة عنهم بعد الساعة المغيبة فى علم الله . ولا يأمن مكر الله إلا القوم الفاسقون . وفى هذا الذى يشهدونه من السماء والأرض ، والذى يتوقع من خسف الأرض فى أية لحظة أو سقوط قطع من السماء . فى هذا آية للقلب الذى يرجع ويثوب (إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب). . لا يضل ذلك الضلال البعيد . .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ{١٠} أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{١١} وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ{١٢} يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ{١٣} فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَآبَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ{١٤} لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ{١٥} فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ{١٦} ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ{١٧} وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ{١٨} فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ{١٩} وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ{٢٠} وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ){٢١}

يحوى هذا الشوط صوراً من الشكر والبطر ؛ وصوراً من تسخير الله لمن يشاء من عباده قوى وخلقا لا تسخر عادة للبشر . ولكن قدرة الله ومشيئته لا يقيدهما مألوف البشر . وتتكشف من خلال هذه الصور وتلك حقائق عن الشياطين الذين كان يعبدهم بعض المشركين ، أو يطلبون عندهم علم الغيب وهم عن الغيب محجوبون . وعن أسباب الغواية التى يتسلط بها الشيطان على الإنسان ، وما له عليه من سلطان إلا ما يعطيه من نفسه باختياره . وعن تدبير الله فى كشف ما هو مكنون من عمل الناس وبروزه فى صورة واقعة لينالوا عليه الجزاء فى الآخرة . وبذكر الآخرة ينتهى هذا الشوط كما انتهى الشوط الأول فى السورة (ولقد آتينا داود منا فضلا . يا جبال أوبى معه والطير . وألنا له الحديد أن اعمل سابغات ، وقدّر فى السرد ، واعملوا صالحاً . إنى بما تعملون بصير) وداود عبد منيب ، كالذى ختم بذكره الشوط الأول (إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب) والسياق يعقب بقصته بعد تلك الإشارة ؛ ويقدم لها بذكر ما آتاه الله له من الفضل . ثم يبين هذا الفضل (يا جبال أوبى معه والطير) وتذكر الروايات أن داود عليه السلام أوتى صوتاً جميلاً خارقاً فى الجمال ؛ كان يرتل به مزاميره ، وهى تسابيح دينية ، ورد منها فى كتاب "العهد القديم" ما الله أعلم بصحته . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبى موسى الأشعرى – رضى الله عنه – يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقراءته . ثم قال ﷺ :" لقد أوتى هذا مزماراً من زمامير آل داود " والآية تصور من فضل الله على داود – عليه السلام – أنه قد بلغ من الشفافية والتجرد فى تسابيحه أن انزاحت الحجب بينه وبين الكائنات ؛ فاتصلت حقيقتها بحقيقته ، فى تسبيح بارئها وبارئه ؛ ورجّعت معه الجبال والطير ، إذ لم يعد بين وجوده ووجودها فاصل ولا حاجز ، حين اتصلت كلها بالله صلة واحدة مباشرة ؛ تنزاح معها الفوارق بين نوع من خلق الله ونوع ، وبين كائن من خلق الله وكائن ؛ وترتد كلها إلى حقيقتها اللدنية الواحدة ، التى كانت تغشى عليها الفواصل والفوارق ؛ فإذا هى تتجاوب فى تسبيحها للخالق ، وتتلاقى فى نغمة واحدة ، وهى درجة من الإشراق والصفاء والتجرد لا يبلغها أحد إلا بفضل من الله ، يزيح عنه حجاب كيانه المادى ، ويرده إلى كينونته اللدنية التى يلتقى فيها بهذا الوجود ، وكل ما فيه وكل من فيه بلا حواجز ولا سدود . وحين انطلق صوت داود – عليه السلام – يرتل مزاميره ويمجد خالقه ، رجّعت معه الجبال والطير ، وتجاوب الكون بتلك الترانيم السارية فى كيانه الواحد ، المتجهة إلى بارئه الواحد . . وإنها للحظات عجيبة لا يتذوقها إلا من عنده بها خبر ، ومن جرب نوعها ولو فى لحظة من حياته ! (وألنا له الحديد) وهو طرف آخر من فضل الله عليه . وفى ظل هذا السياق يبدو أن الأمر كان خارقة ليست من مألوف البشر . فلم يكن الأمر أمر تسخين الحديد حتى يلين ويصبح قابلاً للطرق ، إنما كان – والله أعلم – معجزة يلين بها الحديد من غير وسيلة اللين المعهودة . وإن كان مجرد الهداية لإلانة الحديد بالتسخين يعد فضلاً من الله يذكر . ولكننا إنما نتأثر جو السياق وظلاله وهو جو معجزات ، وهى ظلال خوارق خارجة على المألوف (

أن اعمل سابغات وقدّر فى السرد) والسابغات الدروع . روى أنها كانت تعمل قبل داود – عليه السلام – صفائح . الدرع صفيحة واحدة فكانت تصلب الجسم وتثقله . فألهم الله داود أن يصنعها رقائق متداخلة متموجة لينة يسهل تشكيلها وتحريكها بحركة الجسم ؛ وأمر بتضييق تداخل هذه الرقائق لتكون محكمة لا تنفذ منها الرماح . وهو التقدير فى السرد . وكان الأمر كله إلهاماً وتعليماً من الله وخوطب داود وأهله (واعملوا صالحاً إنى بما تعملون بصير) لا فى الدروع وحدها بل فى كل ما تعملون ؛ مراقبين الله الذى يبصر ما تعملون ويجازى عليه ، فلا يفلت منه شىء ، والله به بصير . . ذلك ما آتاه الله داود – عليه السلام – فأما سليمان فقد آتاه الله أفضالاً أخرى (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه . ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب . وقدور راسيات . اعملوا آل داود شكراً . وقليل من عبادى الشكور) وتسخير الريح لسليمان تتكاثر حوله الروايات ، وتبدو ظلال الإسرائيليات واضحة فى تلك الروايات – وإن تكن كتب اليهود الأصلية لم تذكر شيئا عنها – والتحرج من الخوض فى تلك الروايات أولى . والاكتفاء بالنص القرآنى أسلم . مع الوقوف به عند ظاهر اللفظ لا نتعداه . ومنه يستفاد أن الله سخر الريح لسليمان ، وجعل غدوها أى توجهها غادية إلى بقعة معينة [ذكر فى سورة الأنبياء أنها الأرض المقدسة] يستغرق شهراً ، ورواحها أى انعكاس اتجاهها فى الرواح يستغرق شهراً كذلك . وفق مصلحة تحصل من غدوها ورواحها ، يدركها سليمان – عليه السلام – ويحققها بأمر الله . . ولا نملك أن نزيد هذا إيضاحاً حتى لا ندخل فى أساطير لا ضابط لها ولا تحقيق (وأسلنا له عين القطر) والقطر هو النحاس . وسياق الآيات يشير إلى أن هذا كان معجزة خارقة كإلانة الحديد لداود . وقد يكون ذلك بأن فجر الله له عيناً بركانية من النحاس المذاب من الأرض . أو بأن ألهمه الله إذابة النحاس حتى يسيل ويصبح قابلاً للصب والطرق . وهو فضل من الله كبير (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه) وكذلك سخر له طائفة من الجن يعملون بأمره بإذن ربه . والجن كل مستور لا يراه البشر . وهناك خلق سماهم الله الجن ولا نعرف نحن من أمرهم شيئاً إلا ما ذكره الله عنهم . وهو يذكر هنا أن الله سخر طائفة منهم لنبيه سليمان – عليه السلام – فمن عصى منهم ناله عذاب الله (ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير) ولعل هذا التعقيب – قبل الانتهاء من قصة التسخير – يذكر على هذا النحو لبيان خضوع الجن لله . وكان بعض المشركين يعبدهم من دون الله . وهم مثلهم معرضون للعقاب عندما يزيغون عن أمر الله . وهم مسخرون لسليمان – عليه السلام (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) والمحاريب من أماكن العبادة ، والتماثيل هى الصور من نحاس وخشب وغيره . والجوابى جمع جابية وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء . وقد كانت الجن تصنع لسليمان جفاناً كبيرة للطعام تشبه الجوابى ، وتصنع له قدوراً ضخمة للطبخ راسية لضخامتها . . وهذه كلها نماذج مما سخر الله الجن لسليمان لتقوم له به حيث شاء بإذن الله . وكلها أمور خارقة لا سبيل إلى تصورها أو تعليلها إلا بأنها خارقة من صنع الله . وهذا هو تفسيرها الواضح الوحيد . ويختم هذا بتوجيه الخطاب إلى آل داود (اعملوا آل داود شكراً) سخرنا لكم هذا وذلك فى شخص داود وشخص سليمان – عليهما السلام – فاعملوا يا آل داود شكراً لله . لا للتباهى والتعالى بما سخره الله . والعمل الصالح شكر لله كبير (وقليل من عبادى الشكور) تعقيب تقريرى وتوجيهى من تعقيبات القرآن على القصص . يكشف من جانب عن عظمة فضل الله ونعمته حتى ليقل القادرون على شكرها . ويكشف من جانب آخر عن تقصير البشر فى شكر نعمة الله وفضله . وهم مهما بالغوا فى الشكر قاصرون عن الوفاء . فكيف إذا قصروا وغفلوا عن الشكر من الأساس ؟! ثم نمضى مع نصوص القصة القرآنية فى المشهد الأخير منها . مشهد وفاة سليمان والجن ماضية تعمل بأمره فيما كلفها عمله ؛ وهى لا تعلم نبأ موته ، حتى يدلهم على ذلك أكل الأرضة لعصاه ، التى كان مرتكزاً عليها ، وسقوطه (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين) وقد روى أنه كان متكئاً على عصاه حين وافاه أجله ؛ والجن تروح وتجيء مسخرة فيما كلفها إياه من عمل شاق شديد ؛ فلم تدرك أنه مات ، حتى جاءت دابة الأرض . قيل إنها الأرضة ، التى تتغذى بالأخشاب ، وهى تلتهم أسقف المنازل وأبوابها وقوائمها بشراهة فظيعة ، فى الأماكن التى تعيش فيها . فلما نخرت عصا سليمان لم تحمله فخر على الأرض . وحينئذ فقط علمت الجن موته . وعندئذ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين . فهؤلاء هم الجن الذين يعبدهم بعض الناس ، هؤلاء هم سخرة لعبد من عباد الله . وهؤلاء هم محجوبون عن الغيب القريب ؛ وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد ! وفى قصة آل داود تعرض صفحة الإيمان بالله والشكر على أفضاله وحسن التصرف فى نعمائه . والصفحة المقابلة هى صفحة سبأ . وقد مضى فى سورة النمل ما كان بين سليمان وبين ملكتهم من قصص . وهنا يجىء نبؤهم بعد قصة سليمان . مما يوحى بأن الأحداث التى تتضمنها وقعت بعد ما كان بينها وبين سليمان من خبر . وتبدأ القصة بوصف ما كانوا فيه من رزق ورغد

ونعيم ، وما طلب إليهم من شكر المنعم بقدر ما يطيقون (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال . كلوا من رزق ربكم واشكروا له . بلدة طيبة ورب غفور) وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون جنوبى اليمن ؛ وكانوا في أرض مخصبة ما تزال منها بقية إلى اليوم . وقد ارتقوا في سلم الحضارة حتى تحكموا فى مياه الأمطار الغزيرة التى تأتيهم من البحر فى الجنوب والشرق ، فأقاموا خزاناً طبيعياً يتألف جانباه من جبلين , وجعلوا على فم الوادى بينهما سداً به عيون تفتح وتغلق ، وخزنوا الماء بكميات عظيمة وراء السد ، وتحكموا فيها وفق حاجتهم . فكان لهم من هذا مورد مائى عظيم . وقد عرف باسم:"سد مأرب" وهذه الجنان عن اليمين والشمال رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل ، ومن ثم كانت آية تذكر بالمنعم الوهاب . وقد أمروا أن يستمتعوا برزق الله شاكرين (كلوا من رزق ربكم واشكروا له) وذكروا بالنعمة . نعمة البلد الطيب وفوقها نعمة الغفران على القصور من الشكر والتجاوز عن السيئات (بلدة طيبة ورب غفور) سماحة في الأرض بالنعمة والرخاء . وسماحة في السماء بالعفو والغفران . فماذا يقعدهم عن الحمد والشكران ؟ ولكنهم لم يشكروا ولم يذكروا (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم) أعرضوا عن شكر الله ، وعن العمل الصالح ، والتصرف الحميد فيما أنعم الله عليهم ، فسلبهم سبب هذا الرخاء الجميل الذى يعيشون فيه ، وأرسل السيل الجارف الذى يحمل العرم فى طريقه وهى الحجارة لشدة تدفقه ، فحطم السد وانساحت المياه فطغت وأغرقت ؛ ثم لم يعد الماء يخزن بعد ذلك فجفت واحترقت . وتبدلت تلك الجنان الفيح صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشنة (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل:خمط وأثل وشىء من سدر قليل) والخمط هو شجر الأراك أو كل شجر ذى شوك . والأثل شجر يشبه الطرفاء . والسدر النبق . وهو أجود ما صار لهم ولم يعد لهم منه إلا قليل ! (ذلك جزيناهم بما كفروا) والأرجح أنه كفران النعمة (وهل نجازى إلا الكفور) وكانوا إلى هذا الوقت ما يزالون فى قراهم وبيوتهم . ضيق الله عليهم فى الرزق ، وبدلهم من الرفاهية والنعماء خشونة وشدة ؛ ولكنه لم يمزقهم ولم يفرقهم . وكان العمران ما يزال متصلاً بينهم وبين القرى المباركة:مكة فى الجزيرة ، وبيت المقدس فى الشام . فقد كانت اليمن ما تزال عامرة فى شمال بلاد سبأ ومتصلة بالقرى المباركة . والطريق بينهما عامر مطروق مسلوك مأمون (وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدّرنا فيها السير . سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين) وقيل كان المسافر يخرج من قرية فيدخل الأخرى قبل دخول الظلام . فكان السفر فيها محدود المسافات ، مأموناً على المسافرين . كما كانت الراحة موفورة لتقارب المنازل وتقارب المحطات فى الطريق . وغلبت الشقوة على سبأ ، فلم ينفعهم النذير الأول ؛ ولم يوجههم إلى التضرع إلى الله , لعله يرد عليهم ما ذهب من الرخاء . بل دعوا دعوة الحمق والجهل (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) تطلبوا الأسفار البعيدة المدى ؛ التى لا تقع إلا مرات متباعدة على مدار العام . لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل ، التى لا تشبع لذة الرحلات ! وكان هذا من بطر القلب وظلم النفس (وظلموا أنفسهم) واستجيبت دعوتهم ، ولكن كما ينبغى أن تستجاب دعوة البطر (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) شردوا ومزقوا ؛ وتفرقوا فى أنحاء الجزيرة مبددى الشمل ؛ وعادوا أحاديث يرويها الرواة , وقصة على الألسنة والأفواه . بعد أن كانوا أمة ذات وجود فى الحياة (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) يذكر الصبر إلى جوار الشكر . . الصبر فى البأساء . والشكر فى النعماء . وفى قصة سبأ آيات لهؤلاء وهؤلاء . وفى ختام القصة يخرج النص من إطار القصة المحدود ، إلى إطار التدبير الإلهى العام , والتقدير المحكم الشامل ، والسنة الإلهية العامة ؛ ويكشف عن الحكمة المستخلصة من القصة كلها ، وما يكمن فيها وخلفها من تقدير وتدبير (ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه . إلا فريقاً من المؤمنين . وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك . وربك على كل شىء حفيظ) لقد سلك القوم هذا المسلك ، الذى انتهى إلى تلك النهاية ، لأن إبليس صدق عليهم ظنه فى قدرته على غوايتهم ، فأغواهم (فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين) كما يقع عادة فى الجماعات فلا تخلو من قلة مؤمنة تستعصى على الغواية ؛ وتثبت أن هنالك حقاً ثابتاً يعرفه من يطلبه ؛ ويمكن لكل من أراد أن يجده وأن يستمسك به ، حتى فى أحلك الظروف . وما كان لإبليس من سلطان قاهر عليهم لا يملكون رفعه . فليس هنالك قهر لهم منه ولا سيطرة عليهم له . إنما هو تسليطه عليهم ليثبت على الحق من يثبت ، وليزيغ منهم من لا يبتغى الحق ويتحراه . وليظهر فى عالم الواقع (من يؤمن بالآخرة) فيعصمه إيمانه من الانحراف (ممن هو منها فى شك) فهو يتأرجح أو يستجيب للغواية . بلا عاصم من رقابة لله ولا تطلع لليوم الآخر . والله يعلم ما يقع قبل ظهوره للناس . ولكنه سبحانه يرتب الجزاء على ظهوره ووقوعه فعلاً فى دنيا الناس (وربك على كل شىء حفيظ) فلا يند شىء ولا يغيب ، ولا يهمل شىء ولا يضيع . .

وهكذا تنتهى الجولة الثانية فى السورة بالحديث عن الآخرة كما انتهت الجولة الأولى . وبالتركيز على علم الله وحفظه . وهما الموضوعان اللذان يشتد عليهما التركيز فى السورة والتوكيد .

(قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ {٢٢} وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ {٢٣} قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {٢٤} قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ {٢٥} قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ {٢٦} قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) {٢٧}

إنها جولة قصيرة حول قضية الشرك والتوحيد . ولكنها جولة تطوّف بالقلب البشرى فى مجال الوجود كله . ظاهره وخافيه . حاضره وغيبه . سمائه وأرضه . دنياه وآخرته . وتقف به مواقف مرهوبة ترجف فيها الأوصال ؛ ويغشاها الذهول من الجلال . كما تقف به أمام رزقه وكسبه ، وحسابه وجزائه . وفى زحمة التجمع والاختلاط ، وفى موقف الفصل والعزل والتميز والانفراد . . كل أولئك فى إيقاعات قوية ، وفواصل متلاحقة ، وضربات كأنها المطارق):قل . . قل . . قل . .)كل قولة منها تدمغ بالحجة ، وتصدع بالبرهان فى قوة وسلطان (قل:ادعوا الذين زعمتم من دون الله) إنه التحدى فى مجال السماوات والأرض على الإطلاق ادعوهم . فليأتوا . وليظهروا . وليقولوا أو لتقولوا أنتم ماذا يملكون من شىء فى السماوات أو فى الأرض جل أو هان ؟ (لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض) ولا سبيل لأن يدعوا ملكية شىء فى السماوات أو فى الأرض . فالمالك لشىء يتصرف فيه وفق مشيئته . فماذا يملك أولئك المزعومون من دون الله ؟ وفى أى شىء يتصرفون تصرف المالك فى هذا الكون العريض ؟ لا يملكون فى السماوات والأرض مثقال ذرة ملكية خالصة ، ولا على سبيل المشاركة (وما لهم فيهما من شرك) والله - سبحانه - لا يستعين بهم فى شىء . فما هو فى حاجة إلى معين (وما له منهم من ظهير) ويظهر أن الآية هنا تشير إلى نوع خاص من الشركاء المزعومين . وهم الملائكة الذين كانت العرب تدعوهم بنات الله ؛ وتزعم لهم شفاعة عند الله . ولعلهم ممن قالوا عنهم (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ومن ثم نفى شفاعتهم لهم فى الآية التالية . وذلك فى مشهد تتفزع له الأوصال فى حضرة ذى الجلال (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فالشفاعة مرهونة بإذن الله . والله لا يأذن فى الشفاعة فى غير المؤمنين به المستحقين لرحمته . فأما الذين يشركون به فليسوا أهلا لأن يأذن بالشفاعة فيهم ، لا للملائكة ولا لغيرهم من المأذونين بالشفاعة منذ الابتداء ! ثم صور المشهد الذى تقع فيه الشفاعة ؛ وهو مشهد مذهل مرهوب (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا:ماذا قال ربكم ؟ قالوا:الحق وهو العلى الكبير) إنه مشهد فى اليوم العصيب . يوم يقف الناس ، وينتظر الشفعاء والمشفوع فيهم أن يتأذن ذو الجلال فى عليائه بالشفاعة لمن ينالون هذا المقام . ويطول الانتظار . ويطول التوقع . وتعنو الوجوه . وتسكن الأصوات . وتخشع القلوب فى انتظار الإذن من ذى الجلال والإكرام . ثم تصدر الكلمة الجليلة الرهيبة ، فتنتاب الرهبة الشافعين والمشفوعين لهم . ويتوقف إدراكهم عن الإدراك (حتى إذا فزع عن قلوبهم) وكشف الفزع الذى أصابهم ، وأفاقوا من الروعة التى غمرتهم فأذهلتهم (قالوا:ما ذا قال ربكم ؟) يقولها بعضهم لبعض . لعل منهم من يكون قد تماسك حتى وعى (قالوا:الحق) ولعلهم الملائكة المقربون هم الذين يجيبون بهذه الكلمة المجملة الجامعة (قالوا الحق) قال ربكم:الحق . الحق الكلى . الحق الأزلى . الحق اللدنى . فكل قوله الحق (وهو العلى الكبير) وصف فى المقام الذى يتمثل فيه العلو والكبر للإدراك من قريب . . وهذه الإجابة المجملة تشى بالروعة الغامرة ، التى لا ينطق فيها إلا بالكلمة الواحدة ! فهذا هو موقف الشفاعة المرهوب . وهذه صورة الملائكة فيه بين يدى ربهم . فهل بعد هذا المشهد يملك أحد أن يزعم أنهم شركاء لله ، شفعاء فى من يشرك بالله ؟! ... ذلك هو الإيقاع الأول ، فى ذلك المشهد الخاشع الواجف المرهوب العسير . . ويليه الإيقاع الثانى عن الرزق الذى يستمتعون به ، ويغفلون عن مصدره ، الدال على وحدة الخالق الرازق . الباسط القابض ، الذى ليس له شريك (قل من يرزقكم من السماوات والأرض . . قل الله . وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) والرزق مسألة واقعة فى حياتهم . رزق السماء من مطر وحرارة وضوء ونور . . ذلك فيما كان يعرفه المخاطبون ووراءه كثير من الأصناف والألوان تتكشف آنا بعد آن . . ورزق الأرض من نبات وحيوان وعيون ماء وزيوت ومعادن وكنوز . وغيرها مما يعرفه القدامى ويتكشف غيره على مدار الزمان (قل:من يرزقكم من السماوات والأرض ؟) قل:الله . فما يملكون أن يماروا فى هذا ولا أن يدعوا سواه . قل:الله . ثم كل أمرهم وأمرك إلى الله . فأحدكما لا بد مهتد وأحدكما لا بد ضال . ولا يمكن أن تكون أنت وهم على طريق واحد من هدى أو من ضلال (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) وهذه غاية النصفة والاعتدال والأدب فى الجدال . أن يقول رسول الله ﷺ للمشركين:إن أحدنا لا بد أن يكون على هدى ، والآخر لا بد أن يكون على ضلال . ثم يدع تحديد المهتدى منهما والضال . ليثير التدبر والتفكر فى هدوء لا تغشى عليه العزة بالإثم , والرغبة فى الجدال والمحال ! فإنما هو هاد ومعلم ، يبتغى هداهم وإرشادهم لا

إذلالهم وإفحامهم ، لمجرد الإذلال والإفحام ! الجدل على هذا النحو المهذب الموحى أقرب إلى لمس قلوب المستكبرين المعاندين المتطاولين بالجاه والمقام ، المستكبرين على الإذعان والاستسلام ، وأجدر بأن يثير التدبر الهادىء والاقتناع العميق . وهو نموذج من أدب الجدل ينبغي تدبره من الدعاة . . ومنه كذلك الإيقاع الثالث ، الذى يقف كل قلب أمام عمله وتبعته ، فى أدب كذلك وقصد وإنصاف (قل:لا تسألون عما أجرمنا ، ولا نسأل عما تعملون) ولعل هذا كان رداً على اتهام المشركين بأن الرسول ﷺ ومن معه هم المخطئون الجارمون ! وقد كانوا يسمونهم (الصابئين) أى المرتدين عن دين الآباء والأجداد . وذلك كما يقع من أهل الباطل أن يتهموا أهل الحق بالضلال ! فى تبجح وفى غير ما استحياء ! (قل:لا تسألون عما أجرمنا ، ولا نسأل عما تعملون) فلكل عمله . ولكل تبعته ولكل جزاؤه . وعلى كل أن يتدبر موقفه ، ويرى إن كان يقوده إلى فلاح أو إلى بوار . وبهذه اللمسة يوقظهم إلى التأمل والتدبر والتفكر . وهذه هى الخطوة الأولى فى رؤية وجه الحق . ثم فى الاقتناع . ثم الإيقاع الرابع (قل يجمع بيننا ربنا ، ثم يفتح بيننا بالحق ، وهو الفتاح العليم) ففى أول الأمر يجمع الله بين أهل الحق وأهل الباطل ، ليلتقى الحق بالباطل وجهاً لوجه ، وليدعو أهل الحق إلى حقهم ، ويعالج الدعاة دعوتهم . وفى أول الأمر تختلط الأمور وتتشابك ، ويصطرع الحق والباطل ؛ وقد تقوم الشبهات أمام البراهين ؛ وقد يغشى الباطل على الحق . . ولكن ذلك كله إلى حين . . ثم يفصل الله بين الفريقين بالحق ، ويحكم بينهم حكمه الفاصل المميز الحاسم الأخير (وهو الفتاح العليم) الذى يفصل ويحكم عن علم وعن معرفة بين المحقين والمبطلين . . ثم يأتى الإيقاع الأخير ، شبيهاً بالإيقاع الأول فى التحدى عن الشركاء المزعومين(قل:أرونى الذين ألحقتم به شركاء . كلا . بل هو الله العزيز الحكيم) وفى السؤال استنكار واستخفاف (أرونى الذين ألحقتم به شركاء) أرونى إياهم من هم ؟ وما هم ؟ وما قيمتهم ؟ وما صفتهم ؟ وما مكانهم ؟ وبأى شىء استحقوا منكم هذه الدعوى ؟ . . وكلها تشى بالاستنكار والاستخفاف .ثم الإنكار فى ردع وتأنيب (كلا). . فما هم بشركاء . وما له سبحانه من شركاء (بل هو الله العزيز الحكيم) ومن هذه صفاته لا يكون هؤلاء شركاء له . ولا يكون له على الإطلاق شريك . . بهذا ينتهى ذلك الشوط القصير ، وتلك الإيقاعات العنيفة العميقة . فى هيكل الكون الهائل . وفى موقف الشفاعة المرهوب . وفى مصطرع الحق والباطل . وفى أعماق النفوس وأغوار القلوب .

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{٢٨} وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٢٩} قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ{٣٠} وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ{٣١} قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ{٣٢} وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٣٣} وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ{٣٤} وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ{٣٥} قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{٣٦} وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ{٣٧} وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ{٣٨} قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ{٣٩} وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ{٤٠} قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ{٤١} فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) {٤٢}

هذه الجولة تتناول موقف الذين كفروا مما جاءهم به الرسول ﷺ وموقف المترفين من كل رسالة ، وهم الذين تغرهم أموالهم وأولادهم ، وما يجدون من أعراض هذه الدنيا فى أيديهم ، فيحسبونها دليلاً على اختيارهم وتفضيلهم ؛ ويحسبون أنها مانعتهم من العذاب فى الدنيا والآخرة . ومن ثم يعرض عليهم مشاهدهم فى الآخرة ، كأنها واقعة ، ليروا إن كان شىء من ذلك نافعا لهم أو واقياً . وفى هذه المشاهد يتضح كذلك أنه لا الملائكة ولا الجن الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ، ويستعينونهم يملكون لهم فى الآخرة شيئاً . . وفى خلال الجدل يوضح القرآن حقيقة القيم التى لها ثقل فى ميزان الله ; فتنكشف القيم الزائفة التى يعتزون بها فى الحياة ؛ ويتقرر أن بسط الرزق وقبضه أمران يجريان وفق إرادة الله ، وليسا دليلاً على رضى أو غضب ولا على قربى أو بعد . إنما ذلك ابتلاء (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ويقولون:متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل:لكم ميعاد يوم لا تستأخرون

عنه ساعة ولا تستقدمون) يجيء هذا البيان بعد الجولة الماضية ، وما فيها من تقرير فردية التبعة ؛ وأنه ليس بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل إلا الدعوة والبيان ، وأمرهم بعد ذلك إلى الله . ويتبعه هنا بيان وظيفة النبى ﷺ وجهلهم بحقيقتها ؛ واستعجالهم له بما يعدهم ويوعدهم من الجزاء ؛ وتقرير أن ذلك موكول إلى موعده المقدور له فى غيب الله (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) هذه هى حدود الرسالة العامة للناس جميعاً . . التبشير والإنذار . وعند هذا الحد تنتهى ; أما تحقيق هذا التبشير وهذا الإنذار فهو من أمر الله (ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ويقولون:متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟) وهذا السؤال يوحى بجهلهم لوظيفة الرسول ﷺ ؛ وعدم إدراكهم لحدود الرسالة . والقرآن حريص على تجريد عقيدة التوحيد . فما محمد ﷺ إلا رسول محدد الوظيفة . وهو قائم فى حدود وظيفته لا يتخطاها . والله هو صاحب الأمر . هو الذى أرسله ، وهو الذى حدد له عمله ؛ وليس من عمله أن يتولى - ولا حتى أن يعلم - تحقيق الوعد والوعيد . . ذلك موكول إلى ربه ، وهو يعرف حدوده . فلا يسأل مجرد سؤال عن شىء لم يطلعه عليه ربه ، ولم يكل إليه أمره . وربه يكلفه أن يرد عليهم رداً معيناً فيقوم به (قل:لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) وكل ميعاد يجيء فى أجله الذى قدره الله له . لا يستأخر لرغبة أحد ، ولا يستقدم لرجاء أحد . وليس شىء من هذا عبثاً ولا مصادفة . فكل شىء مخلوق بقدر . وكل أمر متصل بالآخر . وقدر الله يرتب الأحداث والمواعيد والآجال وفق حكمته المستورة التى لا يدركها أحد من عباده إلا بقدر ما يكشف الله له . والاستعجال بالوعد والوعيد دليل على عدم إدراك هذه الحقيقة الكلية . ومن ثم فإن أكثر الناس لا يعلمون . وعدم العلم يقودهم إلى السؤال والاستعجال (وقال الذين كفروا:لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) فهو العناد والإصرار ابتداء على رفض الهدى فى كل مصادره . لا القرآن ، ولا الكتب التى سبقته ، والتى تدل على صدقه . فلا هذا ولا ذاك هم مستعدون للإيمان به لا اليوم ولا الغد . ومعنى هذا أنهم يصرون على الكفر ، ويجزمون عن قصد بأنهم لن ينظروا فى دلائل الهدى كائنة ما كانت . فهو العمد إذن وسبق الإصرار ! عندئذ يجبههم بمشهدهم يوم القيامة ، وفيه جزاء هذا الإصرار (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا:لولا أنتم لكنا مؤمنين ! قال الذين استكبروا للذين استضعفوا:أنحن صددناكم عن الهدى ، بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين ! وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا:بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً . . وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ؛ وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟) ذلك كان قولهم فى الدنيا (لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) فلو ترى قولهم فى موقف آخر . لو ترى هؤلاء الظالمين وهم (موقوفون) على غير إرادة منهم ولا اختيار ; إنما هم مذنبون بالوقوف فى انتظار الجزاء (عند ربهم) ربهم الذى يجزمون بأنهم لن يؤمنوا بقوله وكتبه . ثم ها هم أولاء موقوفون عنده ! لو ترى يومئذ لرأيت هؤلاء الظالمين يلوم بعضهم بعضاً ، ويؤنب بعضهم بعضاً ، ويلقى بعضهم تبعة ما هم فيه على بعض (يرجع بعضهم إلى بعض القول) فماذا يرجعون من القول ؟ (يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا:لولا أنتم لكنا مؤمنين) فيلقون على الذين استكبروا تبعة الوقفة المرهوبة المهينة ، وما يتوقعون بعدها من البلاء ! يقولون لهم هذه القولة الجاهرة اليوم ؛ ولم يكونوا فى الدنيا بقادرين على مواجهتهم هذه المواجهة . كان يمنعهم الذل والضعف والاستسلام ، وبيع الحرية التى وهبها الله لهم ، والكرامة التى منحها إياهم ، والإدراك الذى أنعم به عليهم . أما اليوم وقد سقطت القيم الزائفة ، وواجهوا العذاب الأليم ، فهم يقولونها غير خائفين ولا مبقين ! (لولا أنتم لكنا مؤمنين)! ويضيق الذين استكبروا بالذين استضعفوا . فهم فى البلاء سواء . وهؤلاء الضعفاء يريدون أن يحملوهم تبعة الإغواء الذى صار بهم إلى هذا البلاء ! وعندئذ يردون عليهم باستنكار , ويجبهونهم بالسب الغليظ (قال الذين استكبروا للذين استضعفوا:أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين) ! فهو التخلى عن التبعة ، والإقرار بالهدى ، وقد كانوا فى الدنيا لا يقيمون وزناً للمستضعفين ولا يأخذون منهم رأياً ، ولا يعتبرون لهم وجوداً ، ولا يقبلون منهم مخالفة ولا مناقشة ! أما اليوم - وأمام العذاب - فهم يسألونهم فى إنكار (أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟) (بل كنتم مجرمين) من ذات أنفسكم ، لا تهتدون , لأنكم مجرمون ! ولو كانوا فى الدنيا لقبع المستضعفون لا ينبسون ببنت شفة . ولكنهم فى الآخرة حيث تسقط الهالات الكاذبة والقيم الزائفة ؛ وتتفتح العيون المغلقة وتظهر الحقائق المستورة . ومن ثم لا يسكت المستضعفون ولا يخنعون ، بل يجبهون المستكبرين بمكرهم الذى لم يكن يفتر نهاراً ولا ليلاً للصد عن الهدى ؛ وللتمكين للباطل ، ولتلبيس الحق , وللأمر بالمنكر ، ولاستخدام النفوذ والسلطان فى التضليل والإغواء (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا:بل مكر الليل والنهار ، إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً) ثم يدرك هؤلاء وهؤلاء أن هذا الحوار البائس لا ينفع هؤلاء ولا هؤلاء ، ولا ينجى المستكبرين ولا المستضعفين . فلكل جريمته وإثمه . المستكبرون عليهم وزرهم ، وعليهم تبعة إضلال الآخرين وإغوائهم . والمستضعفون عليهم وزرهم ، فهم مسؤولون عن اتباعهم للطغاة , لا يعفيهم أنهم كانوا مستضعفين . لقد كرمهم الله

بالإدراك والحرية ، فعطلوا الإدراك وباعوا الحرية ورضوا لأنفسهم أن يكونوا ذيولاً وقبلوا لأنفسهم أن يكونوا مستذلين . فاستحقوا العذاب جميعاً ؛ وأصابهم الكمد والحسرة وهم يرون العذاب حاضراً لهم مهيأ (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) وهي حالة الكمد الذي يدفن الكلمات في الصدور ، فلا تفوه بها الألسنة ، ولا تتحرك بها الشفاه . ثم أخذهم العذاب المهين الغليظ الشديد (وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا) ثم يلتفت السياق يحدث عنهم وهم مسحوبون في الأغلال ، مهملاً خطابهم إلى خطاب المتفرجين ! (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟) ويسدل الستار على المستكبرين والمستضعفين من الظالمين . وكلاهما ظالم . هذا ظالم بتجبره وطغيانه وبغيه وتضليله . وهذا ظالم بتنازله عن كرامة الإنسان ، وإدراك الإنسان ، وحرية الإنسان ، وخنوعه وخضوعه للبغي والطغيان . . وكلهم في العذاب سواء . لا يجزون إلا ما كانوا يعملون . . يسدل الستار وقد شهد الظالمون أنفسهم في ذلك المشهد الحي الشاخص . شهدوا أنفسهم هناك وهم بعد أحياء في الأرض . وشهدهم غيرهم كأنما يرونهم . وفي الوقت متسع لتلافي ذلك الموقف لمن يشاء ! ذلك الذي قاله المترفون من كبراء قريش قاله قبلهم كل مترف أمام كل رسالة (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها:إنا بما أرسلتم به كافرون) فهي قصة معادة ، وموقف مكرور ، على مدار الدهور . وهو الترف يغلظ القلوب ، ويفقدها الحساسية ؛ ويفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية ؛ فتستكبر على الهدى وتصر على الباطل ، ولا تتفتح للنور . والمترفون تخدعهم القيم الزائفة والنعيم الزائل ، ويغرهم ما هم فيه من ثراء وقوة ، فيحسبونه مانعهم من عذاب الله ؛ ويخالون أنه آية الرضى عنهم ، أو أنهم في مكان أعلى من الحساب والجزاء (وقالوا:نحن أكثر أموالاً وأولاداً ، وما نحن بمعذبين) والقرآن يضع لهم ميزان القيم كما هي عند الله ؛ ويبين لهم أن بسط الرزق وقبضه ، ليست له علاقة بالقيم الثابتة الأصيلة ؛ ولا يدل على رضى ولا غضب من الله ؛ ولا يمنع بذاته عذاباً ولا يدفع إلى عذاب . إنما هو أمر منفصل عن الحساب والجزاء ، وعن الرضى والغضب ، يتبع قانوناً آخر من سنن الله (قل:إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وهذه المسألة . مسألة بسط الرزق وقبضه ؛ وتملك وسائل المتاع والزينة أو الحرمان منها ، مسألة يحيك منها شيء في صدور كثيرة . ذلك حين تتفتح الدنيا أحياناً على أهل الشر والباطل والفساد ، ويحرم من أعراضها أحياناً أهل الخير والحق والصلاح ؛ فيحسب بعض الناس أن الله ما كان ليغدق على أحد إلا وهو عنده ذو مقام . أو يشك بعض الناس في قيمة الخير والحق والصلاح ، وهم يرونها محوطة بالحرمان !(وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى . إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون . والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون) ثم يكرر قاعدة أن بسط الرزق وقبضه أمر آخر يريده الله لحكمة منفصلة ؛ وأن ما ينفق منه في سبيل الله هو الذخر الباقي الذي يفيد ، لتقر هذه الحقيقة واضحة في القلوب (قل:إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له . وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) ويختم هذه الجولة بمشهدهم محشورين يوم القيامة ، حيث يواجههم الله سبحانه بالملائكة الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ؛ ثم يذوقون عذاب النار الذي كانوا يستعجلون به ، ويقولون متى هذا الوعد ؟ كما جاء في أول هذا الشوط (ويوم يحشرهم جميعاً ، ثم يقول للملائكة:أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا:سبحانك أنت ولينا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون . فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً ، ونقول للذين ظلموا:ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون) فهؤلاء هم الملائكة الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ، أو يتخذونهم عنده شفعاء . هؤلاء هم يواجهون بهم ، فيسبحون الله تنزيهاً له من هذا الادعاء ، ويتبرأون من عبادة القوم لهم . فكأنما هذه العبادة كانت باطلاً أصلاً ، وكأنما لم تقع ولم تكن لها حقيقة . إنما هم يتولون الشيطان . إما بعبادته والتوجه إليه ، وإما بطاعته في اتخاذ شركاء من دون الله . وهم حين عبدوا الملائكة إنما كانوا يعبدون الشيطان ! ذلك إلى أن عبادة الجن عرفت بين العرب ؛ وكان منهم فريق يتوجه إلى الجن بالعبادة أو الاستعانة (بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) ومن هنا تجيء علاقة قصة سليمان والجن بالقضايا والموضوعات التي تعالجها السورة ، على طريقة سياقة القصص في القرآن الكريم . وبينما المشهد معروض يتغير السياق من الحكاية والوصف إلى الخطاب والمواجهة . ويوجه القول إليهم بالتأنيب والتبكيت (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً) لا الملائكة يملكون للناس شيئاً . ولا هؤلاء الذين كفروا يملك بعضهم لبعض شيئاً . والنار التي كذب بها الظالمون ، وكانوا يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، ها هم أولاء يرونها واقعاً لا شك فيه (ونقول للذين ظلموا:ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون) وبهذا تختم الجولة مركزة على قضية البعث والحساب والجزاء كسائر الجولات في هذه السورة .

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ{٤٣} وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ

يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ {٤٤} وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ {٤٥} قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ {٤٦} قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ {٤٧} قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ {٤٨} قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ {٤٩} قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ {٥٠} وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ {٥١} وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ {٥٢} وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ {٥٣} وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ {٥٤}

هذا الشوط الأخير فى السورة يبدأ بالحديث عن المشركين ، ومقولاتهم عن النبى ﷺ وعن القرآن الذى جاء به ؛ ويذكرهم بما وقع لأمثالهم ، ويريهم مصرع الغابرين الذين أخذهم النكير فى الدنيا ، وهم كانوا أقوى منهم وأعلم وأغنى . ويعقب هذا عدة إيقاعات عنيفة كأنما هى مطارق متوالية . يدعوهم فى أول إيقاع منها إلى أن يقوموا لله متجردين ثم يتفكروا غير متأثرين بالحواجز التى تمنعهم من الهدى ومن النظر الصحيح . وفى الإيقاع الثانى يدعوهم إلى التفكير فى حقيقة البواعث التى تجعل الرسول ﷺ يلاحقهم بالدعوة ، وليس له من وراء ذلك نفع ، ولا هو يطلب على ذلك أجراً ، فما لهم يتشككون فى دعوته ويعرضون ؟ ثم تتوالى الإيقاعات:قل . قل . قل . وكل منها يهز القلب هزاً ولا يتماسك له قلب به بقية من حياة وشعور ! ويختم الشوط وتختم معه السورة بمشهد من مشاهد القيامة حافل بالحركة العنيفة ، يناسب إيقاعه تلك الإيقاعات السريعة العنيفة (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا:ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم . وقالوا:ما هذا إلا إفك مفترى . وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم:إن هذا إلا سحر مبين . وما آتيناهم من كتب يدرسونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير . وكذب الذين من قبلهم – وما بلغوا معشار ما آتيناهم – فكذبوا رسلى ، فكيف كان نكير)

لقد قابلوا الحق الواضح البين الذى يتلوه عليهم رسول الله ﷺ برواسب غامضة من آثار الماضى ، وتقاليد لا تقوم على أساس واضح ، وليس لها قوام متماسك . ولقد أحسوا خطورة ما يواجههم به القرآن الكريم من الحق البسيط المستقيم المتماسك . أحسوا خطورته على ذلك الخليط المشوش من العقائد والعادات والتقاليد التى وجدوا عليها آباءهم فقالوا قولتهم تلك (ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم) ولكن هذا وحده لا يكفى . فإن مجرد أنه يخالف ما كان عليه الآباء ليس مطعناً مقنعاً لجميع العقول والنفوس . ومن ثم أتبعوا الادعاء الأول بادعاء آخر يمس أمانة المبلغ ، ويرد قوله أنه جاء بما جاء به من عند الله (وقالوا:ما هذا إلا إفك مفترى) والإفك هو الكذب والافتراء ؛ ولكنهم يزيدونه توكيداً (ما هذا إلا إفك مفترى) ذلك ليشككوا فى قيمته ابتداء ، متى أوقعوا الشك فى مصدره الإلهى ، ثم مضوا يصفون القرآن ذاته (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم:إن هذا إلا سحر مبين) فهو كلام مؤثر يزلزل القلوب ، فلا يكفى أن يقولوا:إنه مفترى . فحاولوا إذن أن يعللوا وقعه القاهر فى القلوب . فقالوا:إنه سحر مبين ! فهى سلسلة من الاتهامات ، حلقة بعد حلقة ، يواجهون بها الآيات البينات كى يحولوا بينها وبين القلوب . ولا دليل لهم على دعواهم . ولكنها جملة من الأكاذيب لتضليل العامة والجماهير . أما الذين كانوا يقولون هذا القول – وهم الكبراء والسادة – فقد كانوا على يقين أنه قرآن كريم ، فوق مقدور البشر ، وفوق طاقة المتكلمين ! وقد سبق فى الظلال ما حدث به بعض هؤلاء الكبراء بعضاً فى أمر محمد ﷺ وأمر القرآن ؛ وما دبروا بينهم من كيد ليصدوا به الجماهير عن هذا القرآن الذى يغلب القلوب ويأسر النفوس ! وقد كشف القرآن أمرهم ، وهو يقرر أنهم أميون لم يؤتوا من قبل كتاباً يقيسون به الكتب ؛ ويعرفون به الوحى ؛ فيفتوا بأن ما جاءهم اليوم ليس كتاباً وليس وحياً ، وليس من عند الله . ولم يرسل إليهم من قبل رسول . فهم يهرفون إذن بما لا علم لهم به ويدعون ما ليس يعلمون (وما آتيناهم من كتب يدرسونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير)! ويلمس قلوبهم بتذكيرهم بمصارع الذين كذبوا من قبل . وهم لم يؤتوا معشار ما أوتى أولئك الغابرون . من علم ، ومن مال ، ومن قوة ، ومن تعمير . . فلما كذبوا الرسل أخذهم النكير . أى الهجوم المدوى المنكر الشديد (وكذب الذين من قبلهم – وما بلغوا معشار ما آتيناهم – فكذبوا رسلى . فكيف كان نكير) ولقد كان النكير عليهم مدمراً مهلكاً . وكانت قريش تعرف مصارع بعضهم فى الجزيرة . فهذا التذكير يكفى . وهذا السؤال التهكمى (فكيف كان نكير ؟) سؤال موح يلمس قلوب المخاطبين . وهم يعرفون كيف كان ذلك النكير ! وهنا يدعوهم دعوة خالصة إلى منهج البحث عن الحق ، ومعرفة الافتراء من الصدق ، وتقدير الواقع الذى يواجهونه من غير زيف ولا دخل (قل:إنما أعظكم بواحدة . . أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا . ما بصاحبكم من جنة . إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) إنها دعوة

إلى القيام لله . بعيداً عن الهوى . بعيداً عن المصلحة . بعيداً عن ملابسات الأرض . بعيداً عن الهواتف والدوافع التي تشتجر فى القلب ، فتبعد به عن الله . بعيداً عن التأثر بالتيارات السائدة فى البيئة . والمؤثرات الشائعة في الجماعة . دعوة إلى التعامل مع الواقع البسيط ، لا مع القضايا والدعاوى الرائجة ؛ ولا مع العبارات المطاطة ، التي تبعد القلب والعقل من مواجهة الحقيقة فى بساطتها . دعوة إلى منطق الفطرة الهادى ء الصافى ، بعيداً عن الضجيج والخلط واللبس ؛ والرؤية المضطربة والغبش الذى يحجب صفاء الحقيقة . وهى فى الوقت ذاته منهج فى البحث عن الحقيقة . منهج بسيط يعتمد على التجرد من الرواسب والغواشى والمؤثرات . وعلى مراقبة الله وتقواه . وهى (واحدة) إن تحققت صح المنهج واستقام الطريق . القيام لله . . لا لغرض ولا لهوى ولا لمصلحة ولا لنتيجة . التجرد . الخلوص . ثم التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذى يواجهه القائمون لله المتجردون (أن تقوموا لله . مثنى وفرادى) مثنى ليراجع أحدهما الآخر ، ويأخذ معه ويعطى فى غير تأثر بعقلية الجماهير التى تتبع الانفعال الطارى ء ، ولا تتلبث لتتبع الحجة فى هدوء . . وفرادى مع النفس وجهاً لوجه فى تمحيص هادىء عميق (ثم تتفكروا . ما بصاحبكم من جنة) فما عرفتم عنه إلا العقل والتدبر والرزانة . وما يقول شيئاً يدعو إلى التظنن بعقله ورشده . إن هو إلا القول المحكم القوى المبين (إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) لمسة تصور العذاب الشديد وشيكاً أن يقع ، وقد سبقه النذير بخطوة . لينقذ من يستمع . كالهاتف المحذر من حريق فى دار يوشك أن يلتهم من لا يفر من الحريق . وهو تصوير - فوق أنه صادق - بارع موح مثير . . ذلك هو الإيقاع الأول المؤثر الموحى . يتبعه الإيقاع الثانى (قل:ما سألتكم من أجر فهو لكم . إن أجرى إلا على الله . وهو على كل شيء شهيد) دعاهم فى المرة الأولى إلى التفكر الهادى ء البرىء . . ما بصاحبكم من جنة . . ويدعوهم هنا أن يفكروا ويسألوا أنفسهم عما يدعوه إلى القيام بإنذارهم بين يدى عذاب شديد . ما مصلحته ؟ ما بواعثه ؟ ماذا يعود عليه ؟ ويأمره أن يلمس منطقهم ويوقظ وجدانهم إلى هذه الحقيقة فى صورة موحية (قل:ما سألتكم من أجر فهو لكم)! خذوا أنتم الأجر الذى طلبته منكم !وهو أسلوب فيه تهكم . وفيه توجيه . وفيه تنبيه (إن أجرى إلا على الله) هو الذى كلفنى . وهو الذى يأجرنى . وأجره هو الذى أتطلع إليه . ومن يتطلع إلى ما عند الله فكل ما عند الناس هين عنده هزيل زهيد لا يستحق التفكير (وهو على كل شيء شهيد) يعلم ويرى ولا يخفى عليه شيء . وهو علىّ شهيد . فيما أفعل وفيما أنوى وفيما أقول . ويشتد الإيقاع الثالث وتقصر خطاه (قل:إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب) وهذا الذى جئتكم به هو الحق . الحق القوى الذى يقذف به الله . فمن ذا يقف للحق الذى يقذف به الله ؟ إنه تعبير مصور مجسم متحرك . وكأنما الحق قذيفة تصدع وتخرق وتنفذ ولا يقف لها أحد فى طريق . . يقذف بها الله (علاّم الغيوب) فهو يقذف بها عن علم ,ويوجهها على علم ، ولا يخفى عليه هدف ، ولا تغيب عنه غاية ، ولا يقف للحق الذى يقذف به معترض ولا سد يعوق . فالطريق أمامه مكشوف ليس فيه مستور ! ويتلوه الإيقاع الرابع فى مثل عنفه وسرعته (قل:جاء الحق ، وما يبدىء الباطل وما يعيد) جاء هذا الحق فى صورة من صوره ، فى الرسالة ، وفى قرآنها ، وفى منهجها المستقيم . قل:جاء الحق . أعلن هذا الإعلان . وقرر هذا الحدث . واصدع بهذا النبأ . جاء الحق . جاء بقوته . جاء بدفعته . جاء باستعلائه وسيطرته (وما يبدىء الباطل وما يعيد) فقد انتهى أمره . وما عادت له حياة ، وما عاد له مجال ، وقد تقرر مصيره وعرف أنه إلى زوال . إنه الإيقاع المزلزل ، الذى يشعر من يسمعه أن القضاء المبرم قد قضى ، وأنه لم يعد هناك مجال لشيء آخر يقال . وإنه لكذلك . فمنذ جاء القرآن استقر منهج الحق واتضح . ولم يعد الباطل إلا مماحكة ومماحلة أمام الحق الواضح الحاسم الجازم . ومهما يقع من غلبة مادية للباطل فى بعض الأحوال والظروف ، إلا أنها ليست غلبة على الحق . إنما هى غلبة على المنتمين إلى الحق . غلبة الناس لا المبادىء . وهذه موقوتة ثم تزول . أما الحق فواضح بين صريح . والإيقاع الأخير (قل:إن ضللت فإنما أضل على نفسى . وإن اهتديت فبما يوحى إلىَّ ربى . إنه سميع قريب) فلا عليكم إذن إن ضللت . فإنما أضل على نفسى . وإن كنت مهتدياً فإن الله هو الذى هدانى بوحيه ، لا أملك لنفسى منه شيئاً إلا بإذنه . وأنا تحت مشيئته أسير فضله (إنه سميع قريب) وهكذا كانوا يجدون الله . هكذا كانوا يجدون صفاته هذه فى نفوسهم . كانوا يجدونها رطبة بالحياة الحقيقية . كانوا يحسون أن الله يسمع لهم وهو قريب منهم . وأنه معنى بأمرهم عناية مباشرة ؛ وأن شكواهم ونجواهم تصل إليه بلا واسطة . وأنه لا يهملها ولا يكلها إلى سواه . ومن ثم كانوا يعيشون فى أنس بربهم . فى كنفه . فى جواره . فى عطفه . فى رعايته . ويجدون هذا كله فى نفوسهم حياً ، واقعاً ، بسيطاً ، وليس معنى ولا فكرة ولا مجرد تمثيل وتقريب (إنه سميع قريب) وأخيراً يجيء الختام فى مشهد من مشاهد القيامة حافل بالحركة العنيفة المترددة بين الدنيا والأخرى . كأنما هو مجال واحد ، وهم كرة يتقاذفها السياق فى المشهد السريع العنيف (ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب . وقالوا:آمنا به . وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ؟ وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد . وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، كما فعل بأشياعهم من قبل ، إنهم كانوا فى شك مريب) (ولو ترى) فالمشهد معروض

للأنظار (إذ فزعوا) من الهول الذى فوجئوا به . وكأنما أرادوا الإفلات (فلا فوت) ولا إفلات (وأخذوا من مكان قريب) ولم يبعدوا فى محاولتهم البائسة وحركتهم المذهولة (وقالوا:آمنا به) الآن بعد فوات الأوان (وأنّى لهم التناوش من مكان بعيد) وكيف يتناولون الإيمان من مكانهم هذا . ومكان الإيمان بعيد عنهم فقد كان ذلك فى الدنيا , فضيعوه ! (وقد كفروا به من قبل) فانتهى الأمر ، ولم يعد لهم أن يحاولوه اليوم ! (ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) ذلك حين أنكروا هذا اليوم ، وهو غيب كان ، فلم يكن لهم على إنكاره من دليل ، إنما كانوا يقذفون بالغيب من مكان بعيد . واليوم يحاولون تناول الإيمان به من مكان كذلك بعيد ! (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) من الإيمان فى غير موعده ، والإفلات من العذاب الذى يشهدونه ، والنجاة من الخطر الذى يواجهونه (كما فعل بأشياعهم من قبل) ممن أخذهم الله ، فطلبوا النجاة بعد نفاذ الأمر ، وبعد أن لم يعد منه مفر(إنهم كانوا فى شك مريب) فها هو ذا اليقين بعد الشك المريب ! وهكذا تختم السورة فى هذا الإيقاع السريع العنيف الشديد . وتختم بمشهد من مشاهد القيامة ; يثبت القضية التى عليها التركيز والتوكيد فى السورة . كما مضى فى نهاية كل شوط فيها وفى ثناياها . وقد بدأت السورة بهذه القضية وختمت بها هذا الختام العنيف .

سورة فاطر

مكية و آياتها ٤٥

هذه السورة المكّية نسق خاص في موضوعها وفى سياقها . أقرب ما تكون إلى نسق سورة الرعد . فهى تمضي فى إيقاعات تتوالى على القلب البشرى من بدئها إلى نهايتها . إيقاعات موحية مؤثرة تهزه هزاً ، وتوقظه من غفلته ليتأمل عظمة هذا الوجود ، وروعة هذا الكون ؛ وليتدبر آيات الله المبثوثة فى تضاعيفه ، المتناثرة فى صفحاته ؛ وليتذكر آلاء الله ، ويشعر برحمته ورعايته ؛ وليتصور مصارع الغابرين فى الأرض ومشاهدهم يوم القيامة ؛ وليخشع ويعنو وهو يواجه بدائع صنع الله ، وآثار يده فى أطواء الكون ، وفى أغوار النفس ، وفى حياة البشر ، وفى أحداث التاريخ . وهو يرى ويلمس فى تلك البدائع وهذه الآثار وحدة الحق ووحدة الناموس ، ووحدة اليد الصانعة المبدعة القوية القديرة . . . ذلك كله فى أسلوب وفى إيقاع لا يتماسك له قلب يحس ويدرك , ويتأثر تأثر الأحياء . والسورة وحدة متماسكة متوالية الحلقات متتالية الإيقاعات . يصعب تقسيمها إلى فصول متميزة الموضوعات فهى كلها موضوع واحد . كلها إيقاعات على أوتار القلب البشرى , تستمد من ينابيع الكون والنفس والحياة والتاريخ والبعث . فتأخذ على النفس أقطارها وتهتف بالقلب من كل مطلع ، إلى الإيمان والخشوع والإذعان . والسمة البارزة الملحوظة فى هذه الإيقاعات هى تجميع الخيوط كلها فى يد القدرة المبدعة . وإظهار هذه اليد تحرك الخيوط كلها وتجمعها ؛ وتقبضها وتبسطها ، وتشدها وترخيها . بلا معقب ولا شريك ولا ظهير . ومنذ ابتداء السورة نلمح هذه السمة البارزة ، وتطرد إلى ختامها . هذا الكون الهائل نلمح اليد القادرة القاهرة تبرزه إلى الوجود وفق ما تريد (الحمد لله فاطر السماوات والأرض ، جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع . يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) وهذه القبضة القوية تنفرج فترسل بالرحمة تتدفق وتفيض ، وتنقبض فتغلق ينابيعها وتغيض . بلا معقب ولا شريك (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم) والهدى والضلال رحمة تتدفق أو تغيض (فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) إن الله يُسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور . إن أنت إلا نذير) وهذه اليد تصنع الحياة الأولى وتنشر الموتى فى الحياة الآخرة (والله الذى أرسل الرياح ,فتثير سحاباً ، فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها . كذلك النشور) والعزة كلها لله ومنه وحده تستمد (م ن كان يريد العزة فلله العزة جميعاً) والخلق والتكوين والنسل والأجل خيوطها كلها فى قبضة اليد لا تند عنها (والله خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم جعلكم أزواجاً . وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . وما يعمر من معمر ، ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب . إن ذلك على الله يسير) وفى تلك القبضة تتجمع مقاليد السماوات والأرض وحركات الكواكب والأفلاك (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . ذلكم الله ربكم له الملك . والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) ويد الله المبدعة تعمل فى هذا الكون بطريقتها المعلمة ، وتصبغ وتلون فى الجماد والنبات والحيوان والإنسان (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) وهذه اليد تنقل خطى البشر ، وتورث الجيل الجيل (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) (هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) وهى تمسك بهذا الكون الهائل تحفظه من الزوال (إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا , ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) وهى القابضة على أزمة الأمور لا يعجزها شيء على الإطلاق (وما كان الله ليعجزه من شيء فى السماوات ولا فى الأرض) وهو (على كل شيء قدير) وهو (العزيز الحكيم) (وإلى الله ترجع الأمور) وهو (عليم بما يصنعون) (وله الملك) وهو (الغنى الحميد) (وإلى الله المصير) وهو (عزيز غفور) وهو (غفور شكور) وإنه بعباده (لخبير بصير) وهو (عالم غيب السماوات والأرض) وهو (عليم بذات الصدور) وكان (حليماً غفوراً) وكان (عليماً قديراً) وكان (بعباده بصيراً) ومن تلك الآيات وهذه التعقيبات يرتسم جو السورة ، والسمة الغالبة عليها ، والظل الذى تلقيه فى النفس على وجه العموم . ونظراً لطبيعة السورة فقد اخترنا تقسيمها إلى ستة مقاطع متجانسة المعانى لتيسير تناولها . وإلا فهى شوط واحد متصل الإيقاعات والحلقات من بدئها إلى نهايتها . . .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{١} مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{٢} يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ){٣}

(الحمد لله فاطر السماوات والأرض ، جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد فى الخلق ما يشاء ، إن الله على كل شىء قدير) تبدأ السورة بتقديم الحمد لله . فهى سورة قوامها توجيه القلب إلى الله ، وإيقاظه لرؤية الآئه ، واستشعار رحمته وفضله ، وتملى بدائع صنعه فى خلقه ، وامتلاء الحس بهذه البدائع ، وفيضه بالتسبيح والحمد والابتهال (الحمد لله) ويتلو حمد الله ذكر صفته الدالة على الخلق والإبداع (فاطر السماوات والأرض) فهو منشىء هذه الخلائق الهائلة التى نرى بعضها من فوقنا ومن تحتنا حيث كنا ، والتى لا نعرف إلا القليل عن أصغرها وأقربها إلينا . . أمنا الأرض . . والتى ينتظمها ناموس واحد يحفظها فى تناسق وتوافق ، على ما بينها من أبعاد هائلة لا يتصورها خيالنا البشرى إلا بمشقة عظيمة ؛ والتى تحوى – مع ضخامتها وتباعد أفلاكها ومداراتها – من أسرار التناسب فيما بينها ما لو اختلت فيه نسبة صغيرة لتحطمت كلها وتناثرت بدداً . والقرآن يشير إشاراته الموحية لتدبُّر هذه الخلائق . . . الجليل منها والدقيق . . . وحسب القلب واحدة منها لإدراك عظمة فاطرها ، والتوجه إليه بالتسبيح والحمد والابتهال (الحمد لله فاطر السماوات والأرض). . (جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) والحديث فى هذه السورة يتردد حول الرسل والوحى وما أنزل الله من الحق . . والملائكة هم رسل الله بالوحى إلى من يختاره من عباده فى الأرض . وهذه الرسالة هى أعظم شىء وأجله . ومن ثم يذكر الله الملائكة بصفتهم رسلاً عقب ذكره لخلق السماوات والأرض . وهم صلة ما بين السماء والأرض . وهم يقومون بين فاطر السماوات والأرض ، وأنبيائه ورسله إلى الخلق بأعظم وظيفة وأجلها . ولأول مرة – فيما مر بنا من القرآن فى هذه الظلال – نجد وصفاً للملائكة يختص بهيئتهم (أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) وهو وصف لا يمثلهم للتصور . لأننا لا نعرف كيف هم ولا كيف أجنحتهم هذه . ولا نملك إلا الوقوف عند هذا الوصف ، دون تصور معين له . فكل تصور قد يخطىء ، وبمناسبة ذكر الأجنحة مثنى وثلاث ورباع . حيث لا يعرف الإنسان إلا شكل الجناحين للطائر . يذكر أن الله (يزيد فى الخلق ما يشاء) فيقرر طلاقة المشيئة ، وعدم تقيدها بشكل من أشكال الخلق . وفيما نشهده نحن ونعلمه أشكال لا تحصى من الخلق . ووراء ما نعلم أكثر وأكثر (إن الله على كل شىء قدير) وهذا التعقيب أوسع من سابقه وأشمل . فلا تبقى وراءه صورة لا يتناولها مدلوله ، من صور الخلق والإنشاء والتغيير والتبديل (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم) فى هذه الآية الثانية من السورة صورة من صور قدرة الله التى ختم بها الآية الأولى . وحين تستقر هذه الصورة فى قلب بشرى يتم فيه تحول كامل فى تصوراته ومشاعره واتجاهاته وموازينه وقيمه فى هذه الحياة جميعاً . إنها تقطعه عن شبهة كل قوة فى السماوات والأرض وتصله بقوة الله . وتيئسه من مظنة كل رحمة فى السماوات والأرض وتصله برحمة الله . وتوصد أمامه كل باب فى السماوات والأرض وتفتح أمامه باب الله . وتغلق فى وجهه كل طريق فى السماوات والأرض وتشرع له طريقه إلى الله . ثم إنه متى فتح الله أبواب رحمته فلا ممسك لها . ومتى أمسكها فلا مرسل لها . ومن ثم فلا مخافة من أحد . ولا رجاء فى أحد . ولا مخافة من شىء ، ولا رجاء فى شىء . ولا خوف من فوت وسيلة ، ولا رجاء مع الوسيلة . إنما هى مشيئة الله . ما يفتح الله فلا ممسك . وما يمسك الله فلا مرسل . والأمر مباشرة إلى الله (وهو العزيز الحكيم) يقدر بلا معقب على الإرسال والإمساك . ويرسل ويمسك وفق حكمة تكمن وراء الإرسال والإمساك . ونعود بعد تسجيل هذه الومضة إلى سياق السورة . . فنجده يؤكد فى الآية الثالثة إيحاء الآيتين الأولى والثانية ؛ فيذكر الناس بنعمة الله عليهم ؛ وهو وحده الخالق وهو وحده الرازق . الذى لا إله إلا هو ؛ ويعجب كيف يصرفون عن هذا الحق الواضح المبين(يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم . هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلا هو . فأنى تؤفكون ؟) ونعمة الله على الناس لا تتطلب إلا مجرد الذكر ؛ فإذا هى واضحة بينة يرونها ويحسونها ويلمسونها ، ولكنهم ينسون فلا يذكرون .

وحولهم السماء والأرض تفيضان عليهم بالنعم ، وتفيضان عليهم بالرزق ؛ وفى كل خطوة ، وفى كل لحظة فيض ينسكب من خيرات الله ونعمه من السماء والأرض . يفيضها الخالق على خلقه . فهل من خالق غيره يرزقهم بما فى أيديهم من هذا الفيض العميم ؟ إنهم لا يملكون أن يقولوا هذا ، وما كانوا يدعونه وهم فى أغلظ شركهم وأضله . فإذا لم يكن هناك خالق رازق غير الله ، فما لهم لا يذكرون ولا يشكرون ؟ وما لهم ينصرفون عن حمد الله والتوجه إليه وحده بالحمد والابتهال ؟ إنه (لا إله إلا هو) فكيف يصرفون عن

الإيمان بهذا الحق الذى لا مراء فيه (فأنى تؤفكون ؟) وإنه لعجيب أن ينصرف منصرف عن مثل هذا الحق الذى يواجههم به ما بين أيديهم من الرزق وإنه لعجيب أن ينصرف عن حمد الله وشكره من لا يجد مفراً من الاعتراف بذلك الحق المبين ! هذه الإيقاعات الثلاثة القوية العميقة هى المقطع الأول فى السورة . وفى كل منها صورة تخلق الإنسان خلقاً جديداً

(وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ{٤} يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ{٥} إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ{٦} الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ{٧} أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ){٨}

انتهى المقطع الأول من السورة بتلك الإيقاعات الثلاثة العميقة ، بتلك الحقائق الكبيرة الأصيلة:حقيقة وحدانية الخالق المبدع . وحقيقة الاختصاص بالرحمة . وحقيقة الانفراد بالرزق .

وفى المقطع الثانى يتجه أولاً إلى رسول الله ﷺ بالتسلية والتسرية عن تكذيبهم له ,ويرجع الأمر كله إلى الله . ويتجه ثانياً إلى الناس يهتف بهم:إن وعد الله حق ، ويحذرهم لعب الشيطان بهم ليخدعهم عن تلك الحقائق الكبرى ، ويذهب بهم إلى السعير – وهو عدوهم الأصيل – ويكشف لهم عن جزاء المؤمنين وجزاء المخدوعين بالعدو الأصيل ! ويتجه أخيراً إلى النبى ﷺ ألا يأسى عليهم وتذهب نفسه حسرات فإن الهدى والضلال بيد الله . والله عليم بما يصنعون يخاطب الرسول ﷺ (وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ، وإلى الله ترجع الأمور) تلك هى الحقائق الكبرى واضحة بارزة ؛ فإن يكذبوك فلا عليك من التكذيب ، فلست بدعاً من الرسل (فقد كذبت رسل من قبلك) والأمر كله لله ، وإليه ترجع الأمور ، وما التبليغ والتكذيب إلا وسائل وأسباب . والعواقب متروكة لله وحده ، يدبر أمرها كيف يريد . ويهتف بالناس (يا أيها الناس إن وعد الله حق . فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً . إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) إن وعد الله حق . . إنه آت لا ريب فيه . إنه واقع لا يتخلف . إنه حق والحق لا بد أن يقع ، والحق لا يضيع ولا يبطل ولا يتبدد ولا يحيد . ولكن الحياة الدنيا تغر وتخدع (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) ولكن الشيطان يغر ويخدع فلا تمكنوه من أنفسكم (ولا يغرنكم بالله الغرور) والشيطان قد أعلن عداءه لكم وإصراره على عدائكم (فاتخذوه عدواً) لا تركنوا إليه ، ولا تتخذوه ناصحاً لكم ولا تتبعوا خطاه ، فالعدو لا يتبع خطى عدوه وهو يعقل ! وهو لا يدعوكم إلى خير ، ولا ينتهى بكم إلى نجاة (إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) ! فهل من عاقل يجيب دعوة الداعى إلى عذاب السعير !؟ إنها لمسة وجدانية صادقة . فحين يستحضر الإنسان صورة المعركة الخالدة بينه وبين عدوه الشيطان ، فإنه يتحفز بكل قواه وبكل يقظته وبغريزة الدفاع عن النفس وحماية الذات . يتحفز لدفع الغواية والإغراء ؛ ويستيقظ لمداخل الشيطان إلى نفسه ، ويتوجس من كل هاجسة ، ويسرع ليعرضها على ميزان الله الذى أقامه له ليتبين ، فلعلها خدعة مستترة من عدوه القديم ! وهذه هى الحالة الوجدانية التى يريد القرآن أن ينشئها فى الضمير . حالة التوفز والتحفز لدفع وسوسة الشيطان بالغواية ؛ كما يتوفز الإنسان ويتحفز لكل بادرة من عدوه وكل حركة خفية ! حالة التعبئة الشعوريه ضد الشر ودواعيه ، وضد هواتفه المستسرة فى النفس ، وأسبابه الظاهرة للعيان . حالة الاستعداد الدائم للمعركة التى لا تهدأ لحظة ولا تضع أوزارها فى هذه الأرض أبداً . ثم يدعم هذه التعبئة وهذا الحذر وهذا التوفز ببيان عاقبة الكافرين الذين لبوا دعوة الشيطان ، وحالة المؤمنين الذين طاردوه (الذين كفروا لهم عذاب شديد . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير) ويعقب على هذا بتصوير طبيعة الغواية ، وحقيقة عمل الشيطان ، والباب الذى يفتح فيجىء منه الشر كله ؛ ويمتد منه طريق الضلال الذى لا يرجع منه سالك متى أبعدت فيه خطاه (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً) هذا هو مفتاح الشر كله . . أن يزين الشيطان للإنسان سوء عمله فيراه حسناً . أن يعجب بنفسه وبكل ما يصدر عنها . ألا يفتش فى عمله ليرى مواضع الخطأ والنقص فيه ، لأنه واثق من أنه لا يخطىء ! متأكد أنه دائماً على صواب ! معجب بكل ما يصدر منه ! مفتون بكل ما يتعلق بذاته . لا يخطر على باله أن يراجع نفسه فى شىء ، ولا أن يحاسبها على أمر . وبطبيعة الحال لا يطيق أن يراجعه أحد فى عمل يعمله أو فى رأى يراه . لأنه حسن فى عين نفسه . مزين لنفسه وحسه . لا مجال فيه للنقد ، ولا موضع فيه للنقصان ! هذا هو البلاء الذى يصبه الشيطان على إنسان ؛ وهذا هو المقود الذى يقوده منه إلى الضلال . فإلى البوار ! إن الذى يكتب الله له الهدى والخير يضع فى قلبه الحساسية والحذر والتلفت والحساب . فلا يأمن مكر الله . ولا يأمن تقلب القلب . ولا يأمن الخطأ

والزلل . ولا يأمن النقص والعجز . فهو دائم التفتيش فى عمله . دائم الحساب لنفسه . دائم الحذر من الشيطان . دائم التطلع لعون الله . وهذا هو مفرق الطريق بين الهدى والضلال ، وبين الفلاح والبوار . إنها حقيقة نفسية دقيقة عميقة يصورها القرآن فى ألفاظ معدودة (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) إنه نموذج الضال الهالك البائر الصائر إلى شر مصير . ومفتاح هذا كله هو هذا التزيين . هو هذا الغرور . هو هذا الستار الذى يعمى قلبه وعينه فلا يرى مخاطر الطريق . ولا يحسن عملاً لأنه مطمئن إلى حسن عمله وهو سوء . ولا يصلح خطأ لأنه واثق أنه لا يخطىء ! ولا يصلح فاسداً لأنه مستيقن أنه لا يفسد ! ولا يقف عند حد لأنه يحسب أن كل خطوة من خطواته إصلاح ! وتجيب الآية بأحد هذه الأجوبة من بعيد (فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ؛ بما تقتضيه طبيعة الضلال فى ذلك وطبيعة الهدى فى هذا . طبيعة الضلال برؤية العمل حسنا وهو سوء . وطبيعة الهدى بالتفتيش والحذر والمحاسبة والتقوى . . وهو مفرق الطريق الحاسم بين الهدى والضلال . وما دام الأمر كذلك (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) إن هذا الشأن . شأن الهدى والضلال . ليس من أمر بشر . ولو كان هو رسول الله ﷺ إنما هو من أمر الله . والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن . وهو مقلب القلوب والأبصار . . والله – سبحانه – يعزى رسوله ويسليه بتقرير هذه الحقيقة له . حتى يستقر قلبه الكبير الرحيم المشفق على قومه مما يراه من ضلالهم ، ومصيرهم المحتوم بعد هذا الضلال . وحتى يدع ما يجيش فى قلبه البشرى من حرص على هداهم ، ومن رؤية الحق الذى جاء به معروفاً بينهم ! وهو حرص بشرى معروف . يرفق الله سبحانه برسوله من وقعه فى حسه ، فيبين له أن هذا ليس من أمره ، إنما هو من أمر الله (إن الله عليم بما يصنعون) وهو يقسم لهم الهدى أو الضلال وفق علمه بحقيقة صنعهم . والله يعلم هذه الحقيقة قبل أن تكون منهم ؛ ويعلمها بعد أن تكون . وهو يقسم لهم وفق علمه الأزلى . ولكنه لا يحاسبهم على ما يكون منهم إلا بعد أن يكون . وبذلك ينتهى المقطع الثانى فى السورة . وهو متصل بالمقطع الأول . ومتسق كذلك مع المقطع الذى يليه . .١

(وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ{٩} مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ{١٠} وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ{١١} وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{١٢} يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ{١٣} إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ){١٤}

هذا المقطع الثالث جولات متتابعة فى المجال الكونى الذي يعرض فيه القرآن دلائل الإيمان ; ويتخذ من مشاهده المعروضة للبصائر والأبصار أدلته وبراهينه . وهذه الجولات المتتابعة تجيء في السورة عقب الحديث عن الهدى والضلال ، وعن تسلية الرسول ﷺ عن إعراض المعرضين ، وتفويض هذا الأمر لصاحبه العليم بما يصنعون . فمن شاء أن يؤمن فهذه أدلة الإيمان معروضة فى صفحة الكون حيث لا خفاء فيها ولا غموض . ومن شاء أن يضل فهو يضل عن بينة وقد أخذته الحجة من كل جانب . وفى مشهد الحياة النابضة بعد الموات حجة . وفيه دليل على البعث والنشور . وفى خلق الإنسان من تراب ، ثم صيرورته إلى هذا الخلق الراقى حجة . وكل مرحلة من مراحل خلقه وحياته تمضى وفق قدر مرسوم فى كتاب مبين . وفى مشهد البحرين المتميزين وتنويعهما حجة . وفيهما من نعم الله على الناس ما يقتضى الشكر والعرفان . وفى مشهد الليل والنهار يتداخلان ويطولان ويقصران حجة . وفيهما على التقدير والتدبير دليل . وكذلك مشهد الشمس والقمر مسخرين بهذا النظام الدقيق العجيب . هذه كلها حجج ودلائل معروضة فى المجال الكونى الفسيح . وهذا هو الله خالقها ومالكها . والذين يدعون من دون الله ما يملكون من قطمير . ولا يسمعون ولا يستجيبون . ويوم القيامة يتبرأون من عبادهم الضلال . فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ (والله الذى أرسل الرياح ، فتثير سحاباً ، فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها . كذلك النشور)وهذا المشهد يتردد في معرض دلائل الإيمان الكونية فى القرآن . مشهد الرياح ، تثير السحب ؛ تثيرها من البحار ، فالرياح الساخنة هي المثيرة للبخار ؛ والرياح الباردة هي المكثفة له حتى يصير سحاباً ؛ ثم يسوق الله هذا السحاب بالتيارات الهوائية فى طبقات الجو المختلفة ، فتذهب يميناً وشمالاً إلى حيث يريد الله لها أن تذهب ،وإلى حيث يسخرها ويسخر مثيراتها من الرياح والتيارات ، حتى تصل إلى حيث يريد لها أن تصل . . إلى

بلد ميت . . مقدر فى علم الله أن تدب فيه الحياة بهذا السحاب . والماء حياة كل شيء فى هذه الأرض (فأحيينا به الأرض بعد موتها) وتتم الخارقة التى تحدث فى كل لحظة والناس فى غفلة عن العجب العاجب فيها . وهم مع وقوع هذه الخارقة فى كل لحظة يستبعدون النشور فى الآخرة . وهو يقع بين أيديهم فى الدنيا (كذلك النشور) فى بساطة ويسر ، وبلا تعقيد ولا جدل بعيد ! ومن مشهد الحياة النابضة فى الموات ينتقل نقلة عجيبة – شيئاً – إلى معنى نفسى ومطلب شعورى . ينتقل إلى معنى العزة والرفعة والمنعة والاستعلاء . ويربط هذا المعنى بالقول الطيب الذى يصعد إلى الله والعمل الصالح الذى يرفعه الله . كما يعرض الصفحة المقابلة . صفحة التدبير السيّىء والمكر الخبيث ، وهو يهلك ويبور: (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ,والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور) ولعل الرابط الذى يصل بين الحياة النامية فى الموات ، والكلمة الطيبة والعمل الصالح , هو الحياة الطيبة فى هذه وفى تلك ؛ وما بينهما من صلة فى طبيعة الكون والحياة . وقد كان المشركون يشركون استبقاء لمكانتهم الدينية فى مكة ، وما يقوم عليها من سيادة لقريش على القبائل بحكم العقيدة ، وما تحققه هذه السيادة من مغانم متعددة الألوان . العزة والمنعة فى أولها بطبيعة الحال . فالله يقول لهم (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً) وهذه الحقيقة كفيلة حين تستقر فى القلوب أن تبدل المعايير كلها ، وتبدل الوسائل والخطط أيضاً ! إن العزة كلها لله . وليس شيء منها عند أحد سواه . فمن كان يريد العزة فليطلبها من مصدرها الذى ليس لها مصدر غيره . ليطلبها عند الله ، فهو واجدها هناك وليس بواجدها عند أحد ، ولا فى أى كنف ، ولا بأى سبب (فلله العزة جميعاً) إن الناس الذين كانت قريش تبتغى العزة عندهم بعقيدتها الوثنية المهلهلة ؛ وتخشى اتباع الهدى – وهى تعترف أنه الهدى – خشية أن تصاب مكانتها بينهم بأذى . إن الناس هؤلاء ,القبائل والعشائر وما إليها ، إن هؤلاء ليسوا مصدراً للعزة ، ولا يملكون أن يعطوها أو يمنعوها (فلله العزة جميعاً) وإذا كانت لهم قوة فمصدرها الأول هو الله . وإذا كانت لهم منعة فواهبها هو الله . وإذن فمن كان يريد العزة والمنعة فليذهب إلى المصدر الأول ، لا إلى الآخذ المستمد من هذا المصدر . ليأخذ من الأصل الذى يملك وحده كل العزة ، ولا يذهب يطلب قمامة الناس وفضلاتهم . وهم مثله طلاب محاويج ضعاف ! إنه لن يحنى رأسه لمخلوق متجبر . ولا لعاصفة طاغية . ولا لحدث جلل . ولا لوضع ولا لحكم . ولا لدولة ولا لمصلحة ، ولا لقوة من قوى الأرض جميعاً . وعلام ؟ والعزة لله جميعاً . وليس لأحد منها شيء إلا برضاه ؟ ومن هنا يذكر الكلم الطيب والعمل الصالح (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) ولهذا التعقيب المباشر بعد ذكر الحقيقة الضخمة مغزاه وإيحاؤه . فهو إشارة إلى أسباب العزة ووسائلها لمن يطلبها عند الله . القول الطيب والعمل الصالح . القول الطيب الذى يصعد إلى الله فى علاه ؛ والعمل الصالحالذى يرفعه الله إليه ويكرمه بهذا الارتفاع . ومن ثم يكرم صاحبه ويمنحه العزة والاستعلاء . هذا مكان الكلم الطيب والعمل الصالح من الحديث عن العزة ، وهذه هى الصلة بين هذا المعنى وذاك فى السياق . ثم تكمل بالصفحة المقابلة (والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور) ويمكرون هنا مضمنة معنى يدبرون . ولكنه عبر بها لغلبة استعمالها فى السوء . فهؤلاء لهم عذاب شديد . فوق أن مكرهم وتدبيرهم يبور . فلا يحيا ولا يثمر . من البوار ومن البوران سواء . وذلك تنسيقاً مع إحياء الأرض وإثمارها فى الآية السابقة . والذين يمكرون السيئات يمكرونها طلباً للعزة الكاذبة ، والغلبة الموهومة . وقد يبدو فى الظاهر أنهم أعلياء ، وأنهم أعزاء وأنهم أقوياء . ولكن القول الطيب هو الذى يصعد إلى الله ، والعمل الصالح هو الذى يرفعه إليه . وبهما تكون العزة فى معناها الواسع الشامل . ثم يجيء مشهد النشأة الأولى للإنسان بعد الكلام عن نشأة الحياة كلها بالماء . ويذكر ما يلابس تلك النشأة من حمل فى البطون ؛ ومن عمر طويل وعمر قصير . وكله فى علم الله المكنون (والله خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم جعلكم أزواجاً . وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب . إن ذلك على الله يسير) والإشارة إلى النشأة الأولى من التراب تتردد كثيراً فى القرآن ؛ وكذلك الإشارة إلى أول مراحل الحمل:النطفة . . والتراب عنصر لا حياة فيه ، والنطفة عنصر فيه الحياة . والمعجزة الأولى هى معجزة هذه الحياة التى لا يعلم أحد كيف جاءت ، ولا كيف تلبست بالعنصر الأول . وما يزال هذا سراً مغلقاً على البشر ؛ وهو حقيقة قائمة مشهودة ,لا مفر من مواجهتها والاعتراف بها . ودلالتها على الخالق المحيى القدير دلالة لا يمكن دفعها ولا المماحكة فيها . هذا والنقلة من غير الحى إلى الحى نقلة بعيدة بعيدة أكبر وأضخم من كل أبعاد الزمان والمكان . وتأمل هذه النقلة لا ينتهى ولا يمله القلب الحى الذى يتدبر أسرار هذا الوجود العجيبة . وكل سر منها أضخم من الآخر وأعجب صنعاً .

والنقلة بعد ذلك من النطفة التى تمثل مرحلة الخلية الواحدة إلى الخلقة الكاملة السوية للجنين ، حين يتميز الذكر من الأنثى ، وتتحقق الصورة التى يشير إليها القرآن فى هذه الآية: (ثم جعلكم أزواجاً). . سواء كان المقصود جعلكم ذكراً وأنثى وأنتم أجنة , أو كان المقصود جعلكم أزواجاً بعد ولادتكم وتزاوج الذكر

والأنثى . . هذه النقلة من النطفة إلى هذين النوعين المتميزين نقلة بعيدة كذلك بعيدة ! فأين الخلية الواحدة فى النطفة من ذلك الكائن الشديد التركيب والتعقيد ، الكثير الأجهزة المتعدد الوظائف ؟ وأين تلك الخلية المبهمة من ذلك الخلق الحافل بالخصائص المتميزة ؟ وإلى جوار هذه الإشارة هنا يعرض صورة كونية لعلم الله صورة علم الله المحيط بكل حمل تحمله أنثى فى هذه الأرض جميعاً (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) والنص يتجاوز إناث الإنسان إلى إناث الحيوان والطير والأسماك والزواحف والحشرات . وسواها مما نعلمه ومما لا نعلمه وكلها تحمل وتضع حتى ما يبيض منها ، فالبيضة حمل من نوع خاص . جنين لا يتم نموه فى داخل جسم الأم ؛ بل ينزل بيضة ، ثم يتابع نموه خارج جسم الأم بحضانتها هى أو بحضانة صناعية حتى يصبح جنيناً كاملاً ثم يفقس ويتابع نموه العادى . وعلم الله على كل حمل وعلى كل وضع فى هذا الكون المترامى الأطراف !!! وتصوير علم الله المطلق على هذا النحو العجيب ليس من طبيعة الذهن البشرى أن يتجه إليه لا فى التصور ولا فى التعبير – كما قلنا فى سورة سبأ – فهو بذاته دليل على أن الله هو منزل هذا القرآن . وهذه إحدى السمات الدالة على مصدره الإلهى المتفرد . ومثلها الحديث عن العمر فى الآية ذاتها (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب . إن ذلك على الله يسير) فإن الخيال إذا مضى يتدبر ويتتبع جميع الأحياء فى هذا الكون من شجر وطير وحيوان وإنسان وسواه على إختلاف فى الأحجام والأشكال والأنواع والأجناس والمواطن والأزمنة ; ثم يتصور أن كل فرد من أفرادهذا الحشد – الذى لا يمكن حصره ، ولا يعلم إلا خالقه عدده – يعمر فيطول عمره ، أو ينقص من عمره فيقصر وفق قدر مقدور , ووفق علم متعلق بهذا الفرد ، متابع له ، عمر أم لم يعمر . بكل ذلك (فى كتاب) من علم الله الشامل الدقيق . وأن ذلك لا يكلف جهداً ولا عسراً (إن ذلك على الله يسير) إذا مضى الخيال يتدبر هذا ويتتبعه ؛ ثم يتصور ما وراءه . . إنه لأمر عجيب جد عجيب . . وإنه لاتجاه إلى حقيقة لا يتجه إليها التفكير البشرى على هذا النحو . واتجاه إلى تصور هذه الحقيقة وتصويرها على غير مألوف البشر كذلك . وإنما هو التوجيه الإلهى الخاص إلى هذا الأمر العجيب ويمضى السياق إلى لفتة أخرى فى هذه الجولة الكونية المتعددة اللفتات . يمضى إلى مشهد الماء فى هذه الأرض من زاوية معينة . زاوية تنويع الماء . فهذا عذب سائغ ، وهذا ملح مر . وكلاهما يفترقان ويلتقيان – بتسخيرالله – فى خدمة الإنسان (وما يستوى البحران . . هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج . . ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها . وترى الفلك فيه مواخر . لتبتغوا من فضله , ولعلكم تشكرون) إن إرادة التنويع فى خلق الماء واضحة ؛ ووراءها حكمة – فيما نعلم – ظاهرة ؛ فأما الجانب العذب السائغ اليسير التناول فنحن نعرف جانباً من حكمة الله فيما نستخدمه وننتفع به ؛ وهو قوام الحياة لكل حى . وأما الجانب الملح المر وهو البحار والمحيطات فيقول أحد العلماء فى بيان التقدير العجيب فى تصميم هذا الكون الضخم: وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور – ومعظمها سام – فإن الهواء باق دون تلويث فى الواقع ، ودون تغير فى نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان . وعجلة الموازنة العظيمة هى تلك الكتلة الفسيحة من الماء – أى المحيط – الذى استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل ، والنباتات . وأخيراً الإنسان ثم يلتقى البحران المختلفان فى تسخيرهما للإنسان (ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر) واللحم الطرى هو الأسماك والحيوانات البحرية على اختلافها . والحلية من اللؤلؤ والمرجان . واللؤلؤ يوجد فى أنواع من القواقع يتكون فى أجسامها نتيجة دخول جسم غريب كحبة رمل أو نقطة ماء ، فيفرز جسم القوقعة داخل الصدفة إفرازاً خاصاً يحيط به هذا الجسم الغريب ، كى لا يؤذى جسم القوقعة الرخو . وبعد زمن معين يتصلب هذا الإفراز ، ويتحول إلى لؤلؤة ! والمرجان نبات حيوانى يعيش ويكون شعاباً مرجانية تمتد فى البحر أحياناً عدة أميال ، وتتكاثر حتى تصبح خطراً على الملاحة فى بعض الأحيان ؛ وخطراً على كل حى يقع فى براثنها ! وهو يقطع بطرق خاصة وتتخذ منه الحلى ! والفلك تمخر البحار والأنهار – أى تشقها – بما أودع الله الأشياء فى هذا الكون من خصائص . ولكثافة الماء وكثافة الأجسام التى تتكون منها السفن دخل فى إمكان طفو السفن على سطح الماء وسيرها فيه . وللرياح كذلك . وللقوى التى سخرها الله للإنسان وعرفه كيف يستخدمها كقوة البخار وقوة الكهرباء وغيرهما من القوى . وكلها من تسخير الله للإنسان (لتبتغوا من فضله) بالسفر والتجارة ، والانتفاع باللحم الطرى والحلى واستخدام الماء والسفن فى البحار والأنهار (ولعلكم تشكرون) وقد يسر الله لكم أسباب الشكر ، وجعلها حاضرة بين أيديكم . ليعينكم على الأداء . ويختم هذا المقطع بجولة كونية فى مشهد الليل والنهار . ثم فى تسخير الشمس والقمر وفق النظام المرسوم لجريانهما إلى الأجل المعلوم (يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل . وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى) وإيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل قد يعنى ذينك المشهدين الرائعين . مشهد دخول الليل فى النهار ، والضياء يغيب قليلاً قليلاً ، والظلام يدخل قليلاً قليلاً حتى يكون الغروب وما يليه من العتمة البطيئة الدبيب . ومشهد دخول النهار فى الليل حينما يتنفس الصبح ، وينتشر الضياء رويداً رويداً ، ويتلاشى الظلام رويداً رويداً ، حتى

تشرق الشمس ويعم الضياء . . كذلك قد يعنى طول الليل وهو يأكل من النهار وكأنما يدخل فيه . وطول النهار وهو يأكل من الليل وكأنما يدخل فيه . . وقد يعنيهما معاً بتعبير واحد . وكلها مشاهد تطوّف بالقلب في سكون ، وتغمره بشعور من الروعة والتقوى ; وهو يرى يد الله تمد هذا الخط ، وتطوى ذاك الخط ، وتشد هذا الخيط وترخى ذاك الخيط . وفى نظام دقيق مطرد لا يتخلف مرة ولا يضطرب . ولا يختل يوماً أو عاماً على توالي القرون . . وتسخير الشمس والقمر وجريانهما للأجل المرسوم لهما ، والذى لا يعلمه إلا خالقهما . . هو الآخر ظاهرة يراها كل إنسان ، سواء كان يعلم أحجام هذين الجرمين ، ونوعهما من النجوم والكواكب ومدارهما ودورتهما ومداها:أم لا يعلم من هذا كله شيئاً . . فهما بذاتهما يظهران ويختفيان أمام كل إنسان ، ويصعدان وينحدران أمام كل بصر . وهذه الحركة الدائبة التى لا تفتر ولا تختل حركة مشهودة لا يحتاج تدبرها إلى علم وحساب ! ومن ثم فهى آية معروضة فى صفحة الكون لجميع العقول وجميع الأجيال على السواء . وقد ندرك نحن اليوم علمها الظاهر أكثر مما كان يدرك المخاطبون بهذا القرآن لأول مرة . وليس هذا هو المهم . إنما المهم أن توحى إلينا ما كانت توحيه إليهم ، وأن تهز قلوبنا كما كانت تهز قلوبهم ، وأن تثير فينا من التدبر ورؤية يد الله المبدعة وهى تعمل فى هذا الكون العجيب ما كانت تثير فيهم . . والحياة حياة القلوب . . وفى ظل تلك المشاهد المتنوعة العميقة الدلالة القوية السلطان يعقب بتقرير حقيقة الربوبية , وبطلان كل ادعاء بالشرك ، وخسران عاقبته يوم القيامة (ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم . ولو سمعوا ما استجابوا لكم . ويوم القيامة يكفرون بشرككم . ولا ينبئك مثل خبير) ذلكم . الذى أرسل الرياح بالسحاب ، والذى أحيا الأرض بعد موتها ، والذى خلقكم من تراب , والذى جعلكم أزواجاً ، والذى يعلم ما تحمل كل أنثى وما تضع ، والذى يعلم ما يعمر وما ينقص من عمره ، والذى خلق البحرين ، والذى يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . . ذلكم هو (الله ربكم) (له الملك) (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) والقطمير غلاف النواة ! وحتى هذا الغلاف الزهيد لا يملكه أولئك الذين يدعونهم من دون الله ! ثم يمعن فى الكشف عن حقيقة أمرهم (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) فهم أصنام أو أوثان أو أشجار ، أو نجوم أو كواكب ، أو ملائكة أو جن . . وكلهم لا يملكون بالفعل قطميراً . وكلهم لا يسمعون لعبادهم الضالين . سواء كانوا لا يسمعون أصلا , أو لا يسمعون لكلام البشر (ولو سمعوا ما استجابوا لكم) كالجن والملائكة . فالجن لا يملكون الاستجابة . والملائكة لا يستجيبون للضالين . هذه فى الحياة الدنيا . فأما يوم القيامة فيبرأون من الضلال والضالين (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) يحدث بهذا الخبير بكل شىء ، وبكل أمر ، وبالدنيا والآخرة (ولا ينبئك مثل خبير) وبهذا ينتهى هذا المقطع ، وتختم هذه الجولات والمشاهد فى تلك العوالم ؛ ويعود القلب البشرى منها بزاد يكفيه حياته كلها لو ينتفع بالزاد . وإنه لحسب القلب البشرى مقطع واحد من سورة واحدة لو كان الذى يريد هو الهدى ، ولو كان الذى يطلب هو البرهان !

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ{١٥} إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ{١٦} وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ{١٧} وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ{١٨} وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ{١٩} وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ{٢٠} وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ{٢١} وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ{٢٢} إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ{٢٣} إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ{٢٤} وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ{٢٥} ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) {٢٦}

مرة أخرى يرجع إلى الهتاف بالناس أن ينظروا فى علاقتهم بالله ، وفى حقيقة أنفسهم ; ويرجع إلى الرسول ﷺ بالتسلية عما يلقى ، والتسرية عما يجد من إعراض وضلال – كالشأن فى المقطع الثانى من السورة – ويزيد هنا الإشارة إلى أن طبيعة الهدى غير طبيعة الضلال ، وأن الاختلاف بين طبيعتهما أصيل عميق كأصاله الاختلاف بين العمى والبصر والظلمات والنور والظل والحرور والموت والحياة . وأن بين الهدى والبصر والنور والظل والحياة صلة وشبهاً ، كما ان بين العمى والظلمة والحرور والموت صلة وشبهاً ! ثم تنتهى الجولة بإشارة إلى مصارع المكذبين للتنبيه والتحذير (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز)إن الناس فى حاجة إلى تذكيرهم بهذه الحقيقة فى معرض دعوتهم إلى الهدى ، ومجاهدتهم ليخرجوا مما هم فيه من الظلمات الى نور الله وهداه . فى حاجة الى تذكيرهم بأنهم هم الفقراء المحاويج إلى الله . وأن الله غنى عنهم كل الغنى .

وأنهم حين يدعون إلى الإيمان بالله وعبادته وحمده على آلائه فإن الله غنى عن عبادتهم وحمدهم ، وهو المحمود بذاته . وأنهم لا يعجزون الله ولا يعزون عليه فهو إن شاء أن يذهب بهم ويأتى بخلق جديد من جنسهم أو من جنس آخر يخلفهم فى الأرض ، فإن ذلك عليه يسير . . والناس خلقاء أن يدركوا هذه الحقيقة ليدركوا مدى فضل الله ورعايته ورحمته ، وليستحيوا أن يستجيبوا للفضل الخالص والرعاية المجردة والرحمة الفائضة بالإعراض والجحود والنكران . فهى من هذه الناحية لمسة وجدانية موحية ، الى جانب أنها حقيقة صادقة واقعة . والقرآن يلمس بالحقائق قلوب البشر ، لأن الحقيقة حين تجلى أفعل فى النفس ، ولأنه هو الحق وبالحق نزل . فلا يتحدث إلا بالحق ، ولا يقنع الا بالحق ، ولا يعرض إلا بالحق , ولا يشير بغير الحق . . ولمسة أخرى بحقيقة أخرى . حقيقة فردية التبعة ، والجزاء الفردى الذى لا يغنى فيه احد عن أحد شيئاً . فما بالنبى ﷺ من حاجة الى هدايتهم يحققها لنفسه ، فهو محاسب على عمله وحده ، كما أن كلا منهم محاسب على ما كسبت يداه ، يحمل حمله وحده ، لا يعينه أحد عليه . ومن يتطهر فإنما يتطهر لنفسه ، وهو الكاسب وحده لا سواه ؛ والأمر كله صائر إلى الله (ولا تزر وازرة وزر أخرى . وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى) (ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ، وإلى الله المصير) وحقيقة فردية التبعة والجزاء ذات أثر حاسم فى الشعور الأخلاقى ، وفى السلوك العملى سواء . فشعور كل فرد بأنه مجزىٌ بعمله ، لا يؤاخذ بكسب غيره ، ولا يتخلص هو من كسبه ، عامل قوى فى يقظته لمحاسبة نفسه قبل ان تحاسب ! مع التخلى عن كل أمل خادع فى أن ينفعه أحد بشىء ، أو أن يحمل عنه أحد شيئاً . كما أنه – فى الوقت ذاته – عامل مطمئن , فلا يقلق الفرد خيفة أن يؤخذ بجريرة الجماعة ، فيطيش ويبئس من جدوى عمله الفردى الطيب . ما دام قد أدى واجبه فى النصح للجماعة ومحاولة ردها عن الضلال بما يملك من وسيلة . إن الله – سبحانه – لا يحاسب الناس جملة بالقائمة ! إنما يحاسبهم فرداً فرداً ؛ كل على عمله ، وفى حدود واجبه . ومن واجب الفرد أن ينصح وأن يحاول الإصلاح غاية جهده . فإذا قام بقسطه هذا فلا عليه من السوء فى الجماعة التى يعيش فيها ، فإنما هو محاسب على إحسانه . كذلك لن ينفعه صلاح الجماعة إذا كان هو بذاته غير صالح . فالله لا يحاسب عباده بالقائمة كما أسلفنا ! والتعبير القرآنى يصور هذه الحقيقة على طريقة التصوير فى القرآن ، فتكون أعمق وأشد أثراً . يصور كل نفس حاملة حملها . فلا تحمل نفس حمل أخرى وحين تثقل نفس بما تحمل ثم تدعو أقرب الأقرباء ليحمل عنها شيئاً ، فلن تجد من يلبى دعاءها ويرفع عنها شيئاً مما يثقلها ! وعلى مشهد القافلة المجهدة المثقلة ، يلتفت إلى رسول الله – ﷺ (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب واقاموا الصلاة) فهؤلاء هم الذين يفلح فيهم الإنذار . هؤلاء الذين يخشون ربهم ولم يشاهدوه . ويقيمون الصلاة ليتصلوا بربهم ويعبدوه . هؤلاء هم الذين ينتفعون بك ، ويستجيبون لك . فلا عليك ممن لا يخشى الله ولا يقيم الصلاة . ومن تزكى فأنما يتزكى لنفسه . . لا لك . ولا لغيرك . إنما هو يتطهر لينتفع بطهره . والتطهر معنى لطيف شفاف . يشمل القلب وخوالجه ومشاعره ، ويشمل السلوك واتجاهاته وآثاره . وهو معنى موح رفاف (وإلى الله المصير) وهو المحاسب ، والمجازى ، فلا يذهب عمل صالح ، ولا يفلت عمل سيىء . ولا يوكل الحكم والجزاء إلى غيره ممن يميلون أو ينسون أو يهملون . . ولن يستوى عند الله الإيمان والكفر ، والخير والشر ، والهدى والضلال ؛ كما لا يستوى العمى والبصر ، والظلمة والنور ، والظل والحرور ، والحياة والموت ، وهى مختلفة الطبائع من الأساس (وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات) وبين طبيعة الكفر وطبيعة كل من العمى والظلمة والحرور والموت صلة . كما أن هناك صلة بين طبيعة الإيمان وطبيعة كل من النور والبصر والظل والحياة . إن الإيمان نور ، نور فى القلب ونور فى الجوارح ، ونور فى الحواس . نور يكشف حقائق الأشياء والقيم والأحداث وما بينها من ارتباطات ونسب وأبعاد . فالمؤمن ينظر بهذا النور ، نور الله ، فيرى تلك الحقائق ، ويتعامل معها ، ولا يخبط فى طريقه ولا يلطش فى خطواته ! والإيمان بصر ، يرى . رؤية حقيقية صادقة غير مهزوزة ولا مخلخلة . ويمضى بصاحبه فى الطريق على نور وعلى ثقة وفى اطمئنان .

والإيمان ظل ظليل تستروحه النفس ويرتاح له القلب ، ظل من هاجرة الشك والقلق والحيرة فى التيه المظلم بلا دليل ! والإيمان حياة . حياة فى القلوب والمشاعر . حياة فى القصد والاتجاه . كما أنه حركة بانية . مثمرة . قاصدة . لا خمود فيها ولا همود . ولا عبث فيها ولا ضياع . والكفر عمى . عمى فى طبيعة القلب . وعمى عن رؤية دلائل الحق . وعمى عن رؤية حقيقة الوجود . وحقيقة الإرتباطات فيه . وحقيقة القيم والأشخاص والأحداث والأشياء . والكفر ظلمة أو ظلمات . فعندما يبعد الناس عن نور الإيمان يقعون فى ظلمات من شتى الأنواع والأشكال . ظلمات تعز فيها الرؤية الصحيحة لشىء من الأشياء . والكفر هاجرة . حرور . تلفح القلب فيه لوافح الحيرة والقلق وعدم الاستقرار على هدف , وعدم الاطمئنان إلى نشأة أو مصير . ثم تنتهى إلى حر جهنم ولفحة العذاب هناك ! والكفر موت . موت فى الضمير . وانقطاع عن مصدر الحياة الأصيل .

وانفصال عن الطريق الواصل . وعجز عن الانفعال والاستجابة الآخذين من النبع الحقيقى ، المؤثرين فى سير الحياة ! ولكل طبيعته ولكل جزاؤه ، ولن يستوى عند الله هذا وذاك . وهنا يلتفت إلى النبى ﷺ يعزيه ويسرى عنه ، بتقرير حدود عمله وواجبه فى دعوة الله . وترك ما تبقى بعد ذلك لصاحب الأمر يفعل به ما يشاء (إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور . إن أنت إلا نذير . إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ، وإن من أمة إلا خلا فيها نذير . وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير . ثم أخذت الذين كفروا . فكيف كان نكير ؟) إن الفوارق أصيلة فى طبيعة الكون وفى طبيعة النفس . واختلاف طباع الناس واختلاف استقبالهم لدعوة الله أصيل أصالة الفوارق الكونية فى البصر والعمى ، والظل والحرور ، والظلمات والنور ، والحياة والموت . ووراء ذلك كله تقدير الله وحكمته . وقدرته على ما يشاء . وإذن فالرسول ليس إلا نذيراً . وقدرته البشرية تقف عند هذا الحد . فما هو بمسمع من فى القبور . ولا من يعيشون بقلوب ميتة فهم كأهل القبور ! والله وحده هو القادر على إسماع من يشاء ، وفق ما يشاء ، حسبما يشاء . فماذا على الرسول أن يضل من يضل ، ويعرض من يعرض متى أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، فسمع من شاء الله أن يسمع ، وأعرض من شاء الله أن يعرض ؟ فإن لقى من قومه التكذيب ، فتلك هى طبيعة الأقوام فى استقبال الرسل ؛ لا عن تقصير من الرسل ، ولا عن نقص فى الدليل (وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم . جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) والبينات الحجج فى صورها الكثيرة ، ومنها الخوارق المعجزة التى كانوا يطلبون أو يتحداهم بها الرسول . والزبر الصحف المتفرقة بالمواعظ والنصائح والتوجيهات والتكاليف . والكتاب المنير . الأرجح أنه كتاب موسى . التوراة . وكلهم كذبوا بالبينات والزبر والكتاب المنير .هذا كان شأن أمم كثيرة فى استقبال رسلهم وما معهم من دلائل الهدى . فالأمر إذن ليس جديداً ، وليس فريداً ، إنما هو ماض مع سنة الأولين . وهنا يعرض على المشركين مصائر المكذبين . لعلهم يحذرون (ثم أخذت الذين كفروا) ويسأل سؤال تعجيب وتهويل (فكيف كان نكير ؟) ولقد كان النكير شديداً ، وكان الأخذ تدميراً . فليحذر الماضون على سنة الأولين ، أن يصيبهم ما أصاب الأولين ! إنها لمسة قرآنية ينتهى بها هذا المقطع . وتختم بها هذه الجولة . ثم تبدأ جولة جديدة فى واد جديد . .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ{٢٧} وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ{٢٨} إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ{٢٩} لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ{٣٠} وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ{٣١} ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ{٣٢} جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ{٣٣} وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ{٣٤} الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ{٣٥} وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ{٣٦} وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ{٣٧} إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ){٣٨}

وهذه الجولة قراءات فى كتاب الكون وفى الكتاب المنزل . قراءات فى كتاب الكون فى صحائفه المعجبة الرائعة ، المتنوعة الألوان والأنواع والأجناس . الثمار المتنوعة الألوان ، والجبال الملونة الشعاب ، والناس والدواب والأنعام وألوانها المتعددة الكثيرة . . هذه اللفتة العجيبة إلى تلك الصحائف الرائعة فى كتاب الكون المفتوح .. وقراءات فى الكتاب المنزل وما فيه من الحق المصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة . وتوريث هذا الكتاب للأمة المسلمة . ودرجات الوارثين . وما ينتظرهم جميعاً من نعيم بعد عفو الله وغفرانه للمسيئين ؛ ومشهدهم فى دار النعيم . ومقابلهم مشهد الكافرين الأليم . وتختم الجولة العجيبة المديدة المنوعة الألوان بتقرير أن ذلك كله يتم وفقاً لعلم الله العليم بذات الصدور (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ؛ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماء . إن الله عزيز غفور) إنها لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة على مصدر هذا الكتاب . لفتة تطوف فى الأرض كلها تتبع فيها الألوان والأصباغ فى كل عوالمها . فى الثمرات . وفى الجبال . وفى الناس . وفى الدواب والأنعام . لفتة تجمع فى كلمات قلائل ، بين الأحياء وغير الأحياء فى هذه الأرض جميعاً ، وتدع القلب مأخوذاً بذلك المعرض الإلهى

الجميل الرائع الكبير الذى يشمل الأرض جميعاً . وتبدأ بإنزال الماء من السماء ، وإخراج الثمرات المختلفات الألوان . ولأن المعرض معرض أصباغ وشيات ، فإنه لا يذكر هنا من الثمرات إلا ألوانها (فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها) وألوان الثمار معرض بديع للألوان يعجز عن إبداع جانب منه جميع الرسامين فى جميع الأجيال . فما من نوع من الثمار يماثل لونه لون نوع آخر . بل ما من ثمرة واحدة يماثل لونها لون أخواتها من النوع الواحد . فعند التدقيق فى أى ثمرتين أختين يبدو شيء من اختلاف اللون ! وينتقل من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال نقلة عجيبة فى ظاهرها ؛ ولكنها من ناحية دراسة الألوان تبدو طبيعية . ففى ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها ، بل إن فيها أحياناً ما يكون على شكل بعض الثمار وحجمها كذلك حتى ما تكاد تفرق من الثمار صغيرها وكبيرها ! (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) والجدد هى الطرائق والشعاب . وهنا لفتة فى النص صادقة ، فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها . والجدد الحمر مختلف ألوانها فيما بينها . مختلف فى درجة اللون والتظليل والألوان الأخرى المتداخلة فيه ، وهناك جدد غرابيب سود ، حالكة شديدة السواد . واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد ، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار ، تهز القلب هزاً ، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالى ، التى تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية فتراه فى الصخرة كما تراه فى الثمرة ، على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة ، وعلى بعد ما بين وظيفتيهما فى تقدير الإنسان . ولكن النظرة الجمالية المجردة ترى الجمال وحده عنصراً مشتركاً بين هذه وتلك ، يستحق النظر والالتفات . ثم ألوان الناس . وهى لا تقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر . فكل فرد بعد ذلك متميز اللون بين بني جنسه . بل متميز من توأمه الذى شاركه حملاً واحداً فى بطن واحدة ! وكذلك ألوان الدواب والأنعام . والدواب أشمل والأنعام أخص . فالدابة كل حيوان . والأنعام هى الإبل والبقر والغنم والماعز ، خصصها من الدواب لقربها من الإنسان . والألوان والأصباغ فيها معرض كذلك جميل كمعرض الثمار ومعرض الصخور سواء . هذا الكتاب الكونى الجميل الصفحات العجيب التكوين والتلوين ، يفتحه القرآن ويقلب صفحاته ويقول ، إن العلماء الذين يتلونه ويدركونه ويتدبرونه هم الذين يخشون الله (إنما يخشى الله من عباده العلماء) إن عنصر الجمال يبدو مقصوداً قصداً فى تصميم هذا الكون وتنسيقه . ومن كمال هذا الجمال أن وظائف الأشياء تؤدى عن طريق جمالها . هذه الألوان العجيبة فى الأزهار تجذب النحل والفراش مع الرائحة الخاصة التى تفوح . ووظيفة النحل والفراش بالقياس إلى الزهرة هى القيام بنقل اللقاح ، لتنشأ الثمار . وهكذا تؤدى الزهرة وظيفتها عن طريق جمالها ! . . والجمال فى الجنس هو الوسيلة لجذب الجنس الآخر إليه ، لأداء الوظيفة التى يقوم بها الجنسان . وهكذا تتم الوظيفة عن طريق الجمال (إن الله عزيز غفور) عزيز قادر على الإبداع وعلى الجزاء . غفور يتدارك بمغفرته من يقصرون فى خشيته ، وهم يرون بدائع صنعته . ومن كتاب الكون ينتقل الحديث إلى الكتاب المنزل ، والذين يتلونه ، وما يرجون من تلاوته ، وما ينتظرهم من جزاء (إن الذين يتلون كتاب الله ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله . إنه غفور شكور) وتلاوة كتاب الله تعنى شيئاً آخر غير المرور بكلماته بصوت أو بغير صوت . تعنى تلاوته عن تدبر ، ينتهى إلى إدراك وتأثر ، وإلى عمل بعد ذلك وسلوك . ومن ثم يتبعها بإقامة الصلاة ، وبالإنفاق سراً وعلانية من رزق الله . ثم رجاؤهم بكل هذا (تجارة لن تبور) فهم يعرفون أن ما عند الله خير مما ينفقون . ويتاجرون تجارة كاسبة مضمونة الربح . يعاملون فيها الله وحده وهى أربح معاملة ؛ ويتاجرون بها فى الآخرة وهى أربح تجارة . . تجارة مؤدية إلى توفيتهم أجورهم ، وزيادتهم من فضل الله (إنه غفور شكور) يغفر التقصير ويشكر الأداء . وشكره – تعالى – كناية عما يصاحب الشكر عادة من الرضا وحسن الجزاء . ولكن التعبير يوحى للبشر بشكر المنعم . تشبهاً واستحياء . فإذا كان هو يشكر لعباده حسن الأداء أفلا يشكرون له هم حسن العطاء ؟! ثم إشارة إلى طبيعة الكتاب ، وما فيه من الحق ، تمهيداً للحديث عن ورثة هذا الكتاب (والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ، مصدقاً لما بين يديه . إن الله بعباده لخبير بصير) ودلائل الحق فى هذا الكتاب واضحة فى صلبه ؛ فهو الترجمة الصحيحة لهذا الكون فى حقيقته ، أو هو الصفحة المقروءة والكون هو الصفحة الصامتة . وهو مصدق لما قبله من الكتب الصادرة من مصدره . والحق واحد لا يتعدد فيها وفيه . ومنزله نزله للناس وهو على علم بهم ، وخبرة بما يصلح لهم ويصلحهم (إن الله بعباده لخبير بصير) هذا هو الكتاب فى ذاته . وقد أورثه الله لهذه الأمة المسلمة ، اصطفاها لهذه الوراثة ، كما يقول هنا فى كتابه (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) وهى كلمات جديرة بأن توحى لهذه الأمة بكرامتها على الله ؛ كما توحى إليها بضخامة التبعة الناشئة عن هذا الاصطفاء وعن تلك الوراثة . وهى تبعة ضخمة ذات تكاليف ، فهل تسمع الأمة المصطفاة وتستجيب ؟ إن الله سبحانه قد أكرم هذه الأمة بالاصطفاء للوراثة ؛ ثم أكرمها بفضله فى الجزاء حتى لمن أساء (فمنهم ظالم لنفسه . ومنهم مقتصد . ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) فالفريق الأول – ولعله ذكر أولاً لأنه الأكثر عدداً (ظالم لنفسه) تربى سيئاته فى العمل على حسناته . والفريق الثانى وسط

(مقتصد) تتعادل سيئاته وحسناته . والفريق الثالث (سابق بالخيرات بإذن الله) تربى حسناته على سيئاته . ولكن فضل الله شمل الثلاثة جميعاً . فكلهم انتهى إلى الجنة وإلى النعيم الموصوف فى الآيات التالية . على تفاوت فى الدرجات .

ولا ندخل هنا فى تفصيل أكثر مما أراد القرآن عرضه في هذا الموضع من كرامة هذه الأمة باصطفائها ، وكرم الله سبحانه فى جزائها . فهذا هو الظل الذى تلقيه النصوص هنا ، وهى النهاية التى تنتهى إليها هذه الأمة جيمعاً – بفضل الله – ونطوى ما قد يسبق هذه النهاية من جزاء مقدر فى علم الله . نطوى هذا الجزاء المبدئى لنخلص إلى ما قدره الله لهذه الأمة بصنوفها الثلاثة من حسن الجزاء (ذلك هو الفضل الكبير . جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير . وقالوا:الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن . إن ربنا لغفور شكور . الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) إن المشهد يتكشف عن نعيم مادى ملموس ، ونعيم نفسى محسوس . فهم (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير) وذلك بعض المتاع ذى المظهر المادى ، الذى يلبى بعض رغائب النفوس . وبجانبه ذلك الرضا وذلك الأمن وذلك الاطمئنان (وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) والدنيا بما فيها من قلق على المصير ، ومعاناة للأمور تعد حزناً بالقياس إلى هذا النعيم المقيم . والقلق يوم الحشر على المصير مصدر حزن كبير (إن ربنا لغفور شكور) غفر لنا وشكر لنا أعمالنا بما جازانا عليها (الذى أحلنا دار المقامة) للإقامة والاستقرار (من فضله) فما لنا عليه من حق ، إنما هو الفضل يعطيه من يشاء (لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) بل يجتمع لنا فيها النعيم والراحة والاطمئنان . فالجو كله يسر وراحة ونعيم . والألفاظ مختارة لتتسق بجرسها وإيقاعها مع هذا الجو الحانى الرحيم . حتى "الحزن" لا يتكأ عليه بالسكون الجازم . بل يقال "الحزن" بالتسهيل والتخفيف . والجنة (دار المقامة) والنصب واللغوب لا يمسانهم مجرد مساس . والإيقاع الموسيقى للتعبير كله هادىء ناعم رتيب . ثم نتلفت الى الجانب الآخر . فنرى القلق والاضطراب وعدم الاستقرار على حال (والذين كفروا لهم نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها) فلا هذه ولا تلك . حتى الرحمة بالموت لا تنال ! (كذلك نجزى كل كفور) ثم ها نحن أولاء يطرق أسماعنا صوت غليظ محشرج مختلط الأصداء ، متناوح من شتى الأرجاء . إنه صوت المنبوذين فى جهنم (وهم يصطرخون فيها) وجرس اللفظ نفسه يلقى فى الحس هذه المعانى جميعاً . . فلنتبين من ذلك الصوت الغليظ ماذا يقول . إنه يقول (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل) إنه الإنابة والاعتراف والندم إذن . ولكن بعد فوات الأوان . فها نحن أولاء نسمع الرد الحاسم يحمل التأنيب القاسى (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ؟). فلم تنتفعوا بهذه الفسحة من العمر ، وهى كافية للتذكر لمن أراد أن يتذكر (وجاءكم النذير) زيادة فى التنبيه والتحذير . فلم تتذكروا ولم تحذروا (فذوقوا . فما للظالمين من نصير) إنهما صورتان متقابلتان:صورة الأمن والراحة ، تقابلها صورة القلق والاضطراب . ونغمة الشكر والدعاء تقابلها ضجة الاصطراخ والنداء . ومظهر العناية والتكريم ، يقابله مظهر الإهمال والتأنيب . والجرس اللين والإيقاع الرتيب ، يقابلهما الجرس الغليظ والإيقاع العنيف . فيتم التقابل ، ويتم التناسق فى الجزئيات وفى الكليات سواء . وأخيراً يجىء التعقيب على هذه المشاهد جميعاً ، وعلى ما سبقها من اصطفاء وتوريث (إن الله عالم غيب السماوات والأرض . إنه عليم بذات الصدور) والعلم الشامل اللطيف الدقيق أنسب تعقيب على تنزيل الكتاب . وعلى اصطفاء من يرثونه ويحملونه . وعلى تجاوز الله عن ظلم بعضهم لنفسه . وعلى تفضله عليهم بذلك الجزاء . وعلى حكمه على الذين كفروا بذلك المصير . . فهو عالم غيب السماوات والأرض . وهو عليم بذات الصدور . وبهذا العلم الشامل اللطيف الدقيق يقضى فى كل هذه الأمور . .

(هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً{٣٩} قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً{٤٠} إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً{٤١} وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِن إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً{٤٢} اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً{٤٣} أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً{٤٤} وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً){٤٥}

هذا المقطع الأخير فى السورة يشتمل عل جولات واسعة المدى كذلك ، ولمسات للقلب وإيحاءات شتى ، جولة مع البشرية فى أجيالها المتعاقبة ، يخلف بعضها بعضاً . وجولة فى الأرض والسماوات للبحث عن أى أثر للشركاء الذين يدعونهم من دون الله . وجولة فى السماوات والأرض كذلك لرؤية يد الله القوية القادرة تمسك بالسماوات والأرض أن تزولا . وجولة مع هؤلاء المكذبين بتلك الدلائل والآيات كلها وهم قد عاهدوا الله من قبل لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، ثم نقضوا هذا العهد وخالفوه فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً . وجولة فى مصارع المكذبين من قبلهم وهم يشهدون آثارهم الداثرة ولا يخشون أن تدور عليهم الدائرة وأن تمضى فيهم سنة الله الجارية . . ثم الختام الموحى الموقظ الرهيب (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) وفضل الله العظيم فى إمهال الناس وتأجيل هذا الأخذ المدمر المبيد (هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض . فمن كفر فعليه كفره . ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا . ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً) إن تتابع الأجيال فى الأرض ، وذهاب جيل ومجىء جيل ، ووراثة هذا لذاك ، وانتهاء دولة وقيام دولة ، وانطفاء شعلة واتقاد شعلة . وهذا الدثور والظهور المتواليان على مر الدهور . . إن التفكير فى هذه الحركة الدائبة خليق أن يجد للقلب عبرة وعظة ، وأن يشعر الحاضرين أنهم سيكونون بعد حين غابرين ، يتأمل الآتون بعدهم آثارهم ويتذاكرون أخبارهم ، كما هم يتأملون آثار من كانوا قبلهم ويتذاكرون أخبارهم . وجدير بأن يوقظ الغافلين إلى اليد التى تدير الأعمار ، وتقلب الصولجان ، وتديل الدول ، وتورث الملك ، وتجعل من الجيل خليفة لجيل . وكل شىء يمضى وينتهى ويزول ، والله وحده هو الباقى الدائم الذى لا يزول ولا يحول . ومن كان شأنه أن ينتهى ويمضى ، فلا يخلد ولا يبقى . من كان شأنه أنه سائح فى رحلة ذات أجل ؛ وأن يعقبه من بعده ليرى ماذا ترك وماذا عمل ، وأن يصير فى النهاية إلى من يحاسبه على ما قال وما فعل . من كان هذا شأنه جدير بأن يحسن ثواءه القليل ، ويترك وراءه الذكر الجميل ، ويقدم بين يديه ما ينفعه فى مثواه الأخير . هذه بعض الخواطر التى تساور الخاطر ، حين يوضع أمامه مشهد الدثور والظهور ، والطلوع والأفول ، والدول الدائلة ، والحياة الزائلة ، والوراثة الدائبة جيلاً بعد جيل :(هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) وفى ظل هذا المشهد المؤثر المتتابع المناظر ، يذكرهم بفردية التبعة ، فلا يحمل أحد عن أحد شيئاً ، ولا يدفع أحد عن أحد شيئاً ؛ ويشير إلى ما هم فيه من إعراض وكفر وضلال ، وعاقبته الخاسرة فى نهاية المطاف (فمن كفر فعليه كفره . ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً . ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً) والمقت أشد البغض . ومن يمقته ربه فأى خسران ينتظره ؟ وهذا المقت فى ذاته خسران يفوق كل خسران ؟! والجولة الثانية فى السماوات والأرض ، لتقصِّى أى أثر أو أى خبر لشركائهم الذين يدعونهم من دون الله ، والسماوات والأرض لا تحس لهم أثراً ، ولا تعرف عنهم خبراً (قل:أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ؟ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السماوات ؟ أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ؟ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً) والحجة واضحة والدليل بين . فهذه الأرض بكل ما فيها ومن فيها . هذه هى مشهودة منظورة . أى جزء فيها أو أى شىء يمكن أن يدعى مدع أن أحداً – غير الله – خلقه وأنشأه ! إن كل شىء يصرخ فى وجه هذه الدعوى لو جرؤ عليها مدع . وكل شىء يهتف بأن الذى أبدعه هو الله ؛ وهو يحمل آثار الصنعة التى لا يدعيها مدع ، لأنه لا تشبهها صنعة ، مما يعمل العاجزون أبناء الفناء ! (أم لهم شرك فى السماوات ؟) ولا هذه من باب أولى ! فما يجرؤ أحد على أن يزعم لهذه الآلهة المدعاة مشاركة فى خلق السماوات ، ولا مشاركة فى ملكية السماوات . كائنة ما كانت . حتى الذين كانوا يشركون الجن أو الملائكة . . فقصارى ما كانوا يزعمون أن يستعينوا بالشياطين على إبلاغهم خبر السماء . أو يستشفعوا بالملائكة عند الله . ولم يرتق ادعاؤهم يوماً إلى الزعم بأن لهم شركاً فى السماء ! (أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ؟) وحتى هذه الدرجة – درجة أن يكون الله قد آتى هؤلاء الشركاء كتابا فهم مستيقنون منه , واثقون بما فيه – لم يبلغها أولئك الشركاء المزعومون . . والنص يحتمل أن يكون هذا السؤال الإنكارى موجهاً إلى المشركين أنفسهم – لا إلى الشركاء – فإن إصرارهم على شركهم قد يوحى بأنهم يستمدون عقيدتهم هذه من كتاب أوتوه من الله فهم على بينة منه وبرهان . وليس هذا صحيحاً ولا يمكن أن يدعوه . وعلى هذا المعنى يكون هناك إيحاء بأن أمر العقيدة إنما يتلقى من كتاب من الله بيّن . وأن هذا هو المصدر الوحيد الوثيق . وليس لهم من هذا شىء يدعونه ؛ بينما الرسول ﷺ قد جاءهم بكتاب من عند الله بيّن . فما لهم يعرضون عنه ، وهو السبيل الوحيد لاستمداد العقيدة ؟! (بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً) والظالمون يعد بعضهم بعضاً أن طريقتهم هى المثلى ؛ وأنهم هم المنتصرون فى النهاية . وإن هم إلا مخدوعون مغرورون ، يغر بعضهم بعضاً ، ويعيشون فى هذا الغرور الذى لا يجدى شيئاً . والجولة الثالثة – بعد نفى أن يكون للشركاء ذكر ولا خبر فى السماوات ولا فى الأرض – تكشف عن يد الله القوية الجبارة تمسك بالسماوات والأرض وتحفظهما وتدبر أمرهما بلا شريك (إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده . إنه كان حليماً غفوراً) ولئن زالت

السماوات والأرض عن مواضعها ، واختلت وتناثرت بدداً ، فما أحد بقادر على أن يمسكها بعد ذلك أبداً . وذلك هو الموعد الذى ضربه القرآن كثيراً لنهاية هذا العالم . حين يختل نظام الأفلاك وتضطرب وتتحطم وتتناثر ؛ ويذهب كل شيء في هذا الفضاء لا يمسك أحد زمامه . وهذا هو الموعد المضروب للحساب والجزاء على ما كان فى الحياة الدنيا . والانتهاء إلى العالم الآخر ، الذى يختلف فى طبيعته عن عالم الأرض اختلافاً كاملاً . ومن ثم يعقب على إمساك السماوات والأرض أن تزولا بقوله (إنه كان حليماً غفوراً) (حليماً) يمهل الناس ، ولا ينهى هذا العالم بهم ، ولا يأخذ بنواصيهم إلى الحساب والجزاء إلا فى الأجل المعلوم . ويدع لهم الفرصة للتوبة والعمل والاستعداد (غفوراً) لا يؤاخذ الناس بكل ما اجترموا ، بل يتجاوز عن كثير من سيئاتهم ويغفرها متى علم فيهم خيراً . وهو تعقيب موح ينبه الغافلين لاقتناص الفرصة قبل أن تذهب فلا تعود . والجولة الرابعة مع القوم وما عاهدوا الله عليه ، ثم ما انتهوا بعد ذلك إليه من نقض للعهد ، وفساد فى الأرض . وتحذير لهم من سنة الله التى لا تتخلف ، ولا تبديل فيها ولا تحويل (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم) ولقد كان العرب يرون اليهود أهل كتاب يجاورونهم فى الجزيرة ؛ وكانوا يرون من أمر انحرافهم وسوء سلوكهم ما يرون ؛ وكانوا يسمعون من تاريخهم وقتلهم رسلهم ، وإعراضهم عن الحق الذى جاءوهم به . وكانوا إذ ذاك ينحون على اليهود ؛ ويقسمون بالله حتى ما يدعون مجالاً للتشديد فى القسم يعنون اليهود . يعرضون بهم بهذا التعبير ولا يصرحون ! ذلك كان حالهم وتلك كانت أيمانهم . . يعرضها كأنما يدعو المستمعين ليشهدوا على ما كان من هؤلاء القوم فى جاهليتهم . ثم يعرض ما كان منهم بعد ذلك حينما حقق الله أمنيتهم ، وأرسل فيهم نذيراً (فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً . استكباراً فى الأرض ومكر السيىء !) وإنه لقبيح بمن كانوا يقسمون هذه الأيمان المشددة أن يكون هذا مسلكهم:استكباراً فى الأرض ومكر السيىء . والقرآن يكشفهم هذا الكشف ، ويسجل عليهم هذا المسلك . ثم يضيف إلى هذه المواجهة الأدبية المزرية بهم ، تهديد كل من يسلك هذا المسلك الزرى (ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله) فما يصيب مكرهم السيى ء أحداً إلا أنفسهم ؛ وهو يحيط بهم ويحيق ويحبط أعمالهم . وإذا كان الأمر كذلك فماذا ينتظرون إذن ؟ إنهم لا ينتظرون إلا أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم ، وهو معروف لهم . وإلا أن تمضى سنة الله الثابتة فى طريقها الذى لا يحيد (فلن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً) والأمور لا تمضى فى الناس جزافاً ؛ والحياة لا تجرى فى الأرض عبثاً ؛ فهناك نواميس ثابتة تتحقق ، لا تتبدل ولا تتحول . والقرآن يقرر هذه الحقيقة ، ويعلمها للناس ، كى لا ينظروا الأحداث فرادى ، ولايعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصيلة ، محصورين في فترة قصيرة من الزمان ، وحيز محدود من المكان . ويرفع تصورهم لارتباطات الحياة ، وسنن الوجود ، فيوجههم دائماً إلى ثبات السنن واطراد النواميس . ويوجه أنظارهم إلى مصداق هذا فيما وقع للأجيال قبلهم ؛ ودلالة ذلك الماضي على ثبات السنن واطراد النواميس . وهذه الجولة الخامسة نموذج من نماذج هذا التوجيه بعد تقرير الحقيقة الكلية من أن سنة الله لا تتبدل ولا تتحول (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم – وكانوا أشد منهم قوة – وما كان الله ليعجزه من شيء فى السماوات ولا فى الأرض . إنه كان عليماً قديراً) والسير فى الأرض بعين مفتوحة وقلب يقظ ؛ والوقوف على مصارع الغابرين ، وتأمل ما كانوا فيه وما صاروا إليه . . كل أولئك خليق بأن تستقر فى القلب ظلال وإيحاءات ومشاعر وتقوى . وأمام هذه الوقفة التى يقفهم إياها على مصارع الغابرين قبلهم – وكانوا أشد منهم قوة – فلم تعصمهم قوتهم من المصير المحتوم . أمام هذه الوقفة يوجه حسهم إلى قوة الله الكبرى . القوة التى لا يغلبها شيء ولا يعجزها شيء ؛ والتى أخذت الغابرين وهى قادرة على أخذهم كالأولين (وما كان الله ليعجزه من شيء فى السماوات ولا فى الأرض) ويعقب على هذه الحقيقة بما يفسرها ويعرض اسانيدها (إنه كان عليماً قديراً) يحيط علمه بكل شيء فى السماوات والأرض ؛ وتقوم قدرته إلى جانب علمه . فلا يند عن علمه شيء ، ولا يقف لقدرته شيء . ومن ثم لا يعجزه شيء فى السماوات ولا فى الأرض . ولا مهرب من قدرته ولا استخفاء من علمه (إنه كان عليماً قديراً) وأخيراً يجيء ختام السورة ، يكشف عن حلم الله ورحمته إلى جانب قوته وقدرته ؛ ويؤكد أن إمهال الناس عن حلم وعن رحمة ، لا يؤثر فى دقة الحساب وعدل الجزاء فى النهاية (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة . ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى . فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً) إن ما يرتكبه الناس من كفر لنعمة الله ، ومن شر فى الأرض وفساد ، ومن ظلم فى الأرض وطغيان . إن هذا كله لفظيع شنيع ولو يؤاخذ الله الناس به ، لتجاوزهم – لضخامته وشناعته وبشاعته – إلى كل حى على ظهر هذه الأرض . ولأصبحت الأرض كلها غير صالحة للحياة إطلاقاً . لا لحياة البشر فحسب ، ولكن لكل حياة أخرى والتعبير على هذا النحو يبرز شناعة ما يكسب الناس وبشاعته وأثره المفسد المدمر للحياة كلها لو آخذهم الله به مؤاخذة سريعة . غير أن الله حليم لا يعجل على الناس (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) يؤخرهم أفراداً إلى أجلهم الفردى حتى تنقضى أعمارهم فى الدنيا . ويؤخرهم جماعات إلى أجلهم فى

الخلافة المقدرة لهم حتى يسلموها إلى جيل آخر . ويؤخرهم جنساً إلى أجلهم المحدد لعمر هذا العالم ومجيء الساعة الكبرى . ويفسح لهم في الفرصة لعلهم يحسنون صنعاً (فإذا جاء أجلهم) وانتهى وقت العمل والكسب ، وحان وقت الحساب والجزاء ، فإن الله لن يظلمهم شيئاً (فإن الله كان بعباده بصيراً) وبصره بعباده كفيل بتوفيتهم حسابهم وفق عملهم وكسبهم ، لا تفوت منهم ولا عليهم كبيرة ولا صغيرة . هذا هو الإيقاع الأخير في السورة التي بدأت بحمد الله فاطر السماوات والأرض (جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة) يحملون رسالة السماء إلى الأرض . وما فيها من تبشير وإنذار فإما إلى جنة وإما إلى نار ، وبين البدء والختام تلك الجولات العظام في تلك العوالم التي طوفت بها السورة . وهذه نهاية المطاف . ونهاية الحياة . ونهاية الإنسان . .

سورة يس

مكية و آياتها ٨٣

هذه السورة المكية ذات فواصل قصيرة . وإيقاعات سريعة . ومن ثم جاء عدد آياتها ثلاثاً وثمانين ، بينما هي أصغر وأقصر من سابقتها – سورة فاطر – وعدد آياتها خمس وأربعون . وقصر الفواصل مع سرعة الإيقاع يطبع السورة بطابع خاص ، فتتلاحق إيقاعاتها ، وتدق على الحس دقات متوالية ، يعمل على مضاعفة أثرها ما تحمله معها من الصور والظلال التي تخلعها المشاهد المتتابعة من بدء السورة إلى نهايتها . وهي متنوعة وموحية وعميقة الآثار . والموضوعات الرئيسية للسورة هي موضوعات السور المكية . وهدفها الأول هو بناء أسس العقيدة . فهي تتعرض لطبيعة الوحي وصدق الرسالة منذ افتتاحها (يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . . .) وتسوق قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة ؛ وتعرض هذه العاقبة في القصة على طريقة القرآن في استخدام القصص لتدعيم قضاياه . وقرب نهاية السورة تعود إلى الموضوع ذاته (وما علمناه الشعر – وما ينبغي له – إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) كذلك تتعرض السورة لقضية الألوهية والوحدانية . فيجيء استنكار الشرك على لسان الرجل المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة ليحاج قومه في شأن المرسلين وهو يقول (وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ؟ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ؟ إني إذاً لفي ضلال مبين) وقرب ختام السورة يجيء ذكر هذا الموضوع مرة أخرى (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) والقضية التي يشتد عليها التركيز في السورة هي قضية البعث والنشور ، وهي تتردد في مواضع كثيرة في السورة . تجيء في أولها (إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) وتأتي في قصة أصحاب القرية ، فيما وقع للرجل المؤمن . وقد كان جزاؤها العاجل في السياق (قيل:ادخل الجنة . قال:يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) ثم ترد في وسط السورة (ويقولون:متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون) ثم يستطرد السياق إلى مشهد كامل من مشاهد القيامة . وفي نهاية السورة ترد هذه القضية في صورة حوار (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه . قال:من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) هذه القضايا المتعلقة ببناء العقيدة من أساسها ، تتكرر في السور المكية . ولكنها تعرض في كل مرة من زاوية معينة ، تحت ضوء معين ، مصحوبة بمؤثرات تناسب جوها ، وتتناسق مع إيقاعها وصورها وظلالها . هذه المؤثرات منتزعة في هذه السورة من مشاهد القيامة – بصفة خاصة – ومن مشاهد القصة ومواقفها وحوارها . ومن مصارع الغابرين على مدار القرون . ثم من المشاهد الكونية الكثيرة المتنوعة الموحية:مشهد الأرض الميتة تدب فيها الحياة . ومشهد الليل يسلخ منه النهار فإذا هو ظلام . ومشهد الشمس تجري لمستقر لها . ومشهد القمر يتدرج في منازله حتى يعود كالعرجون القديم . ومشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين . ومشهد الأنعام مسخرة للآدميين . ومشهد النطفة ثم مشهدها إنساناً وهو خصيم مبين ! ومشهد الشجر الأخضر تكمن فيه النار التي يوقدون !

ويجري سياق السورة في عرض موضوعاتها في ثلاثة أشواط:

يبدأ الشوط الأول بالقسم بالحرفين: يا . سين وبالقرآن الحكيم ، على رسالة النبي ﷺ وأنه على صراط مستقيم . يتلو ذلك الكشف عن النهاية البائسة للغافلين الذين يكذبون . وهي حكم الله عليهم بألا يجدوا إلى الهداية سبيلاً ، وأن يحال بينهم وبينها أبداً . وبيان أن الإنذار إنما ينفع من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ؛ فاستعد قلبه لاستقبال دلائل الهدى وموحيات الإيمان . . ثم يوجه رسول الله ﷺ إلى أن يضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ، فيقص قصة التكذيب وعاقبة المكذبين . كما يعرض طبيعة الإيمان في قلب الرجل المؤمن وعاقبة الإيمان والتصديق . .

ومن ثم يبدأ الشوط الثاني بنداء الحسرة على العباد الذين ما يفتأون يكذبون كل رسول ويستهزئون به . غير معتبرين بمصارع المكذبين ، ولا متيقظين لآيات الله في الكون وهي كثير . وهنا يعرض تلك المشاهد الكونية التي سبقت الإشارة إليها في تقديم السورة ، كما يعرض مشهداً مطولاً من مشاهد القيامة فيه الكثير من التفصيل .

والشوط الثالث يكاد يلخص موضوعات السورة كلها . فينفي في أوله أن ما جاء به محمد ﷺ شعر ، وينفي عن الرسول كل علاقة بالشعر أصلاً . ثم يعرض بعض المشاهد واللمسات الدالة على الألوهية المتفردة ، وينعى عليهم اتخاذ آلهة من دون الله يبتغون عندهم النصر وهم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة المدعاة ! . ويتناول قضية البعث والنشور فيذكرهم بالنشأة الأولى من نطفة ليروا أن إحياء العظام وهي رميم كتلك النشأة ولا غرابة ! ويذكرهم بالشجر الأخضر الذي تكمن فيه النار وهما في الظاهر بعيد من بعيد ! وبخلق السماوات والأرض وهو شاهد بالقدرة على خلق أمثالهم من البشر في الأولى والآخرة . . وأخيراً يجيء الإيقاع الأخير في السورة (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له:كن . فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون)

والآن نأخذ بعد هذا العرض المجمل في التفصيل . .

(يس{١} وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ{٢} إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ{٣} عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٤} تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ{٥} لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ{٦} لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{٧} إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ{٨} وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ{٩} وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{١٠} إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ{١١} إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ{١٢} وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ{١٣} إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ{١٤} قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ{١٥} قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ{١٦} وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ{١٧} قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ{١٨} قَالُوا طَائِرُكُمْ مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ{١٩} وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ{٢٠} اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ{٢١} وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٢} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٢٤} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥} قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ{٢٦} بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ{٢٧} وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ{٢٨} إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ){٢٩}

يقسم الله سبحانه بهذين الحرفين: يا . سين كما يقسم بالقرآن الحكيم . وهذا الجمع بين الأحرف المقطعة والقرآن يرجح الوجه الذي اخترناه في تفسير هذه الأحرف في أوائل السور ; والعلاقة بين ذكرها وذكر القرآن . وأن آية كونه من عند الله ، الآية التي لا يتدبرونها فيردهم القرآن إليها ، أنه مصوغ من جنس هذه الأحرف الميسرة لهم ؛ ولكن نسقه التفكيري والتعبيري فوق ما يملكون صياغته من هذه الحروف . ويصف القرآن – وهو يقسم به – بأنه (القرآن الحكيم) والحكمة صفة العاقل ، والتعبير على هذا النحو يخلع على القرآن صفة الحياة والقصد والإرادة . وهي من مقتضيات أن يكون حكيماً . ومع أن هذا مجاز إلا أنه يصور حقيقة ويقربها . فإن لهذا القرآن لروحاً ! وإن له لصفات الحي الذي يعاطفك وتعاطفه حين تصفى له قلبك وتصغى له روحك ! وإنك لتطلع منه على دخائل وأسرار كلما فتحت له قلبك وخلصت له بروحك ! وإنك لتشتاق منه إلى ملامح وسمات ، كما تشتاق إلى ملامح الصديق وسماته ، حين تصاحبه فترة وتأنس به وتستروح ظلاله ! ولقد كان رسول الله ﷺ يحب أن يسمع تلاوة القرآن من غيره ; ويقف على الأبواب ينصت إذا سمع من داخلها من يرتل هذا القرآن . كما يقف الحبيب وينصت لسيرة الحبيب ! والقرآن حكيم . يخاطب كل أحد بما يدخل في طوقه . ويضرب على الوتر الحساس في قلبه . ويخاطبه بقدر . ويخاطبه بالحكمة التي تصلحه وتوجهه . والقرآن حكيم . يربي بحكمة ، وفق منهج عقلي ونفسي مستقيم . منهج يطلق طاقات البشر كلها مع توجيهها الوجه الصالح القويم . ويقرر للحياة نظاماً كذلك يسمح بكل نشاط بشري في حدود ذلك المنهج الحكيم . يقسم الله سبحانه بياء وسين والقرآن الحكيم على حقيقة الوحي والرسالة إلى الرسول الكريم (إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم) وما به سبحانه من حاجة إلى

القسم . ولكن هذا القسم منه – جل جلاله – بالقرآن وحروفه , يخلع على المقسم به عظمة وجلالاً ، فما يقسم الله سبحانه إلا بأمر عظيم ، يرتفع إلى درجة القسم به واليمين ! (إنك لمن المرسلين) والتعبير على هذا النحو يوحى بأن إرسال الرسل أمر مقرر ، له سوابق مقررة . فليس هو الذى يراد إثباته . إنما المراد أن يثبت هو أن محمداً ﷺ من هؤلاء المرسلين . ويخاطبه هو بهذا القسم – ولا يوجهه إلى المنكرين المكذبين – ترفعاً بالقسم وبالرسول وبالرسالة عن أن تكون موضع جدل أو مناقشة . إنما هو الإخبار المباشر من الله للرسول (على صراط مستقيم) وهذا بيان لطبيعة الرسالة بعد بيان حقيقة الرسول . وطبيعة هذه الرسالة الاستقامة . فهى قائمة كحد السيف لا عوج فيها ولا انحراف ، ولا التواء فيها ولا ميل . الحق فيها واضح لا غموض فيه ولا التباس . ولا يميل مع هوى ولا ينحرف مع مصلحة . يجده من يطلبه فى يسر وفى دقة وفى خلوص . وهى لاستقامتها – بسيطة لا تعقيد فيها ولا لف ولا دوران . لا تعقد الأمور ولا توقع فى إشكالات من القضايا والتصورات والأشكال الجدلية . وهى مستقيمة مع فطرة الكون وناموس الوجود ، وطبيعة الأشياء والأحياء حول الإنسان , فلا تصدم طبائع الأشياء ، ولا تكلف الإنسان أن يصدمها ، إنما هى مستقيمة على نهجها , متناسقة معها ، متعاونة كذلك مع سائر القوانين التى تحكم هذا الوجود وما فيه ومن فيه (تنزيل العزيز الرحيم) يعرف الله عباده بنفسه فى مثل هذه المواضع ، ليدركوا حقيقة ما نزل إليهم . فهو العزيز القوى الذى يفعل ما يريد . وهو الرحيم بعباده الذى يفعل بهم ما يفعل ، وهو يريد بهم الرحمة فيما يفعل . فأما حكمة هذا التنزيل فهى الإنذار والتبليغ (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) والغفلة أشد ما يفسد القلوب . فالقلب الغافل قلب معطل عن وظيفته . معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة . تمر به دلائل الهدى أو يمر بها دون أن يحسها أو يدركها . ودون أن ينبض أو يستقبل . ومن ثم كان الإنذار هو أليق شىء بالغفلة التى كان فيها القوم ، الذين مضت الأجيال دون أن ينذرهم منذر ، أو ينبههم منبه . فهم من ذرية إسماعيل ولم يكن لهم بعده من رسول . فالإنذار قد يوقظ الغافلين المستغرقين فى الغفلة , الذين لم يأتهم ولم يأت آباءهم نذير . ثم يكشف عن مصير هؤلاء الغافلين ؛ وعما نزل بهم من قدر الله ، وفق ما علم الله من قلوبهم ومن أمرهم . ما كان منه وما سيكون (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) لقد قضى فى أمرهم ، وحق قدر الله على أكثرهم ، بما علمه من حقيقتهم ، وطبيعة مشاعرهم . فهم لا يؤمنون . وهذا هو المصير الأخير للأكثرين . فإن نفوسهم محجوبة عن الهدى مشدودة عن رؤية دلائله أو استشعارها . وهنا يرسم مشهداً حسياً لهذه الحالة النفسية ، يصورهم كأنهم مغلولون ممنوعون قسراً عن النظر ، محال بينهم وبين الهدى والإيمان بالحواجز والسدود ، مغطى على أبصارهم فلا يبصرون (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً ، فهى إلى الأذقان ، فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً . فأغشيناهم فهم لا يبصرون)إن أيديهم مشدودة بالأغلال إلى أعناقهم ، موضوعة تحت أذقانهم . ومن ثم فإن رؤوسهم مرفوعة قسراً ، لا يملكون أن ينظروا بها إلى الأمام ! ومن ثم فهم لا يملكون حرية النظر والرؤية وهم فى هذا المشهد العنيف ! وهم إلى هذا محال بينهم وبين الحق والهدى بسد من أمامهم وسد من خلفهم ؛ فلو أرخى الشد فنظروا لم تنفذ أبصارهم كذلك من هذه السدود ! وقد سدت عليهم سبيل الرؤية وأغشيت أبصارهم بالكلال ! (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) فلقد قضى الله فيهم بأمره ، بما علمه من طبيعة قلوبهم التى لا ينفذ إليها الإيمان . ولا ينفع الإنذار قلباً غير مهيأ للإيمان ، مشدود عنه ، محال بينه وبينه بالسدود . فالإنذار لا يخلق القلوب ، إنما يوقظ القلب الحى المستعد للتلقى (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ، فبشره بمغفرة وأجر كريم) والذكر يراد به هنا القرآن – على الأرجح – والذى اتبع القرآن ، وخشى الرحمن دون أن يراه ، هو الذى ينتفع بالإنذار ، فكأنه هو وحده الذى وجه إليه الإنذار . وكأنما الرسول ﷺ قد خصه به ، وإن كان قد عمم . وهذا يستحق التبشير بعد انتفاعه بالانذار(فبشره بمغفرة وأجر كريم) المغفرة عما يقع فيه من الخطايا غير مصر . والأجر الكريم على خشية الرحمن بالغيب ، واتباعه لما أنزل الرحمن من الذكر . وهما متلازمان فى القلب . فما تحل خشية الله فى قلب إلا ويتبعها العمل بما أنزل . والاستقامة على النهج الذى أراد . وهنا يؤكد وقوع البعث ؛ ودقة الحساب ، الذى لا يفوته شىء (إنا نحن نحيى الموتى ، ونكتب ما قدموا وآثارهم ، وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين) وإحياء الموتى هو إحدى القضايا التى استغرقت جدلاً طويلاً . وسيرد منه فى هذه السورة أمثلة منوعة . وهو ينذرهم أن كل ما قدمت أيديهم من عمل ، وكل ما خلفته أعمالهم من آثار ، كلها تكتب وتحصى ، فلا يند منها شىء ولا ينسى . والله سبحانه هو الذى يحيى الموتى ، وهو الذى يكتب ما قدموا وآثارهم ، وهو الذى يحصى كل شىء ويثبته . فلا بد إذن من وقوع هذا كله على الوجه الذى يليق بكل ما تتولاه يد الله . والإمام المبين . واللوح المحفوظ . وأمثالها . أقرب تفسير لها هو علم الله الأزلى القديم وهو بكل شىء محيط . وبعد عرض قضية الوحى والرسالة ، وقضية البعث والحساب ، فى هذه الصورة التقريرية , يعود السياق ليعرضهما فى صورة قصصية . تلمس القلب بما كان من مواقف التكذيب والإيمان وعواقبهما معروضة كالعيان (واضرب لهم مثلاً اصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما

فعززنا بثالث ، فقالوا:إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء ، إن أنتم إلا تكذبون . قالوا:ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين . قالوا:إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم قالوا:طائركم معكم ، أإن ذكرتم ؟ بل أنتم قوم مسرفون) ولم يذكر القرآن من هم أصحاب القرية ولا ما هى القرية . وقد اختلفت فيها الروايات . ولا طائل وراء الجرى مع هذه الروايات . وعدم إفصاح القرآن عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد شيئاً فى دلالة القصة وإيحائها . ومن ثم أغفل التحديد ، ومضى إلى صميم العبرة ولبابها . فهى قرية أرسل الله إليها رسولين . كما أرسل موسى وأخاه هارون – عليهما السلام – إلى فرعون وملئه . فكذبهما أهل تلك القرية ، فعززهما الله برسول ثالث يؤكد أنه وأنهما رسل من عند الله . وتقدموا ثلاثتهم بدعواهم ودعوتهم من جديد (فقالوا:إنا إليكم مرسلون) هنا اعترض أهل القرية عليهم بالاعتراضات المكرورة فى تاريخ الرسل والرسالات (قالوا:ما أنتم إلا بشر مثلنا) (وما أنزل الرحمن من شيء) (إن أنتم إلا تكذبون) وهذا الاعتراض المتكرر على بشرية الرسل تبدو فيه سذاجة التصور والإدراك ، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول . قد كانوا يتوقعون دائماً أن يكون هناك سر غامض فى شخصية الرسول وحياته تكمن وراءه الأوهام والأساطير . . أليس رسول السماء إلى الأرض فكيف لا تحيط به الأوهام والأساطير ؟ كيف يكون شخصية مكشوفة بسيطة لا أسرار فيها ولا ألغاز حولها ؟! شخصية بشرية عادية من الشخصيات التي تمتلىء بها الأسواق والبيوت ؟ !وهذه هى سذاجة التصور والتفكير . فالأسرار والألغاز ليست صفة ملازمة للنبوة والرسالة . وليست فى هذه الصورة الساذجة الطفولية . وإن هنالك لسراً هائلاً ضخماً ، ولكنه يتمثل فى الحقيقة البسيطة الواقعة . حقيقة إيداع إنسان من هؤلاء البشر الاستعداد اللدنى الذى يتلقى به وحى السماء ، حين يختاره الله لتلقى هذا الوحى العجيب . وهو أعجب من أن يكون الرسول ملكاً كما كانوا يقترحون ! وفى ثقة المطمئن إلى صدقه ، العارف بحدود وظيفته أجابهم الرسل (قالوا:ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين) إن الله يعلم . وهذا يكفى . وإن وظيفة الرسل البلاغ . وقد أدوه . والناس بعد ذلك أحرار فيما يتخذون لأنفسهم من تصرف . وفيما يحملون فى تصرفهم من أوزار . والأمر بين الرسل وبين الناس هو أمر ذلك التبليغ عن الله ؛ فمتى تحقق ذلك فالأمر كله بعد ذلك إلى الله . ولكن المكذبين الضالين لا يأخذون الأمور هذا المأخذ الواضح السهل اليسير ؛ ولا يطيقون وجود الدعاة إلى الهدى (فتأخذهم العزة بالإثم) ويعمدون إلى الأسلوب الغليظ العنيف فى مقاومة الحجة لأن الباطل ضيق الصدر عريد (قالوا:إنا تطيرنا بكم ! لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ، وليمسنكم منا عذاب أليم) قالوا:إننا نتشاءم منكم ؛ ونتوقع الشر فى دعوتكم ؛ فإن لم تنتهوا عنها فإننا لن نسكت عليكم ، ولن ندعكم فى دعوتكم (لنرجمنكم ، وليمسنكم منا عذاب أليم) وهكذا أسفر الباطل عن غشمه ؛ وأطلق على الهداة تهديده ؛ وبغى فى وجه كلمة الحق الهادئة , وعربد فى التعبير والتفكير ! ولكن الواجب الملقى على عاتق الرسل يقضى عليهم بالمضى فى الطريق (قالوا:طائركم معكم) فالقول بالتشاؤم من دعوة أو من وجه هو خرافة من خرافات الجاهلية . والرسل يبينون لقومهم أنها خرافة ؛ وأن حظهم ونصيبهم من خير ومن شر لا يأتيهم من خارج نفوسهم . إنما هو معهم , مرتبط بنواياهم وأعمالهم ، متوقف على كسبهم وعملهم . وفى وسعهم أن يجعلوا حظهم ونصيبهم خيراً أو أن يجعلوه شراً . فإن إرادة الله بالعبد تنفذ من خلال نفسه , ومن خلال اتجاهه ، ومن خلال عمله . وهو يحمل طائره معه . هذه هى الحقيقة الثابتة القائمة على أساس صحيح . أو التشاؤم بالوجوه ، أما التشاؤم بالأمكنة أو التشاؤم بالكلمات . . فهو خرافة لا تستقيم على أصل مفهوم ! وقالوا لهم: أئن ذكرتم ؟ يعنى أترجموننا وتعذبوننا لأننا نذكركم ! أفهذا جزاء التذكير ؟ (بل أنتم قوم مسرفون) تتجاوزون الحدود فى التفكير والتقدير ؛ وتجازون على الموعظة بالتهديد والوعيد ؛ وتردون على الدعوة بالرجم والتعذيب ! تلك كانت الاستجابة من القلوب المغلقة على دعوة الرسل . وهى مثل للقلوب التى تحدثت عنها السورة فى الجولة الأولى ؛ وصورة واقعية لذلك النموذج البشرى المرسوم هناك .فأما النموذج الآخر الذى إتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ، فكان له مسلك آخر وكانت له استجابة غير هذه الاستجابة (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ؛ قال:يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون . ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ؟ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ؟ إنى إذاً لفى ضلال مبين . إنى آمنت بربكم فاسمعون) إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة . فيها الصدق . والبساطة . والحرارة . واستقامة الإدراك . وتلبية الإيقاع القوى للحق المبين . فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعد ما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه فى مقالته لقومه . وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة فى ضميره فلم يطق عليها سكوتاً ؛ ولم يقبع فى داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور ؛ ولكنه سعى بالحق الذى استقر فى ضميره وتحرك فى شعوره . سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون . وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه فى دعوة قومه إلى الحق ، وفى كفهم عن البغى ،

وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذى يوشكون أن يصبوه على المرسلين . وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان . ولم يكن في عزوة من قومه أو منعة من عشيرته . ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها (قال:يا قوم إتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون) إن الذى يدعو مثل هذه الدعوة ، وهو لا يطلب أجراً ، ولا يبتغى مغنماً . . إنه لصادق . وإلا فما الذى يحمله على هذا العناء إن لم يكن يلبى تكليفاً من الله ؟ ما الذى يدفعه إلى حمل هم الدعوة ؟ ومجابهة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة ؟ والتعرض لأذاهم وشرهم واستهزائهم وتنكيلهم ، وهو لا يجنى من ذلك كسباً ، ولا يطلب منهم أجراً ؟ (اتبعوا من لا يسألكم أجراً) (وهم مهتدون) وهداهم واضح فى طبيعة دعوتهم . فهم يدعون إلى إله واحد . ويدعون إلى نهج واضح . ويدعون إلى عقيدة لا خرافة فيها ولا غموض . فهم مهتدون إلى نهج سليم ، وإلى طريق مستقيم . ثم عاد يتحدث إليهم عن نفسه هو وعن أسباب إيمانه ، ويناشد فيهم الفطرة التى استيقظت فيه فاقتنعت بالبرهان الفطرى السليم (ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ؟ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ؟ إنى إذاً لفى ضلال مبين) إنه تساؤل الفطرة الشاعرة بالخالق ، المشدودة إلى مصدر وجودها الوحيد ، وما الذى يحيد بى عن هذا النهج الطبيعى الذى يخطر على النفس أول ما يخطر ؟ وهو يحس بفطرته الصادقة الصافية كذلك أن المخلوق يرجع إلى الخالق فى النهاية . كما يرجع كل شىء إلى مصدره الأصيل . فيقول (وإليه ترجعون) ويتساءل لم لا أعبد الذى فطرنى ، والذى إليه المرجع والمصير ؟ ويتحدث عن رجعتهم هم إليه . فهو خالقهم كذلك . ومن حقه أن يعبدوه . ثم يستعرض المنهج الآخر المخالف للمنهج الفطرى المستقيم . فيراه ضلالاً بيناً (أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون) وهل أضل ممن يدع منطق الفطرة الذى يدعو المخلوق إلى عبادة خالقه ، وينحرف إلى عبادة غير الخالق بدون ضرورة ولا دافع ؟ وهل أضل ممن ينحرف عن الخالق إلى آلهة ضعاف لا يحمونه ولا يدفعون عنه الضر حين يريد به خالقه الضر بسبب انحرافه وضلاله ؟ (إنى إذاً لفى ضلال مبين) والآن وقد تحدث الرجل بلسان الفطرة الصادقة العارفة الواضحة يقرر قراره الأخير فى وجه قومه المكذبين المهددين المتوعدين . لأن صوت الفطرة في قلبه أقوى من كل تهديد ومن كل تكذيب (إنى آمنت بربكم فاسمعون) وهكذا ألقى بكلمة الإيمان الواثقة المطمئنة . وأشهدهم عليها . وهو يوحى إليهم أن يقولوها كما قالها . أو أنه لايبالى بهم ماذا يقولون ! ويوحى سياق القصة بعد ذلك أنهم لم يمهلوه أن قتلوه . وإن كان لا يذكر شيئاً من هذا صراحة . إنما يسدل الستار على الدنيا وما فيها ، وعلى القوم وما هم فيه ؛ ويرفعه لنرى هذا الشهيد الذى جهر بكلمة الحق ، متبعاً صوت الفطرة ، وقذف بها في وجوه من يملكون التهديد والتنكيل . نراه فى العالم الآخر . ونطلع على ما ادخر الله له من كرامة . تليق بمقام المؤمن الشجاع المخلص الشهيد (قيل:ادخل الجنة . قال:يا ليت قومي يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) وتتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة . ونرى الموت نقلة من عالم الفناء إلى عالم البقاء . وخطوة يخلص بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة . ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق . ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم . ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين . ونرى الرجل المؤمن . وقد اطلع على ما آتاه الله فى الجنة من المغفرة والكرامة ، يذكر قومه طيب القلب رضى النفس ، يتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة ، ليعرفوا الحق ، معرفة اليقين . هذا كان جزاء الإيمان . فأما الطغيان فكان أهون على الله من أن يرسل عليه الملائكة لتدمره . فهو ضعيف ضعيف (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء . وما كنا منزلين . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) ولا يطيل هنا فى وصف مصرع القوم ، تهويناً لشأنهم ، وتصغيراً لقدرهم . فما كانت إلا صيحة واحدة أخمدت أنفاسهم . . ويسدل الستار على مشهدهم البائس المهين الذليل !

(يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{٣٠} أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ{٣١} وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ{٣٢} وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ{٣٣} وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ{٣٤} لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ{٣٥} سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ{٣٦} وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ{٣٧} وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{٣٨} وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ{٣٩} لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ{٤٠} وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ{٤١} وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ{٤٢} وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ{٤٣} إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ{٤٤} وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{٤٥} وَمَا تَأْتِيهِم مِّن آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ{٤٦} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ

مُّبِينٍ{٤٧} وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٤٨} مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ{٤٩} فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ{٥٠} وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ{٥١} قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ{٥٢} إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ{٥٣} فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٥٤} إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ{٥٥} هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ{٥٦} لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ{٥٧} سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ{٥٨} وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ{٥٩} أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ{٦٢} هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ{٦٣} اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{٦٤} الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{٦٥} وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ{٦٦} وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ{٦٧} وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ){٦٨}

بعد الحديث فى الدرس الأول عن المشركين الذين واجهوا دعوة الإسلام بالتكذيب ؛ والمثل الذى ضربه لهم فى قصة أصحاب القرية المكذبين ؛ وما انتهى إليه أمرهم (فإذا هم خامدون) يبدأ الحديث فى هذا الدرس بالتعميم فى موقف المكذبين بكل ملة ودين ؛ ويعرض صورة البشرية الضالة على مدار القرون ، وينادى على العباد نداء الحسرة وهم لا يتعظون بمصارع الهالكين ، الذين يذهبون أمامهم ولا يرجعون إلا يوم الدين (وإن كل لما جميع لدينا محضرون) ثم يأخذ فى استعراض الآيات الكونية التى يمرون عليها معرضين غافلين ؛ وهى مبثوثة فى أنفسهم وفيما حولهم وفى تاريخهم القديم . وهم مع هذا لا يشعرون وإذا ذكروا لا يذكرون (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) وهم يستعجلون بالعذاب غير مصدقين (ويقولون:متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) وبمناسبة الاستعجال والتكذيب يستعرض مشهداً مطولاً من مشاهد القيامة يرون فيه مصيرهم الذى به يستعجلون ، كأنه حاضر تراه العيون (يا حسرة على العباد ! ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ؟ وإن كل لما جميع لدينا محضرون) والحسرة انفعال نفسى على حال مؤسفة لا يملك الإنسان شيئاً حيالها ، سوى أن يتحسر وتألم نفسه . والله – سبحانه وتعالى – لا يتحسر على العباد ؛ ولكنه يقرر أن حالة هؤلاء العباد مما يستحق حسرة المتحسرين ! فهى حال بائسة مؤسفة تنتهى بأصحابها إلى شر وخيم وبلاء عظيم ! يا حسرة على العباد تتاح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها ، وأمامهم مصارع الهالكين قبلهم لا يتدبرونها ولا ينتفعون بها . ويفتح الله لهم أبواب رحمته بإرسال الرسل إليهم الحين بعد الحين ؛ ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة ويسيئون الأدب مع الله (ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون) (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون) ولقد كان فى هلاك الأولين الذاهبين لا يرجعون ، على مدار السنين وتطاول القرون . . لقد كان فى هذا عظة لمن يتدبر . ولكن العباد البائسين لا يتدبرون . وهم صائرون إلى ذات المصير . فأية حالة تدعو إلى الحسرة كهذا الحال الأسيف ؟! إن الحيوان ليرجف حين يرى مصرع أخيه أمامه ؛ ويحاول أن يتوقاه قدر ما يستطيع . فما بال الإنسان يرى المصارع تلو المصارع ، ثم يسير مندفعاً فى ذات الطريق ؟ والغرور يملى له ويخدعه عن رؤية المصير المطروق ! وهذا الخط الطويل من مصارع القرون معروض على الأنظار ولكن العباد كأنهم عمى لا يبصرون ! وإذا كان الهالكون الذاهبون لا يرجعون إلى خلفائهم المتأخرين ، فإنهم ليسوا بمتروكين ولا مفلتين من حساب الله بعد حين (وإن كل لما جميع لدينا محضرون) (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ؛ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون ؟ سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) إنهم يكذبون الرسل ، ولا يتدبرون مصارع المكذبين ، ولا يدركون دلالة كونهم يذهبون ولا يرجعون . والحياة معجزة لا تملك يد البشر أن تجريها ؛ إنما هى يد الله التى تجرى المعجزات ، وتبث روح الحياة فى الموات . وإن رؤية الزرع النامى ، والجنان الوارفة ، والثمر اليانع ، لتفتح العين والقلب على يد الله المبدعة ، وهى تشق التربة عن النبتة المتطلعة للحرية والنور ، وتنضر العود المستشرف للشمس والضياء ، وتزين الغصن اللدن بالورق والثمار ، وتفتح الزهرة وتنضج الثمرة ، وتهيئها للجنى والقطاف (ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم) ويد الله هى التى أقدرتهم على العمل ، كما أقدرت الزرع على الحياة والنماء ! (أفلا يشكرون ؟) ويلتفت عنهم بعد هذه اللمسة الرفيقة ليسبح الله الذى أطلع لهم النبت والجنان ، وجعل الزرع أزواجاً ذكراناً وإناثاً كالناس وكغيرهم من خلق الله الذى لا يعلمه سواه (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) وهذه التسبيحة تنطلق فى أوانها وفى موضعها ؛ وترتسم معها حقيقة ضخمة من حقائق هذا

الوجود . حقيقة وحدة الخلق . وحدة القاعدة والتكوين . فقد خلق الله الأحياء أزواجاً . النبات فيها كالإنسان . ومثل ذلك غيرهما (ومما لا يعلمون) وإن هذه الوحدة لتشى بوحدة اليد المبدعة . التى توجد قاعدة التكوين مع اختلاف الأشكال والأحجام والأنواع والأجناس ، والخصائص والسيمات ، فى هذه الأحياء التى لا يعلم علمها إلا الله . . تلك آية الأرض الميتة تنبثق فيها الحياة . ومنها إلى آية السماء وما يتعلق بها من ظواهر يراها العباد رأى العين ، ويد الله تجريها بالخوارق المعجزات (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون) ومشهد قدوم الليل ، والنور يختفى والظلمة تغشى . . مشهد مكرور يراه الناس فى كل بقعة فى خلال أربع وعشرين ساعة [فيما عدا بعض المواقع التى يدوم فيها النهار كما يدوم فيها الليل أسابيع وأشهراً قرب القطبين فى الشمال والجنوب] وهو مع تكراره اليومى عجيبة تدعو إلى التأمل والتفكير . والتعبير القرانى عن هذه الظاهرة – فى هذا الموضع – تعبير فريد . فهو يصور النهار متلبساً بالليل ؛ ثم ينزع الله النهار من الليل فإذا هم مظلمون . ولعلنا ندرك شيئاً من سر هذا التعبير الفريد حين نتصور الأمر على حقيقته . فالأرض الكروية فى دورتها حول نفسها فى مواجهة الشمس تمر كل نقطة منها بالشمس ؛ فإذا هذه النقطة نهار ؛ حتى إذا دارت الأرض وانزوت تلك النقطة عن الشمس ، انسلخ منها النهار ولفها الظلام – وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام وكأنما نور النهار ينزع أو يسلخ فيحل محله الظلام . فهو تعبير مصور للحقيقة الكونية أدق تصوير . (والشمس تجرى لمستقر لها) والشمس تدور حول نفسها . وكان المظنون أنها ثابتة فى موضعها الذى تدور فيه حول نفسها . ولكن عرف أخيراً أنها ليست مستقرة فى مكانها . إنما هى تجرى . تجرى فعلاً . تجرى فى اتجاه واحد فى الفضاء الكونى الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثنى عشر ميلاً فى الثانية ! والله – ربها الخبير بها وبجريانها وبمصيرها – يقول:إنها تجرى لمستقر لها . هذا المستقر الذى ستنتهى إليه لا يعلمه إلا هو سبحانه . ولا يعلم موعده سواه . وحين نتصور ان حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه . وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجرى فى الفضاء ، لا يسندها شىء ، ندرك طرفاً من صفة القدرة التى تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم (ذلك تقدير العزيز العليم) (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) والعباد يرون القمر فى منازله تلك . يولد هلالاً . ثم ينمو ليلة بعد ليلة حتى يستدير بدراً . ثم يأخذ فى التناقص حتى يعود هلالاً مقوساً كالعرجون القديم . والعرجون هو العذق الذى يكون فيه البلح من النخلة . والذى يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة يدرك ظل التعبير القرانى العجيب (حتى عاد كالعرجون القديم) وبخاصة ظل ذلك اللفظ (القديم) فالقمر فى لياليه الأولى هلال . وفى لياليه الأخيرة هلال . . ولكنه فى الأولى يبدو وكأن فيه نضارة وفتوة . وفى الأخير يطلع وكأنما يغشاه سهوم ووجوم ، ويكسوه شحوب وذبول . ذبول العرجون القديم ! فليست مصادفة أن يعبر القرآن الكريم عنه هذا التعبير الموحى العجيب ! وأخيراً يقرر دقة النظام الكونى الذى يحكم هذه الأجرام الهائلة ، ويرتب الظواهر الناشئة عن نظامها الموحد الدقيق (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون) ولكل نجم أو كوكب فلك ، أو مدار ، لا يتجاوزه فى جريانه أو دورانه . والمسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة . فالمسافة بين أرضنا هذه وبين الشمس تقدر بنحو ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال . والقمر يبعد عن الأرض بنحو أربعين ومائتى ألف من الأميال . . وهذه المسافات على بعدها ليست شيئاً يذكر حين تقاس إلى بعد ما بين مجموعتنا الشمسية وأقرب نجم من نجوم السماء الأخرى إلينا . وهو يقدر بنحو أربع سنوات ضوئية . وسرعة الضوء تقدر بستة وثمانين ومائة ألف من الأميال فى الثانية الواحدة] !أى إن أقرب نجم إلينا يبعد عنا بنحو مائة وأربعة مليون مليون ميل !] وقد قدر الله خالق هذا الكون الهائل أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم والكواكب . ووضع تصميم الكون على هذا النحو ليحفظه بمعرفته من التصادم والتصدع – حتى يأتى الأجل المعلوم – فالشمس لا ينبغى لها أن تدرك القمر . والليل لا يسبق النهار ، ولا يزحمه فى طريقه ، لأن الدورة التى تجىء بالليل والنهار لا تختل أبداً فلا يسبق أحدهما الآخر أو يزحمه فى الجريان ! (وكل فى فلك يسبحون) وحركة هذه الأجرام فى الفضاء الهائل أشبه بحركة السفين فى الخضم الفسيح . فهى مع ضخامتها لا تزيد على أن تكون نقطاً سابحة فى ذلك الفضاء المرهوب (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ، وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون ، إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين) إن فى السياق مناسبة لطيفة بين النجوم والكواكب السابحة فى أفلاكها ، والفلك المشحون السابح فى الماء يحمل ذرية بنى آدم ! مناسبة فى الشكل ، ومناسبة فى الحركة ، ومناسبة فى تسخير هذا وذلك بأمر الله ، وحفظه بقدرته فى السماوات والأرض سواء . وهذه آية كتلك يراها العباد ولا يتدبرونها . بل هذه أقرب إليهم وأيسر تدبراً لو فتحوا قلوبهم للآيات . ولعل الفلك المشحون المذكور هنا هو فلك نوح أبى البشر الثانى ؛ الذى حمل فيه ذرية آدم . ثم جعل الله لهم من مثله هذه السفن التى تمخر بهم العباب . وهؤلاء

وهؤلاء حملتهم قدرة الله ونواميسه التى تحكم الكون وتصرفه ؛ وتجعل الفلك يعوم على وجه الماء ، بحكم خواص الفلك ، وخواص الماء ، وخواص الريح أو البخار ، أو الطاقة المنطلقة من الذرة ، أو غيرها من القوى . وكلها من أمر الله وخلقه وتقديره (وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون . إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين) والسفينة فى الخضم كالريشة فى مهب الريح ، مهما ثقلت وضخمت وأتقن صنعها . وإلا تدركها رحمة الله فهى هالكة هالكة فى لحظة من ليل أو نهار . والذين ركبوا البحار سواء عبروها فى قارب ذى شراع أو فى عابرة ضخمة للمحيط ، يدركون هول البحر المخيف ؛ وضآلة العصمة من خطره الهائل وغضبه الجبار . ويحسون معنى رحمة الله ؛ وأنها وحدها العاصم بين العواصف والتيارات فى هذا الخلق الهائل الذى تمسك يد الرحمة الإلهية عنانه الجامح ، ولا تمسكه يد سواها فى أرض أو سماء . وذلك حتى يقضى الكتاب أجله ، ويحل الموعد المقدور فى حينه ، وفق ما قدره الحكيم الخبير: ومتاعاً إلى حين . ومع تلك الآيات الواضحات فالعباد فى غفلة ، لا تتوجه أنظارهم ، ولا تستيقظ قلوبهم ; ولا يكفون عن سخريتهم وتكذيبهم ، واستعجالهم بالعذاب الذى ينذرهم به المرسلون (وإذا قيل لهم:اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون . وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . وإذا قيل لهم:أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ إن أنتم إلا فى ضلال مبين . ويقولون:متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟) إن تلك الآيات بذاتها لا تثير فى قلوبهم التطلع والتدبر والحساسية والتقوى . وهى بذاتها كافية أن تثير فى القلب المفتوح هزة ورعشة وانتفاضة ؛ وأن تخلطه بهذا الوجود . هذا الكتاب المفتوح الذى تشير كل صفحة من صفحاته إلى عظمة الخالق ، ولطيف تدبيره وتقديره .ولكن هؤلاء المطموسين لا يرونها . وإذا رأوها لا يتدبرونها. وتتوالى عليهم الآيات مضافة إلى الآيات الكونية التى تحيط بهم فى حيثما يتجهون . ولكنهم مع هذا يظلون فى عمايتهم سادرين (وإذا قيل لهم:اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون . وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) وإذا دعوا إلى إنفاق شىء من مالهم لإطعام الفقراء:قالوا ساخرين متعنتين (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟) وتطاولوا على من يدعونهم إلى البر والإنفاق قائلين (إن أنتم إلا فى ضلال مبين)! وتصورهم للأمر على هذا النحو الآلى يشى بعدم إدراكهم لسنن الله فى حياة العباد . فالله هو مطعم الجميع ، وهو رازق الجميع . وكل ما فى الأرض من أرزاق ينالها العباد هى من خلقه ، فلم يخلقوا هم لأنفسهم منها شيئاً ، وما هم بقادرين على خلق شىء أصلاً . ولكن مشيئة الله فى عمارة هذه الأرض اقتضت أن تكون للناس حاجات لا ينالونها إلا بالعمل والكد ؛ وفلاحة هذه الأرض ؛ وصناعة خاماتها ؛ ونقل خيراتها من مكان إلى مكان ، وتداول هذه الخيرات وأخيراً يجىء شكهم فى الوعد ، واستهزاؤهم بالوعيد (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟) ووعد الله لا يستقدم لاستعجال البشر ؛ ولا يستأخر لرجائهم فى تأخيره . فكل شىء عند الله بمقدار . وكل أمر مرهون بوقته المرسوم . إنما تقع الأمور فى مواعيدها وفق حكمة الله الأزلية التى تضع كل شىء فى مكانه ، وكل حادث فى إبانه ، وتمضى فى تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه وفق النظام المقدر المرسوم فى إمام مبين . أما الرد على هذا السؤال المنكر فيجىء فى مشهد من مشاهد القيامة يرون فيه كيف يكون ، لا متى يكون (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون . ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا:يا ويلنا ! من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) يسأل المكذبون (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) فيكون الجواب مشهداً خاطفاً سريعاً . . صيحة تصعق كل حى ، وتنتهى بها الحياة والأحياء (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون) فهى تأخذهم بغتة وهم فى جدالهم وخصامهم فى معترك الحياة ، لا يتوقعونها ولا يحسبون لها حساباً . فإذا هم منتهون . كل على حاله التى هو عليها . لا يملك أن يوصى بمن بعده . ولا يملك أن يرجع إلى أهله فيقول لهم كلمة . . وأين هم ؟ إنهم مثله فى أماكنهم منتهون ! ثم ينفخ فى الصور فإذا هم ينتفضون من القبور . ويمضون سراعاً ، وهم فى دهش وذعر يتساءلون (من بعثنا من مرقدنا ؟) ثم تزول عنهم الدهشة قليلاً ، فيدركون ويعرفون (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون)! ثم إذا الصيحة الأخيرة . صيحة واحدة . فإذا هذا الشتيت الحائر المذهول المسارع فى خطاه المدهوش . يثوب (فإذا هم جميع لدينا محضرون) وتنتظم الصفوف ، ويتهيأ الاستعراض فى مثل لمح البصر ورجع الصدى . وإذا القرار العلوى فى طبيعة الموقف ، وطبيعة الحساب والجزاء يعلن على الجميع (فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) وفى هذه السرعة الخاطفة التى تتم بها تلك المشاهد الثلاثة تناسق فى الرد على أولئك الشاكين المرتابين فى يوم الوعد المبين ! ثم يطوى السياق موقف الحساب مع المؤمنين ، ويعجل بعرض ما صاروا إليه من نعيم (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون . هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون . لهم فيها فاكهة ولهم فيها ما يدعون . سلام قولاً من رب رحيم) إنهم مشغولون بما هم فيه من النعيم ، ملتذون متفكهون . وإنهم لفى ظلال مستطابة

يستروحون نسيمها . . وعلى أرائك متكئين فى راحة ونعيم هم وأزواجهم . لهم فيها فاكهة ولهم كل ما يشاءون ؛ وهم ملاك محقق لهم فيها كل ما يدعون . ولهم فوق اللذائذ التأهيل والتكريم (سلام) يتلقونه من ربهم الكريم (قولاً من رب رحيم) فأما الآخرون فلا يطوى السياق موقف حسابهم ، بل يعرضه ويبرز فيه التبكيت والتنكيل (وامتازوا اليوم أيها المجرمون . ألم أعهد إليكم - يا بنى آدم - ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً . أفلم تكونوا تعقلون ؟ هذه جهنم التى كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون . إنهم يتلقون التحقير والترذيل (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) انعزلوا هكذا بعيداً عن المؤمنين ! (ألم أعهد إليكم - يا بنى آدم - ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ؟) ونداؤهم هنا (يا بنى ادم) فيه من التبكيت ما فيه . وقد أخرج الشيطان أباهم من الجنة ثم هم يعبدونه ، وهو لهم عدو مبين . (وأن اعبدونى) (هذا صراط مستقيم) فلم تحذروا عدوكم الذى أضل منكم أجيالاً كثيرة . . (أفلم تكونوا تعقلون ؟) وفى نهاية هذا الموقف العصيب المهين يعلن الجزاء الأليم ، فى تهكم وتأنيب (هذه جهنم التى كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون)! ولا يقف المشهد عند هذا الموقف المؤذى ويطويه . بل يستطرد العرض فإذا مشهد جديد عجيب (اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) وهكذا يخذل بعضهم بعضاً ، وتشهد عليهم جوارحهم ، وتتفكك شخصيتهم مزقاً وأحاداً يكذب بعضها بعضاً . وتعود كل جارحة إلى ربها مفردة ، ويثوب كل عضو إلى بارئه مستسلماً . إنه مشهد عجيب رهيب تذهل من تصوره القلوب ! كذلك انتهى المشهد وألسنتهم معقودة وأيديهم تتكلم ، وأرجلهم تشهد ، على غير ما كانوا يعهدون من أمرهم وعلى غير ما كانوا ينتظرون . ولو شاء الله لفعل بهم غير ذلك ، ولأجرى عليهم من البلاء ما يريد . . ويعرض هنا نوعين من هذا البلاء لو شاء الله لأخذ بهما من يشاء (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط ، فأنى يبصرون ؛ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون) وهما مشهدان فيهما من البلاء قدر ما فيهما من السخرية والاستهزاء . السخرية بالمكذبين والاستهزاء بالمستهزئين ، الذين كانوا يقولون (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) فهم فى المشهد الأول عميان مطموسون . ثم هم مع هذا العمى يستبقون الصراط ويتزاحمون على العبور ، ويتخبطون تخبط العميان حين يتسابقون ! ويتساقطون تساقط العميان حين يسارعون متنافسين ! (فأنى يبصرون) وهم فى المشهد الثانى قد جمدوا فجأة فى مكانهم ، واستحالوا تماثيل لا تمضى ولا تعود ؛ بعد أن كانوا منذ لحظة عمياناً يستبقون ويضطربون ! وإنهم ليبدون فى المشهدين كالدمى واللعب ، فى حال تثير السخرية والهزء . وقد كانوا من قبل يستخفون بالوعيد ويستهزئون ! ذلك كله حين يحين الموعد الذى يستعجلون . . فأما لو تركوا فى الأرض ، وعمروا طويلاً وأمهلهم الوعد المرسوم بعض حين ؛ فإنهم صائرون إلى شر يحمدون معه التعجيل . . إنهم صائرون إلى شيخوخة وهرم ، ثم إلى خرف ونكسة فى الشعور والتفكير (ومن نعمره ننكسه فى الخلق . أفلا يعقلون) والشيخوخة نكسة إلى الطفولة . بغير ملاحة الطفولة وبراءتها المحبوبة ! وما يزال الشيخ يتراجع ، وينسى ما علم ، وتضعف أعصابه ، ويضعف فكره ، ويضعف احتماله ، حتى يرتد طفلاً . ولكن الطفل محبوب اللثغة ، تبسم له القلوب والوجوه عند كل حماقة . والشيخ مجتوى لا تقال له عثرة إلا من عطف ورحمة ، وهو مثار السخرية كلما بدت عليه مخايل الطفولة وهو عجوز . وكلما استحمق وقد قوست ظهره السنون ! فهذه العاقبة كتلك تنتظر المكذبين ، الذين لا يكرمهم الله بالإيمان الراشد الكريم . .

(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ{٦٩} لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ{٧٠} أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ{٧١} وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ{٧٢} وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ{٧٣} وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ{٧٤} لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ{٧٥} فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ{٧٦} أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ{٧٧} وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{٧٨} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{٧٩} الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ{٨٠} أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ{٨١} إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ{٨٢} فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ){٨٣}

فى هذا القطاع الأخير من السورة تستعرض كل القضايا التى تعالجها السورة . . قضية الوحى وطبيعته وقضية الألوهية والوحدانية . وقضية البعث والنشور . تستعرض فى مقاطع مفصلة . مصحوبة بمؤثرات قوية فى إيقاعات عميقة . كلها تتجه إلى إبراز يد القدرة وهى تعمل كل شىء فى هذا الكون وتمسك بمقاليد الأمور كلها . ويتمثل هذا المعنى مركزاً فى النهاية فى الآية التى تختم السورة (فسبحان الذى بيده ملكوت كل

شيء وإليه ترجعون) فهذه اليد القوية المبتدعة خلقت الأنعام للبشر وذللتها لهم . وهى خلقت الإنسان من نطفة . وهى تحيى رميم العظام كما أنشأتها أول مرة . وهى جعلت من الشجر الأخضر ناراً . وهى أبدعت السماوات والأرض . وفى النهاية هى مالكة كل شيء فى هذا الوجود . . وذلك قوام هذا المقطع الأخير (وما علمناه الشعر – وما ينبغى له – إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) وردت قضية الوحي في أول السورة (يس والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) والآن تجيء فى صورتها هذه للرد على ما كان يدعيه بعضهم من وصف النبى ﷺ بأنه شاعر ; ووصف القرآن الذى جاء به بأنه شعر .وما كان يخفى على كبراء قريش أن الأمر ليس كذلك . وأن ما جاءهم به محمد ﷺ قول غير معهود فى لغتهم . وما كانوا من الغفلة بحيث لا يفرقون بين القرآن والشعر . إنما كان هذا طرفاً من حرب الدعاية التى شنوها على الدين الجديد وصاحبه ﷺ فى أوساط الجماهير . معتمدين فيها على جمال النسق القرآنى المؤثر ، الذى قد يجعل الجماهير تخلط بينه وبين الشعر إذا وجهت هذا التوجيه . وهنا ينفى الله – سبحانه – أنه علم الرسول الشعر . وإذا كان الله لم يعلمه فلن يعلم . فما يعلم أحد شيئاً إلا ما يعلمه الله . . ثم ينفى لياقة الشعر بالرسول ﷺ وما ينبغى له فللشعر منهج غير منهج النبوة . الشعر انفعال . وتعبير عن هذا الانفعال . والانفعال يتقلب من حال إلى حال . والنبوة وحي . على منهج ثابت . على صراط مستقيم . يتبع ناموس الله الثابت الذى يحكم الوجود كله . ولا يتبدل ولا يتقلب مع الأهواء الطارئة ، تقلب الشعر مع الانفعالات المتجددة التى لا تثبت على حال . والنبوة اتصال دائم بالله ، وتلق مباشر عن وحي الله ، ومحاولة دائمة لرد الحياة إلى الله . بينما الشعر – فى أعلى صوره – أشواق إنسانية إلى الجمال والكمال مشوبة بقصور الإنسان وتصوراته المحدودة بحدود مداركه واستعداداته . فأما حين يهبط عن صوره العالية فهو انفعالات ونزوات قد تهبط حتى تكون صراخ جسد ، وفورة لحم ودم ! فطبيعة النبوة وطبيعة الشعر مختلفتان من الأساس . هذه – فى أعلى صورها – أشواق تصعد من الأرض . وتلك فى صميمها هداية تتنزل من السماء (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) ذكر وقرآن . . وهما صفتان لشيء واحد . ذكر بحسب وظيفته . وقرآن بحسب تلاوته . فهو ذكر لله يشتغل به القلب ، وهو قرآن يتلى ويشتغل به اللسان . وهو منزل ليؤدى وظيفة محددة (لينذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين) ويضع التعبير القرآنى الكفر فى مقابل الحياة . فيجعل الكفر موتاً ، ويجعل استعداد القلب للإيمان حياة . ويبين وظيفة هذا القرآن بأنه نزل على الرسول [ص] لينذر من به حياة . فيجدى فيهم الإنذار ، فأما الكافرون فهم موتى لا يسمعون النذير ; وظيفة القرآن بالقياس إليهم هى تسجيل الاستحقاق للعذاب ، فإن الله لا يعذب أحداً حتى تبلغه الرسالة ثم يكفر عن بينة ويهلك بلا حجة ولا معذرة ! وهكذا يعلم الناس أنهم إزاء هذا القرآن فريقان:فريق يستجيب فهو حى . وفريق لا يستجيب فهو ميت ويعلم هذا الفريق أن قد حق عليه القول ، وحق عليه العذاب ! والمقطع الثانى فى هذا القطاع يعرض قضية الألوهية والوحدانية ، فى إطار من مشاهدات القوم ، ومن نعم البارىء عليهم ، وهم لا يشكرون (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ؟ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ؟ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون . فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون) أو لم يروا ؟ فآية الله هنا مشهودة منظورة بين أيديهم ، ليست غائبة ولا بعيدة ، ولا غامضة تحتاج إلى تدبر أو تفكير . . إنها هذه الأنعام التى خلقها الله لهم وملكهم إياها . وذللها لهم يركبونها ويأكلون منها ويشربون ألبانها ، وينتفعون بها منافع شتى . . وكل ذلك من قدرة الله وتدبيره ؛ ومن إيداعه ما أودع من الخصائص فى الناس وفى الأنعام ، فجعلهم قادرين على تذليلها واستخدامها والانتفاع بها . وجعلها مذللة نافعة ملبية لشتى حاجات الإنسان . وما يملك الناس أن يصنعوا من ذلك كله شيئاً . وما يملكون أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له . وما يملكون أن يذللوا ذبابة لم يركب الله فى خصائصها أن تكون ذلولاً لهم ! (أفلا يشكرون ؟) ولكن الناس لا يشكرون . وفيهم من اتخذ مع هذا كله آلهة من دون الله (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) وفى الماضى كانت الآلهة أصناماً وأوثاناً ، أو شجراً أو نجوماً ، أو ملائكة أو جناً . . والوثنية ما تزال حتى اليوم فى بعض بقاع الأرض . ولكن الذين لا يعبدون هذه الآلهة لم يخلصوا للتوحيد . وقد يتمثل شركهم اليوم فى الإيمان بقوى زائفة غير قوة الله ؛ وفى اعتمادهم على أسناد أخرى غير الله . والشرك ألوان ، تختلف باختلاف الزمان والمكان . ولقد كانوا يتخذون تلك الآلهة يبتغون أن ينالوا بها النصر . بينما كانوا هم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة أن يعتدى عليها معتد أو يصيبها بسوء ، فكانوا هم جنودها وحماتها المعدين لنصرتها (وهم لهم جند محضرون) وكان هذا غاية فى سخف التصور والتفكير . غير أن غالبية الناس اليوم لم ترتق عن هذا السخف إلا من حيث الشكل . فالذين يؤلهون الطغاة والجبارين اليوم ، لا يبعدون كثيراً عن عباد تلك الأصنام والأوثان . فهم جند محضرون للطغاة . وهم الذين يدفعون عنهم ويحمون طغيانهم . ثم هم فى الوقت ذاته يخرون للطغيان راكعين ! إن

الوثنية هى الوثنية فى شتى صورها . وحيثما اضطربت عقيدة التوحيد الخالص أى اضطراب جاءت الوثنية ، وكان الشرك ، وكانت الجاهلية ! ولا عصمة للبشرية إلا بالتوحيد الخالص الذى يفرد الله وحده بالألوهية . ويفرده وحده بالعبادة . ويفرده وحده بالتوجه والاعتماد . ويفرده وحده بالطاعة والتعظيم (فلا يحزنك قولهم . إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون) الخطاب للرسول ﷺ وهو يواجه أولئك الذين اتخذوا من دون الله آلهة . والذين لا يشكرون ولا يذكرون . ليطمئن بالاً من ناحيتهم . فهم مكشوفون لعلم الله . وكل ما يدبرونه وما يملكونه تحت عينه . فلا على الرسول منهم . وأمرهم مكشوف للقدرة القادرة . والله من ورائهم محيط ولقد هان أمرهم بهذا . وما عاد لهم من خطر يحسه مؤمن يعتمد على الله . وهو يعلم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . وأنهم فى قبضته وتحت عينه وهم لا يشعرون ! والمقطع الثالث فى هذا القطاع الأخير يتناول قضية البعث والنشور ، ويبدأ هذا المقطع بمواجهة الإنسان بواقعه هو ذاته فى خاصة نفسه . وهذا الواقع يصور نشأته وصيرورته مما يراه واقعا فى حياته ، ويشهده بعينه وحسه مكرراً معاداً . ثم لا ينتبه إلى دلالته ، ولا يتخذ منه مصداقاً لوعد الله ببعثه ونشوره بعد موته ودثوره (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) فما النطفة التى لا يشك الإنسان فى أنها أصله القريب ؟ إنها نقطة من ماء مهين ، لا قوام ولا قيمة ! نقطة من ماء تحوى ألوف الخلايا . . خلية واحدة من هذه الألوف هى التى تصير جنينا . ثم تصير هذا الإنسان الذى يجادل ربه ويخاصمه ويطلب منه البرهان والدليل ! والقدرة الخالقة هى التى تجعل من هذه النطفة ذلك الخصيم المبين . وما أبعد النقلة بين المنشأ والمصير ! أفهذه القدرة يستعظم الإنسان عليها أن تعيده وتنشره بعد البلى والدثور ؟ (وضرب لنا مثلاً – ونسى خلقه – قال:من يحيى العظام وهى رميم . قل:يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) يا للبساطة ! ويا لمنطق الفطرة ! ومنطق الواقع القريب المنظور ! وهل تزيد النطفة حيوية أو قدرة أو قيمة على العظم الرميم المفتوت ؟ أو ليس من تلك النطفة كان الإنسان ؟ أو ليست هذه هى النشأة الأولى ؟ أو ليس الذى حول تلك النطفة إنساناً ، وجعله خصيماً مبيناً بقادر على أن يحول العظم الرميم مخلوقاً حياً جديداً ؟ إن الأمر أيسر وأظهر من أن يدور حوله سؤال . فما بال الجدل الطويل ؟! (قل:يحييها الذى أنشأها أول مرة . وهو بكل خلق عليم) ثم يزيدهم إيضاحاً لطبيعة القدرة الخالقة ، وصنعها فيما بين أيديهم وتحت أعينهم مما يملكون (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون) ثم يستطرد فى عرض دلائل القدرة وتبسيط قضية الخلق والإعادة للبشر أجمعين (أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم) والسماوات والأرض خلق عجيب هائل دقيق . . هذه الأرض التى نعيش عليها ويشاركنا ملايين الأجناس والأنواع ، ثم لا نبلغ نحن شيئاً من حجمها ، ولا شيئاً من حقيقتها ، ولا نعلم عنها حتى اليوم إلا القليل . . هذه الأرض كلها تابع صغير من توابع الشمس التى تعيش أرضنا الصغيرة على ضوئها وحرارتها . . وهذه الشمس واحدة من مائة مليون فى المجرة الواحدة التى تتبعها شمسنا ، والتى تؤلف دنيانا القريبة ! وفى الكون مجرات أخرى كثيرة . أو دنييات كدنيانا القريبة . تلك الشموس التى لا يحصيها العد . لكل منها فلك تجرى فيه . ولمعظمها توابع ذات مدارات حولها كمدار الأرض حول الشمس . . وكلها تجرى وتدور فى دقة وفى دأب . لا تتوقف لحظة ولا تضطرب . وإلا تحطم الكون المنظور واصطدمت هذه الكتل الهائلة السابحة فى الفضاء الوسيع . هذا الفضاء الذى تسبح فيه تلك الملايين التى لا يحصيها العد ، كأنها ذرات صغيرة . لا نحاول تصويره ولا تصوره . . فذلك شيء يدير الرؤوس ! (أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟) وأين الناس من ذلك الخلق الهائل العجيب ؟ (بلى ! وهو الخلاق العليم) ولكن الله – سبحانه – يخلق هذا وذلك ويخلق غيرهما بلا كلفة ولا جهد . ولا يختلف بالقياس إليه خلق الكبير وخلق الصغير (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له:كن . فيكون) يكون هذا الشيء سماء أو أرضا . ويكون بعوضة أو نملة . هذا وذلك سواء أمام الكلمة . . كن . . فيكون ! ليس هناك صعب ولا سهل . وليس هنالك قريب ولا بعيد . . فتوجه الإرادة لخلق الشيء كاف وحده لوجوده كائنا ما يكون . إنما يقرب الله للبشر الأمور ليدركوها بمقياسهم البشرى المحدود . وعند هذا المقطع يجيء الإيقاع الأخير فى السورة . الإيقاع المصور لحقيقة العلاقة بين الوجود وخالق الوجود (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء . وإليه ترجعون) ولفظة ملكوت بصياغتها هذه تضخم وتعظم حقيقة هذه العلاقة . علاقة الملكية المطلقة لكل شيء فى الوجود . والسيطرة القابضة على كل شيء من هذا المملوك . ثم إن إليه وحده المرجع والمصير . إنه الإيقاع الختامى المناسب لهذه الجولة الهائلة ، وللسورة كلها ، ولموضوعاتها المتعلقة بهذه الحقيقة الكبيرة ، التى يندرج فيها كل تفصيل .

سورة الصافات
مكية ، و آياتها ١٨٢

هذه السورة المكية – كسابقتها – قصيرة الفواصل ، سريعة الإيقاع ، كثيرة المشاهد والمواقف , متنوعة الصور والظلال ، عميقة المؤثرات ، وبعضها عنيف الوقع ، شديد التأثير . وهى تستهدف – كسائر السور المكية – بناء العقيدة فى النفوس ، وتخليصها من شوائب الشرك فى كل صوره وأشكاله . ولكنها – بصفة خاصة – تعالج صورة معينة من صور الشرك التى كانت سائدة فى البيئة العربية الأولى . وتقف أمام هذه الصورة طويلاً ؛ وتكشف عن زيفها وبطلانها بوسائل شتى . . تلك هى الصورة التى كانت جاهلية العرب تستسيغها ، وهى تزعم أن هناك قرابة بين الله – سبحانه – وبين الجن . وتستطرد فى تلك الأسطورة فتزعم أنه من التزاوج بين الله – تعالى – والجنة ولدت الملائكة . ثم تزعم أن الملائكة إناث ، وأنهن بنات الله ! هذه الأسطورة تتعرض لحملة قوية فى هذه السورة ؛ تكشف عن تهافتها وسخفها . ونظراً لأنها هى الموضوع البارز الذى تعالجه السورة ، فإنها تبدأ بالإشارة إلى طوائف من الملائكة (والصافات صفاً . فالزاجرات زجراً . فالتاليات ذكراً) ويتلوها حديث عن الشياطين المردة ، وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة كى لا يقربوا من الملأ الأعلى . ولا يتسمعوا لما يدور فيه ؛ ولو كانوا حيث تزعم لهم أساطير الجاهلية ما طوردوا هذه المطاردة ! كذلك يشبه ثمار شجرة الزقوم التى يعذب بها الظالمون فى جهنم بأنها كرؤوس الشياطين فى معرض التقبيح والتفظيع ! وفى نهاية السورة تأتى الحملة المباشرة على تلك الأسطورة المتهافتة (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ؟ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ؟ ألا إنهم من إفكهم ليقولون:ولد الله وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ؟ ما لكم كيف تحكمون ؟ أفلا تذكرون ؟ أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين . وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون . . سبحان الله عما يصفون !) وإلى جانب علاج هذه الصورة الخاصة من صور الشرك الجاهلية تتناول السورة جوانب العقيدة الأخرى التى تتناولها السور المكية . فتثبت فكرة التوحيد مستدلة بالكون المشهود (إن إلهكم لواحد رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق) وتنص على أن الشرك هو السبب فى عذاب المعذبين فى ثنايا مشهد من مشاهد القيامة (فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون . إنا كذلك نفعل بالمجرمين . إنهم كانوا إذا قيل لهم:لا إله إلا الله يستكبرون ؛ ويقولون:أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ؟ بل جاء بالحق وصدق المرسلين . إنكم لذائقوا العذاب الأليم . وما تجزون إلا ما كنتم تعملون) كذلك تتناول قضية البعث والحساب والجزاء (وقالوا:إن هذا إلا سحر مبين أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ قل نعم وأنتم داخرون) ثم تعرض بهذه المناسبة مشهداً مطولاً فريداً من مشاهد القيامة الحافلة بالمناظر والحركات والانفعالات والمفاجآت ! وتعرض لقضية الوحى والرسالة الذى ورد من قول ١ (أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) والرد عليهم (بل جاء بالحق وصدق المرسلين) وبمناسبة ضلالهم وتكذيبهم تعرض سلسلة من قصص الرسل:نوح وإبراهيم وبنيه . وموسى وهارون . وإلياس . ولوط . ويونس . تتكشف فيها رحمة الله ونصره لرسله وأخذه للمكذبين بالعذاب والتنكيل (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين . ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين) وتبرز فى هذا القصص قصة إبراهيم خاصة مع ابنه إسماعيل . قصة الذبح والفداء وتبرز فيها الطاعة والاستسلام لله فى أروع صورها وأعمقها وأرفعها ؛ وتبلغ الذروة التى لا يبلغها إلا الإيمان الخالص الذى يرفع النفوس إلى ذلك الأفق السامق الوضيء .

والمؤثرات الموحية التى تصاحب عرض موضوعات السور وقضاياها ، تتمثل بشكل واضح فى:

مشهد السماء وكواكبها وشهبها ورجومها (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظاً من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب)

وفى مشاهد القيامة ومواقفها المثيرة ، ومفاجآتها الفريدة ، وانفعالاتها القوية . والمشاهد التى تحويها هذه السورةذات طابع فريد حقاً سنلمسه عند استعراضه تفصيلاً فى مكانه من السورة .

وفى القصص ومواقفه وإيحاءاته . وبخاصة فى قصة إبراهيم وولده الذبيح إسماعيل – عليهما السلام ، وترتفع المؤثرات الموحية هنا إلى الذروة التى تهز القلوب هزاً عميقاً عنيفاً .

ذلك إلى الإيقاع الموسيقى فى السورة وهو ذو طابع مميز يتفق مع صورها وظلالها ومشاهدها ومواقفها وإيحاءاتها المتلاحقة العميقة .

ويجرى سياق السورة فى عرض موضوعاتها فى ثلاثة أشواط رئيسية:

الشوط الأول يتضمن افتتاح السورة بالقسم بتلك الطوائف من الملائكة (والصافات صفا . فالزاجرات زجراً . فالتاليات ذكراً) على وحدانية الله رب المشارق ، مزين السماء بالكواكب . ثم تجىء مسألة الشياطين وتسمعهم للملأ الأعلى ورجمهم بالشهب الثاقبة . يتلوها سؤال لهم ، أهم أشد خلقاً أم تلك الخلائق:الملائكة والسماء والكواكب والشياطين والشهب ؟ للتوصل من هذا إلى تسفيه ما كانوا يقولونه عن البعث ، وإثبات ما كانوا يستبعدونه ويستهزئون بوقوعه . ومن ثم يعرض ذلك المشهد المطول للبعث والحساب والنعيم والعذاب . وهو مشهد فريد . .

والشوط الثانى يبدأ بأن هؤلاء الضالين لهم نظائر فى السابقين ، الذين جاءتهم النذر فكان أكثرهم من الضالين . ويستطرد فى قصص أولئك المنذرين من قوم نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس ؛ وكيف كانت عاقبة المنذرين وعاقبة المؤمنين .

والشوط الثالث يتحدث عن تلك الأسطورة التى مر ذكرها . إسطورة الجن والملائكة . ويقرر كذلك وعد الله لرسله بالظفر والغلبة (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) وينتهى بختام السورة بتنزيه الله سبحانه والتسليم على رسله والاعتراف بربوبيته (سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين) وهى القضايا التى تتناولها السورة فى الصميم . .

والآن نأخذ فى التفصيل:

(وَالصَّافَّاتِ صَفّاً{١} فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً{٢} فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً{٣} إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ{٤} رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ{٥} إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ{٦} وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ{٧} لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ{٨} دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ{٩} إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ{١٠} فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّنْ طِينٍ لَّازِبٍ{١١} بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ{١٢} وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ{١٣} وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ{١٤} وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ{١٥} أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ{١٦} أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ){١٧}

(والصافات صفاً ، فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً ، إن إلهكم لواحد . رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق) والصافات والزاجرات والتاليات . . . طوائف من الملائكة ذكرها هنا بأعمالها التى يعلمها . والتى يجوز أن تكون هى الصافات قوائمها فى الصلاة ، أو أجنحتها فى ارتقاب أمر الله . والزاجرات لمن يستحق الزجر من العصاة فى أثناء قبض أرواحهم مثلاً أو عند الحشر والسوق إلى جهنم أو فى أية حالة وفى أى موضع . والتاليات للذكر . . القرآن أو غيره من كتب الله أو المسبحات بذكر الله . يقسم الله سبحانه بهذه الطوائف من الملائكة على وحدانيته (إن إلهكم لواحد) ومناسبة هذا القسم – كما أسلفنا – هو تلك الأسطورة التى كانت شائعة فى جاهلية العرب من نسبة الملائكة إلى الله ، واتخاذهم آلهة بما أنهم – بزعمهم – بنات الله ! ثم يعرف الله عباده بنفسه فى صفته المناسبة للوحدانية (رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق) وهذه السماوات والأرض قائمة حيال العباد ؛ تحدثهم عن الخالق البارى ء المدبر

لهذا الملكوت الهائل ؛ الذى لا يدعى أحد أنه يملك خلقه وتدبيره ؛ ولا يملك أحد أن يهرب من الاعتراف لخالقه بالقدرة المطلقة والربوبية الحقة (وما بينهما) من هواء وسحاب ، وضوء ونور ، ومخلوقات دقيقة يعرف البشر شيئاً منها الحين بعد الحين ، ويخفى عليهم منها أكثر مما يكشف لهم ! والسماوات والأرض وما بينهما من الضخامة والعظمة والدقة والتنوع والجمال والتناسق بحيث لا يملك الإنسان نفسه أمامها – حين يستيقظ قلبه – من التأثر العميق ، والروعة البالغة ، والتفكر الطويل . وما يمر الإنسان بهذا الخلق العظيم من غير ما تأثر ولا تدبر إلا حين يموت قلبه ، فيفقد التأثر والاستجابة لإيقاعات هذا الكون الحافل بالعجائب (ورب المشارق) ولكل نجم مشرق ، ولكل كوكب مشرق ، فهى مشارق كثيرة فى كل جانب من جوانب السماوات الفسيحة (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظاً من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ، دحوراً ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) بعد ما مس فى مطلع السورة شطر الأسطورة الخاص بالملائكة ، عاد يمس هنا شطرها الثانى وهو الخاص بالشياطين . وكانوا يزعمون أن بين الله وبين الجنة نسباً . وبعضهم كانوا يعبدون الشياطين على هذا الأساس . وعلى أساس أن الشياطين يعرفون الغيب لاتصالهم بالملأ الأعلى . وبعد ذكر السماوات والأرض وما بينهما وذكر المشارق . إما مشارق النجوم والكواكب . وإما المشارق المتوالية على قطاعات الأرض . وإما هذه وتلك وأنوارها وأضوائها . يجىء ذكر الكواكب (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) ونظرة إلى السماء كافية لرؤية هذه الزينة ؛ ولإدراك أن الجمال عنصر مقصود فى بناء هذا الكون ؛ وأن صنعة الصانع فيه بديعة التكوين جميلة التنسيق ؛ وأن الجمال فيه فطرة عميقة لا عرض سطحى ؛ وأن تصميمه قائم على جمال التكوين كما هو قائم على كمال الوظيفة سواء بسواء . فكل شىء فيه بقدر ، وكل شىء فيه يؤدى وظيفته بدقة ؛ وهو فى مجموعه جميل . ثم تقرر الآية التالية أن لهذه الكواكب وظيفة أخرى ، وأن منها شهباً ترجم بها الشياطين كى لا تدنو من الملأ الأعلى (وحفظاً من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) فمن الكواكب رجوم تحفظ السماء من كل شيطان عات متمرد وتذوده عن الاستماع إلى ما يدور فى الملأ الأعلى ؛ فإذا حاول التسمع تلقفته الرجوم من كل جانب ، فتدحره دحراً ، وله فى الآخرة عذاب موصول لا ينقطع . ولقد يخطف الشيطان المارد خطفة سريعة مما يدور فى الملأ الأعلى ، فيتبعه شهاب يلاحقه فى هبوطه فيصيبه ويحرقه حرقاً . وبعد ذكر الملائكة . وذكر السماوات والأرض وما بينهما . وذكر الكواكب التى تزين السماء الدنيا . وذكر الشياطين المردة والقذائف التى تلاحقها . . يكلف الرسول ﷺ أن يسألهم أهم أشد خلقاً أم هذه الخلائق ؟ وإذا كانت هذه الخلائق أشد وأقوى ففيم يدهشون لقضية البعث ويسخرون منها ، ويستبعدون وقوعها ، وهى لا تقاس إلى خلق تلك الخلائق الكبرى (فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا ؟ إنا خلقناهم من طين لازب . بل عجبت ويسخرون . وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون:وقالوا:إن هذا إلا سحر مبين . أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟) فاستفتهم واسألهم إذا كانت الملائكة والسماوات والأرض وما بينهما والشياطين والكواكب والشهب كلها من خلق الله . فهل خلقهم هم أشد وأصعب من خلق هذه الأكوان والخلائق ? ولا ينتظر منهم جواباً ، فالأمر ظاهر ؛ إنما هو سؤال الاستنكار والتعجيب من حالهم العجيب . وغفلتهم عما حولهم ، والسخرية من تقديرهم للأمور . ومن ثم يعرض عليهم مادة خلقهم الأولى . وهى طين رخو لزج من بعض هذه الأرض ، التى هى إحدى تلك الخلائق (إنا خلقناهم من طين لازب) فهم قطعاً ليسوا أشد خلقاً من تلك الخلائق ! وموقفهم إذن عجيب . وهم يسخرون من آيات الله ، ومن وعده لهم بالبعث والحياة . وسخريتهم هذه تثير العجب فى نفس الرسول ﷺ وهم فى موقفهم سادرون (بل عجبت ويسخرون . وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون) وحق لرسول الله ﷺ أن يعجب من أمرهم . فإن المؤمن الذى يرى الله فى قلبه كما يراه محمد ﷺ ويرى آيات الله واضحة هذا الوضوح ، كثيرة هذه الكثرة ، يعجب – لا شك – ويدهش كيف يمكن أن تعمى عنها القلوب ؟ وكيف يمكن أن تقف منها هذا الموقف العجيب ! وبينما رسول الله ﷺ يعجب منهم هذا العجب ، إذا هم يسخرون من القضية الواضحة التى يعرضها عليهم ، سواء فى وحدانية الله ، أو فى شأن البعث والنشور . وإذا هم مطموسون لا تتفتح قلوبهم للتذكير . وإذا هم يتلقون آيات الله بالسخرية الشديدة ، ومن ذلك وصفهم القرآن بأنه سحر ، وعجبهم مما يعدهم به من البعث (وقالوا:إن هذا إلا سحر مبين . أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟) لقد غفلوا عن آثار قدرة الله فيما حولهم ، وفى ذات أنفسهم . غفلوا عن آثار هذه القدرة فى خلق السماوات والأرض وما بينهما ؛ وفى خلق الكواكب والشهب ؛ وفى خلق الملائكة والشياطين ؛ وفى خلقهم هم أنفسهم من طين لازب . غفلوا عن آثار القدرة فى هذا كله ووقفوا يستبعدون على هذه القدرة أن تعيدهم إذا ماتوا وصاروا تراباً وعظاماً , هم وآباءهم الأولين ! وما فى هذا البعث

والإعادة من غريب على تلك القدرة ولا بعيد ؛ لمن يتأمل هذا الواقع ويتدبره أقل تدبر ؛ فى ضوء هذه المشاهدات التى تحيط بهم فى الآفاق وفى أنفسهم .

(قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ{١٨} فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ{١٩} وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ{٢٠} هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ{٢١} احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ{٢٢} مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ{٢٣} وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ{٢٤} مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ{٢٥} بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ{٢٦} وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ{٢٧} قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ{٢٨} قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ{٢٩} وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ{٣٠} فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ{٣١} فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ{٣٢} فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ{٣٣} إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ{٣٤} إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ{٣٥} وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ{٣٦} بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ{٣٧} إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ{٣٨} وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٣٩} إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ{٤٠} أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ{٤١} فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ{٤٢} فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ{٤٣} عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ{٤٤} يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ{٤٥} بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ{٤٦} لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ{٤٧} وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ{٤٨} كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ{٤٩} فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ{٥٠} قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ{٥١} يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ{٥٢} أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ{٥٣} قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ{٥٤} فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ{٥٥} قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ{٥٦} وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ{٥٧} أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ{٥٨} إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ{٥٩} إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{٦٠} لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ{٦١} أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ{٦٢} إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ{٦٣} إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ{٦٤} طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ{٦٥} فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ{٦٦} ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّن حَمِيمٍ{٦٧} ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ){٦٨}

وإذ كانوا لا يتدبرون هذه المشاهدات فى هوادة ويسر ، وفى طمأنينة وهدوء . فهو يوقظهم إذن بشدة وعنف ، على مشهدهم فى الآخرة مبعوثين . ويصور لهم ذلك المشهد وهم فيه يضطربون (قل:نعم وأنتم داخرون) نعم ستبعثون أنتم وآباؤكم الأولون . ستبعثون وأنتم داخرون ، ذلولون ، مستسلمون . غير مستعصين ولا متأبين . . نعم . . ثم يدخل فى استعراض ذلك كيف يكون . وإذا هم أمام مشهد من المشاهد المطولة المتعددة الجوانب . المتنوعة الأساليب . المزدحمة بالمناظر الحية والحركات المتتابعة . يلتقى فيها الوصف بالحوار . فتسير على نسق الحكاية فترة ، ثم تنتقل إلى نسق الحوار أخرى . ويتخلل عرض الأحداث والحركات تعليقات وتعقيبات عليها . وبذلك يستكمل المشهد كل سمات الحياة (فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون) هكذا فى ومضة خاطفة بمقدار ما تنبعث صيحة واحدة . تسمى(زجرة) للدلالة على لون من الشدة فيها ، والعنف فى توجيهها ، والاستعلاء فى مصدرها (فإذا هم ينظرون) فجأة وبلا تمهيد أو تحضير . وإذا هم يصيحون مبهوتين (وقالوا:يا ويلنا . هذا يوم الدين) وبينما هم فى بهتتهم وبغتتهم إذا صوت يحمل إليهم التقريع من حيث لا يتوقعون (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) وهكذا ينتقل السياق من الخبر إلى الخطاب موجهاً لمن كانوا يكذبون بيوم الدين . وإن هى إلا تقريعة واحدة حاسمة . ثم يوجه الأمر إلى الموكلين بالتنفيذ (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم . وقفوهم إنهم مسؤولون (احشروا الذين ظلموا ومن هم على شاكلتهم من المذنبين ، فهم أزواج متشاكلون . وفى الأمر – على ما فيه من لهجة جازمة – تهكم واضح فى قوله (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) فما أعجبها من هداية خير منها الضلال . وإنها لهى الرد المكافىء لما كان منهم من ضلال عن الهدى القويم . وإذ لم يهتدوا فى الدنيا إلى الصراط المستقيم ، فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم ! وها هم أولاء قد هدوا . هدوا إلى صراط الجحيم . ووقفوا على استعداد للسؤال . وها هو ذا الخطاب يوجه إليهم بالتقريع فى صورة سؤال برىء ! (ما لكم لا تناصرون ؟)! ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً ، وأنتم هنا جميعاً ؟ وكلكم فى حاجة إلى الناصر المعين !؟ ومعكم آلهتكم التى كنتم تعبدون ! ولا جواب بطبيعة الحال ولا كلام ! إنما يرد التعليق والتعقيب (بل هم اليوم مستسلمون) عابدين . ومعبودين !!! ثم يعود السياق مرة أخرى إلى الحكاية ، ويعرض مشهدهم يجادل بعضهم بعضاً (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا:إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) أى كنتم توسوسون لنا عن يميننا – كما هو المعتاد فى حالة الوسوسة بالأسرار غالباً – فأنتم مسؤولون عما نحن فيه . وعندئذ ينبرى المتهمون لتسفيه هذا الاتهام ، وإلقاء التبعة على موجهيه (قالوا:بل لم تكونوا مؤمنين) فلم تكن وسوستنا هى التى

أغوتكم بعد إيمان ، وأضلتكم بعد هدى (وما كان لنا عليكم من سلطان) نرغمكم به على قبول ما نراه ، ونضطركم إليه اضطراراً لا ترغبون فيه (بل كنتم قوماً طاغين) متجاوزين للحق ، ظالمين لا تقفون عند حد (فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون) فاستحققنا نحن وأنتم العذاب ، وحق علينا الوعيد بأن نذوق العذاب . وقد انزلقتم معنا بسبب استعدادكم للغواية ، وما فعلنا بكم إلا أنكم اتبعتمونا فى غوايتنا (فأغويناكم إنا كنا غاوين) وهنا يرد تعليق آخر ، وكأنه حكم يعلن على رؤوس الأشهاد ، يحمل أسبابه ، ويعرض ما كان منهم فى الدنيا مما حقق قول الله عليهم فى الآخرة (فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون . إنا كذلك نفعل بالمجرمين . إنهم كانوا إذا قيل لهم:لا إله إلا الله يستكبرون ؛ ويقولون:أإنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون) ثم يكمل التعليق متوجهاً فيه بالتأنيب والتقبيح لقائلى هذا الكلام المرذول (بل جاء بالحق وصدق المرسلين . إنكم لذائقو العذاب الأليم . وما تجزون إلا ما كنتم تعملون . إلا عباد الله المخلصين) وعلى ذكر عباد الله المخلصين – الذين استثناهم من تذوق العذاب الأليم – يعرض صفحة هؤلاء العباد المخلصين فى يوم الدين . ويعود العرض متبعاً نسق الإخبار المصور للنعيم الذى يتقلبون فى أعطافه – فى مقابل ذلك العذاب الأليم للمكذبين (أولئك لهم رزق معلوم . فواكه وهم مكرمون . فى جنات النعيم . على سرر متقابلين . يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون . وعندهم قاصرات الطرف عين . كأنهن بيض مكنون . . .) وهو نعيم مضاعف يجمع كل مظاهر النعيم . نعيم تستمتع به النفس ويستمتع به الحس . وتجد فيه كل نفس ما تشتهيه من ألوان النعيم . فهم – أولاً – عباد الله المخلصون . وفى هذه الإشارة أعلى مراتب التكريم . وهم ثانيا (مكرمون) فى الملأ الأعلى . وياله من تكريم ! ثم إن لهم (فواكه) وهم على (سرر متقابلين) وهم يخدمون فلا يتكلفون شيئاً من الجهد فى دار الراحة والرضوان والنعيم (يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) وتلك أجمل أوصاف الشراب ، التى تحقق لذة الشراب ، وتنفى عقابيله . فلا خمار يصدع الرؤوس ، ولا منع ولا انقطاع يذهب بلذة المتاع إ(وعندهم قاصرات الطرف عين) حور حييات لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن حياء وعفة ، مع أنهن (عين) واسعات جميلات العيون ! وهن كذلك مصونات مع رقة ولطف ونعومة (كأنهن بيض مكنون) لا تبتذله الأيدى ولا العيون ! ثم يمضى فى الحكاية المصورة ؛ فإذا عباد الله المخلصون هؤلاء – بعد ما يسرت لهم كل ألوان المتاع – ينعمون بسمر هادىء ، يتذاكرون فيه الماضى والحاضر – وذلك فى مقابل التخاصم والتلاحى الذى يقع بين المجرمين فى أول المشهد – وإذا أحدهم يستعيد ماضيه , ويقص على إخوانه طرفاً مما وقع له (قال قائل منهم:إنى كان لى قرين . يقول:أإنك لمن المصدقين . أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمدينون ؟) لقد كان صاحبه وقرينه ذاك يكذب باليوم الآخر ، ويسائله فى دهشة:أهو من المصدقين بأنهم مبعوثون فمحاسبون بعد إذ هم تراب وعظام ؟! وبينما هو ماض فى قصته يعرضها فى سمره مع إخوانه ، يخطر له أن يتفقد صاحبه وقرينه ذاك ليعرف مصيره . وهو يعرف بطبيعة الحال أنه قد صار إلى الجحيم . فيتطلع ويدعو إخوانه إلى التطلع معه قال (هل أنتم مطلعون ؟ فاطلع فرآه فى سواء الجحيم) عندئذ يتوجه إلى قرينه الذى وجده فى وسط الجحيم . يتوجه إليه ليقول له:يا هذا . لقد كدت توردنى موارد الردى بوسوستك . لولا أن الله قد أنعم على ، فعصمنى من الاستماع إليك (قال:تالله إن كدت لتردين . ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين) أى لكنت من الذين يساقون إلى الموقف وهم كارهون . وتثير رؤيته لقرينه فى سواء الجحيم شعوره بجزالة النعمة التى نالها هو وإخوانه من عباد الله المخلصين . فيحب أن يؤكدها ويستعرضها ، ويطمئن إلى دوامها ، تلذذاً بها وزيادة فى المتاع بها فيقول (أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى ؟ وما نحن بمعذبين ؟ إن هذا لهو الفوز العظيم) وهنا يرد تعليق يوقظ القلوب ويوجهها إلى العمل والتسابق لمثل هذا المصير (لمثل هذا) النعيم الذى لا يدركه فوت ، ولا يخشى عليه من نفاد ، ولا يعقبه موت ، ولا يتهدده العذاب . لمثل هذا فليعمل العاملون . . فهذا هو الذى يستحق الاحتفال . وما عداه مما ينفق فيه الناس أعمارهم على الأرض زهيد زهيد حين يقاس إلى هذا الخلود . ولكى يتضح الفارق الهائل بين هذا النعيم الخالد الآمن الدائم الراضى ؛ والمصير الآخر الذى ينتظر الفريق الآخر . فإن السياق يستطرد إلى ما ينتظر هذا الفريق بعد موقف الحشر والحساب الذى ورد فى مطلع المشهد الفريد (أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم ! إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم . ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) أذلك النعيم المقيم خير منزلاً ومقاماً أم شجرة الزقوم ؟ وما شجرة الزقوم ؟ (إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين) والناس لا يعرفون رؤوس الشياطين كيف تكون ! ولكنها مفزعة ولا شك . ومجرد تصورها يثير الفزع والرعب . فكيف إذا كانت طلعاً يأكلونه ويملأون منه البطون ؟! لقد جعل الله هذه الشجرة فتنة للظالمين . فحين سمعوا باسمها سخروا وقالوا:كيف تنبت شجرة فى الجحيم ولا تحترق . وقال قائل منهم هو أبو جهل ابن هشام يسخر ويتفكه:" يا معشر قريش هل تدرون ما شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد ؟ قالوا:لا:قال عجوة يثرب

بالزبد ! والله لئن استمكنا منها لنزقمنها تزقماً" ! ولكن شجرة الزقوم هذه شيء آخر غير ذلك الطعام الذى كانوا يعرفون ! (فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون) فإذا شاكت حلوقهم وهى كرؤوس الشياطين - وحرقت بطونهم - وهى تنبت فى أصل الجحيم ولا تحترق لأنها من نوع الجحيم ! - وتطلعوا إلى برد الشراب ينقع الغلة ويطفىء اللهيب . فإنهم لشاربون عليها ماء ساخناً مشوباً غير خالص (ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم). وبعد هذه الوجبة يغادرون تلك المائدة عائدين إلى مقرهم المقيم . ويا له من نزل ! ويا له من معاد ! (ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) بذلك يختم المشهد الفريد . وينتهى الشوط الأول من السورة . وكأنما كان قطعة من الواقع المشهود .

(إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ{٦٩} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ{٧٠} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ{٧١} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ{٧٢} فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ{٧٣} إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ{٧٤} وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ{٧٥} وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ{٧٦} وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ{٧٧} وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ{٧٨} سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ{٧٩} إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{٨٠} إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ{٨١} ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ{٨٢} وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ{٨٣} إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ{٨٤} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ{٨٥} أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ{٨٦} فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ{٨٧} فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ{٨٨} فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ{٨٩} فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ{٩٠} فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ{٩١} مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ{٩٢} فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ{٩٣} فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ{٩٤} قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ{٩٥} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ{٩٦} قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ{٩٧} فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ{٩٨} وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ{٩٩} رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ{١٠٠} فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ{١٠١} فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ{١٠٢} فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ{١٠٣} وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ{١٠٤} قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{١٠٥} إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ{١٠٦} وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ{١٠٧} وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ{١٠٨} سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ{١٠٩} كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{١١٠} إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ{١١١} وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ{١١٢} وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ{١١٣} وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ{١١٤} وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ{١١٥} وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ{١١٦} وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ{١١٧} وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ{١١٨} وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ{١١٩} سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ{١٢٠} إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{١٢١} إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ{١٢٢} وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ{١٢٣} إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ{١٢٤} أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ{١٢٥} اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ{١٢٦} فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ{١٢٧} إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ{١٢٨} وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ{١٢٩} سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ{١٣٠} إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{١٣١} إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ{١٣٢} وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ{١٣٣} إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ{١٣٤} إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ{١٣٥} ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ{١٣٦} وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ{١٣٧} وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ{١٣٨} وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ{١٣٩} إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ{١٤٠} فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ{١٤١} فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ{١٤٢} فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ{١٤٣} لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{١٤٤} فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ{١٤٥} وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ{١٤٦} وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ{١٤٧} فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ){١٤٨}

فى هذا الدرس يعود السياق من الجولة الأولى فى ساحة الآخرة ، وفى مجالى النعيم ودارات العذاب ، يعود ليستأنف جولة أخرى فى تاريخ البشر مع آثار الذاهبين الأولين ، يعرض فيها قصة الهدى والضلال منذ فجر البشرية الأولى ؛ فإذا هى قصة مكرورة معادة ؛ وإذا القوم الذين يواجهون الرسول ﷺ فى مكة بالكفر والضلال بقية من أولئك المكذبين الضالين . ويكشف لهؤلاء عما جرى لمن كان قبلهم ، ويلمس قلوبهم بهذه الصفحات المطوية فى بطون التاريخ ، ويطمئن المؤمنين برعاية الله التى لم تتخل فى الماضى عن المؤمنين . وفى هذا السياق يستعرض طرفاً من قصص نوح ، وإبراهيم ، وإسماعيل وإسحاق ، وموسى وهارون ، وإلياس ، ولوط ، ويونس . . ويقف وقفة أطول أمام قصة إبراهيم وإسماعيل . يعرض فيها عظمة الإيمان والتضحية والطاعة ، وطبيعة الإسلام الحقيقية كما هى فى نفسى إبراهيم وإسماعيل ، فى حلقة لا تعرض فى غير هذه السورة ، ولا ترد إلا فى هذا السياق . . وهذا القصص هو قوام هذا الدرس الأصيل (إنهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون . ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين . ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين) إنهم عريقون فى الضلالة ، وهم فى

الوقت ذاته مقلدون لا يفكرون ولا يتدبرون ؛ بل يطيرون معجلين يقفون خطى آبائهم الضالين غير ناظرين ولا متعقلين (إنهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون) وهم وآباؤهم صورة من صور الضلال التى يمثلها أكثر الأولين (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) وكان ضلالهم بعد الإنذار والتحذير (ولقد أرسلنا فيهم منذرين) ولكن كيف كانت العاقبة ؟ كيف كانت عاقبة المكذبين ؟ (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ، إلا عباد الله المخلصين) ويبدأ بقصة نوح فى إشارة سريعة تبين العاقبة ، وتقرر عناية الله بعباده المخلصين (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وأهله من الكرب العظيم . وجعلنا ذريته هم الباقين . وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على نوح فى العالمين . إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . ثم أغرقنا الآخرين)وتتضمن هذه الإشارة توجه نوح بالنداء إلى ربه ، وإجابة دعوته إجابة كاملة وافية . إجابتها من خير مجيب . الله سبحانه (فلنعم المجيبون) وتتضمن نجاته هو وأهله من الكرب العظيم . كرب الطوفان الذى لم ينج منه إلا من أراد له الله النجاة وقدر له الحياة . . وتتضمن قدر الله بأن يجعل من ذرية نوح عماراً لهذه الأرض وخلفاء . وأن يبقى ذكره فى الأجيال الآتية إلى آخر الزمان (وتركنا عليه فى الآخرين) وتعلن فى الخافقين سلام الله على نوح . جزاء إحسانه (سلام على نوح فى العالمين . إنا كذلك نجزى المحسنين) وأى جزاء بعد سلام الله . والذكر الباقى مدى الحياة ! أما مظهر الإحسان وسبب الجزاء فهو الإيمان (إنه من عبادنا المؤمنين) وهذه هى عاقبة المؤمنين فأما غير المؤمنين من قوم نوح فقد كتب الله عليهم الهلاك والفناء (ثم أغرقنا الآخرين) ومضت سنة الله منذ فجر البشرية البعيد . وفق ذلك الإجمال فى مقدمة القصص (ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين) ثم تجىء قصة إبراهيم . تجىء فى حلقتين رئيسيتين:حلقة دعوته لقومه ، وتحطيم الأصنام , وهمهم به ليقتلوه , وحماية الله له وخذلان شانئيه – وهى حلقة تكررت من قبل فى سور القرآن – وحلقة جديدة لا تعرض فى غير هذه السورة . وهى الخاصة بحادث الرؤيا والذبح والفداء , مفصلة المراحل والخطوات والمواقف ، فى أسلوبها الأخاذ وأدائها الرهيب ! ممثلة أعلى صور الطاعة والتضحية والفداء والتسليم فى عالم العقيدة فى تاريخ البشرية الطويل (وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه:ماذا تعبدون ? أإفكاً آلهة دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين ؟) هذا هو افتتاح القصة ، والمشهد الأول فيها . . نقلة من نوح إلى إبراهيم . وبينهما صلة من العقيدة والدعوة والطريق . فهو من شيعة نوح على تباعد الزمان بين الرسولين والرسالتين ؛ ولكنه المنهج الإلهى الواحد ، الذى يلتقيان عنده ويرتبطان به ويشتركان فيه ، ويبرز من صفة إبراهيم سلامة القلب وصحة العقيدة وخلوص الضمير (إذ جاء ربه بقلب سليم) وهى صورة الاستسلام الخالص . تتمثل فى مجيئه لربه . وصورة النقاء والطهارة والبراءة والاستقامة تتمثل فى سلامة قلبه . والتعبير بالسلامة تعبير موح مصور لمدلوله , وبهذا القلب السليم ، استنكر ما عليه قومه واستبشعه . استنكار الحس السليم لكل ما تنبو عنه الفطرة الصادقة من تصور ومن سلوك (إذ قال لأبيه وقومه:ماذا تعبدون ؟ أإفكاً آلهة دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين) وهو يراهم يعبدون أصناماً وأوثاناً . فيهتف بهم هتاف الفطرة السليمة فى استنكار شديد (ماذا تعبدون ؟) ماذا ؟ فإن ما تعبدون ليس من شانه أن يعبد ، ولا أن يكون له عابدون ! وما يعبده الإنسان فى شبهة من حق . إنما هو الإفك المحض . والافتراء الذى لا شبهة فيه . فهل أنتم تقصدون إلى الإفك قصداً وإلى الافتراء عمداً (أإفكاً آلهة دون الله تريدون ؟) وما هو تصوركم لله ؟ وهل يهبط وينحرف إلى هذا المستوى الذى تنكره الفطرة لأول وهلة (فما ظنكم برب العالمين ؟) وهى كلمة يبدو فيها استنكار الفطرة السليمة البريئة ، وهى تطلع على الأمر البين الذى يصدم الحس والعقل والضمير . ويسقط السياق هنا ردهم عليه ، وحوارهم معه ؛ ويمضى مباشرة فى المشهد التالى إلى عزيمته التى قررها فى نفسه تجاه هذا الإفك المكشوف (فنظر نظرة فى النجوم . فقال:إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال:ألا تأكلون ؟ مالكم لا تنطقون ؟ فراغ عليهم ضرباً باليمين) ويروى أنه كان للقوم عيد – ربما كان هو عيد النيروز – يخرجون فيه إلى الحدائق والخلوات , بعد أن يضعوا الثمار بين يدى آلهتهم لتباركها . ثم يعودون بعد الفسحة والمرح فيأخذون طعامهم المبارك ! وأن إبراهيم – عليه السلام – بعد أن يئس من استجابتهم له ؛ وأيقن بانحراف فطرتهم الانحراف الذى لا صلاح له ، اعتزم أمراً . وانتظر هذا اليوم الذى يبعدون فيه عن المعابد والأصنام لينفذ ما اعتزم . وكان الضيق بما هم فيه من انحراف قد بلغ منه أقصاه وأتعب قلبه وقواه ، فلما دعى إلى مغادرة المعبد , قلب نظره إلى السماء ، وقال (إنى سقيم) لا طاقة لى بالخروج إلى المتنزهات والخلوات . فإنما يخرج إليها طلاب اللذة والمتاع ، أخلياء القلوب من الهم والضيق – وقلب إبراهيم لم يكن فى راحة ونفسه لم تكن فى استرواح . قال ذلك معبراً عن ضيقه وتعبه . وأفصح عنه ليتركوه وشأنه . ولم يكن هذا كذباً منه . إنما كان له أصل فى واقع حياته فى ذلك اليوم . وإن الضيق ليمرض ويسقم ذويه ! وكان القوم معجلين ليذهبوا مع عاداتهم وتقاليدهم ومراسم حياتهم فى ذلك العيد ؛ فلم يتلبثوا ليفحصوا عن أمره ، بل تولوا عنه مدبرين ، مشغولين بما هم فيه . وكانت هذه هى الفرصة التى يريد . لقد أسرع إلى آلهتهم المدعاة

. وأمامها أطايب الطعام وبواكير الثمار . فقال فى تهكم (ألا تأكلون ؟) ولم تجبه الأصنام بطبيعة الحال . فاستطرد فى تهكمه وعليه طابع الغيظ والسخرية (ما لكم لا تنطقون ؟) وهى حالة نفسية معهودة . أن يوجه الإنسان كلامه إلى ما يعلم حقيقته ، ويستيقن أنه لا يسمع ولا ينطق ! إنما هو الضيق بما وراء الآلهة المزعومة من القوم وتصورهم السخيف ! . . ولم تجبه الآلهة مرة أخرى !! وهنا أفرغ شحنة الغيظ المكتوم حركة لا قولاً (فراغ عليهم ضرباً باليمين) وشفى نفسه من السقم والهم والضيق . . . ! وينتهى هذا المشهد فيليه مشهد جديد . وقد عاد القوم فاطلعوا على جذاذ الآلهة ! ويختصر السياق ما يفصله فى سورة أخرى من سؤالهم عمن صنع بآلهتهم هذا الصنع ، واستدلالهم فى النهاية على الفاعل الجرىء . يختصر هذا ليقفهم وجهاً لوجه أمام إبراهيم ! (فأقبلوا إليه يزفون) لقد تسامعوا بالخبر ، وعرفوا من الفاعل ، فأقبلوا إليه يسرعون الخطى ويحدثون حوله زفيفاً . . وهم جمع كثير غاضب هائج ، وهو فرد واحد . ولكنه فرد مؤمن . فرد يعرف طريقه . فرد واضح التصور لإلهه . عقيدته معروفة له محدودة . يدركها فى نفسه ، ويراها فى الكون من حوله . فهو أقوى من هذه الكثرة الهائجة المائجة ، المدخولة العقيدة ، المضطربة التصور . ومن ثم يجبههم بالحق الفطرى البسيط لا يبالى كثرتهم وهياجهم وزفيفهم ! (قال:أتعبدون ما تنحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون ؟) إنه منطق الفطرة يصرخ فى وجههم: (أتعبدون ما تنحتون ؟). والمعبود الحق ينبغى أن يكون هو الصانع لا المصنوع (والله خلقكم وما تعملون فهو الصانع الوحيد الذى يستحق أن يكون المعبود . ومع وضوح هذا المنطق وبساطته ، إلا أن القوم فى غفلتهم وفى اندفاعهم لم يستمعوا له - ومتى استمع الباطل إلى صوت الحق البسيط ؟ - واندفع أصحاب الأمر والنهى فيهم يزاولون طغيانهم فى صورته الغليظة(قالوا:ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم) إنه منطق الحديد والنار الذى لا يعرف الطغاة منطقاً سواه ؛ عندما تعوزهم الحجة وينقصهم الدليل . وحينما تحرجهم كلمة الحق الخالصة ذات السلطان المبين . ويختصر السياق هنا ما حدث بعد قولتهم تلك ، ليعرض العاقبة التى تحقق وعد الله لعباده المخلصين ووعيده لأعدائهم المكذبين (فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين) وأين يذهب كيد العباد إذا كان الله يريد ؟ وماذا يملك أولئك الضعاف المهازيل - من الطغاة والمتجبرين وأصحاب السلطان وأعوانهم من الكبراء - إذا كانت رعاية الله تحوط عباده المخلصين ؟ ثم تجىء الحلقة الثانية من قصة إبراهيم . . لقد انتهى أمره مع أبيه وقومه . لقد أرادوا به الهلاك فى النار التى أسموها الجحيم ، وأراد الله أن يكونوا هم الأسفلين ; ونجاه من كيدهم أجمعين . عندئذ استدبر إبراهيم مرحلة من حياته ليستقبل مرحلة ؛ وطوى صفحة لينشر صفحة (وقال:إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) هكذا . . إنى ذاهب إلى ربى . . إنها الهجرة . وهى هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية . هجرة يترك وراءه فيها كل شىء من ماضى حياته . يترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه وكل ما يربطه بهذه الأرض ، وبهؤلاء الناس . ويدع وراءه كذلك كل عائق وكل شاغل . ويهاجر إلى ربه متخففاً من كل شىء ، طارحاً وراءه كل شىء ، مسلماً نفسه لربه لا يستبقى منها شيئاً . موقن أن ربه سيهديه ، وسيرعى خطاه ، وينقلها فى الطريق المستقيم . إنها الهجرة الكاملة من حال إلى حال ، ومن وضع إلى وضع ، ومن أواصر شتى إلى آصرة واحدة لا يزحمها فى النفس شىء . إنه التعبير عن التجرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين . وكان إبراهيم حتى هذه اللحظة وحيداً لا عقب له ؛ وهو يترك وراءه أواصر الأهل والقربى ، والصحبة والمعرفة . وكل مألوف له فى ماضى حياته ، وكل ما يشده إلى الأرض التى نشأ فيها ، والتى انحسم ما بينه وبين أهلها الذين ألقوه فى الجحيم ! فاتجه إلى ربه الذى أعلن أنه ذاهب إليه . اتجه إليه يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح (رب هب لى من الصالحين) واستجاب الله دعاء عبده الصالح المتجرد ، الذى ترك وراءه كل شىء ، وجاء إليه بقلب سليم (فبشرناه بغلام حليم) هو إسماعيل - كما يرجح سياق السيرة والسورة - وسنرى آثار حلمه الذى وصفه ربه به وهو غلام . ولنا أن نتصور فرحة إبراهيم الوحيد المفرد المهاجر المقطوع من أهله وقرابته . لنا أن نتصور فرحته بهذا الغلام ، الذى يصفه ربه بأنه حليم . والآن آن أن نطلع على الموقف العظيم الكريم الفريد فى حياة إبراهيم . بل فى حياة البشر أجمعين . وآن أن نقف من سياق القصة فى القرآن أمام المثل الموحى الذى يعرضه الله للأمة المسلمة من حياة أبيها إبراهيم (فلما بلغ معه السعى . قال:يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى . قال:يا أبت افعل ما تؤمر:ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) يالله ! ويالروعة الإيمان والطاعة والتسليم . . هذا إبراهيم الشيخ . المقطوع من الأهل والقرابة . المهاجر من الأرض والوطن . ها هو ذا يرزق فى كبرته وهرمه بغلام . طالما تطلع إليه . فلما جاءه جاء غلاماً ممتازاً يشهد له ربه بأنه حليم . وها هو ذا ما يكاد يأنس به ، وصباه يتفتح ، ويبلغ معه السعى ، ويرافقه فى الحياة . . ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد ، حتى يرى فى منامه أنه يذبحه . ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية . فماذا ؟ إنه لا يتردد ، ولا يخالجه إلا شعور الطاعة ، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم . . نعم إنها إشارة . مجرد إشارة . وليست وحياً صريحاً ، ولا أمراً مباشراً . ولكنها إشارة من ربه . . وهذا يكفى . . هذا يكفى ليلبى ويستجيب . ودون أن يعترض . ودون أن يسأل ربه . . لماذا يا ربى أذبح ابنى الوحيد ؟! ولكنه لا يلبى فى انزعاج ، ولا

يستسلم فى جزع ، ولا يطيع فى اضطراب . . كلا إنما هو القبول والرضى والطمأنينة والهدوء . يبدو ذلك فى كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل فى هدوء وفى اطمئنان عجيب (قال:يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك . فانظر ماذا ترى) فهى كلمات المالك لأعصابه ، المطمئن للأمر الذى يواجهه ، والواثق بأنه يؤدى واجبه . وهى فى الوقت ذاته كلمات المؤمن ، الذى لا يهوله الأمر فيؤديه ، فى اندفاع وعجلة ليخلص منه وينتهى ، ويستريح من ثقله على أعصابه ! والأمر شاق – ما فى ذلك شك – فهو لا يطلب إليه أن يرسل بابنه الوحيد إلى معركة . ولا يطلب إليه أن يكلفه أمراً تنتهى به حياته . . إنما يطلب إليه أن يتولى هو بيده . يتولى ماذا ؟ يتولى ذبحه . . وهو – مع هذا – يتلقى الأمر هذا التلقى ، ويعرض على ابنه هذا العرض ؛ ويطلب إليه أن يتروى فى أمره ، وأن يرى فيه رأيه ! إنه لا يأخذ ابنه على غرة لينفذ إشارة ربه . وينتهى . إنما يعرض الأمر عليه كالذى يعرض المألوف من الأمر . فالأمر فى حسه هكذا . ربه يريد . فليكن ما يريد . على العين والرأس . وابنه ينبغى أن يعرف . وأن يأخذ الأمر طاعة وإسلاماً ، لا قهراً واضطراراً . لينال هو الآخر أجر الطاعة ، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم ! إنه يحب لابنه أن يتذوق لذة التطوع التى ذاقها ؛ وأن ينال الخير الذى يراه هو أبقى من الحياة وأقنى . فماذا يكون من أمر الغلام ، الذى يعرض عليه الذبح ، تصديقاً لرؤيا رآها أبوه ؟ إنه يرتقى إلى الأفق الذى ارتقى إليه من قبل أبوه (قال:يا أبت افعل ما تؤمر . ستجدنى – إن شاء الله – من الصابرين) إنه يتلقى الأمر لا فى طاعة واستسلام فحسب . ولكن فى رضى كذلك وفى يقين (يا أبت) فى مودة وقربى . فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده . بل لا يفقده أدبه ومودته (افعل ما تؤمر) فهو يحس ما أحسه من قبل قلب أبيه . يحس أن الرؤيا إشارة . وأن الإشارة أمر . وأنها تكفى لكى يلبى وينفذ بغير لجلجة ولا تمحل ولا ارتياب . ثم هو الأدب مع الله ، ومعرفة حدود قدرته وطاقته فى الاحتمال ؛ والاستعانة بربه على ضعفه ونسبة الفضل إليه فى إعانته على التضحية ، ومساعدته على الطاعة: (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) ولم يأخذها بطولة . ولم يأخذها شجاعة . ولم يأخذها اندفاعاً إلى الخطر دون مبالاة . ولم يظهر لشخصه ظلاً ولا حجماً ولا وزناً . . إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه ، وأصبره على ما يراد به (ستجدنى – إن شاء الله – من الصابرين) يا للأدب مع الله ! وبالروعة الإيمان . وبالنبل الطاعة . وبالعظمة التسليم ! ويخطو المشهد خطوة أخرى وراء الحوار والكلام . . يخطو إلى التنفيذ (فلما أسلما وتله للجبين) ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة . وعظمة الإيمان . وطمأنينة الرضى وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان .إن الرجل يمضى فيكب ابنه على جبينه استعداداً . وإن الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعاً . وقد وصل الأمر إلى أن يكون عياناً . لقد أسلما فهذا هو الإسلام . هذا هو الإسلام فى حقيقته . ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم . . وتنفيذ . كان الابتلاء قد تم . والامتحان قد وقع . ونتائجه قد ظهرت . وغاياته قد تحققت . ولم يعد إلا الألم البدنى . والإ الدم المسفوح . والجسد الذبيح . والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء . ولا يريد دماءهم وأجسادهم فى شىء . ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكلياتهم فقد أدوا ، وقد حققوا التكليف ، وقد جازوا الامتحان بنجاح . وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما . فاعتبرهما قد أديا وحققا وصدقا (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا . إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم) قد صدقت الرؤيا وحققتها فعلاً . فالله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى فى النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه ، ولو كان هو الابن فلذة الكبد . ولو كانت هى النفس والحياة . وأنت – يا إبراهيم – قد فعلت . جدت بكل شىء . وبأعز شىء . وجدت به فى رضى وفى هدوء وفى طمأنينة وفى يقين . فلم يبق إلا اللحم والدم . وهذا ينوب عنه ذبح . أى ذبح من دم ولحم ! ويفدى الله هذه النفس التى أسلمت وأدت . يفديها بذبح عظيم . قيل:إنه كبش وجده إبراهيم مهيأ بفعل ربه وإرادته ليذبحه بدلاً من إسماعيل ! وقيل له (إنا كذلك نجزى المحسنين) نجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء . ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء . ونجزيهم بإقدارهم وإصبارهم على الأداء . ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء ! ومضت بذلك سنة النحر فى الأضحى ، ذكرى لهذا الحادث العظيم الذى يرتفع منارة لحقيقة الإيمان . وجمال الطاعة . وعظمة التسليم . والذى ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم ، الذى تتبع ملته ، والذى ترث نسبه وعقيدته . ولتدرك طبيعة العقيدة التى تقوم بها أو تقوم عليها ولتعرف أنها الاستسلام لقدر الله فى طاعة راضية واثقة ملبية لا تسأل ربها لماذا ؟ ولا تتلجلج فى تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه . ولا تستبقى لنفسها فى نفسها شيئا ، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه إلا كما يطلب هو إليها أن تقدم ! (وتركنا عليه فى الآخرين) فهو مذكور على توالى الأجيال والقرون . وهو أمة . وهو أبو الأنبياء . وهو أبو هذه الأمة المسلمة . وهى وارثة ملته . وقد كتب الله لها وعليها قيادة البشرية على ملة إبراهيم . فجعلها الله له عقباً ونسباً إلى يوم الدين (سلام على إبراهيم) يسجل فى كتابه الباقى . ويرقم فى طوايا الوجود الكبير . كذلك نجزيهم بالبلاء . . والوفاء . والذكر . والسلام . والتكريم .وهذا جزاء الإيمان . وتلك حقيقته فيما كشف عنه البلاء المبين . و نعمة

أخرى ... فيهب له إسحاق فى شيخوخته . ويباركه ويبارك إسحاق . ويجعل إسحاق نبياً من الصالحين (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق) وتتلاحق من بعدهما ذريتهما . ولكن وراثة هذه الذرية لهما ليست وراثة الدم والنسب إنما هى وراثة الملة والمنهج:فمن اتبع فهو محسن . ومن انحرف فهو ظالم لا ينفعه نسب قريب أو بعيد (ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) ومن ذريتهما موسى وهارون (ولقد مننا على موسى وهارون . ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم . ونصرناهم فكانوا هم الغالبين . وآتيناهما الكتاب المستبين . وهديناهما الصراط المستقيم . وتركنا عليهما فى الآخرين . سلام على موسى وهارون . إنا كذلك نجزى المحسنين . إنهما من عبادنا المؤمنين) وهذه اللمحة من قصة موسى وهارون تعنى بإبراز منة الله عليهما باختيارهما واصطفائهما . وبنجاتهما وقومهما (من الكرب العظيم) الذى تفصله القصة فى السور الأخرى . وبالنصر والغلبة على جلاديهم من فرعون وملئه . وبإعطائهما الكتاب الواضح المستبين . وهدايتهما إلى الصراط المستقيم . صراط الله الذى يهدى إليه المؤمنين . وبإبقاء ذكرهما فى الأجيال الآتية والقرون الأخيرة . وتنتهى هذه اللمحة بالسلام من الله على موسى وهارون . والتعقيب المتكرر فى السورة لتقرير نوع الجزاء الذى يلقاه المحسنون ، وقيمة الإيمان الذى يكرم من أجله المؤمنون وتعقب تلك اللمحة لمحة مثلها عن إلياس ، والأرجح أنه النبى المعروف فى العهد القديم باسم إيلياء . وقد أرسل إلى قوم فى سورية كانوا يعبدون صنماً يسمونه بعلاً . وما تزال آثار مدينة بعلبك تدل على آثار هذه العبادة (وإن إلياس لمن المرسلين . إذ قال لقومه ألا تتقون ؟ أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الأولين ؟ فكذبوه فإنهم لمحضرون . إلا عباد الله المخلصين . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إلياسين . إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين) ولقد دعا إلياس قومه إلى التوحيد ، مستنكراً عبادتهم لبعل وكانت العاقبة هى التكذيب . والله سبحانه يقسم ويؤكد أنهم سيحضرون مكرهين ليلقوا جزاء المكذبين . إلا من آمن منهم واستخلصه الله من عباده فيهم . وتختم اللمحة القصيرة عن إلياس تلك الخاتمة المكررة المقصودة فى السورة ، لتكريم رسل الله بالسلام عليهم من قبله . ولبيان جزاء المحسنين . وقيمة إيمان المؤمنين . وسيرة إلياس ترد هنا لأول مرة فى مثل تلك اللمحة القصيرة . ونقف لنلم بالناحية الفنية فى الآية (سلام على إلياسين) فقد روعيت الفاصلة وإيقاعها الموسيقى فى إرجاع اسم إلياس بصيغة (إلياسين) على طريقة القرآن فى ملاحظة تناسق الإيقاع فى التعبير . ثم تأتى لمحة عن قصة لوط . التى ترد فى المواضع الأخرى تالية لقصة إبراهيم (وإن لوطاً لمن المرسلين . إذ نجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزاً فى الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ؟) وهى أشبه باللمحة التى جاءت عن قصة نوح . فهى تشير إلى رسالة لوط ونجاته مع أهله إلا امرأته . وتدمير المكذبين الضالين . وتنتهى بلمسة لقلوب العرب الذين يمرون على دار قوم لوط فى الصباح والمساء ولا تستيقظ قلوبهم ولا تستمع لحديث الديار الخاوية . ولا تخاف عاقبة كعاقبتها الحزينة ! وتختم هذه اللمحات بلمحة عن يونس صاحب الحوت (وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مُليم . فلولا أنه كان من المسبحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين) ولا يذكر القرآن أين كان قوم يونس . ولكن المفهوم أنهم كانوا فى بقعة قريبة من البحر . وتذكر الروايات أن يونس ضاق صدراً بتكذيب قومه . فأنذرهم بعذاب قريب . وغادرهم مغضباً أبقاً . فقاده الغضب إلى شاطىء البحر حيث ركب سفينة مشحونة . وفى وسط اللجة ناوأتها الرياح والأمواج . وكان هذا إيذاناً عند القوم بأن من بين الركاب راكباً مغضوباً عليه لأنه ارتكب خطيئة . وأنه لا بد أن يلقى فى الماء لتنجو السفينة من الغرق . فاقترعوا على من يلقونه من السفينة . فخرج سهم يونس – وكان معروفاً عندهم بالصلاح . ولكن سهمه خرج بشكل أكيد فألقوه فى البحر . أو ألقى هو نفسه . فالتقمه الحوت وهو (مُليم) أى مستحق للوم ، لأنه تخلى عن المهمة التى أرسله الله بها , وترك قومه مغاضباً قبل أن يأذن الله له . وعندما أحس بالضيق فى بطن الحوت سبح الله واستغفره وذكر أنه كان من الظالمين . وقال (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) فسمع الله دعاءه واستجاب له . فلفظه الحوت (فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون) وقد خرج من بطن الحوت سقيماً عارياً على الشاطىء (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) وهو القرع . يظلله بورقه العريض ويمنع عنه الذباب الذى يقال إنه لا يقرب هذه الشجرة . وكان هذا من تدبير الله ولطفه . فلما استكمل عافيته رده الله إلى قومه الذين تركهم مغاضباً . وكانوا قد خافوا ما أنذرهم به من العذاب بعد خروجه ، فآمنوا ، واستغفروا , وطلبوا العفو من الله فسمع لهم ولم ينزل بهم عذاب المكذبين (فآمنوا فمتعناهم إلى حين) وكانوا مائة ألف يزيدون ولا ينقصون . وقد آمنوا أجمعين . وهذه اللمحة بسياقها هنا تبين عاقبة الذين آمنوا ، بجانب ما تبينه القصص السابقة من عاقبة الذين لا يؤمنون . فيختار قوم محمد ﷺ إحدى العاقبتين كما يشاءون !!

وكذلك ينتهى هذا الشوط من السورة بعد تلك الجولة الواسعة على مدار التاريخ من لدن نوح ، مع المنذرين:المؤمنين منهم وغير المؤمنين . .

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ{١٤٩} أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ{١٥٠} أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ{١٥١} وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{١٥٢} أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ{١٥٣} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{١٥٤} أَفَلَا تَذَكَّرُونَ{١٥٥} أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ{١٥٦} فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{١٥٧} وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ{١٥٨} سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ{١٥٩} إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ{١٦٠} فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ{١٦١} مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ{١٦٢} إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ{١٦٣} وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ{١٦٤} وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ{١٦٥} وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ{١٦٦} وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ{١٦٧} لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الْأَوَّلِينَ{١٦٨} لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ{١٦٩} فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{١٧٠} وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ{١٧١} إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ{١٧٢} وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ{١٧٣} فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ{١٧٤} وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ{١٧٥} أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ{١٧٦} فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ{١٧٧} وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ{١٧٨} وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ{١٧٩} سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ{١٨٠} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{١٨١} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ){١٨٢}

على ضوء ذلك القصص الذى سبق به الشوط الثانى فى السورة ، وما اشتمل عليه من حقيقة الصلة بين الله وعباده ، ومن أخذه المكذبين بهذه الحقيقة ، الذين يعبدون غير الله أو يشركون معه بعض خلقه . وعلى ضوء تلك الحقيقة ذاتها كما تضمنها الدرس الأول فى السورة . . يوجه فى هذا الشوط الأخير من السورة الرسول ﷺ أن يناقش معهم تلك الأسطورة التى يزعمون فيها أن الملائكة بنات الله . والأسطورة الأخرى التى يزعمون فيها أن بينه – سبحانه – وبين الجنة نسباً . وأن يواجههم بما كانوا يقولونه قبل أن تأتيهم هذه الرسالة من تمنيهم أن يرسل الله فيهم رسولاً ، ومن أنهم على استعداد للهدى لو جاءهم رسول . وكيف كفروا عندما جاءهم الرسول . . وتختم السورة بتسجيل وعد الله لرسله أنهم هم الغالبون ، وبتنزيه الله سبحانه عما يصفون . والتوجه بالحمد لله رب العالمين (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ؟ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ؟ ألا إنهم من إفكهم ليقولون:ولد الله . وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ؟ مالكم كيف تحكمون ؟ أفلا تذكرون ؟ أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين) إنه يحاصر أسطورتهم فى كل مساربها ؛ ويحاجهم بمنطقهم ومنطق بيئتهم التى يعيشون فيها . وهم كانوا يؤثرون البنين على البنات ؛ ويعدون ولادة الأنثى محنة ، ويعدون الأنثى مخلوقاً أقل رتبة من الذكر . ثم هم الذين يدعون أن الملائكة إناث . وأنهم بنات الله ! فهو هنا يستطرد معهم وفق منطقهم ، ويأخذهم به ليروا مدى تهافت الأسطورة وسخفها حتى بمقاييسهم الشائعة (فاستفتهم . . ألربك البنات ولهم البنون) أإذا كان الإناث أقل رتبة كما يدعون ؛ جعلوا لربهم البنات واستأثروا هم بالبنين ؟ !أو اختار الله البنات وترك لهم البنين ؟! إن هذا أو ذاك لا يستقيم ! فاسألهم عن هذا الزعم المتهافت السقيم . واستفتهم كذلك عن منشأ الأسطورة كلها . من أين جاءهم علم أن الملائكة إناث ؟ وهل هم شهدوا خلقهم فعرفوا جنسهم ؟ (أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ؟) ويستعرض نص مقولتهم المفتراة الكاذبة على الله (ألا إنهم من إفكهم ليقولون:ولد الله . وإنهم لكاذبون) وهم كاذبون حتى بحكم عرفهم الشائع ومنطقهم الجارى فى اصطفاء البنين على البنات . فكيف اصطفى الله البنات على البنين ؟ (أصطفى البنات على البنين)! ويعجب من حكمهم الذى ينسون فيه منطقهم الجارى: مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ أفلا تذكرون ؟ ومن أين تستمدون السند والدليل على الحكم المزعوم ؟ (أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين) والأسطورة الأخرى . أسطورة الصلة بينه – سبحانه – وبين الجنة (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً . ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون) وكانوا يزعمون أن الملائكة هم بنات الله – بزعمهم – ولدتهم له الجنة ! وذلك هو النسب والقرابة ! والجن تعلم أنها خلق من خلق الله . وأنها محضرة يوم القيامة بإذن الله . وما هكذا تكون معاملة النسب والصهر ! وهنا ينزه ذاته سبحانه عن هذا الإفك المتهافت (سبحان الله عما يصفون) ويستثنى من الجن الذين يحضرون للعذاب مكرهين تلك الطائفة المؤمنة . وقد كان فى الجن مؤمنون (إلا عباد الله المخلصين) ثم يتوجه الخطاب إلى المشركين وما يعبدون من آلهة مزعومة ، وما هم عليه من عقائد منحرفة . يتوجه الخطاب إليهم ، من الملائكة كما يبدو من التعبير (فإنكم وما تعبدون ، ما أنتم عليه بفاتنين ، إلا من هو صال الجحيم . وما منا إلا له مقام معلوم . وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون) أى إنكم وما تعبدون لا تفتنون على الله ولا تضلون من عباده إلا من هو محسوب من أهل الجحيم ، الذين قدر عليهم أن يصلوها . وما أنتم بقادرين على فتنة قلب مؤمن الفطرة محسوب من الطائعين . فللجحيم وقود من نوع معروف ،

طبيعته تؤهله أن يستجيب للفتنة ; ويستمع للفاتنين . ويرد الملائكة على الأسطورة ، بأن لكل منهم مقامه الذى لا يتعداه . فهم عباد من خلق الله . لهم وظائف فى طاعة الله . فهم يصفون للصلاة ، ويسبحون بحمد الله . ويقف كل منهم على درجة لا يتجاوز حده . والله هو الله . ثم يعود للحديث عن المشركين الذين يطلقون هذه الأساطير ؛ فيعرض عهودهم ووعودهم ، يوم كانوا يحسدون أهل الكتاب على أنهم أهل كتاب ؛ ويقولون لو كان عندنا ذكر من الأولين - من إبراهيم أو من جاء بعده - لكنا على درجة من الإيمان يستخلصنا الله من أجلها ويصطفينا (وإن كانوا ليقولون: لو أن عندنا ذكراً من الأولين . لكنا عباد الله المخلصين) حتى إذا جاءهم ذكر هو أعظم ما جاء إلى هذه الأرض تنكروا لما كانوا يقولون (فكفروا به . فسوف يعلمون) فالتهديد الخفى فى قوله (فسوف يعلمون) هو اللائق بالكفر بعد التمنى والوعود ! وبمناسبة التهديد يقرر وعد الله لرسله بالنصر والغلبة (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون) والوعد واقع وكلمة الله قائمة . ولقد استقرت جذور العقيدة فى الأرض ؛ وقام بناء الإيمان , على الرغم من جميع العوائق ، وعلى الرغم من تكذيب المكذبين ، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين . ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار . وذهبت سطوتهم ودولتهم ; وبقيت العقائد التى جاء بها الرسل . تسيطر على قلوب الناس وعقولهم ، وتكيف تصوراتهم وأفهامهم . وما تزال على الرغم من كل شىء هى أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر فى أنحاء الأرض . وكل المحاولات التى بذلت لمحو العقائد الإلهية التى جاء بها الرسل ، وتغليب آية فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل . باءت بالفشل حتى فى الأرض التى نبعث منها . وحقت كلمة الله لعباده المرسلين . إنهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون ، لقد سبقت كلمة الله ، ومضت إرادته بوعده ، وثبتت سنته لا تتخلف ولا تحيد (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) وعند إعلان هذا الوعد القاطع ، وهذه الكلمة السابقة ، يأمر الله رسوله ﷺ أن يتولى عنهم ، ويدعهم لوعد الله وكلمته ، ويترقب ليبصرهم وقد حقت عليهم الكلمة ، ويدعهم ليبصروا ويروا رأى العين كيف تكون (فتول عنهم حتى حين . وأبصرهم فسوف يبصرون . أفبعذابنا يستعجلون ؟ فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين . وتول عنهم حتى حين . وأبصر فسوف يبصرون) فتول عنهم ، وأعرض ولا تحفلهم ؛ ودعهم لليوم الذى تراهم فيه ويرون هم ما ينتهى إليه وعد الله فيك وفيهم . وإذا كانوا يستعجلون بعذابنا ، فياويلهم يوم ينزل بهم . فإنه إذا نزل بساحة قوم صبحهم بما يسوء ، وقد قدم له النذير . ويكرر الأمر بالإعراض عنهم والإهمال لشأنهم والتهديد الملفوف فى ذلك الأمر المخيف (وتول عنهم حتى حين) كما يكرر الإشارة إلى هول ما سيكون (وأبصر فسوف يبصرون) ويدعه مجملاً يوحى بالهول المرهوب . ويختم السورة بتنزيه الله سبحانه واختصاصه بالعزة . وبالسلام .

سورة ص

مكية ، و آياتها ٨٨

هذه السورة مكية ، تعالج من موضوعات السور المكية قضية التوحيد ، وقضية الوحى إلى النبى محمد ﷺ وقضية الحساب فى الآخرة . وتعرض هذه القضايا الثلاث فى مطلعها الذى يؤلف الشوط الأول منها . وهذه الآيات الكريمة تمثل الدهشة والاستغراب والمفاجأة التى تلقى بها كبار المشركين فى مكة دعوة النبى ﷺ لهم إلى توحيد الله ؛ وإخبارهم بقصة الوحى واختياره رسولاً من عند الله (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم . وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة إلهاً واحداً:إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم:أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟) كما تمثل استهزاءهم واستنكارهم لما أوعدهم به جزاء تكذيبهم من عذاب (وقالوا:ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) لقد استكثروا أن يختار الله – سبحانه – رجلاً منهم ، لينزل عليه الذكر من بينهم . وأن يكون هذا الرجل هو محمد بن عبد الله . الذى لم تسبق له رياسة فيهم ولا إمارة ! ومن ثم ساءلهم الله فى مطلع السورة تعقيباً على استكثارهم هذا واستنكارهم وقولهم (أأنزل عليه الذكر من بيننا) ساءلهم (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ؟ أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما ؟ فليرتقوا فى الأسباب) ليقول لهم:إن رحمة الله لا يمسكها شيء إذا أراد الله أن يفتحها على من يشاء . وإنه ليس للبشر شيء من ملك السماوات والأرض ، وإنما يفتح الله من رزقه ورحمته على من يشاء وإنه يختار من عباده من يعلم استحقاقهم للخير ، وينعم عليهم بشتى الإنعامات بلا قيد ولا حد ، ولا حساب . . وفى هذا السياق جاءت قصة داود وقصة سليمان ؛ وما أغدق الله عليهما من النبوة والملك ، ومن تسخير الجبال والطير ، وتسخير الجن والريح ، فوق الملك وخزائن الأرض والسلطان والمتاع . وهما – مع هذا كله – بشر من البشر ؛ يدركهما ضعف البشر وعجز البشر ؛ فتتداركهما رحمة الله ورعايته ، وتسد ضعفهما وعجزهما ، وتقبل منهما التوبة والإنابة ، وتسدد خطاهما فى الطريق إلى الله . وجاء مع القصتين توجيه النبى ﷺ إلى الصبر على ما يلقاه من المكذبين ، والتطلع إلى فضل الله ورعايته كما تمثلهما قصة داود وقصة سليمان (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . . .) الخ.كذلك جاءت قصة أيوب تصور ابتلاء الله للمخلصين من عباده بالضراء . وصبر أيوب مثل فى الصبر رفيع . وتصور حسن العاقبة ، وتداركه برحمة الله ، تغمره بفيضها ، وتمسح على آلامه بيدها الحانية . . وفى عرضها تأسية للرسول ﷺ وللمؤمنين ، عما كانوا يلقونه من الضر والبأساء فى مكة ؛ وتوجيه إلى ما وراء الابتلاء من رحمة ، تفيض من خزائن الله عندما يشاء . وهذا القصص يستغرق معظم السورة بعد المقدمة ، ويؤلف الشوط الثانى منها . كذلك تتضمن السورة رداً على استعجالهم بالعذاب ، وقولهم (ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) فيعرض بها – بعد القصص – مشهد من مشاهد القيامة ، يصور النعيم الذى ينتظر المتقين . والجحيم الذى ينتظر المكذبين . ويكشف عن استقرار القيم الحقيقية فى الآخرة بين هؤلاء وهؤلاء . حين يرى الملأ المتكبرون مصيرهم ومصير الفقراء الضعاف الذين كانوا يهزؤون بهم فى الأرض ويسخرون ، ويستكثرون عليهم أن تنالهم رحمة الله ، وهم ليسوا من العظماء ولا الكبراء . وبينما المتقون لهم حسن مآب (جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب . وعندهم قاصرات الطرف أتراب) (فإن للطاغين لشر مآب جهنم يصلونها فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج) وهم يتلاعنون فى جهنم ويتخاصمون ، ويذكرون كيف كانوا يسخرون بالمؤمنين (وقالوا:ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار . أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار ؟) فإنهم لا يجدونهم فى جهنم . وقد عُرف أنهم هنالك فى الجنان ! فهذا هو جواب ذلك الاستعجال والاستهزاء !

وهذا المشهد يؤلف الشوط الثالث فى السورة .

كما يرد على استنكارهم لما يخبرهم به الرسول ﷺ من أمر الوحى . ويتمثل هذا الرد فى قصة آدم فى الملأ الأعلى . حيث لم يكن النبى ﷺ حاضراً ؛ إنما هو إخبار الله له بما كان ، مما لم يشهده – غير آدم – إنسان . . وفى ثنايا القصة يتبين أن الذى أردى إبليس ، وذهب به إلى الطرد واللعنة ، كان هو حسده لآدم – عليه السلام – واستكباره أن يؤثره الله عليه ويصطفيه . كما أنهم هم يستكثرون على النبى محمد ﷺأن يصطفيه الله من بينهم بتنزيل الذكر ؛ ففى موقفهم شبه واضح من موقف إبليس المطرود اللعين ! وتختم السورة

بختام هذا الشوط الرابع والأخير فيها ؛ يقول النبى ﷺ لهم:إن ما يدعوهم إليه لا يتكلفه من عنده ، ولا يطلب عليه أجراً ، وإن له شأناً عظيماً سوف يتجلى (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين) هذه الأشواط الأربعة التى تجرى بموضوعات السورة هذا المجرى ؛ تجول بالقلب البشرى فى مصارع الغابرين ، الذين طغوا وتجبروا واستعلوا على الرسل والمؤمنين ، ثم انتهوا إلى الهزيمة والدمار والخذلان (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب . كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد . وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب)تعرض على القلب البشرى هذه الصفحة . صفحة الهزيمة والدمار والهلاك للطغاة المكذبين . ثم تعرض بإزائها صفحة العز والتمكين والرحمة والرعاية لعباد الله المختارين , فى قصص داود وسليمان وأيوب . هذا وذلك فى واقع الأرض . . ثم تطوف بهذا القلب فى يوم القيامة وما وراءه من صور النعيم والرضوان . وصور الجحيم والغضب . حيث يرى لوناً آخر مما يلقاه الفريقان فى دار البقاء . بعدما لقياه فى دار الفناء . . والجولة الأخيرة فى قصة البشرية الأولى وقصة الحسد والغواية من العدو الأول ، الذى يقود خطى الضالين عن عمد وعن سابق إصرار . وهم غافلون . كذلك ترد فى ثنايا القصص لفتة تلمس القلب البشرى وتوقظه إلى الحق الكامن فى بناء السماء والأرض . وأنه الحق الذى يريد الله بإرسال الرسل أن يقره بين الناس فى الأرض . فهذا من ذلك (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً) وهى لفتة لها فى القرآن نظائر . وهى حقيقة أصيلة من حقائق هذه العقيدة التى هى مادة القرآن المكى الأصيلة . . والآن نأخذ فى التفصيل . .

(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ{١} بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ{٢} كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ{٣} وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ{٤} أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ{٥} وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ{٦} مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ{٧} أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ{٨} أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ{٩} أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ{١٠} جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ{١١} كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ{١٢} وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ{١٣} إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ{١٤} وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ{١٥} وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ){١٦}

(ص . والقرآن ذى الذكر . بل الذين كفروا فى عزة وشقاق . كم أهلكنا من قبلهم من قرن , فنادوا ولات حين مناص) هذا الحرف . .(صاد) يقسم به الله سبحانه كما يقسم بالقرآن ذى الذكر . وهذا الحرف من صنعة الله تعالى . فهو موجده . موجده صوتاً فى حناجر البشر ؛ وموجده حرفاً من حروف الهجاء التى يتألف من جنسها التعبير القرآنى . وهى فى متناول البشر ولكن القرآن ليس فى متناولهم لأنه من عند الله . وهو متضمن صنعة الله التى لا يملك البشر الإتيان بمثلها لا فى القرآن ولا فى غير القرآن . وهذا الصوت (صاد) الذى تخرجه حنجرة الإنسان ، إنما يخرج هكذا من هذه الحنجرة بقدرة الخالق المبدع ، الذى صنع الحنجرة وما تخرجه من أصوات . وما يملك البشر أن يصنعوا مثل هذه الحنجرة الحية التى تخرج هذه الأصوات ! وإنها لمعجزة خارقة لو كان الناس يتدبرون الخوارق المعجزة فى كل جزئية من جزئيات كيانهم القريب ! ولو عقلوها ما دهشوا لوحى يوحيه الله لبشر يختاره منهم . فالوحى ليس أكثر غرابة من إيداع تكوينهم هذه الخصائص المعجزات ! (صاد . والقرآن ذى الذكر) والقرآن يشتمل الذكر كما يشتمل غيره من التشريع والقصص والتهذيب . . ولكن الذكر والاتجاه إلى الله هو الأول . وهو الحقيقة الأولى فى هذا القرآن . بل إن التشريع والقصص وغيرهما إن هى إلا بعض هذا الذكر . فكلها تذكر بالله وتوجه القلب إليه فى هذا القرآن . وقد يكون معنى ذى الذكر . أى المذكور المشهور . وهو وصف أصيل للقرآن (بل الذين كفروا فى عزة وشقاق) وهذا الإضراب فى التعبير يلفت النظر . فهو يبدو كأنه انقطاع عن الموضوع الأول . موضوع القسم بصاد وبالقرآن ذى الذكر . هذا القسم الذى لم يتم فى ظاهر التعبير . لأن المقسم عليه لم يذكر واكتفى بالمقسم به ثم أخذ يتحدث بعده عن المشركين . وما هم فيه من استكبار ومن مشاقة . ولكن هذا الانقطاع عن القضية الأولى هو انقطاع ظاهرى ، يزيد الاهتمام بالقضية التى تليه . لقد أقسم بصاد وبالقرآن ذى الذكر . فدل على أنه أمر عظيم , يستحق أن يقسم به الله سبحانه . ثم عرض إلى جانب هذا استكبار المشركين ومشاقتهم فى هذا القرآن . فهى قضية واحدة قبل حرف الإضراب (بل) وبعده . ولكن هذا الالتفات فى الأسلوب يوجه النظر بشدة إلى المفارقة بين تعظيم الله – سبحانه – لهذا القرآن , واستكبار المشركين عنه ومشاقتهم فيه . وهو أمر عظيم ! وعقب على الاستكبار والمشاقة ، بصفحة الهلاك والدمار لمن كان قبلهم ،

ممن كذبوا مثلهم , واستكبروا استكبارهم ، وشاقوا مشاقتهم . ومشهدهم وهم يستغيثون فلا يغاثون ، وقد تخلى عنهم الاستكبار وأدركتهم الذلة ، وتخلوا عن الشقاق ولجأوا إلى الاستعطاف . ولكن بعد فوات الأوان (كم أهلكنا من قبلهم من قرن ، فنادوا ، ولات حين مناص)! فلعلهم حين يتملون هذه الصفحة أن يطامنوا من كبريائهم ؛ وأن يرجعوا عن شقاقهم . وأن يتمثلوا أنفسهم فى موقف أولئك القرون . ينادون ويستغيثون . وفى الوقت أمامهم فسحة , قبل أن ينادوا ويستغيثوا ، ولات حين مناص . ولا موضع حينذاك للغوث ولا للخلاص ! يطرق قلوبهم تلك الطرقة ، ويوقع عليها هذا الإيقاع قبل أن يعرض تفصيل تلك العزة وهذا الشقاق . . ثم يفصل الأمر ويحكى ما هم فيه من عزة وشقاق (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون:هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب ! وانطلق الملأ منهم:أن امشوا واصبروا على آلهتكم . إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة . إن هذا إلا اختلاق) هذه هى العزة (أأنزل عليه الذكر من بيننا) وذلك هو الشقاق (أجعل الآلهة إلهاً واحداً . . ؟) (ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة . . !) (هذا ساحر كذاب) (إن هذا إلا اختلاق) الخ . الخ وقصة العجب من أن يكون الرسول بشراً قصة قديمة ، مكرورة معادة ، قالها كل قوم وتعللوا بها منذ بدء الرسالات . وتكرر إرسال الرسل من البشر ؛ وظل البشر مع هذا يكررون الاعتراض (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) وأوجب شيء وأقرب شيء إلى الحكمة والمنطق أن يكون المنذر منهم . بشراً يدرك كيف يفكر البشر وكيف يشعرون ؛ ويحس ما يعتلج فى نفوسهم ، وما يشتجر فى كيانهم ، وما يعانون من نقص وضعف ، وما يجدون من ميول ونزعات ، وما يستطيعون أو لا يستطيعون من جهد وعمل ، وما يعترضهم من عوائق وعقبات ، وما يعتريهم من مؤثرات واستجابات . . بشراً يعيش بين البشر – وهو منهم – فتكون حياته قدوة لهم ؛ وتكون لهم فيه أسوة . وهم يحسون أنه واحد منهم ، وأن بينهم وبينه شبهاً وصلة . فهم مطالبون إذن بالمنهج الذى يأخذ به نفسه ، ويدعوهم لاتباعه . وهم قادرون على الأخذ بهذا المنهج فقد حققه أمامهم بشر منهم فى واقع حياته . ولكن الله أراد للبشرية – وبخاصة فى الرسالة الأخيرة – أن تعيش بهذه الرسالة عيشة طيبية واقعية . عيشة طيبة ونظيفة وعالية ، ولكنها حقيقة فى هذه الأرض . لا وهماً ولا خيالاً ولا مثالاً طائراً فى سماء الأساطير والأحلام ! يعز على التحقيق ويهرب فى ضباب الخيالات والأوهام ! (وقال الكافرون:هذا ساحر كذاب) قالوا كذلك استبعاداً لأن يكون الله قد أوحى إلى رجل منهم . وقالوه كذلك تنفيراً للعامة من النبى محمد ﷺ وتهويشاً على الحق الواضح فى حديثه ، والصدق المعروف عن شخصه . والحق الذى لا مرية فيه أن كبراء قريش لم يصدقوا أنفسهم لحظة وهم يقولون عن محمد بن عبدالله ﷺ الذى يعرفونه حق المعرفة:إنه ساحر وإنه كذاب ! إنما كان هذا سلاحاً من أسلحة التهويش والتضليل وحرب الخداع التى يتقنها الكبراء ؛ ويتخذونها لحماية أنفسهم ومراكزهم من خطر الحق الذى يتمثل فى هذه العقيدة ؛ ويزلزل القيم الزائفة والأوضاع الباطلة التى يستند إليها أولئك الكبراء ! وعجبوا كذلك من دعوته إياهم إلى عبادة الله الواحد . وهى أصدق كلمة وأحقها بالاستماع (أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم:أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق) ويصور التعبير القرآنى مدى دهشتهم من هذه الحقيقة الفطرية القريبة (أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟) كأنه الأمر الذى لا يتصوره متصور ! (إن هذا لشيء عجاب). حتى البناء اللفظى (عجاب) يوحى بشدة العجب وضخامته وتضخيمه !

كما يصور طريقتهم فى مقاومة هذه الحقيقة فى نفوس الجماهير ، وتثبيتهم على ما هم عليه من عقيدة موروثة متهافتة . وإيهامهم أن وراء الدعوة الجديدة خبيئاً غير ظاهرها ؛ وأنهم هم الكبراء العليمون ببواطن الأمور ، مدركون لما وراء هذه الدعوة من خبىء)! وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد). فليس هو الدين , وليست هى العقيدة ، إنما هو شيء آخر يراد من وراء هذه الدعوة . شيء ينبغى أن تدعه الجماهير لأربابه ، ولمن يحسنون فهم المخبآت وإدراك المناورات ! وتنصرف هى إلى عادتها الموروثة ، وآلهتها المعروفة ، ولا تعنى نفسها بما وراء المناورة الجديدة ! فهناك أربابها الكفيلون بمقاومتها . فلتطمئن الجماهير ، فالكبراء ساهرون على مصالحهم وعقائدهم وآلهتهم ! ثم يموهون على الناس بظواهر العقيدة القريبة منهم . عقيدة أهل الكتاب . بعدما دخلت إليها الأساطير التى حرفتها عن التوحيد الخالص فيقولون (ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة . إن هذا إلا اختلاق) كانت عقيدة التثليث قد شاعت فى المسيحية . وأسطورة العزير قد شاعت كذلك فى اليهودية . فكبراء قريش كانوا يشيرون إلى هذا وهم يقولون (ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة) ما سمعنا بهذا التوحيد المطلق لله . الذى جاء به النبى محمد ﷺفما يقول إذن إلا اختلاقاً ! ولقد حرص الإسلام حرصا شديداً على تجريد عقيدة التوحيد وتخليصها من كل ما علق بها من الأساطير والأوشاب والانحرافات التى طرأت على العقائد التى سبقته . حرص هذا الحرص لأن التوحيد حقيقة أولية كبيرة يقوم عليها هذا الوجود كله ؛ ويشهد بها هذا الوجود شهادة واضحة أكيدة .

ولأن هذا التوحيد فى الوقت ذاته قاعدة لا تصلح الحياة البشرية كلها فى أصولها وفروعها إلا إذا قامت عليها . والمؤمن بالله الواحد ، المدرك لمعنى هذه الوحدانية ، يكيف علاقته بربه على هذا الأساس , ويضع علاقته بمن عدا الله وبما عداه ، فى موضعها الذى لا تتعداه . فلا تتوزع طاقاته ومشاعره بين آلهة مختلفة الأمزجة ! ولا بين متسلطين عليه غير الله ممن خلق الله ! وقد مضوا بعد هذا يعجبون من اختياره ﷺ ليكون رسولاً (أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟) وما كان فى هذا من غرابة . ولكنه كان الحسد . الحسد الذى يدعو إلى العناد والمكابرة والشقاق . ويرد على تساؤلهم ذاك رداً تفوح منه رائحة التهكم والإنذار والتهديد (بل هم فى شك من ذكرى . بل لما يذوقوا عذاب) إنهم يسألون (أأنزل عليه الذكر من بيننا !) وهم فى شك من الذكر ذاته ، لم تستيقن نفوسهم أنه من عند الله ؛ وإن كانوا يمارون فى حقيقته ، وهو فوق المألوف من قول البشر مما يعرفون . ثم يضرب عن قولهم فى الذكر ، وعن شكهم فيه ، ليستقبل بهم تهديداً بالعذاب (بل لما يذوقوا عذاب) وكأنما ليقول:إنهم يقولون ما يقولون لأنهم فى منجاة بعد من العذاب ; فأما حين يذوقونه فلن يقولوا من هذا شيئاً ، لأنهم حينئذ سيعرفون ! ثم يعقب على استكثارهم رحمة الله لمحمد فى اختياره رسولاً من بينهم ، بسؤالهم إن كانوا يملكون خزائن رحمة الله ، حتى يتحكموا فيمن يعطون ومن يمنعون (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ؟) ويندد بسوء أدبهم مع الله ، وتدخلهم فيما ليس من شأن العبيد . والله يعطى من يشاء ويمنع من يريد . وهو العزيز القادر الذى لا يملك أحد أن يقف لإرادته . وهو الوهاب الكريم الذى لا ينفد عطاؤه .

وهم يستكثرون على محمد ﷺ أن يختاره الله . فبأى حق وبأية صفة يوزعون عطاء الله ? وهم لا يملكون خزائن رحمته ؟! (أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما ؟) وهى دعوى لا يجرؤون على ادعائها . ومالك السماوات والأرض وما بينهما هو الذى يمنح ويمنع ، ويصطفى من يشاء ويختار . وإذ لم يكن لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فما بالهم يدخلون فى شؤون المالك المتصرف فيما يملك بما يشاء ؟ وعلى سبيل التهكم والتبكيت عقب على السؤال عما إذا كان لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما . بأنه إن كان الأمر كذلك (فليرتقوا فى الأسباب) ليشرفوا على السماوات والأرض وما بينهما ، ويتحكموا فى خزائن الله ؛ ويعطوا من يشاءون ويمنعوا من يشاءون كما هو مقتضى اعتراضهم على اختيار الله المالك المتصرف فيما يملك بما يشاء ! ثم أنهى هذا الفرض التهكمى بتقرير حقيقتهم الواقعية (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) إنهم ما يزيدون على أن يكونوا جنداً مهزوماً ملقى(هنالك) بعيداً لا يقرب من تصريف هذا الملك وتدبير تلك الخزائن . ولا شأن له فيما يجرى فى ملك الله ؛ ولا قدرة له على تغيير إرادة الله ؛ ولا قوة له على اعتراض مشيئة الله (جند ما) جند مجهول منكر هين الشأن (مهزوم) كأن الهزيمة صفة لازمة له ، لاصقة به ، مركبة فى كيانه (من الأحزاب) المختلفة الاتجاهات والأهواء ! وما يبلغ أعداء الله ورسوله إلا أن يكونوا فى هذا الموضع الذى تصوره ظلال التعبير القرآنى ، الموحية بالعجز والضعف والبعد عن دائرة التصريف والتدبير . . مهما تبلغ قوتهم ، ويتطاول بطشهم ، ويتجبروا فى الأرض فترة من الزمان ويضرب الله الأمثال لأولئك المتجبرين على مدار القرون ؛ فإذا هم(جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) (كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة . أولئك الأحزاب) (إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) فهذه أمثلة ممن سبقوا قريشاً فى التاريخ . قوم نوح . وعاد . وفرعون صاحب الأهرام التى تقوم فى الأرض كالأوتاد . وثمود . وقوم لوط . وقوم شعيب أصحاب الأيكة – الغابة الملتفة (أولئك الأحزاب)! الذين كذبوا الرسل . فماذا كان من شأنهم وهم طغاة بغاة متجبرون (فحق عقاب) وكان ما كان من أمرهم . وذهبوا فلم يبق منهم غير آثار تنطق بالهزيمة والاندحار ! ذلك كان شأن الأحزاب الغابرة فى التاريخ . . فأما هؤلاء فمتروكون – فى عمومهم – إلى الصيحة التى تنهى الحياة فى الأرض قبيل يوم الحساب (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) هذه الصيحة إذا جاءت لا تستأخر ولو فترة قصيرة مقدار فواق ناقة . وهى المسافة بين الحلبتين ! لأنها تجىء فى موعدها المحدد ، الذى لا يستقدم ولا يستأخر . كما قدر الله لهذه الأمة الأخيرة أن ينظرها ويمهلها ، فلا يأخذها بالدمار والهلاك كما أخذ من قبل أولئك الأحزاب . وكان هذا رحمة بهم من الله . ولكنهم لم يعرفوا قدر هذه الرحمة ، ولم يشكروا الله هذه المنة . فاستعجلوا جزاءهم ، وطلبوا أن يوفيهم الله حظهم ونصيبهم ، قبل اليوم الذى أنظرهم إليه (وقالوا:ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) وعند هذا الحد يتركهم السياق ويلتفت إلى الرسول ﷺ يسليه عن حماقة القوم وسوء أدبهم مع الله ، واستعجالهم بالجزاء ، وتكذيبهم بالوعيد ، وكفرهم برحمة الله . . ويدعوه أن يذكر ما وقع للرسل قبله من ابتلاء . وما نالهم من رحمة الله بعد البلاء . .

(اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ{١٧} إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ{١٨} وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ{١٩} وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ{٢٠} وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ{٢١} إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ{٢٢} إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ{٢٣} قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ{٢٤} فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ{٢٥} يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ{٢٦} وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ{٢٧} أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ{٢٨} كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ{٢٩} وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ{٣٠} إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ{٣١} فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ{٣٢} رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ{٣٣} وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ{٣٤} قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ{٣٥} فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ{٣٦} وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ{٣٧} وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ{٣٨} هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ{٣٩} وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ{٤٠} وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ{٤١} ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ{٤٢} وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ{٤٣} وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ{٤٤} وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ{٤٥} إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ{٤٦} وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ{٤٧} وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ){٤٨}

هذا الدرس كله قصص وأمثلة من حياة الرسل – صلوات الله عليهم – تعرض كي يذكرها رسول الله ﷺ ويدع ما يعانيه من قومه من تكذيب واتهام وتعجيب وافتراء ؛ ويصبر على ما يواجهونه به مما تضيق به الصدور . وهذا القصص يعرض – في الوقت ذاته – آثار رحمة الله بالرسل قبله:وما أغدق عليهم من نعمة وفضل ، وما آتاهم من ملك وسلطان ومن رعاية وإنعام . وذلك رداً على عجب قومه من اختيار الله له . وما هو ببدع من الرسل . وفيهم من آتاه الله إلى جانب الرسالة الملك والسلطان ؛ وفيهم من سخر له الجبال يسبحن معه والطير ؛ وفيهم من سخر له الريح والشياطين . . كداود وسليمان . . فما وجه العجب في أن يختار الله محمداً الصادق لينزل عليه الذكر من بين قريش في آخر الزمان ؟ كذلك يصور هذا القصص رعاية الله الدائمة لرسله ، وحياطتهم بتوجيهه وتأديبه . فقد كانوا بشراً – كما أن محمداً ﷺ بشر – وكان فيهم ضعف البشر . وكان الله يرعاهم فلا يدعهم لضعفهم ؛ إنما يبين لهم ويوجههم ، ويبتليهم ليغفر لهم ويكرمهم . وفي هذا ما يطمئن قلب الرسول ﷺ إلى رعاية ربه له ، وحمايته وحياطته في كل خطوة يخطوها في حياته (اصبر على ما يقولون ، واذكر عبدنا داود ذا الأيد ، إنه أواب إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق . والطير محشورة كل له أواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب (اصبر) إنها الإشارة إلى الطريق المطروق في حياة الرسل – عليهم صلوات الله – الطريق الذي يضمهم أجمعين . فكلهم سار في هذا الطريق . كلهم عانى . وكلهم ابتلى . وكلهم صبر . وكان الصبر هو زادهم جميعاً وطابعهم جميعاً . كل حسب درجته في سلم الأنبياء . . لقد كانت حياتهم كلها تجربة مفعمة بالابتلاءات ؛ مفعمة بالآلام ؛ وحتى السراء كانت ابتلاء وكانت محكاً للصبر على النعماء بعد الصبر على الضراء . وكلتاهما في حاجة إلى الصبر والاحتمال (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) يذكر داود هنا بأنه ذو القوة . وبأنه أواب . . وقد جاء من قبل ذكر قوم نوح وعاد وفرعون ذي الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة . . وهم طغاة بغاة . كان مظهر قوتهم هو الطغيان والبغي والتكذيب . فأما داود فقد كان ذا قوة ، ولكنه كان أواباً ، يرجع إلى ربه طائعاً تائباً عابداً ذاكراً . وهو القوي ذو الأيد والسلطان . ومع النبوة والملك آتاه الله من فضله قلباً ذاكراً وصوتاً رخيماً ، يرجع به تراتيله التي يمجد فيها ربه . وبلغ من قوة استغراقه في الذكر ، ومن حسن حظه في الترتيل ، أن تزول الحواجز بين كيانه وكيان هذا الكون . وتتصل حقيقته بحقيقة الجبال والطير في صلتها كلها ببارئها ، وتمجيدها له وعبادتها . فإذا الجبال تسبح معه ، وإذا الطير مجموعة عليه ، تسبح معه لمولاها ومولاه (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق . والطير محشورة كل له أواب) وقد وهب الله عبده داود هذه الخاصية ؛ وسخر الجبال

معه يسبحن بالعشى والإشراق . وحشر عليه الطير ترجع مع ترانيمه تسبيحاً لله . وكانت هذه هبة فوق الملك والسلطان ، مع النبوة والاستخلاص (وشددنا ملكه . وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) فكان ملكه قوياً عزيزاً . وكان يسوسه بالحكمة والحزم جميعاً . وفصل الخطاب قطعه والجزم فيه برأى لا تردد فيه . وذلك مع الحكمة ومع القوة غاية الكمال فى الحكم والسلطان فى عالم الإنسان . ومع هذا كله فقد تعرض داود للفتنة والابتلاء ؛ وكانت عين الله عليه لترعاه وتقود خطاه , وكانت يد الله معه تكشف له ضعفه وخطأه ، وتوقيه خطر الطريق وتعلمه كيف يتوقاه (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ؟ إذ دخلوا على داود ففزع منهم . قالوا:لا تخف . خصمان بغى بعضنا على بعض . فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط . واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال:أكفلنيها ، وعزنى فى الخطاب . قال:لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات – وقليل ما هم – وظن داود أنما فتناه . فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) وبيان هذه الفتنة أن داود النبى الملك ، كان يخصص بعض وقته للتصرف فى شؤون الملك ، وللقضاء بين الناس . ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسبيحاً لله فى المحراب . وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس . و ذات يوم فوجىء بشخصين يتسوران المحراب المغلق عليه . ففزع منهم . فما يتسور المحراب هكذا مؤمن ولا أمين ! فبادرا يطمئنانه (قالوا:لا تخف . خصمان بغى بعضنا على بعض) وجئنا للتقاضى أمامك (فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط) وبدأ أحدهما فعرض خصومته (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة . فقال: أكفلنيها)[أى اجعلها لى وفى ملكى وكفالتى] (وعزنى فى الخطاب) [أى شدد على فى القول وأغلظ] . والقضية – كما عرضها أحد الخصمين – تحمل ظلماً صارخاً مثيراً لا يحتمل التأويل . ومن ثم اندفع داود يقضى على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة ؛ ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً ، ولم يطلب إليه بياناً ، ولم يسمع له حجة . ولكنه مضى يحكم: قال:لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه . وإن كثيراً من الخلطاء – [أى الأقوياء المخالطين بعضهم لبعض] – ليبغى بعضهم على بعض . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم . . ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان:فقد كانا ملكين جاءا للامتحان ! امتحان النبى الملك الذى ولاه الله أمر الناس ، ليقضى بينهم بالحق والعدل ، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم . وقد اختارا أن يعرضا عليه القضية فى صورة صارخة مثيرة . . ولكن القاضى عليه ألا يستثار ، وعليه ألا يتعجل . وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد . قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته ؛ فقد يتغير وجه المسألة كله ، أو بعضه , وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعاً أو كاذباً أو ناقصاً ! عند هذا تنبه داود إلى أنه الابتلاء (وظن داود أنما فتناه) وهنا أدركته طبيعته . . إنه أواب (فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) (فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) وخاضت بعض التفاسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوضاً كبيراً . تتنزه عنه طبيعة النبوة . ولا يتفق إطلاقاً مع حقيقتها . حتى الروايات التى حاولت تخفيف تلك الأساطير سارت معها شوطاً . وهى لا تصلح للنظر من الأساس . ولا تتفق مع قول الله تعالى (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) والتعقيب القرآنى الذى جاء بعد القصة يكشف كذلك عن طبيعة الفتنة ؛ ويحدد التوجيه المقصود بها من الله لعبده الذى ولاه القضاء والحكم بين الناس (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق . ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد . بما نسوا يوم الحساب) فهى الخلافة فى الأرض ، والحكم بين الناس بالحق ، وعدم اتباع الهوى . واتباع الهوى – فيما يختص بنبى – هو السير مع الانفعال الأول ، وعدم التريث والتثبت والتبين . . مما ينتهى مع الاستطراد فيه إلى الضلال . أما عقب الآية المصور لعاقبة الضلال فهو حكم عام مطلق على نتائج الضلال عن سبيل الله . وهو نسيان الله والتعرض للعذاب الشديد يوم الحساب . ومن رعاية الله لعبده داود ، أنه نبهه عند أول لفتة . ورده عند أول اندفاعه . وحذره النهاية البعيدة . وهو لم يخط إليها خطوة ! وذلك فضل الله على المختارين من عباده . فهم ببشريتهم قد تعثر أقدامهم أقل عثرة ، فيقيلها الله ، ويأخذ بيدهم ، ويعلمهم , ويوفقهم إلى الإنابة ، ويغفر لهم ، ويغدق عليهم ، بعد الابتلاء . وعند تقرير مبدأ الحق فى خلافة الأرض ، وفى الحكم بين الناس . . وقبل أن تمضى قصة داود إلى نهايتها فى السياق . . يرد هذا الحق إلى أصله الكبير . أصله الذى تقوم عليه السماء والأرض وما بينهما . أصله العريق فى كيان هذا الكون كله . وهو أشمل من خلافة الأرض ، ومن الحكم بين الناس . وهو أكبر من هذه الأرض . كما أنه أبعد مدى من الحياة الدنيا . إذ يتناول صميم الكون كما يتناول الحياة الآخرة . ومنه وعليه جاءت الرسالة الأخيرة ، وجاء الكتاب المفسر لذلك الحق الشامل الكبير (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً . ذلك ظن الذين كفروا . فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ؟ كتاب أنزلناه إليك مبارك ، ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب)وهكذا:فى هذه الآيات الثلاث ، تتقرر تلك الحقيقة الضخمة الهائلة الشاملة الدقيقة العميقة . بكل جوانبها

وفروعها وحلقاتها . . إن خلق السماء والأرض وما بينهما لم يكن باطلاً ، ولم يقم على الباطل . إنما كان حقاً وقام على الحق . ومن هذا الحق الكبير تتفرع سائر الحقوق . الحق فى خلافة الأرض . والحق فى الحكم بين الخلق . والحق فى تقويم مشاعر الناس وأعمالهم ؛ فلا يكون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ؛ ولا يكون وزن المتقين كوزن الفجار . والحق الذى جاء به الكتاب المبارك الذى أنزله الله ليتدبروا آياته وليتذكر أصحاب العقول ما ينبغى أن يتذكروه من هذه الحقائق الأصيلة ، التى لا يتصورها الكافرون ، لأن فطرتهم لا تتصل بالحق الأصيل فى بناء هذا الكون ، ومن ثم يسوء ظنهم بربهم ولا يدركون من أصالة الحق شيئاً (ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) إن شريعة الله للناس طرف من ناموسه فى خلق الكون . وإن كتابه المنزل بيان للحق الذى يقوم عليه الناموس . وإن العدل الذى يطالب به الخلفاء فى الأرض والحكام بين الناس إنما هو طرف من الحق الكلى ، لا يستقيم أمر الناس إلا حين يتناسق مع بقية الأطراف . وإن الانحراف عن شريعة الله والحق فى الخلافة والعدل فى الحكم إنما هو انحراف عن الناموس الكونى الذى قامت عليه السماء والأرض ؛ وهو أمر عظيم إذن وشر كبير وبعد هذا التعقيب المعترض فى صلب القصة لكشف تلك الحقيقة الضخمة ، يمضى السياق يعرض نعمة الله على داود فى عقبه وولده سليمان ؛ وما وهبه الله من ألوان الإنعام والإفضال . كما يعرض فتنته وابتلاءه ورعاية الله له ، وإغداقه عليه بعد الفتنة والابتلاء (ووهبنا لداود سليمان . نعم العبد . إنه أواب . إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد . فقال:إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب . ردوها علىّ . فطفق مسحاً بالسوق والأعناق . ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب . قال:رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى ، إنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين فى الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) والإشارتان الواردتان هنا عن الصافنات الجياد وهى الخيل الكريمة . وعن الجسد الذى ألقى على كرسى سليمان . . كلتاهما إشارتان لم تسترح نفسى لأى تفسير أو رواية مما احتوته التفاسير والروايات عنهما . فهى إما إسرائيليات منكرة ، وإما تأويلات لا سند لها . ولم أستطع أن أتصور طبيعة الحادثين تصوراً يطمئن إليه قلبى ، فأصوره هنا وأحكيه . ولم أجد أثراً صحيحاً أركن إليه فى تفسيرهما وتصويرهما سوى حديث صحيح . صحيح فى ذاته ولكن علاقته بأحد هذين الحادثين ليست أكيدة . هذا الحديث هو ما رواه أبو هريرة – رضى الله عنه – عن رسول الله ﷺ وأخرجه البخارى فى صحيحه مرفوعاً . ونصه :قال سليمان:لأطوفن الليلة على سبعين امرأة . كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله . ولم يقل:إن شاء الله . فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل . والذى نفسى بيده ، لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون . . وجائز أن تكون هذه هى الفتنة التى تشير إليها الآيات هنا ، وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشق . ولكن هذا مجرد احتمال . . أما قصة الخيل فقيل:إن سليمان – عليه السلام – استعرض خيلاً له بالعشى . ففاتته صلاة كان يصليها قبل الغروب . فقال ردوها علىّ . فردوها عليه فجعل يضرب أعناقها وسيقانها جزاء ما شغلته عن ذكر ربه . ورواية أخرى أنه إنما جعل يمسح سوقها وأعناقها إكراماً لها لأنها كانت خيلاً فى سبيل الله . . وكلتا الروايتين لا دليل عليها . ويصعب الجزم بشىء عنها . ومن ثم لا يستطيع متثبت أن يقول شيئاً عن تفصيل هذين الحادثين المشار إليهما فى القرآن . وكل ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبى الله سليمان – عليه السلام – فى شأن يتعلق بتصرفاته فى الملك والسلطان كما يبتلى الله أنبياءه ليوجههم ويرشدهم ، ويبعد خطاهم عن الزلل . وأن سليمان أناب إلى ربه ورجع ، وطلب المغفرة ؛ واتجه إلى الله بالدعاء والرجاء (قال:رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب) وأقرب تأويل لهذا الطلب من سليمان – عليه السلام – أنه لم يرد به أثرة . إنما أراد الاختصاص الذى يتجلى فى صورة معجزة . فقد أراد به النوع . أراد به ملكاً ذا خصوصية تميزه من كل ملك آخر يأتى بعده . وذا طبيعة معينة ليست مكررة ولا معهودة فى الملك الذى يعرفه الناس . وقد استجاب له ربه ، فأعطاه فوق الملك المعهود ، ملكاً خاصاً لا يتكرر (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين فى الأصفاد) وتسخير الريح لعبد من عباد الله بإذن الله ؛ لا يخرج فى طبيعته عن تسخير الريح لإرادة الله . وهى مسخرة لإرادته تعالى ولا شك ، تجرى بأمره وفق نواميسه ؛ فإذا يسر الله لعبد من عباده فى فترة من الفترات أن يعبر عن إرادة الله سبحانه وأن يوافق أمره أمر الله فيها وأن تجرى الريح رخاء حيث أراد فذلك أمر ليس على الله بمستبعد . ومثله يقع فى صور شتى . كذلك سخر له الشياطين لتبنى له ما يشاء ؛ وتغوص له فى البحر والأرض فى طلب ما يشاء . وأعطاه السلطة لعقاب المخالفين والمفسدين ممن سخرهم له وتكبيلهم بالأصفاد مقرونة أيديهم إلى أرجلهم . أو مقرنين اثنين اثنين أو أكثر فى القيود عند الاقتضاء . ثم قيل له:إنك مطلق اليد فيما وهب الله لك من سلطة ومن نعمة . تعطى من تشاء كيف تشاء . وتمسك عمن تشاء قدر ما تشاء (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) وذلك زيادة فى الإكرام والمنة . ثم زاد على هذا كله أن له عند

ربه قربى فى الدنيا وحسن مآب فى الآخرة (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) وتلك درجة عظيمة من الرعاية والرضى والإنعام والتكريم . ثم نمضى مع قصة الابتلاء والصبر ، والإنعام بعد ذلك والإفضال . نمضى فى السياق مع قصة أيوب (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك . هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث ، إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) وقصة ابتلاء أيوب وصبره ذائعة مشهورة ؛ وهي تضرب مثلاً للابتلاء والصبر . ولكنها مشوبة بإسرائيليات تطغى عليها . والحد المأمون فى هذه القصة هو أن أيوب – عليه السلام – كان كما جاء فى القرآن عبداً صالحاً أوّاباً ؛ وقد ابتلاه الله فصبر صبراً جميلاً ، ويبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعاً ولكنه ظل على صلته بربه ،وثقته به ، ورضاه بما قسم له وكان الشيطان يوسوس لخلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له – ومنهم زوجته – بأن الله لو كان يحب أيوب ما ابتلاه . وكانوا يحدثونه بهذا فيؤذيه فى نفسه أشد مما يؤذيه الضر والبلاء . فلما حدثته امراته ببعض هذه الوسوسة حلف لئن شفاه الله ليضربنها عدداً عينه – قيل مائة . وعندئذ توجه إلى ربه بالشكوى مما يلقى من إيذاء الشيطان ، ومداخله إلى نفوس خلصائه ، ووقع هذا الإيذاء فى نفسه (أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) فلما عرف ربه منه صدقه وصبره ، ونفوره من محاولات الشيطان ، وتأذيه بها ، أدركه برحمته . وأنهى ابتلاءه ، ورد عليه عافيته . إذ أمره أن يضرب الأرض بقدمه فتتفجر عين باردة يغتسل منها ويشرب فيشفى ويبرأ (اركض برجلك . هذا مغتسل بارد وشراب) ويقول القرآن الكريم (ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب) وتقول بعض الروايات:إن الله أحيا له أبناءه ووهب له مثلهم ، وليس فى النص ما يحتم أنه أحيا له من مات . وقد يكون معناه أنه بعودته إلى الصحة والعافية قد استرد أهله الذين كانوا بالنسبة إليه كالمفقودين . وأنه رزقه بغيرهم زيادة فى الإنعام والرحمة والرعاية . مما يصلح ذكرى لذوى العقول والإدراك . والمهم فى معرض القصص هنا هو تصوير رحمة الله وفضله على عباده الذين يبتليهم فيصبرون على بلائه وترضى نفوسهم بقضائه . فأما قسمه ليضربن زوجه . فرحمة من الله به وبزوجه التى قامت على رعايته وصبرت على بلائه وبلائها به ، أمره الله أن يأخذ مجموعة من العيدان بالعدد الذى حدده . فيضربها به ضربة واحدة . تجزىء عن يمينه ، فلا يحنث فيها (وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث) هذا التيسير ، وذلك الإنعام ، كانا جزاء على ما علمه الله من عبده أيوب من الصبر على البلاء وحسن الطاعة والالتجاء (إنا وجدناه صابراً ، نعم العبد ، إنه أواب) وبعد عرض هذه القصص الثلاثة بشىء من التفصيل ؛ ليذكره رسول الله ﷺ ويصبر على ما يلاقيه . يجمل السياق الإشارة إلى مجموعة من الرسل . في قصصهم من البلاء والصبر ، ومن الإنعام والإفضال ، ما في قصص داود وسليمان وأيوب – عليهم السلام – ومنهم سابقون على هؤلاء معروف زمانهم . ومنهم من لا نعرف زمانه ، لأن القرآن والمصادر المؤكدة لدينا لم تحدده (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار) وإبراهيم وإسحاق ويعقوب – وكذلك إسماعيل – كانوا قبل داود وسليمان قطعاً . ولكن لا نعرف أين هم من زمان أيوب . وكذلك اليسع وذو الكفل . ولم يرد عنهما في القرآن إلا إشارات سريعة . وهناك نبى من أنبياء بنى إسرائيل اسمه بالعبرية:"إليشع" وهو اليسع بالعربية على وجه الترجيح . فأما ذو الكفل فلا نعرف عنه شيئاً إلا صفته هذه (من الأخيار) ويصف الله سبحانه:إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، بأنهم (أولى الأيدى والأبصار). كناية عن العمل الصالح بالأيدى والنظر الصائب أو الفكر السديد بالأبصار . وكأن من لا يعمل صالحاً لا يد له . ومن لا يفكر تفكيراً سليماً لا عقل له أو لا نظر له ! كما يذكر من صفتهم التكريمية أن الله أخلصهم بصفة خاصة ليذكروا الدار الآخرة ، ويتجردوا من كل شىء سواها (إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) فهذه ميزتهم ورفعتهم . وهذه جعلتهم عند الله مختارين أخياراً (وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) وكذلك يشهد الله – سبحانه – لإسماعيل واليسع وذى الكفل أنهم من الأخيار . ويوجه خاتم أنبيائه وخير رسله ﷺ ليذكرهم ويعيش بهم ، ويتأمل صبرهم ورحمة الله بهم . ويصبر على ما يلقاه من قومه المكذبين الضالين . فالصبر هو طريق الرسالات . وطريق الدعوات . والله لا يدع عباده الصابرين حتى يعوضهم من صبرهم خيراً ورحمة وبركة واصطفاء . . وما عند الله خير . وهان كيد الكائدين وتكذيب المكذبين إلى جانب رحمة الله ورعايته وإنعامه وإفضاله . .

(هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ {٤٩} جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ {٥٠} مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ {٥١} وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ {٥٢} هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ {٥٣} إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ {٥٤} هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ {٥٥} جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ {٥٦} هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ {٥٧} وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ {٥٨} هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ {٥٩} قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ {٦٠} قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ

عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ{٦١} وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ{٦٢} أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ{٦٣} إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ){٦٤}

يبدأ المشهد بمنظرين متقابلين تمام التقابل في المجموع وفي الأجزاء ، وفي السمات والهيئات منظر(المتقين) لهم (حسن مآب) ومنظر(الطاغين) لهم (شر مآب) فأما الأولون فلهم جنات عدن مفتحة لهم الأبواب . ولهم فيها راحة الاتكاء ، ومتعة الطعام والشراب . ولهم كذلك متعة الحوريات الشواب . وهن مع شبابهن (قاصرات الطرف) لا يتطلعن ولا يمددن بأبصارهن . وكلهن شواب أتراب . وهو متاع دائم ورزق من عند الله (ما له من نفاد) وأما الآخرون فلهم مهاد . ولكن لا راحة فيه . إنه جهنم (فبئس المهاد)! ولهم فيه شراب ساخن وطعام مقيىء . إنه ما يغسق ويسيل من أهل النار ! أو لهم صنوف أخرى من جنس هذا العذاب . يعبر عنها بأنها (أزواج)! ثم يتم المشهد بمنظر ثالث حي شاخص بما فيه من حوار:فها هي ذي جماعة من أولئك الطاغين من أهل جهنم . كانت في الدنيا متوادة متحابة . فهي اليوم متناكرة متنابذة كان بعضهم يملي لبعض في الضلال . وكان بعضهم يتعالى على المؤمنين ، ويهزأ من دعوتهم ودعواهم في النعيم . كما يصنع الملأ من قريش وهم يقولون (أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟) ها هم أولاء يقتحمون النار فوجاً بعد فوج وها هم أولاء يقول بعضهم لبعض (هذا فوج مقتحم معكم) فماذا يكون الجواب ؟ يكون الجواب في إندفاع وحنق (لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار)! فهل يسكت المشتومون ؟ كلا ! إنهم يردون:(قالوا:بل أنتم لا مرحباً بكم . أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار !). فلقد كنتم أنتم السبب في هذا العذاب . وإذا دعوة فيها الحنق والضيق والانتقام (قالوا:ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار)! ثم ماذا ؟ ثم ها هم أولاء يفتقدون المؤمنين ، الذين كانوا يتعالون عليهم في الدنيا , ويظنون بهم شراً ، ويسخرون من دعواهم في النعيم . ها هم أولاء يفتقدونهم فلا يرونهم معهم مقتحمين في النار ، فيتساءلون:أين هم ؟ أين ذهبوا ؟ أم تراهم هنا ولكن زاغت عنهم أبصارنا ؟: وقالوا:ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار أتخذناهم سخرياً ؟ أم زاغت عنهم الأبصار ؟ . . بينما هؤلاء الرجال الذين يتساءلون عنهم هناك في الجنان ! ويختم المشهد بتقرير واقع أهل النار(إن ذلك لحق تخاصم أهل النار)!! فما أبعد مصيرهم عن مصير المتقين . الذين كانوا يسخرون منهم ، ويستكثرون اختيار الله لهم . وما أبأس نصيبهم الذي كانوا يستعجلون به وهم يقولون: (ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب)!

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ{٦٥} رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ{٦٦} قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ{٦٧} أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ{٦٨} مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ{٦٩} إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ{٧٠} إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ{٧١} فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ{٧٢} فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ{٧٣} إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ{٧٤} قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ{٧٥} قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ{٧٦} قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ{٧٧} وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ{٧٨} قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{٧٩} قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ{٨٠} إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ{٨١} قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٨٢} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٨٣} قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ{٨٤} لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ{٨٥} قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ{٨٦} إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{٨٧} وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ){٨٨}

هذا الدرس الأخير في السورة يعود إلى تقرير القضايا التي عرضت في مقدمتها: قضايا التوحيد . والوحي . والجزاء في الآخرة . ويستعرض قصة آدم دليلاً على الوحي بما دار في الملأ الأعلى ذات يوم . وما تقرر يوم ذاك من الحساب على الهدى والضلال في يوم الحساب . كما تتضمن القصة لوناً من الحسد في نفس الشيطان هو الذي أرداه وطرده من رحمة الله ؛ حينما استكثر على آدم فضل الله الذي أعطاه . كذلك تصور المعركة المستمرة بين الشيطان وأبناء آدم ، والتي لا يهدأ أوارها ولا تضع أوزارها . والتي يهدف من ورائها إلى إيقاع أكبر عدد منهم في حبائله ، لإيرادهم النار معه ، انتقاماً من أبيهم آدم ، وقد كان طرده بسببه ، وهي معركة معروفة الأهداف . ولكن أبناء آدم يستسلمون لعدوهم القديم !

وتختم السورة بتوكيد قضية الوحي ، وعظمه ما وراءه ، مما يغفل عنه المكذبون الغافلون (قل:إنما أنا منذر ، وما من إله إلا الله الواحد القهار . رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار) قل لأولئك المشركين ، الذين يدهشون ويعجبون ويقولون (أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب) قل لهم:إن هذه هي

الحقيقة (وما من إله إلا الله الواحد القهار) وقل لهم:إنه ليس لك من الأمر ، وليس عليك منه إلا أن تنذر وتحذر ؛ وتدع الناس بعد ذلك إلى الله الواحد القهار (رب السماوات والأرض وما بينهما) فليس له من شريك . وليس من دونه ملجأ في السماوات أو فى الأرض أو فيما بينهما . وهو(العزيز) القوى القادر . وهو(الغفار) الذى يتجاوز عن الذنب ويقبل التوبة ، ويغفر لمن يثوبون إلى حماه . وقل لهم:إن ما جئتهم به وما يعرضون عنه أكبر وأعظم مما يظنون . وإن وراءه ما وراءه مما هم عنه غافلون (قل:هو نبأ عظيم . أنتم عنه معرضون) وإنه لأمر أعظم بكثير من ظاهره القريب . إنه أمر من أمر الله فى هذا الوجود كله . وشأن من شؤون هذا الكون بكامله . إنه قدر من قدر الله فى نظام هذا الوجود . ليس منفصلاً ولا بعيداً عن شأن السماوات والأرض ، وشأن الماضى السحيق والمستقبل البعيد . والمسلمون اليوم يقفون من هذا النبأ كما وقف منه العرب أول الأمر . لا يدركون طبيعته وارتباطها بطبيعة الوجود ؛ ولا يتدبرون الحق الكامن فيه ليعلموا أنه طرف من الحق الكامن فى بناء الوجود ؛ ولا يستعرضون آثاره فى تاريخ البشرية وفى خط سيرها الطويل استعراضاً واقعياً ، يعتمدون فيه على نظرة مستقلة غير مستمدة من أعداء هذا النبأ الذين يهمهم دائماً أن يصغروا من شأنه فى تكييف حياة البشر وفى تحديد خط التاريخ . . ومن ثم فإن المسلمين لا يدركون حقيقة دورهم سواء فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل . وأنه دور ماض فى هذه الأرض إلى آخر الزمان . (ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون أن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين) وعند هذا يأخذ السياق فى عرض قصة البشرية ؛ وما دار فى الملأ الأعلى بشأنها منذ البدء . مما يحدد خط سيرها ، ويرسم أقدارها ومصائرها . وهو ما أرسل محمد ﷺ ليبلغه وينذر به فى آخر الزمان (إذ قال ربك للملائكة:إنى خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) وما ندرى نحن كيف قال الله أو كيف يقول للملائكة . وما ندرى كذلك كيف يتلقى الملائكة عن الله ولا ندرى عن كنههم إلا ما بلغنا من صفاتهم فى كتاب الله . ولا حاجة بنا إلى الخوض فى شىء من هذا الذى لا طائل وراء الخوض فيه . إنما نمضى إلى مغزى القصة ودلالتها كما يقصها القرآن لقد خلق الله هذا الكائن البشرى من الطين . كما أن سائر الأحياء فى الأرض خلقت من طين . فمن الطين كل عناصرها . فيما عدا سر الحياة الذى لا يدرى أحد من أين جاء ولا كيف جاء . ومن الطين كل عناصر ذلك الكائن البشرى فيما عدا ذلك السر . وفيما عدا تلك النفخة العلوية التى جعلت منه إنساناً . من الطين كل عناصر جسده . فهو من أمه الأرض . ومن عناصرها تكون . وهو يستحيل إلى تلك العناصر حينما يفارقه ذلك السر الإلهى المجهول ؛ وتفارقه معه آثار تلك النفخة العلوية التى حددت خط سيره فى الحياة . ونحن نجهل كنه هذه النفخة ؛ ولكننا نعرف آثارها . فآثارها هى التى ميزت هذا الكائن الإنسانى عن سائر الخلائق فى هذه الأرض . ميزته بخاصية القابلية للرقى العقلى والروحى . هى التى جعلت عقله ينظر تجارب الماضى ، ويصمم خطط المستقبل . وجعلت روحه يتجاوز المدرك بالحواس والمدرك بالعقول ، ليتصل بالمجهول للحواس والعقول . وخاصية الارتقاء العقلى والروحى خاصية إنسانية بحتة ، لا يشاركه فيها سائر الأحياء فى هذه الأرض . وقد عاصر مولد الإنسان الأول أجناس وأنواع شتى من الأحياء . ولم يقع فى هذا التاريخ الطويل أن ارتقى نوع أو جنس – ولا أحد أفراده – عقلياً أو روحياً . حتى مع التسليم بوقوع الارتقاء العضوى . لقد نفخ الله من روحه فى هذا الكائن البشرى ، لأن إرادته اقتضت أن يكون خليفة فى الأرض ; وأن يتسلم مقاليد هذا الكوكب فى الحدود التى قدرها له . حدود العمارة ومقتضياتها من قوى وطاقات . لقد أودعه القدرة على الارتقاء فى المعرفة . ومن يومها وهو يرتقى كلما اتصل بمصدر تلك النفخة ، واستمد من هذا المصدر فى استقامة . فأما حين ينحرف عن ذلك المصدر العلوى فإن تيارات المعرفة فى كيانه وفى حياته لا تتناسق ، ولا تتجه الاتجاه المتكامل المتناسق المتجه إلى الأمام ؛ وتصبح هذه التيارات المتعارضة خطراً على سلامة اتجاهه . إن لم تقده إلى نكسة فى خصائصه الإنسانية ، تهبط به فى سلم الارتقاء الحقيقى . ولو تضخمت علومه وتجاربه فى جانب من جوانب الحياة . وما كان لهذا الكائن الصغير الحجم ، المحدود القوة ، القصير الأجل ، المحدود المعرفة . . ما كان له أن ينال شيئاً من هذه الكرامة لولا تلك اللطيفة الربانية الكريمة . . وإلا فمن هو ؟ إنه ذلك الخلق الصغير الضئيل الهزيل الذى يحيا على هذا الكوكب الأرضى مع ملايين الأنواع والأجناس من الأحياء . وما الكوكب الأرضى إلا تابع صغير من توابع أحد النجوم . ومن هذه النجوم ملايين الملايين فى ذلك الفضاء الذى لا يدرى إلا الله مداه . . فماذا يبلغ هذا الإنسان لتسجد له ملائكة الرحمن ؟ إلا بهذا السر اللطيف العظيم ؟ إنه بهذا السر كريم كريم . فإذا تخلى عنه أو انفصم منه ارتد إلى أصله الزهيد . . من طين ! ولقد استجاب الملائكة لأمر ربهم كما هى فطرتهم (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) كيف ؟ وأين ؟ ومتى ؟ كل أولئك غيب من غيب الله . ومعرفته لا تزيد فى مغزى القصة شيئاً . هذا المغزى الذى يبرز فى تقدير قيمة هذا الإنسان المخلوق من الطين ؛ بعدما ارتفع عن أصله بتلك النفخة من روح الله العظيم . سجد الملائكة امتثالاً لأمر الله ، وشعوراً بحكمته فيما يراه (إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين) فهل كان إبليس من الملائكة ؟ الظاهر أنه لا . لأنه لو كان من الملائكة ما عصى . فالملائكة لا

يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . . وسيجيء أنه خلق من نار . والمأثور أن الملائكة خلق من نور . . ولكنه كان مع الملائكة وكان مأموراً بالسجود . ولم يخص بالذكر الصريح عند الأمر إهمالاً لشأنه بسبب ما كان من عصيانه . إنما عرفنا أن الأمر كان قد وجه إليه من توجيه التوبيخ إليه (قال:يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ؟ أستكبرت ؟ أم كنت من العالين ؟) ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ؟ والله خالق كل شيء . فلا بد أن تكون هناك خصوصية في خلق هذا الإنسان تستحق هذا التنويه . هى خصوصية العناية الربانية بهذا الكائن وإيداعه نفخة من روح الله دلالة على هذه العناية أستكبرت ؟ عن أمرى (أم كنت من العالين ؟) الذين لا يخضعون ؟ قال:أنا خير منه . خلقتنى من نار وخلقته من طى)!إنه الحسد ينضح من هذا الرد . والغفلة أو الإغفال للعنصر الكريم الزائد على الطين فى آدم ، والذى يستحق هذا التكريم . وهو الرد القبيح الذى يصدر عن الطبيعة التى تجردت من الخير كله في هذا الموقف المشهود . هنا صدر الأمر الإلهى العالى بطرد هذا المخلوق المتمرد القبيح (قال:فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين) ولا نملك أن نحدد عائد الضمير فى قوله (منها) فهل هى الجنة ؟ أم هل هى رحمة الله . . هذا وذلك جائز . ولا محل للجدل الكثير . فإنما هو الطرد واللعنة والغضب جزاء التمرد والتجرؤ على أمر الله الكريم . هنا تحول الحسد إلى حقد . وإلى تصميم على الانتقام فى نفس إبليس: (قال:رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون) واقتضت مشيئة الله للحكمة المقدرة في علمه أن يجيبه إلى ما طلب ، وأن يمنحه الفرصة التى أراد (قال:فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم) وكشف الشيطان عن هدفه الذى ينفق فيه حقده (قال:فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين) وبهذا تحدد منهجه وتحدد طريقه . إنه يقسم بعزة الله ليغوين جميع الآدميين . لا يستثنى إلا من ليس له عليهم سلطان . لا تطوعاً منه ولكن عجزاً عن بلوغ غايته فيهم ! وبهذا يكشف عن الحاجز بينه وبين الناجين من غوايته وكيده ؛ والعاصم الذى يحول بينهم وبينه . إنه عبادة الله التى تخلصهم لله . هذا هو طوق النجاة . وحبل الحياة ! . . وكان هذا وفق إرادة الله وتقديره فى الردى والنجاة . فأعلن – سبحانه – إرادته . وحدد المنهج والطريق: (قال:فالحق . والحق أقول) والله يقول الحق دائماً . والقرآن يقرر هذا ويؤكد الإشارة إليه فى هذه السورة فى شتى صوره ومناسباته. فهو الحق الذى تتعدد مواضعه وصوره ، وتتحد طبيعته وكنهه . ومنه هذا الوعد الصاد (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وهى المعركة إذن بين الشيطان وأبناء آدم ، يخوضونها على علم . والعاقبة مكشوفة لهم في وعد الله الصادق الواضح المبين . وعليهم تبعة ما يختارون لأنفسهم بعد هذا البيان . وقد شاءت رحمة الله ألا يدعهم جاهلين ولا غافلين . فأرسل إليهم المنذرين وفى نهاية الشوط وختام السورة يكلف الرسول ﷺ أن يلقى إليهم بالقول الأخير (قل:ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين) إنها الدعوة الخالصة للنجاة ، بعد كشف المصير وإعلان النذير . الدعوة الخالصة التى لا يطلب صاحبها أجراً وهو الداعية السليم الفطرة ، الذى ينطق بلسانه ، لا يتكلف ولا يتصنع ، ولا يأمر إلا بما يوحى منطق الفطرة القريب . وإنه للتذكير للعالمين أجمعين فقد ينسون ويغفلون . وإنه للنبأ العظيم الذى لا يلقون بالهم إليه اليوم ، وليعلمن نبأه بعد حين . نبأه فى الأرض – وقد علموه بعد سنوات من هذا القول – ونبأه في اليوم المعلوم . عندما يحق وعد الله اليقين (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين)إنه الختام الذى يتناسق مع افتتاح السورة ومع موضوعها والقضايا التى تعالجها:وهو الإيقاع المدوى العميق ، الموحى بضخامة ما سيكون (ولتعلمن نبأه بعد حين) .

سورة الزمر

مكية ، و آياتها ٧٥

هذه السورة تكاد تكون مقصورة على علاج قضية التوحيد . وهى تطوف بالقلب البشرى فى جولات متعاقبة ؛ وتوقع على أوتاره إيقاعات متلاحقة ؛ وتهزه هزاً عميقاً متواصلاً لتطبع فيه حقيقة التوحيد وتمكنها ، وتنفى عنه كل شبهة وكل ظل يشوب هذه الحقيقة . ومن ثم فهى ذات موضوع واحد متصل من بدئها إلى ختامها ؛ يعرض فى صور شتى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين) (ألا لله الدين الخالص) . الخ . . .وتتردد فى مقاطعها على فترات متقاربة فيها إما نصاً . وإما مفهوماً نصاً كقوله تعالى (قل:إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين . وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل:إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل:الله أعبد مخلصاً له دينى فاعبدوا ما شئتم من دونه) . الخ . أو قوله (قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ؟ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) ومفهوماً كقوله عز و جل (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سلما لرجل . هل يستويان مثلا:الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) أو قوله (أليس الله بكاف عبده ؟ ويخوفونك بالذين من دونه ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل . أليس الله بعزيز ذى انتقام ؟) وإلى جانب حقيقة التوحيد ، نجد فى السورة توجيهات وإيحاءات لإيقاظ هذا القلب واستجاشته وإثارة حساسيته ، وإرهافه للتلقى والتأثر والاستجابة . ذلك كقوله(والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى . فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الألباب) (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله:ذلك هدى الله يهدى به من يشاء . ومن يضلل الله فما له من هاد) (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل . وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله . قل:تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار) وهناك ظاهرة ملحوظة فى جو السورة . . إن ظل الآخرة يجللها من أولها إلى آخرها . وسياقها يطوّف بالقلب البشرى هناك فى كل شوط من أشواطها القصيرة ؛ ويعيش به فى ظلال العالم الآخر معظم الوقت ! وهذا هو مجال العرض الأول فيها والمؤثر البارز المتكرر فى ثناياها . ومن ثم تتلاحق فيها مشاهد القيامة أو الإشارة إليها فى كل مقطع من مقاطعها الكثيرة . مثل هذه الإشارات (أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ؟) (قل:إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) (أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار ؟) (أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) (? ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) (ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة ؛ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون). (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغته وأنتم لا تشعرون . أن تقول نفس:يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين . أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين . .) وهذا غير المشاهد الكاملة التى تشغل حيزاً من السورة كبيراً ، وتظلل جوها بظلال الآخرة . أما المشاهد الكونية التى لاحظنا كثرتها وتنوعها فى السور المكية فى ثنايا عرضها لحقائق العقيدة فهى قليلة فى هذه السورة . هنالك مشهد كونى يرد فى مطلعها (خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . ألا هو العزيز الغفار) ومشهد آخر فى وسطها (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ; ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ؛ ثم يهيج فتراه مصفراً ؛ ثم يجعله حطاماً ؟ إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب) وهناك إشارات سريعة إلى خلق السماوات والأرض غير هذين المشهدين البارزين . كذلك تتضمن السورة لمسات من واقع حياة البشر ، وفى أغوار نفوسهم ، تتوزع فى ثناياها . يرد فى مطالعها عن نشأة البشرية (خلقكم من نفس واحدة ؛ ثم جعل منها زوجها . وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج . يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث . ذلكم الله ربكم له الملك . لا إله إلا هو ، فأنى تصرفون ؟) ويرد عن طبيعة النفس البشرية فى الضراء والسراء (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ؛ ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل . . . الخ . .)فإذا مس الإنسان ضر دعانا ؛ ثم إذا خولناه نعمة منا قال:إنما اوتيته على علم بل هى فتنة) ويرد فى

تصوير أنفس البشر فى قبضة الله فى كل حالة (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ؛ فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ولكن ظل الآخرة وجوها يظل مسيطراً على السورة كلها كما أسلفنا . حتى تختم بمشهد خاشع يرسم ظل ذلك اليوم وجوه (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وقضي بينهم بالحق ، وقيل:الحمد لله رب العالمين) هذا الظل يتناسق مع جو السورة ، ولون اللمسات التى تأخذ القلب البشرى بها . فهى أقرب إلى جو الخشية والخوف والفزع والارتعاش .

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ{١} إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ{٢} أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ{٣} لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ{٤} خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ{٥} خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ{٦} إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ){٧}

تبدأ السورة بهذا التقرير الحاسم (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) العزيز القادر على تنزيله . الحكيم الذى يعلم فيم أنزله ولماذا أنزله ؛ ويفعل ذلك بحكمة وتقدير وتدبير . ولا يتلبث السياق عند هذه الحقيقة طويلاً ؛ فهى مقدمة للقضية الأصيلة التى تكاد السورة تكون وقفاً عليها ؛ والتى نزل الكتاب لتقريرها وتوكيدها . قضية توحيد الله ، وإفراده بالعبادة ، وإخلاص الدين له ، وتنزيهه عن الشرك فى كل صورة من صوره ؛ والاتجاه إليه مباشرة بلا وسيط ولا شفيع (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) وأساس الحق الذى أنزل به الكتاب ، هو الوحدانية المطلقة التى يقوم عليها الوجود . وفى الآية الخامسة من السورة يجيء (خلق السماوات والأرض بالحق) فهو الحق الواحد الذى قامت به السماوات والأرض ، وأنزل به هذا الكتاب . الحق الواحد الذى تشهد به وحدة النظام الذى يصرف السماوات والأرض ؛ والذى ينطق به هذا الكتاب . الحق الذى يتسم به كل ما خرج من يد الصانع المبدع فى هذا الوجود (فاعبد الله مخلصاً له الدين) والخطاب لرسول الله ﷺ الذى أنزل إليه الكتاب بالحق . وهو منهجه الذى يدعو إليه الناس كافة . . عبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، وقيام الحياة كلها على أساس هذا التوحيد (ألا لله الدين الخالص) يعلنها هكذا مدوية عالية فى ذلك التعبير المجلجل . بأداة الافتتاح (ألا) وفى أسلوب القصر (لله الدين الخالص) فيؤكد معناها بالبناء اللفظى للعبارة . . فهى القاعدة التى تقوم عليها الحياة كلها . بل التى يقوم عليها الوجود كله . ومن ثم ينبغى أن ترسخ وتتضح وتعلن فى هذا الأسلوب الجازم الحاسم ، ثم يعالج الأسطورة المعقدة التى كان المشركون يواجهون بها دعوة التوحيد (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون . إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار) فلقد كانوا يعلنون أن الله خالقهم وخالق السماوات والأرض . . ولكنهم لم يكونوا يسيرون مع منطق الفطرة فى إفراد الخالق إذن بالعبادة ، وفى إخلاص الدين لله بلا شريك . إنما كانوا يبتدعون أسطورة بنوة الملائكة لله سبحانه . ثم يصوغون للملائكة تماثيل يعبدونها فيها . ثم يزعمون أن عبادتهم لتماثيل الملائكة – وهى التى دعوها آلهة أمثال اللات والعزى ومناة – ليست عبادة لها فى ذاتها ؛ إنما هى زلفى وقربى لله . كى تشفع لهم عنده ، وتقربهم منه ! وهو انحراف عن بساطة الفطرة واستقامتها ، إلى هذا التعقيد والتخريف . فلا الملائكة بنات الله . ولا الأصنام تماثيل للملائكة . ولا الله – سبحانه – يرضى بهذا الانحراف . ولا هو يقبل فيهم شفاعة . ولا هو يقربهم إليه عن هذا الطريق ! (إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار) فهم يكذبون على الله . يكذبون عليه بنسبة بنوة الملائكة إليه ؛ ويكذبون عليه بأن هذه العبادة تشفع لهم عنده ! وهم يكفرون بهذه العبادة ؛ ويخالفون فيها عن أمر الله الواضح الصريح . ثم يكشف عن سخف ذلك التصور وتهافته (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء . سبحانه ! هو الله الواحد القهار)وهو فرض جدلى لتصحيح التصور . فالله لو أراد أن يتخذ ولداً لاختار ما يشاء من بين خلقه ؛ فإرادته مطلقة غير مقيده . ولكنه – سبحانه – نزه نفسه عن اتخاذ الولد . فليس لأحد أن ينسب إليه ولداً ، وهذه إرادته ، وهذه مشيئته ، وهذا تقديره ؛ وهذا تنزيهه لذاته عن الولد والشريك (سبحانه ! هو الله الواحد القهار) وما اتخاذه الولد ؟ وهو مبدع كل شيء ؛ وخالق كل شيء ، ومدبر كل شيء ؟ وكل شيء وكل أحد ملكه يفعل به ما يشاء (خلق السماوات والأرض بالحق) وهذه اللفتة إلى ملكوت السماوات والأرض ، وإلى ظاهرة

الليل والنهار ، وإلى تسخير الشمس والقمر توحى إلى الفطرة بحقيقة الألوهية التى لا يليق معها أن يكون هناك ولد ولا شريك . فالذى يخلق هذا الخلق وينشئه إنشاء ، لا يحتاج إلى الولد ولا يكون معه شريك . أنزل الكتاب بالحق . . فهو الحق الواحد فى ذلك الكون وفى هذا الكتاب . . وكلاهما صادر من مصدر واحد . وكلاهما آية على وحدة المبدع العزيز الحكيم (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) وهو تعبير عجيب يقسر الناظر فيه قسراً على الالتفات إلى ما كشف حديثاً عن كروية الأرض . واللفظ يرسم الشكل ، ويحدد الوضع ، ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها . وكروية الأرض ودورانها يفسران هذا التعبير تفسيراً أدق من أى تفسير آخر لا يستصحب هذه النظرية (وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) والشمس تجرى فى مدارها . والقمر يجرى فى مداره . وهما مسخران بأمر الله . فما يزعم أحد أنه يجريهما . وما يقبل منطق الفطرة أن يجريا بلا محرك ، يدبرهما بمثل هذا النظام الدقيق الذى لا يختل شعرة فى ملايين السنين .وستجرى الشمس وسيجرى القمر (لأجل مسمى) لا يعلمه إلا الله سبحانه (ألا هو العزيز الغفار) فمع القوة والقدرة والعزة ، هو غفار لمن يتوب إليه وينيب ، ممن يكذبون عليه ويكفرون به ، ويتخذون معه آلهة ، ويزعمون له ولداً – وقد سبق حديثهم – والطريق امامهم مفتوح ليرجعوا إلى العزيز الغفار . ومن تلك اللفتة إلى آفاق الكون الكبير ، ينتقل إلى لمسة فى أنفس العباد ؛ ويشير إلى آية الحياة القريبة منهم فى أنفسهم وفى الأنعام المسخرة لهم (خلقكم من نفس واحدة . ثم جعل منها زوجها . وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج . يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث . ذلكم الله ربكم له الملك . لا إله إلا هو فأنى تصرفون ؟) وحين يتأمل الإنسان فى نفسه .. وهى نفس واحدة . ذات طبيعة واحدة . وذات خصائص واحدة . تميزها عن بقية الخلائق ، كما أنها تجمع كل أفرادها فى إطار تلك الخصائص . فالنفس الإنسانية واحدة فى جميع الملايين المنبثين فى الأرض فى جميع الأجيال وفى جميع البقاع . وزوجها كذلك منها . فالمرأة تلتقى مع الرجل فى عموم الخصائص البشرية – رغم كل اختلاف فى تفصيلات هذه الخصائص – مما يشى بوحدة التصميم الأساسى لهذا الكائن البشرى . الذكر والأنثى . ووحدة الإرادة المبدعة لهذه النفس الواحدة بشقيها . وعند الإشارة إلى خاصية الزوجية فى النفس البشرية ترد الإشارة إلى هذه الخاصية فى الأنعام كذلك . مما يشى بوحدة القاعدة فى الأحياء جميعاً (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) والأنعام الثمانية كما جاءت فى آية أخرى:هى الضأن والمعز والبقر والإبل . من كل ذكر وأنثى . وكل من الذكر والأنثى يسمى زوجاً عند اجتماعهما . فهى ثمانية فى مجموعها . . والتعبير يعبر عن تسخيرها للإنسان بأنه إنزال لها من عند الله . فهذا التسخير منزل من عنده . منزل من عليائه إلى عالم البشر . ومأذون لهم فيه من عنده تعالى . ثم يعود – بعد هذه الإشارة إلى وحدة خاصية الزوجية فى الناس والأنعام – إلى تتبع مراحل الخلق للأجنة فى بطون أمهاتها (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق). من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام . إلى الخلق الواضح فيه عنصر البشرية (فى ظلمات ثلاث) ظلمة الكيس الذى يغلف الجنين . وظلمة الرحم الذى يستقر فيه هذا الكيس . وظلمة البطن الذى تستقر فيه الرحم (ذلكم الله ربكم له الملك . لا إله إلا هو . فأنى تصرفون ؟) وأمام هذه الرؤية الواضحة لآية الوحدانية المطلقة ، وآية القدرة الكاملة ، يقفهم أمام أنفسهم . فى مفرق الطريق بين الكفر والشكر . وأمام التبعة الفردية المباشرة فى اختيار الطريق . ويلوح لهم بنهاية الرحلة ، وما ينتظرهم هناك من حساب ، يتولاه الذى يخلقهم فى ظلمات ثلاث . والذى يعلم ما تكن صدورهم من خفايا الصدور ، إن هذه الرحلة فى بطون الأمهات هى مرحلة فى الطريق الطويل . تليها مرحلة الحياة خارج البطون . ثم تعقبها المرحلة الأخيرة مرحلة الحساب والجزاء . بتدبير المبدع العليم الخبير . والله – سبحانه – غنى عن العباد الضعاف المهازيل . إنما هى رحمته وفضله أن يشملهم بعنايته ورعايته . وهم من هم من الضعف والهزال ! (إن تكفروا فإن الله غنى عنكم) فإيمانكم لا يزيد فى ملكه شيئاً . وكفركم لا ينقص منه فتيلاً . ولكنه لا يرضى عن كفر الكافرين ولا يحبه (ولا يرضى لعباده الكفر) (وإن تشكروا يرضه لكم) ويعجبه منكم ، ويحبه لكم ، و يجزيكم عليه خيراً . وكل فرد مأخوذ بعمله ، محاسب على كسبه ؛ ولا يحمل أحد عبء أحد . فلكل حمله وعبؤه (ولا تزر وازرة وزر أخرى) والمرجع فى النهاية إلى الله دون سواه ؛ ولا مهرب منه ولا ملجأ عند غيره (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون) ولا يخفى عليه من أمركم شىء (إنه عليم بذات الصدور) هذه هى العاقبة . وتلك هى دلائل الهدى . وهذا هو مفرق الطريق . . ولكل أن يختار . عن بينة . وعن تدبر . وبعد العلم والتفكير . .

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ{٨} أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا

الْأَلْبَابِ {٩} قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) {١٠}

يلمس قلوبهم لمسة أخرى وهو يعرض عليهم صورتهم فى الضراء وصورتهم فى السراء ; ويريهم تقلبهم وضعفهم وادعاءهم وقلة ثباتهم على نهج ؛ إلا حين يتصلون بربهم ، ويتطلعون إليه ، ويقنتون له ، فيعرفون الطريق ، ويعلمون الحقيقة ؛ وينتفعون بما وهبهم الله من خصائص الإنسان (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه . ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أنداداً ، ليضل عن سبيله . قل:تمتع بكفرك قليلاً ، إنك من أصحاب النار) إن فطرة الإنسان تبرز عارية حين يمسه الضر ؛ ويسقط عنها الركام ؛ وتزول عنها الحجب , وتتكشف عنها الأوهام ؛ فتتجه إلى ربها , وتنيب إليه وحده ؛ وهى تدرك أنه لا يكشف الضر غيره . وتعلم كذب ما تدعى من شركاء أو شفعاء . فأما حين يذهب الضر ويأتى الرخاء ، ويخوله الله نعمة منه ، ويرفع عنه البلاء . فإن هذا الإنسان الذى تعرت فطرته عند مس الضر يعود فيضع عليها الركام ، وينسى تضرعه وإنابته وتوحيده لربه . وتطلعه إليه فى المحنة وحده ، حين لم يكن غيره يملك أن يدفع عنه محنته . . ينسى هذا كله ويذهب يجعل لله أنداداً . إما آلهة يعبدها كما كان فى جاهليته الأولى ؛ وإما قيماً وأشخاصاً وأوضاعاً يجعل لها فى نفسه شركة مع الله وتكون العاقبة هى الضلال عن سبيل الله . فسبيل الله واحد لا يتعدد . وإفراده بالعبادة والتوجه والحب هو وحده الطريق إليه . والعقيدة فى الله لا تحتمل شركة فى القلب . لا تحتمل شركة من مال ولا ولد ولا وطن ولا أرض ولا صديق ولا قريب , فأيما شركة قامت فى القلب من هذا وأمثاله فهى اتخاذ أنداد لله ، وضلال عن سبيل الله ، منته إلى النار بعد قليل من المتاع فى هذه الأرض (قل:تمتع بكفرك قليلا:إنك من أصحاب النار) وكل متاع فى هذه الأرض قليل مهما طال . وأيام الفرد على هذه الأرض معدودة مهما عمر . بل إن حياة الجنس البشرى كله على الأرض لمتاع قليل ، حين يقاس إلى أيام الله ! وإلى جانب هذه الصورة النكدة من الإنسان ، يعرض صورة اخرى . . صورة القلب الخائف الوجل , الذى يذكر الله ولا ينساه فى سراء ولا ضراء ؛ والذى يعيش حياته على الأرض فى حذر من الآخرة ؛ وفى تطلع إلى رحمة ربه وفضله ؛ وفى اتصال بالله ينشأ عنه العلم الصحيح المدرك لحقائق الوجود (أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ؟ قل:هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب) وهى صورة مشرقة مرهفة . فالقنوت والطاعة والتوجه – وهو ساجد وقائم – وهذه الحساسية المرهفة – وهو يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه – وهذا الصفاء وهذه الشفافية التى تفتح البصيرة . وتمنح القلب نعمة الرؤية والالتقاط والتلقى . . هذه كلها ترسم صورة مشرقة وضيئة من البشر تقابل تلك الصورة النكدة المطموسة التى رسمتها الآية السابقة . فلا جرم يعقد هذه الموازنة (قل:هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟) فالعلم الحق هو المعرفة . هو إدراك الحق . هو تفتح البصيرة . هو الاتصال بالحقائق الثابتة فى هذا الوجود . وليس العلم هو المعلومات المفردة المنقطعة التى تزحم الذهن ، ولا تؤدى إلى حقائق الكون الكبرى ، ولا تمتد وراء الظاهر المحسوس . وهذا هو الطريق إلى العلم الحقيقى والمعرفة المستنيرة . . هذا هو . . القنوت لله . وحساسية القلب ، واستشعار الحذر من الآخرة ، والتطلع إلى رحمة الله وفضله فأما الذين يقفون عند حدود التجارب المفردة ، والمشاهدات الظاهرة ، فهم جامعو معلومات وليسوا بالعلماء (إنما يتذكر أولو الألباب) وإنما يعرف أصحاب القلوب الواعية المتفتحة المدركة لما وراء الظواهر من حقائق . المنتفعة بما ترى وتعلم ، التى تذكر الله فى كل شىء تراه وتلمسه ولا تنساه ، ولا تنسى يوم لقاه . وبعد عرض هاتين الصورتين يتجه إلى الذين آمنوا يناديهم ليتقوا ويحسنوا ؛ ويتخذوا من حياتهم القصيرة على هذه الأرض وسيلة للكسب الطويل فى الحياة الآخرة (قل:يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم . للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة . وأرض الله واسعة . إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وفى التعبير (قل:يا عباد الذين آمنوا) التفاتة خاصة . فهو فى الأصل:قل لعبادى الذين آمنوا . قل لهم:اتقوا ربكم . ولكنه جعله يناديهم ، لأن فى النداء إعلاناً وتنبيهاً (قل:يا عباد الذين آمنوا . اتقوا ربكم) والتقوى هى تلك الحساسية فى القلب ، والتطلع إلى الله فى حذر وخشية ، وفى رجاء وطمع , ومراقبة غضبه ورضاه فى توفز وإرهاف . . إنها تلك الصورة الوضيئة المشرقة ، التى رسمتها الآية السابقة لذلك الصنف الخاشع القانت من عباد الله (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) وما أجزل الجزاء ! حسنة فى الدنيا القصيرة الأيام الهزيلة المقام . تقابلها حسنة فى الآخرة دار البقاء والدوام . ولكنه فضل الله على هذا الإنسان . الذى يعرف منه ضعفه وعجزه وضآلة جهده . فيكرمه ويرعاه ! (وأرض الله واسعة) فلا يقعد بكم حب الأرض ، وإلف المكان ، وأواصر النسب والقربى والصحبة فى دار عن الهجرة منها ، إذا ضاقت بكم فى دينكم ، وأعجزكم فيها الإحسان . فإن الالتصاق بالأرض فى هذه الحالة مدخل من مداخل الشيطان ؛ ولون من اتخاذ الأنداد لله فى قلب الإنسان ، ومن ثم يشير فى هذا الموضع إلى الصبر وجزائه المطلق عند الله بلا حساب (إنما يوفى الصابرون

أجرهم بغير حساب) فيأخذ قلوبهم بهذه اللمسة فى موضعها المناسب ، ويعالج ما يشق على تلك القلوب الضعيفة العلاج الشافى .

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ{١١} وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ{١٢} قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ{١٣} قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي{١٤} فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ{١٥} لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ{١٦} وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ{١٧} الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ{١٨} أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ{١٩} لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ)﴿٢٠﴾

هذا المقطع كله يظلله جو الآخرة ، وظل الخوف من عذابها ، والرجاء فى ثوابها . ويبدأ بتوجيه الرسول ﷺ إلى إعلان كلمة التوحيد الخالصة ؛ وإعلان خوفه – وهو النبى المرسل – من عاقبة الإنحراف عنها ، وإعلان تصميمه على منهجه وطريقه ، وتركهم هم إلى منهجهم وطريقهم . وبيان عاقبة هذا الطريق وذاك ، يوم يكون الحساب (<< قل:إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ؛ وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل:إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) وهذا الإعلان من النبى ﷺ بأنه مأمور أن يعبد الله وحده ، ويخلص له الدين وحده ; وأن يكون بهذا أول المسلمين ؛ وأنه يخاف عذاب يوم عظيم إن هو عصى ربه . . هذا الإعلان ذو قيمة كبرى فى تجريد عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام . فالنبى ﷺ فى هذا المقام هو عبد لله . هذا مقامه لا يتعداه . وفى مقام العبادة يقف العبيد كلهم صفاً ، وترتفع ذات الله سبحانه متفردة فوق جميع العباد . . وهذا هو المراد . ومرة أخرى يكرر الإعلان مع الإصرار على الطريق ، وترك المشركين لطريقهم ونهايته الأليمة (قل:الله أعبد مخلصاً له دينى فاعبدوا ما شئتم من دونه . قل:إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ألا ذلك هو الخسران المبين) مرة أخرى يعلن:إننى ماض فى طريقى . أخص الله بالعبادة ، وأخلص له الدينونة . فأما أنتم فامضوا فى الطريق التى تريدون ؛ واعبدوا ما شئتم من دونه . ولكن هنالك الخسران الذى ما بعده خسران . خسران النفس التى تنتهى إلى جهنم . وخسران الأهل سواء كانوا مؤمنين أم كافرين . فإن كانوا مؤمنين فقد خسرهم المشركون لأن هؤلاء إلى طريق وهؤلاء إلى طريق . وإن كانوا مشركين مثلهم فكلهم خسر نفسه بالجحيم (ألا ذلك هو الخسران المبين) ثم يعرض مشهد الخسران المبين (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل . ذلك يخوف الله به عباده . يا عباد فاتقون) وهو مشهد رعيب حقاً . مشهد النار فى هيئة ظلل من فوقهم وظلل من تحتهم ، وهم فى طيات هذه الظلل المعتمة تلفهم وتحتوى عليهم . وهى من النار ! إنه مشهد رعيب . يعرضه الله لعباده وهم بعد فى الأرض يملكون أن يناوا بأنفسهم عن طريقه . ويخوفهم مغبته لعلهم يجتنبونه (ذلك يخوف الله به عباده) ويناديهم ليحذروا ويتقوا ويسلموا (يا عباد فاتقون) وعلى الضفة الأخرى يقف الناجون ، الذين خافوا هذا المصير المشؤوم (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى . فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله . وأولئك هم أولو الألباب) والطاغوت صياغة من الطغيان ؛ نحو ملكوت وعظموت ورحموت . تفيد المبالغة والضخامة . والطاغوت كل ما طغا وتجاوز الحد . والذين اجتنبوا عبادتها هم الذين اجتنبوا عبادة غير المعبود فى أية صورة من صور العبادة . وهم الذين أنابوا إلى ربهم . وعادوا إليه ,ووقفوا فى مقام العبودية له وحده . هؤلاء (لهم البشرى) صادرة إليهم من الملأ الأعلى . والرسول ﷺ يبلغها لهم بأمر الله (فبشر عباد) إنها البشرى العلوية يحملها إليهم رسول كريم . وهذا وحده نعيم ! هؤلاء من صفاتهم أنهم يستمعون ما يستمعون من القول ، فتلتقط قلوبهم أحسنه وتطرد ما عداه ، فلا يلحق بها ولا يلصق إلا الكلم الطيب ، الذى تزكو به النفوس والقلوب . . والنفس الطيبة تتفتح للقول الطيب فتتلقاه وتستجيب له . والنفس الخبيثة لا تتفتح إلا للخبيث من القول ولا تستجيب إلا له (أولئك الذين هداهم الله) فقد علم الله فى نفوسهم خيراً فهداهم إلى استماع أحسن القول والاستجابة له . والهدى هدى الله (وأولئك هم أولو الألباب) فالعقل السليم هو الذى يقود صاحبه إلى الزكاة ، وإلى النجاة . ومن لا يتبع طريق الزكاة والنجاة فكأنه مسلوب العقل محروم من هذه النعمة التى أعطاها له الله . وقبل أن يعرض مشهد هؤلاء فى نعيمهم فى الآخرة يقرر أن عبدة الطاغوت قد وصلوا فعلاً إلى النار . وأن أحداً لا يملك أن ينقذهم من هذه النار (أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار ؟) والخطاب لرسول الله ﷺ وإذا كان هو لا يملك إنقاذهم من النار التى هم فيها فمن يملكها إذن سواه ؟ وأمام مشهد هؤلاء فى النار – وكأنهم فيها فعلا الآن . ما دام قد حق عليهم العذاب – يعرض مشهد الذين اتقوا (لكن الذين اتقوا

ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية ، تجرى من تحتها الأنهار . وعد الله . لا يخلف الله الميعاد) ومشهد الغرف المبنية ، من فوقها غرف ، تجرى الأنهار من تحتها . . هذا المشهد يتقابل مع مشهد ظلل النار هناك من فوقهم ومن تحتهم . هذا التقابل الذى ينسقه التعبير القرآنى وهو يرسم المشاهد للأنظار . ذلك وعد الله . ووعد الله واقع . لا يخلف الله الميعاد .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ {٢١} أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {٢٢} اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ {٢٣} أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ {٢٤} كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ {٢٥} فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ {٢٦} وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ {٢٧} قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ {٢٨} ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) {٢٩}

فى هذا المقطع من السورة لفتة إلى حياة النبات فى الأرض عقب إنزال الماء من السماء ; وانتهائها إلى غايتها القريبة ، وكثيراً ما يضرب هذا مثلاً للحياة الدنيا فى حقيقتها الزائلة – وتوجيه لأولى الألباب الذين يذكرون ويتدبرون ليتدبروا هذا المثل ويذكروه . وعلى ذكر إنزال الماء من السماء يشير إلى الكتاب المنزل من السماء كذلك لتحيا به القلوب وتنشرح له الصدور ؛ مع تصوير موح لاستجابة القلوب المفتوحة لهذا الكتاب ، بخشية وقشعريرة ثم لين وطمأنينة . وتصوير كذلك لعاقبة المستجيبين لذكر الله ، والقاسية قلوبهم من ذكر الله ، وفى النهاية يتجه إلى حقيقة التوحيد ، فيضرب مثالاً لمن يعبد إلهاً واحداً ومن يعبد آلهة متعددة . وهما لا يستويان مثلاً ولا يتفقان حالاً . كما لا يستوى حال العبد الذى يملكه سادة متنازعون والعبد الذى يعمل لسيد واحد لا ينازعه أحد فيه ! (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فسلكه ينابيع فى الأرض ، ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ، ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يجعله حطاماً ؟ إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب) إن هذه الظاهرة التى يوجه القرآن إليها الأنظار للتأمل والتدبر ، ظاهرة تتكرر فى أنحاء الأرض ، حتى لتذهب الألفة بجدتها وما فيها من عجائب فى كل خطوة من خطواتها . والقرآن يوجه النظر إلى رؤية يد الله وتتبع آثارها فى كل خطوة من خطوات الحياة . فهذا الماء النازل من السماء . . ما هو وكيف نزل ؟ إننا نمر بهذه الخارقة سراعاً لطول الألفة وطول التكرار . إن خلق الماء فى ذاته خارقة . ومهما عرفنا أنه ينشأ من اتحاد ذرتى أيدروجين بذرة أكسوجين تحت ظروف معينة ، فإن هذه المعرفة خليقة بأن توقظ قلوبنا إلى رؤية يد الله التى صاغت هذا الكون بحيث يوجد الأيدروجين ويوجد الأكسوجين وتوجد الظروف التى تسمح باتحادهما ، وبوجود الماء من هذا الاتحاد . ومن ثم وجود الحياة فى هذه الأرض . ولولا الماء ما وجدت حياة . إنها سلسلة من التدبير حتى نصل إلى وجود الماء ووجود الحياة . والله من وراء هذا التدبير ، وكله مما صنعت يداه . . ثم نزول هذا الماء بعد وجوده وهو الآخر خارقة جديدة ، ناشئة من قيام الأرض والكون على هذا النظام الذى يسمح بتكون الماء ونزوله وفق تدبير الله ، ثم تجىء الخطوة التالية لإنزال الماء (فسلكه ينابيع فى الأرض) سواء فى ذلك الأنهار الجارية على سطح الأرض ؛ أو الأنهار الجارية تحت طباقها مما يتسرب من المياه السطحية ، ثم يتفجر بعد ذلك ينابيع وعيوناً ، أو يتكشف آباراً . ويد الله تمسكه فلا يذهب فى الأغوار البعيدة التى لا يظهر منها أبداً ! (ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه) والحياة النباتية التى تعقب نزول الماء وتنشأ عنه ؛ خارقة يقف أمامها جهد الإنسان حسيراً . ورؤية النبتة الصغيرة وهى تشق حجاب الأرض عنها ؛ وتزيح أثقال الركام من فوقها ؛ وتتطلع إلى الفضاء والنور والحرية ؛ وهى تصعد إلى الفضاء رويداً رويداً . . هذه الرؤية كفيلة بأن تملأ القلب المفتوح ذكرى ؛ وأن تثير فيه الإحساس بالله الخالق المبدع الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . والزرع المختلف الألوان فى البقعة الواحدة . بل فى النبتة الواحدة . بل فى الزهرة الواحدة إن هو إلا معرض لإبداع القدرة ؛ يُشعر الإنسان بالعجز المطلق عن الإتيان بشىء منه أصلا ! هذا الزرع النامى اللدن الرخص الطرى بالحياة ، يبلغ تمامه ، ويستوفى أيامه (ثم يهيج فتراه مصفراً) وقد بلغ غايته المقدرة له فى ناموس الوجود ، وفى نظام الكون ، وفى مراحل الحياة ، فينضج للحصاد (ثم يجعله حطاماً) وقد استوفى أجله ، وأدى دوره ، وانتهى دورته كما قدر له واهب الحياة (إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب) الذين يتدبرون فيذكرون ، وينتفعون بما وهبهم الله من عقل وإدراك (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ؟ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر

الله . أولئك فى ضلال مبين . الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ؛ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ؛ ومن يضلل الله فما له من هاد). وكما ينزل الماء من السماء فينبت لهم به زرعاً مختلفاً ألوانه كذلك ينزل من السماء ذكراً تتلقاه القلوب الحية ؛ فتتفتح وتنشرح وتتحرك حركة الحياة ، وتتلقاه القلوب القاسية كما تتلقاه الصخرة القاسية التي لا حياة فيها ولا نداوة ! والله يشرح للإسلام قلوباً يعلم منها الخير ، ويصلها بنوره فتشرق به وتستضيء . والفرق بين هذه القلوب وقلوب أخرى قاسية فرق بعيد (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) (أولئك فى ضلال مبين) وهذه الآية تصور حقيقة القلوب التي تتلقى الإسلام فتنشرح له وتندى به . وتصور حالها مع الله . حال الانشراح والتفتح والنداوة والبشاشة ، والإشراق والاستنارة . كما تصور حقيقة القلوب الأخرى فى قساوتها وغلظتها وموتها وجفافها ، وعتمتها وظلامها . ومن يشرح الله صدره للإسلام ويمد له من نوره ، ليس قطعاً كالقاسية قلوبهم من ذكر الله . وشتان شتان بين هؤلاء وهؤلاء (ذلك هدى الله يهدى به من يشاء) فما ترتعش القلوب هكذا إلا حين تحركها أصبع الرحمن إلى الهدى والاستجابة والإشراق . والله يعلم من حقيقة القلوب ما يجازيها عليه بالهدى أو بالضلال (ومن يضلل الله فما له من هاد) فهو يضله بما يعلمه من حقيقته المستقرة على الضلال ، التى لا تقبل الهدى ولا تجنح إليه بحال . ثم يعرض ما ينتظر أهل الضلال يوم القيامة فى مشهد بائس فى موعد حصاد الأعمال ! (أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ؟ وقيل للظالمين:ذوقوا ما كنتم تكسبون) والإنسان يقى وجهه عادة بيديه وجسمه . فأما هنا فهو لا يملك أن يدفع عن نفسه النار بيديه ولا برجليه ، فيدفعها بوجهه ، ويتقي به سوء العذاب . مما يدل على الهول والشدة والاضطراب . وفي زحمة هذا العذاب يتلقى التأنيب ، وتدفع إليه حصيلة حياته ويا لها من حصيلة: (وقيل للظالمين:ذوقوا ما كنتم تكسبون)! ويلتفت من هذا المشهد إلى الحديث عن المكذبين الذين يواجهون محمداً ﷺ ليعرض عليهم ما جرى للمكذبين قبلهم لعلهم يتداركون أنفسهم (كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) فهذه حال المكذبين فى الدنيا والآخرة . فى الدنيا أذاقهم الله الخزى . وفي الآخرة ينتظرهم العذاب الأكبر . وسنة الله ماضية لا تتخلف . ومصارع القرون من قبلهم شاهدة . ووعيد الله لهم فى الآخرة قائم . والفرصة أمامهم سانحة . وهذا الذكر لمن يتعظ ويذكر (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآناً عربياً غير ذى عوج لعلهم يتقون . ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل ، هل يستويان مثلاً ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) يضرب الله المثل للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه ، وهو بينهم موزع ؛ ولكل منهم فيه توجيه ، ولكل منهم عليه تكليف ؛ وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق ؛ ولا يملك أن يرضى أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه ! وعبد يملكه سيد واحد ، وهو يعلم ما يطلبه منه ، ويكلفه به ، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح (هل يستويان مثلاً ؟) إنهما لا يستويان . فالذى يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين . وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه ، ووضوح الطريق . والذى يخضع لسادة متشاكسين معذب مقلقل لا يستقر على حال ولا يرضي واحداً منهم فضلاً على أن يرضي الجميع ! ويعقب على هذا المثل الناطق الموحي ، بالحمد لله الذى اختار لعباده الراحة والأمن والطمأنينة والاستقامة والاستقرار . وهم مع هذا ينحرفون ، وأكثرهم لا يعلمون . .

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ {٣٠} ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ {٣١} فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ {٣٢} وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ {٣٣} لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ {٣٤} لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) {٣٥}

(إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) إنه الموت نهاية كل حى ؛ ولا يتفرد بالبقاء إلا الله وفى الموت يستوى كل البشر بما فيهم محمد رسول الله ﷺ وذكر هذه الحقيقة هنا حلقة من حلقات التوحيد الذى تقرره السورة كلها وتؤكده .. ويوم القيامة يختصم العباد فيما كان بينهم من خلاف . ويجيء رسول الله ﷺ أمام ربه ويوقف القوم للخصومة فيما كانوا يقولونه ويأتونه ، ويواجهون به ما أنزل الله إليهم من الهدى (فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه ؟ أليس فى جهنم مثوى للكافرين) سؤال للتقرير . فليس هنالك من هو أظلم ممن كذب على الله فزعم أن له بنات وأنه له شركاء ; وكذب بالصدق الذى جاء به رسوله ؛ فلم يصدق بكلمة التوحيد . إنه الكفر . ويتوسع فى عرض صفة المتقين هؤلاء وما أعده لهم من جزاء (لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك جزاء المحسنين) وهو تعبير جامع ، يشمل كل ما يخطر للنفس المؤمنة من رغائب ، ويقرر أن هذا (لهم) عند ربهم ، فهو حقهم الذى لا يخيب

ولا يضيع (\ذلك جزاء المحسنين) ذلك ليحقق الله ما أراده لهم من خير ومن كرامة ، ومن فضل يزيد على العدل يعاملهم به ، متفضلاً محسناً (ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ؛ ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) فالعدل أن تحسب الحسنات وتحسب السيئات ؛ ثم يكون الجزاء . والفضل هو هذا الذى يتجلى به الله على عباده المتقين هؤلاء أن يكفر عنهم أسوأ أعمالهم فلا يبقى لها حساب فى ميزانهم . وأن يجزيهم أجرهم بحساب الأحسن فيما كانوا يعملون ،فتزيد حسناتهم وتعلو وترجح فى الميزان .

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ{٣٦} وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ{٣٧} وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ{٣٨} قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ{٣٩} مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ{٤٠} إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ{٤١} اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ{٤٢} أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ{٤٣} قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٤٤} وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ{٤٥} قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{٤٦} وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ{٤٧} وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{٤٨} فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{٤٩} قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ{٥٠} فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ{٥١} أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ){٥٢}

هذه الجولة أوسع مقاطع السورة . وهي تتناول حقيقة التوحيد من جوانب متعددة فى لمسات متنوعة . تبدأ بتصوير حقيقة القلب المؤمن وموقفه بإزاء قوى الأرض واعتداده بالقوة الوحيدة ؛ واعتماده عليها دون مبالاة بسواها من القوى الضئيلة الهزيلة . ومن ثم ينفض يده من هذه القوى الوهمية ويكل أمره وأمر المجادلين له إلى الله يوم القيامة ويمضى فى طريقه ثابتاً واثقاً مستيقناً بالمصير . يتلو هذا بيان وظيفة الرسول ﷺ وأنه ليس وكيلاً على العباد فى هداهم وضلالهم . إنما الله هو المسيطر عليهم ؛ الآخذ بناصيتهم فى كل حالة من حالاتهم . وليس لهم من دونه شفيع فإن لله الشفاعة جميعاً . وإليه ملك السماوات والأرض . وإليه المرجع والمصير . ثم يصف المشركين وانقباض قلوبهم عند ذكر كلمة التوحيد وانبساطها عند ذكر كلمة الشرك . ويعقب على هذا بدعوة الرسول ﷺ إلى إعلان كلمة التوحيد خالصة ، وترك أمر المشركين لله . ويصورهم يوم القيامة وهم يودون لو يفتدون بملء الأرض ومثله معه . وقد تكشف لهم من الله ما يذهل ويخيف ! ذلك . وهم يدعون الله وحده إذا أصابهم الضر . فإذا وهبهم منه نعمة ادعوا دعاوى عريضة وقال قائلهم:إنما أوتيته على علم عندى ! الكلمة التى قالها الذين من قبلهم فأخذهم الله القادر على أن يأخذ هؤلاء . وما هم بمعجزين . وما كان بسط الرزق وقبضه إلا سنة من سنن الله ، تجرى وفق حكمته وتقديره وهو وحده الباسط القابض: إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون (أليس الله بكاف عبده ؟ ويخوفونك بالذين من دونه . ومن يضلل الله فما له من هاد . ومن يهد الله فما له من مضل . أليس الله بعزيز ذى انتقام ؟ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله . قل:أفرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ قل:حسبى الله ، عليه يتوكل المتوكلون . قل:يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) هذه الآيات الأربع تصور منطق الإيمان الصحيح ، فى بساطته وقوته ، ووضوحه ، وعمقه . كما هو فى قلب رسول الله ﷺ وكما ينبغى أن يكون فى قلب كل مؤمن برسالة ، وكل قائم بدعوة . وهى وحدها دستوره الذى يغنيه ويكفيه ، ويكشف له الطريق الواصل الثابت المستقيم . وقد ورد فى سبب نزولها أن مشركى قريش كانوا يخوفون رسول الله ﷺ من آلهتهم ، ويحذرونه من غضبها ، وهو يصفها بتلك الأوصاف المزرية بها ، ويوعدونه بأنه إن لم يسكت عنها فستصيبه بالأذى . ولكن مدلول هذه الآيات أوسع وأشمل . فهى تصور حقيقة المعركة بين الداعية إلى الحق وكل ما فى الأرض من قوى مضادة . كما تصور الثقة واليقين والطمأنينة فى القلب المؤمن ، بعد وزن هذه القوى بميزانها الصحيح (أليس الله بكاف عبده) بلى ! فمن ذا يخيفه ، وماذا يخيفه

؟ إذا كان الله معه ؟ وإذا كان هو قد اتخذ مقام العبودية وقام بحق هذا المقام ؟ ومن ذا يشك فى كفاية الله لعبده وهو القوى القاهر فوق عباده ؟ (ويخوفونك بالذين من دونه) فكيف يخاف ؟ والذين من دون الله لا يخيفون من يحرسه الله . وهل فى الأرض كلها إلا من هم دون الله ؟ إنها قضية بسيطة واضحة ، لا تحتاج إلى جدل ولا كد ذهن . . إنه الله . ومَن هم دون الله . وحين يكون هذا هو الموقف لا يبقى هنالك شك ولا يكون هناك اشتباه . وإرادة الله هى النافذة ومشيئته هى الغالبة . وهو الذى يقضى فى العباد قضاءه . فى ذوات أنفسهم ، وفى حركات قلوبهم ومشاعرهم (ومن يضلل الله فما له من هاد . ومن يهد الله فما له من مضل) وهو يعلم من يستحق الضلالة فيضله ، ومن يستحق الهدى فيهديه . فإذا قضى بقضائه هكذا أو هكذا فلا مبدل لما يشاء (أليس الله بعزيز ذى انتقام ؟) بلى . وإنه لعزيز قوى . وإنه ليجازى كلاً بما يستحق . وإنه لينتقم ممن يستحق الانتقام . فكيف يخشى أحداً أو شيئاً من يقوم بحق العبودية له ، وهو كافله وكافيه ؟ ثم يقرر هذه الحقيقة فى صورة أخرى منتزعة من منطقهم هم أنفسهم ، ومن واقع ما يقررونه من حقيقة الله فى فطرتهم (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ؟ ليقولن الله . قل . أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ قل:حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون) لقد كانوا يقررون – حين يسألون – أن الله هو خالق السماوات والأرض . وما تملك فطرة أن تقول غير هذا ، وما يستطيع عقل أن يعلل نشأة السماوات والأرض إلا بوجود إرادة عليا . فهو يأخذهم ويأخذ العقلاء جميعاً بهذه الحقيقة الفطرية الواضحة . . إذا كان الله هو خالق السماوات والأرض . فهل يملك أحد أو شىء فى هذه السماوات والأرض أن يكشف ضراً أراد الله أن يصيب به عبداً من عباده ؟ أم يملك أحد أو شىء فى هذه السماوات والأرض أن يحبس رحمة أراد الله أن تنال عبداً من عباده ؟ والجواب القاطع:أن لا . . فإذا تقرر هذا فما الذى يخشاه داعية إلى الله ؟ ما الذى يخشاه وما الذى يرجوه ؟ وليس أحد بكاشف الضر عنه ؟ وليس أحد بمانع الرحمة عنه ؟ وما الذى يقلقه أو يخيفه أو يصده عن طريقه ؟ إنه متى استقرت هذه الحقيقة فى قلب مؤمن فقد انتهى الأمر بالنسبة إليه . وقد انقطع الجدل . وانقطع الخوف وانقطع الأمل . إلا فى جناب الله سبحانه . فهو كاف عبده وعليه يتوكل وحده (قل:حسبى الله . عليه يتوكل المتوكلون) ثم إنها الطمأنينة بعد هذا والثقة واليقين . الطمأنينة التى لا تخاف . والثقة التى لا تقلق . واليقين الذى لا يتزعزع . والمضى فى الطريق على ثقة بنهاية الطريق (قل:يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) يا قوم اعملوا على طريقكم وعلى حالكم . إنى ماض فى طريقى لا أميل ولا أخاف ولا أقلق . وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه فى الدينا ، ويحل عليه عذاب مقيم فى الآخرة . . تلك حقيقة الوضع بين رسل الله وسائر قوى الأرض التى تقف لهم فى الطريق . فما حقيقة وظيفتهم وما شأنهم مع المكذبين (إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق) الحق فى طبيعته . والحق فى منهجه . والحق فى شريعته . الحق الذى تقوم عليه السماوات والأرض ؛ ويلتقى عليه نظام البشرية فى هذا الكتاب ونظام الكون كله فى تناسق . هذا الحق نزل (للناس) ليهتدوا به ويعيشوا معه ويقوموا عليه . وأنت مبلغ . وهم بعد ذلك وما يشاءون لأنفسهم من هدى أو ضلال ، ومن نعيم أو عذاب . فكل مورد نفسه ما يشاء ؛ وما أنت بمسيطر عليهم ولا بمسؤول عنهم (فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنت عليهم بوكيل) إنما الوكيل عليهم هو الله . وهم فى قبضته فى صحوهم ونومهم وفى كل حالة من حالاتهم ,وهو يتصرف بهم كما يشا (الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها . فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) فالله يستوفى الآجال للأنفس التى تموت . وهو يتوفاها كذلك فى منامها – وإن لم تمت بعد – ولكنها فى النوم متوفاة إلى حين . فالتى حان أجلها يمسكها فلا تستيقظ . والتى لم يحن أجلها بعد يرسلها فتصحو . إلى أن يحل أجلها المسمى . فالأنفس فى قبضته دائماً فى صحوها ونومها (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) إنهم هكذا فى قبضة الله دائما . وهو الوكيل عليهم . ولست عليهم بوكيل . وإنهم إن يهتدوا فلأنفسهم وإن يضلوا فعليها . وإنهم محاسبون إذن وليسوا بمتروكين . . فماذا يرجون إذن للفكاك والخلاص ؟ (أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل:أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ قل:لله الشفاعة جميعاً . له ملك السماوات والأرض ، ثم إليه ترجعون) وهو سؤال للتهكم والسخرية من زعمهم أنهم يعبدون تماثيل الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى ! (أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟) يعقبه تقرير جازم بأن لله الشفاعة جميعاً . فهو الذى يأذن بها لمن يشاء على يد من شاء . فهل مما يؤهلهم للشفاعة أن يتخذوا من دون الله شركاء ؟! (له ملك السماوات والأرض) فليس هنالك خارج على إرادته فى هذا الملك (ثم إليه ترجعون) فلا مهرب ولا مفر من الرجوع إليه وحده فى نهاية المطاف . وفى هذا الموقف الذى يتفرد فيه الله سبحانه بالملك والقهر يعرض كيف هم ينفرون من كلمة التوحيد ويهشون لكلمة الشرك ، الذى ينكره كل ما حولهم فى الوجود وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون)

والآية تصف واقعة حال على عهد النبى ﷺ حين كان المشركون يهشون ويبشون إذا ذكرت آلهتهم ؛ وينقبضون وينفرون إذا ذكرت كلمة التوحيد . ولكنها تصف حالة نفسية تتكرر فى شتى البيئات والأزمان ، فمن الناس من تشمئز قلوبهم وتنقبض نفوسهم كلما دعوا إلى الله وحده إلهاً ، وإلى شريعة الله وحدها قانوناً ، وإلى منهج الله وحده نظاماً . حتى إذا ذكرت المناهج الأرضية والنظم الأرضية والشرائع الأرضية هشوا وبشوا ورحبوا بالحديث ، وفتحوا صدورهم للأخذ والرد . هؤلاء هم بعينهم الذين يصور الله نموذجاً منهم فى هذه الآية ، وهم بذاتهم فى كل زمان ومكان . هم الممسوخو الفطرة ، المنحرفو الطبيعة ، الضالون المضلون ، مهما تنوعت البيئات والأزمنة ، ومهما تنوعت الأجناس والأقوام . والجواب على هذا المسخ والانحراف والضلال هو ما لقنه الله لرسوله ﷺ فى مواجهة مثل هذه الحال (قل:اللهم فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) إنه دعاء الفطرة التى ترى السماء والأرض ؛ ويتعذر عليها أن تجد لها خالقاً إلا الله فاطر السماوات والأرض ، فتتجه إليه بالاعتراف والإقرار . وتعرفه بصفته اللائقة بفاطر السماوات والأرض (عالم الغيب والشهادة) المطلع على الغائب والحاضر ، والباطن والظاهر . (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) فهو وحده الحكم يوم يرجعون إليه . وهم لا بد راجعون . وبعد هذا التلقين يعرض حالهم المفزعة يوم يرجعون للحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون (ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة ,وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون . وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) إنه الهول الملفوف فى ثنايا التعبير الرهيب . فلو أن لهؤلاء الظالمين – الظالمين بشركهم وهو الظلم العظيم – لو أن لهؤلاء (ما فى الأرض جميعاً) مما يحرصون عليه ويناون عن الإسلام اعتزازاً به (ومثله مع) لقدموه فدية مما يرون من سوء العذاب يوم القيامة . . وهول آخر يتضمنه التعبير الملفوف (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) ولا يفصح عما بدا لهم من الله ولم يكونوا يتوقعونه . لا يفصح عنه ولكنه هكذا هائل مذهل مخيف . . فهو الله . الله الذى يبدو منه لهؤلاء الضعاف ما لا يتوقعون ! هكذا بلا تعريف ولا تحديد ! . وبدا لهم سيئات ما كسبوا ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . وهذه كذلك تزيد الموقف سوءاً . حين يتكشف لهم قبح ما فعلوا وحين يحيط بهم ما كانوا به يستهزئون من الوعيد والنذير . وهم فى ذلك الموقف الأليم الرعيب . وبعد هذا المشهد المعترض لبيان حالهم يوم يرجعون إلى الله الذى به يشركون ، والذى تشمئز قلوبهم حين يذكر وحده ، وتستبشر حينما تذكر آلهتهم المدعاة . بعد هذا يعود إلى تصوير حالهم العجيب . فهم ينكرون وحدانية الله . فأما حين يصيبهم الضر فهم لا يتوجهون إلا له وحده ضارعين منيبين . حتى إذا تفضل عليهم وأنعم راحوا يتبجحون وينكرون (فإذا مس الإنسان ضر دعانا . ثم إذا خولناه نعمة منا ، قال:إنما أوتيته على علم . بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون) والآية تصور نموذجاً مكرراً للإنسان ، ما لم تهتد فطرته إلى الحق ، وترجع إلى ربها الواحد ، وتعرف الطريق إليه ، فلا تضل عنه فى السراء والضراء . إن الضر يسقط عن الفطرة ركام الأهواء والشهوات ، ويعريها من العوامل المصطنعة التى تحجب عنها الحق الكامن فيها وفى ضمير هذا الوجود . فعندئذ ترى الله وتعرفه وتتجه إليه وحده . حتى إذا مرت الشدة وجاء الرخاء ، نسى هذا الإنسان ما قاله فى الضراء , وانحرفت فطرته بتأثير الأهواء (بل هى فتنة . ولكن أكثرهم لا يعلمون) هى فتنة للاختبار والامتحان . ليتبين إن كان سيشكر أو سيكفر ؛ وإن كان سيصلح بها أم سيفسد ؛ وإن كان سيعرف الطريق أم يجنح إلى الضلال . والقرآن – رحمة بالعباد – يكشف لهم عن السر ، وينبههم إلى الخطر ، ويحذرهم الفتنة . فلا حجة لهم ولا عذر بعد هذا البيان وهو يلمس قلوبهم بعرض مصارع الغابرين قبلهم . مصارعهم بمثل هذه الكلمة الضالة التى يقولها قائلهم (إنما أوتيته على علم) (قد قالها الذين من قبلهم ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فأصابهم سيئات ما كسبوا . والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين) هى ذاتها هذه الكلمة الضالة قالها الذين من قبلهم ، فانتهت بهم إلى السوء والوبال . ولم يغن عنهم علمهم ولا مالهم ولا قوتهم شيئاً . وهؤلاء سيصيبهم ما أصاب الغابرين . فسنة الله لا تتبدل (وما هم بمعجزين) فالله لا يعجزه خلقه الضعاف المهازيل ! فأما ما أعطاهم الله من نعمة ، وما وهبهم من رزق ، فإنه يتبع إرادة الله وفق حكمته وتقديره فى بسط الرزق وقبضه ، ليبتلى عباده ، ولينفذ مشيئته كما يريد.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{٥٣} وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ{٥٤} وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ{٥٥} أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ{٥٦} أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ{٥٧} أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ{٥٨} بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ{٥٩} وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ

أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ{٦٠} وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ{٦١}

(قل:يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعاً . إنه هو الغفور الرحيم) إنها الرحمة الواسعة التى تسع كل معصية . كائنة ما كانت وإنها الدعوة للأوبة . دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين فى تيه الضلال . دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله . إن الله رحيم بعباده . وهو يعلم ضعفهم وعجزهم . ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانهم ومن خارجه . ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد . ويأخذ عليهم كل طريق . ويجلب عليهم بخيله ورجله . وأنه جاد كل الجد فى عمله الخبيث ! ويعلم أن بناء هذا المخلوق الإنسانى بناء واه . وأنه مسكين سرعان ما يسقط إذا أفلت من يده الحبل الذى يربطه والعروة التى تشده . وأن ما ركب فى كيانه من وظائف ومن ميول ومن شهوات سرعان ما ينحرف عن التوازن فيشط به هنا أو هناك ؛ ويوقعه فى المعصية وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم . يعلم الله – سبحانه – عن هذا المخلوق كل هذا فيمد له فى العون ؛ ويوسع له فى الرحمة ; ولا يأخذه بمعصيته حتى يهيىء له جميع الوسائل ليصلح خطأه ويقيم خطاه على الصراط . وبعد أن يلج فى المعصية ، ويسرف فى الذنب ، ويحسب أنه قد طرد وانتهى أمره ,ولم يعد يقبل ولا يستقبل . فى هذه اللحظة لحظة اليأس والقنوط ، يسمع نداء الرحمة الندى اللطيف . ليس بينه وبين هذا كله إلا التوبة . التوبة وحدها . الأوبة إلى الباب المفتوح الذى ليس عليه بواب يمنع ، والذى لا يحتاج من يلج فيه إلى استئذان (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) الإنابة . والإسلام . والعودة إلى أفياء الطاعة وظلال الاستسلام . . هذا هو كل شىء . بلا طقوس ولا مراسم ولا حواجز ولا وسطاء ولا شفعاء ! وهيا . هيا قبل فوات الأوان . هيا (من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) فما هنالك من نصير . هيا فالوقت غير مضمون . وقد يفصل فى الأمر وتغلق الأبواب فى أية لحظة من لحظات الليل والنهار . هيا (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) وهو هذا القرآن بين أيديكم (من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) هيا قبل أن تتحسروا على فوات الفرصة ، وعلى التفريط فى حق الله ، وعلى السخرية بوعد الله (أن تقول نفس:يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله . وإن كنت لمن الساخرين) أو تقول إن الله كتب علىَّ الضلال ولو كتب علىَّ الهدى لاهتديت واتقيت (أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين) وهى علالة لا أصل لها . فالفرصة ها هى ذى سانحة ، ووسائل الهدى ما تزال حاضرة . وباب التوبة ها هو ذا مفتوح ! (أو تقول حين ترى العذاب:لو أن لى كرة فأكون من المحسنين) وهى أمنية لا تنال . فإذا انتهت هذه الحياة فلا كرة ولا رجوع . وها أنتم أولاء فى دار العمل . وهى فرصة واحدة إذا انقضت لا تعود . وستسألون عنها مع التبكيت والترذيل (بلى . قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين)! ثم يمضى السياق وقد وصل بالقلوب والمشاعر إلى ساحة الآخرة . . يمضى فى عرض مشهد المكذبين والمتقين ، فى ذلك الموقف العظيم (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة . أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ؟ وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم ، لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون) وهذا هو المصير الأخير . فريق مسود الوجوه من الخزى ، ومن الكمد ، ومن لفح الجحيم . هو فريق المتكبرين فى هذه الأرض ، الذين دعوا إلى الله ، وفريق ناج فائز لا يمسه السوء ولا يخالطه الحزن . هو فريق المتقين ، الذين عاشوا فى حذر من الآخرة ، وفى طمع فى رحمة الله . فهم اليوم يجدون النجاة والفوز والأمن والسلامة: لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون . .

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ{٦٢} لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{٦٣} قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ{٦٤} وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ{٦٥} بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ{٦٦} وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ{٦٧} وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ{٦٨} وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ{٦٩} وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ{٧٠} وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ{٧١} قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ{٧٢} وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ{٧٣} وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ{٧٤}

وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{٧٥}

هذا القطاع الأخير فى السورة ، يعرض حقيقة التوحيد من جانب وحدانية الخالق الذى خلق كل شىء ، المالك المتصرف فى كل شىء . فتبدو دعوة المشركين للنبى ﷺ إلى مشاركتهم عبادة آلهتهم فى مقابل أن يشاركوه عبادة إلهه ! تبدو هذه الدعوة مستغربة ، والله هو خالق كل شىء ، وهو المتصرف فى ملكوت السماوات والأرض بلا شريك . فأنى يعبد معه غيره ، وله وحده مقاليد السماوات والأرض ؟! (وما قدروا الله حق قدره) وهم يشركون به وهو وحده المعبود القادر القاهر (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه) وبمناسبة تصوير هذه الحقيقة على هذا النحو يوم القيامة يعرض مشهداً فريداً من مشاهد القيامة ، ينتهى بموقف الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وينطق الوجود كله بحمده (وقيل الحمد لله رب العالمين) فتكون هذه هى كلمة الفصل فى حقيقة التوحيد (الله خالق كل شىء ، وهو على كل شىء وكيل . له مقاليد السماوات والأرض . والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون) إنها الحقيقة التى ينطق بها كل شىء . فما يملك أحد أن يدعى أنه خلق شيئاً . وما يملك عقل أن يزعم أن هذا الوجود وجد من غير مبدع . وكل ما فيه ينطق بالقصد والتدبير ; وليس أمر من أموره متروكاً لقى أو للمصادفة من الصغير إلى الكبير (وهو على كل شىء وكيل) وإلى الله قياد السماوات والأرض . فهو يصرفها وفق ما يريد ؛ وهى تسير وفق نظامه الذى قدره ؛ وما تتدخل إرادة غير إرادته فى تصريفها ، على ما تشهد الفطرة , وينطق الواقع ، ويقر العقل والضمير (والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون) خسروا الإدراك الذى يجعل حياتهم فى الأرض متسقة مع حياة الكون كله ؛ وخسروا راحة الهدى وجمال الإيمان وطمأنينة الاعتقاد وحلاوة اليقين . وخسروا فى الآخرة أنفسهم وأهليهم . فهم الخاسرون الذين ينطبق عليهم لفظ (الخاسرون)! وعلى ضوء هذه الحقيقة التى تنطق بها السماوات والأرض ، ويشهد بها كل شىء فى الوجود , يلقن الرسول ﷺ استنكار ما يعرضونه عليه من مشاركتهم عبادة آلهتهم فى مقابل أن يعبدوا معه إلهه . كأن الأمر أمر صفقة يساوم عليها فى السوق ! (قل:أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ؟). وهو الاستنكار الذى تصرخ به الفطرة فى وجه هذا العرض السخيف الذى ينبىء عن الجهل المطلق المطبق المطموس . ويعقب عليه بتحذير من الشرك . يبدأ أول ما يبدأ بالأنبياء والمرسلين , وهم – صلوات الله عليهم – لا يتطرق إلى قلوبهم طائف الشرك أبداً . ولكن التحذير هنا ينبه سواهم من أقوامهم إلى تفرد ذات الله سبحانه فى مقام العبادة ، وتوحد البشر فى مقام العبودية , بما فيهم الأنبياء والمرسلون (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك:لئن أشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين) ويختم هذا التحذير من الشرك بالأمر بالتوحيد . توحيد العبادة والشكر على الهدى واليقين , وعلى آلاء الله التى تغمر عباده ، ويعجزون عن إحصائها ، وهم فيها مغمورون (بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) (وما قدروا الله حق قدره) نعم . ما قدروا الله حق قدره ، وهم يشركون به بعض خلقه . وهم لا يعبدونه حق عبادته . وهم لا يدركون وحدانيته وعظمته . وهم لا يستشعرون جلاله وقوته . ثم يكشف لهم عن جانب من عظمة الله وقوته . على طريقة التصوير القرآنية ، التى تقرب للبشر الحقائق الكلية فى صورة جزئية ، يتصورها إدراكهم المحدود (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة . والسماوات مطويات بيمينه . سبحانه وتعالى عما يشركون) وكل ما يرد فى القرآن وفى الحديث من هذه الصور والمشاهد إنما هو تقريب للحقائق التى لا يملك البشر إدراكها بغير أن توضع لهم فى تعبير يدركونه ، وفى صورة يتصورونها .ومنه هذا التصوير لجانب من حقيقة القدرة المطلقة ، التى لا تتقيد بشكل , ولا تتحيز فى حيز ، ولا تتحدد بحدود . ثم يأخذ فى مشهد من مشاهد القيامة يبدأ بالنفخة الأولى ، وينتهى بانتهاء الموقف , وسوق أهل النار إلى النار . وأهل الجنة إلى الجنة . وتفرد الله ذى الجلال . وتوجه الوجود لذاته بالتسبيح والتحميد . وهو مشهد رائع حافل ، يبدأ متحركاً ، ثم يسير وئيداً ، حتى تهدأ كل حركة ، وتسكن كل نأمة ، ويخيم على ساحة العرض جلال الصمت ، ورهبة الخشوع ، بين يدى الله الواحد القهار ! ها هى ذى الصيحة الأولى تنبعث ، فيصعق من يكون باقياً على ظهر الأرض من الأحياء , ومن فى السماوات كذلك – إلا من شاء الله – ولا نعلم كم يمضى من الوقت حتى تنبعث الصيحة الثانية (ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) ولا تذكر الصيحة الثالثة هنا . صيحة الحشر والتجميع . ولا تصور ضجة الحشر وعجيج الزحام . لأن هذا المشهد يرسم هنا فى هدوء ، ويتحرك فى سكون (وأشرقت الأرض بنور ربها) أرض الساحة التى يتم فيها الاستعراض . ونور ربها الذى لا نور غيره فى هذا المقام (ووضع الكتاب) الحافظ لأعمال العباد (وجىء بالنبيين والشهداء) . . ليقولوا كلمة الحق التى يعلمون . . وطوى كل خصام وجدال – فى هذ المشهد – تنسيقاً لجوه مع الجلال والخشوع الذى يسود الموقف العام (وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو

أعلم بما يفعلون) فلا حاجة إلى كلمة تقال ، ولا إلى صوت واحد يرتفع . ومن ثم تجمل وتطوى عملية الحساب والسؤال والجواب التى تعرض فى مشاهد أخرى . لأن المقام هنا مقام روعة وجلال (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً) (حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها) واستقبلهم خزنتها يسجلون استحقاقهم لها ويذكرونهم بأسباب مجيئهم إليها (وقال لهم خزنتها:ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا)؟ (قالوا:بلى . ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) فالموقف موقف إذعان وتسليم . لا موقف مخاصمة ولا مجادلة . وهم مقرون مستسلمون ! (قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها . فبئس مثوى المتكبرين)! ذلك ركب جهنم ركب المتكبرين . فكيف ركب الجنة ؟ ركب المتقين ؟ فهو الاستقبال الطيب . والثناء المستحب . وبيان السبب (طبتم) وتطهرتم . كنتم طيبين . وجئتم طيبين . فما يكون فيها إلا الطيب . وما يدخلها إلا الطيبون . وهو الخلود فى ذلك النعيم . . هنا تستقبلهم أصوات أهل الجنة بالتسبيح والتحميد (وقالوا:الحمد لله . الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض ، نتبوأ من الجنة حيث نشاء .(فهذه هى الأرض التى تستحق أن تورث . وهم يسكنون فيها حيث شاءوا وينالون منها الذى يريدون (فنعم أجر العاملين) ثم يختم المشهد بما يغمر النفس بالروعة والرهبة والجلال ، وما يتسق مع جو المشهد كله وظله ، وما يختم سورة التوحيد أنسب ختام ؛ والوجود كله يتجه إلى ربه بالحمد ؛ فى خشوع واستسلام . وكلمة الحمد ينطق بها كل حى وكل موجود فى استسلام (وترى الملائكة حافين من حول العرش ، يسبحون بحمد ربهم ، وقضى بينهم بالحق ، وقيل:الحمد لله رب العالمين)

سورة غافر

مكية ، و آياتها ٨٥

هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل . قضية الإيمان والكفر . قضية الدعوة والتكذيب وأخيراً قضية العلو فى الأرض والتجبر بغير الحق ، وبأس الله الذى يأخذ العالين المتجبرين . . وفى ثنايا هذه القضية تلم بموقف المؤمنين المهتدين الطائعين ونصر الله إياهم ، واستغفار الملائكة لهم ، واستجابة الله لدعائهم ، وما ينتظرهم فى الآخرة من نعيم . وجو السورة كله – من ثم – كأنه جو معركة . وهى المعركة بين الحق والباطل ، وبين الإيمان والطغيان ، وبين المتكبرين المتجبرين فى الأرض وبأس الله الذى يأخذهم بالدمار والتنكيل . تنسم خلال هذا الجو نسمات الرحمة والرضوان حين يجىء ذكر المؤمنين ! ذلك الجو يتمثل فى عرض مصارع الغابرين ، كما يتمثل فى عرض مشاهد القيامة – وهذه وتلك تتناثر فى سياق السورة وتتكرر بشكل ظاهر – وتعرض فى صورها العنيفة المرهوبة المخيفة متناسقة مع جو السورة كله ، مشتركة فى طبع هذا الجو بطابع العنف والشدة . ولعله مما يتفق مع هذه السمة افتتاح السورة بإيقاعات ذات رنين خاص (غافر الذنب . وقابل التوب . شديد العقاب . ذى الطول . لا إله إلا هو . إليه المصير) فكأنما هى مطارق منتظمة الجرس ثابتة الوقع ، مستقرة المقاطع ، ومعانيها كذلك مساندة لإيقاعها الموسيقى ! كذلك نجد كلمة البأس . وبأس الله . وبأسنا . . مكررة تتردد فى مواضع متفرقة من السورة . وهناك غيرها من ألفاظ الشدة والعنف بلفظها أو بمعناها . وعلى العموم فإن السورة كلها تبدو وكأنها مقارع ومطارق تقع على القلب البشرى وتؤثر فيه بعنف وهى تعرض مشاهد القيامة ومصارع الغابرين . وقد ترق أحياناً فتتحول إلى لمسات وإيقاعات تمس هذا القلب برفق ، وهى تعرض حملة العرش ومن حوله يدعون ربهم ليتكرم على عباده المؤمنين ، أو وهى تعرض عليه الآيات الكونية والآيات الكامنة فى النفس البشرية . ونضرب بعض الأمثال التى ترسم جو السورة وظلها من هذه وتلك من مصارع الغابرين (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق . فأخذتهم . فكيف كان عقاب ؟) ومن مشاهد القيامة (وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين . ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع). .(الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون) ومن اللمسات الندية مشهد حملة العرش فى دعائهم الخاشع المنيب (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا . ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته . وذلك هو الفوز العظيم) ومن اللمسات الموحية عرض آيات الله فى الأنفس وفى الآفاق (هو الذى خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخاً . ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلاً مسمى ، ولعلكم تعقلون . هو الذى يحيى ويميت . فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) (الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً . إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ذلكم الله ربكم خالق كل شىء . لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ؟) (الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم . ورزقكم من الطيبات . ذلكم الله ربكم . فتبارك الله رب العالمين) وهذه وتلك تصور جو السورة وترسم ظلها ، وتتناسق مع موضوعها وطابعها . ويجرى سياق السورة بموضوعاتها فى أربعة أشواط متميزة .

يبدأ الشوط الأول منها بافتتاح السورة بالأحرف المقطعة (حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) تتلوها تلك الإيقاعات الرصينة الثابتة (غافر الذنب . وقابل التوب . شديد العقاب ذى الطول . لا إله إلا هو . إليه المصير) ثم تقرر أن الوجود كله مسلم مستسلم لله . وأنه لا يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فيشذون عن سائر الوجود بهذا الجدال . ومن ثم فهم لا يستحقون أن يأبه لهم رسول الله ﷺ مهما تقلبوا فى الخير والمتاع . فإنما هم صائرون إلى ما صارت إليه أحزاب المكذبين قبلهم ; وقد أخذهم الله أخذاً ، بعقاب يستحق العجب والإعجاب ! ومع الأخذ فى الدنيا فإن عذاب الآخرة ينتظرهم هناك . . ذلك بينما حملة العرش ومن حوله يعلنون إيمانهم بربهم ، ويتوجهون إليه بالعبادة ، ويستغفرون للذين آمنوا من أهل الأرض ، ويدعون لهم بالمغفرة والنعيم والفلاح .

ويبدأ الشوط الثانى بلفتة إلى مصارع الغابرين قبلهم . مقدمة لعرض جانب من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وهامان وقارون . تمثل موقف الطغيان من دعوة الحق . وتعرض فيها حلقة جديدة لم تعرض فى قصة موسى من قبل ، ولا تعرض إلا فى هذه السورة . وهى حلقة ظهور رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه . يدفع عن موسى ما هموا بقتله ؛ ويصدع بكلمة الحق والإيمان فى تلطف وحذر فى أول الأمر ، ثم فى صراحة ووضوح فى النهاية . ويعرض فى جدله مع فرعون حجج الحق وبراهينه قوية ناصعة ؛ ويحذرهم يوم القيامة ، ويمثل لهم بعض مشاهده فى أسلوب مؤثر ؛ ويذكرهم موقفهم وموقف الأجيال قبلهم من يوسف - عليه السلام - ورسالته . . ويستطرد السياق بالقصة حتى يصل طرفها بالآخرة . فإذا هم هناك . وإذا هم يتحاجون فى النار . وإذا حوار بين الضعفاء والذين استكبروا ، وحوار لهم جميعاً مع خزنة جهنم يطلبون فيه الخلاص . ولات حين خلاص ! وفى ظل هذا المشهد يوجه الله رسوله ﷺ إلى الصبر والثقة بوعد الله الحق ، والتوجه إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار .

فأما الشوط الثالث فيبدأ بتقرير أن الذين يجادلون فى آيات الله بغير حجة ولا برهان إنما يدفعهم إلى هذا كبر فى نفوسهم عن الحق ، وهم أصغر وأضأل من هذا الكبر . ويوجه القلوب حينئذ إلى هذا الوجود الكبير الذى خلقه الله ، وهو أكبر من الناس جميعاً . لعل المتكبرين يتصاغرون أمام عظمة خلق الله ؛ وتتفتح بصيرتهم فلا يكونون عمياً (وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء . قليلاً ما تتذكرون) ويذكرهم بمجىء الساعة ، ويوجههم إلى دعوة الله الذى يستجيب للدعاء . فأما الذين يستكبرون فسيدخلون جهنم أذلاء صاغرين . ويعرض فى هذا الموقف بعض آيات الله الكونية التى يمرون عليها غافلين . يعرض الليل سكناً والنهار مبصراً . والأرض قراراً والسماء بناء . ويذكرهم بأنفسهم وقد صورهم فأحسن صورهم . ويوجههم إلى دعوة الله مخلصين له الدين . ويلقن الرسول ﷺ أن يبرأ من عبادتهم ، ويعلن نهى ربه له عن الهتهم ، وأمره له بالإسلام لرب العالمين . ويلمس قلوبهم بأن الله الواحد هو الذى أنشأهم من تراب ثم من نطفة . وعلى ضوء هذا المشهد يوجه الله رسوله ﷺ إلى الصبر مرة أخرى ، والثقة بأن وعد الله حق . سواء أبقاه حتى يشهد بعض ما يعدهم أو توفاه قبل أن يراه . فسيتم الوعد هناك . .

والشوط الأخير فى السورة يتصل بالشوط الثالث . فبعد توجيه الرسول ﷺ للصبر والانتظار يذكر أن الله قد أرسل رسلاً قبله كثيرين (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) على أن فى الكونآيات قائمة ، وبين أيديهم آيات قريبة ; ولكنهم يغفلون عن تدبرها . . هذه الأنعام المسخرة لهم . من سخرها ؟ . وهذه الفلك التى تحملهم أليست آية يرونها ! ومصارع الغابرين ألا تثير فى قلوبهم العظة والتقوى ? ويختم السورة بإيقاع قوى على مصرع من مصارع المكذبين ، وهم يرون بأس الله فيؤمنون (فلم يک ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا . سنة الله التى قد خلت فى عباده ، وخسر هنالک الكافرون) هذا الختام الذى يصور نهاية المتكبرين ، ويتفق مع جو السورة وظلها وطابعها الأصيل .

فلنسر الآن مع سياق السورة بالتفصيل . .

﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ

يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ{١٨} يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا

(حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب , ذى الطول ، لا إله إلا هو ، إليه المصير) وقد سبق الحديث عن الأحرف المقطعة فى أوائل السور . وأنها إشارة إلى صياغة هذا القرآن منها . وهو معجز لهم مع تيسير هذه الأحرف لهم ومعرفتهم بها ، وهى أحرف لغتهم التى يتحدثونها ويكتبونها . وتليها الإشارة إلى تنزيل الكتاب . . إحدى الحقائق التى يتكرر الحديث عنها فى السور المكية بوجه خاص ، فى معرض بناء العقيدة (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) وهى مجرد إشارة ينتقل السياق منها إلى التعريف ببعض صفات الله الذى نزل هذا الكتاب . وهى مجموعة من الصفات ذات علاقة موضوعية بمحتويات السورة كلها وقضاياها (غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذى الطول ، لا إله إلا هو ، إليه المصير) العزة . والعلم . وغفران الذنب . وقبول التوبة . وشدة العقاب . والفضل والإنعام . ووحدانية الألوهية ، ووحدانية المرجع والمصير . . والله - سبحانه - يعرف نفسه لعباده بصفاته ، ذات الأثر فى حياتهم ووجودهم . ومنها هذه الصفات (العزيز) القوى القادر الذى يغلب ولا يغلب ، والذى يصرف الأمر لا يقدر عليه أحد , ولا يعقب عليه أحد (العليم) الذى يصرف الوجود عن علم وعن خبرة ، فلا يخفى عليه شيء ، ولا يند عن علمه شيء (غافر الذنب) الذى يعفو عن ذنوب العباد ، بما يعلمه - سبحانه - من استحقاقهم للغفران (وقابل التوب) الذى يتوب على العصاة ، ويتقبلهم فى حماه ، ويفتح لهم بابه بلا حجاب (شديد العقاب) الذى يدمر على المستكبرين ويعاقب المعاندين ، الذين لا يتوبون ولا يستغفرون (ذى الطول) الذى يتفضل بالإنعام ، ويضاعف الحسنات ، ويعطى بغير حساب (لا إله إلا هو) فله الألوهية وحده لا شريك له فيها ولا شبيه . إليه المصير . . فلا مهرب من حسابه ولا مفر من لقائه . وإليه الأوبة والمعاد . وهكذا تتضح صلته بعباده وصلة عباده به . تتضح فى مشاعرهم وتصوراتهم وإدراكهم ، فيعرفون كيف يعاملونه فى يقظة وفى حساسية ؛ وفى إدراك لما يغضبه وما يرضيه (ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا) فهم وحدهم من بين هذا الوجود الهائل يشذون ؛ وهم وحدهم من بين هذا الخلق العظيم ينحرفون . وهم - بالقياس إلى هذا الوجود - أضعف وأقل من النمل بالقياس إلى هذه الأرض. هم فى هذا الموقف مقطوع بمصيرهم , مقضى فى أمرهم ؛ مهما تبلغ قوتهم ؛ ومهما يتهيأ لهم من أسباب المال والجاه والسلطان (فلا يغررك تقلبهم فى البلاد) فمهما تقلبوا ، وتحركوا ، وملكوا ، واستمتعوا ، فهم إلى اندحار وهلاك وبوار . ونهاية المعركة معروفة ؛ إن كان ثمت معركة يمكن أن تقوم بين قوة الوجود وخالقه ، وقوة هؤلاء الضعاف المساكين ! ولقد سبقتهم أقوام وأحزاب على شاكلتهم ، توحى عاقبتهم بعاقبه كل من يقف فى وجه القوة الطاحنة العارمة التى يتعرض لها من يعرض نفسه لبأس الله:(كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم . فكيف كان عقاب ؟) فهى قصة قديمة من عهد نوح . ومعركة ذات مواقع متشابهة فى كل زمان . وهذه الآية تصور هذه القصة . قصة الرسالة والتكذيب والطغيان على مدى القرون والأجيال كما تصور العاقبة فى كل حال (فكيف كان عقاب ؟) ولقد كان عقاباً مدمراً قاضياً عنيفاً شديداً ، تشهد به مصارع القوم الباقية آثارها , وتنطق به الأحاديث والروايات . ولم تنته المعركة . فهى ممتدة الآثار فى الآخرة (وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) ومتى حقت كلمة الله على أحد فقد وقعت ، وقضى الأمر ، وبطل كل جدال . ويتصل بتلك الحقيقة الأولى أن حملة العرش ومن حوله - وهم من بين القوى المؤمنة فى هذا الوجود - يذكرون المؤمنين من البشر عند ربهم ، ويستغفرون لهم ، ويستنجزون وعد الله إياهم ؛ بحكم رابطة الإيمان بينهم وبين المؤمنين (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا . ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ; إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات - ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته - وذلك هو الفوز العظيم) ونحن لا نعرف ما هو العرش ؟ ولا نملك صورة له ، ولا نعرف كيف يحمله حملته ، ولا كيف يكون من حوله , حوله ؛ ولا جدوى من الجرى وراء صور ليس من طبيعة الإدراك البشرى أن يلم بها ، ولا من الجدل حول غيبيات لم يطلع الله أحداً من المتجادلين عليها ؛ وكل ما يتصل بالحقيقة التى يقررها سياق السورة أن عباداً مقربين من الله (يسبحون بحمد ربهم) (ويؤمنون به) وينص القرآن على إيمانهم - وهو مفهوم بداهة - ليشير إلى الصلة التى تربطهم بالمؤمنين من البشر . . هؤلاء العباد المقربون يتوجهون بعد تسبيح الله إلى الدعاء للمؤمنين من الناس بخير ما يدعو به مؤمن لمؤمن . وهم يبدأون دعاءهم بأدب يعلمنا كيف يكون أدب الدعاء والسؤال . يقولون (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما) يقدمون بين يدى الدعاء بأنهم - فى طلب الرحمة للناس - إنما يستمدون من رحمة الله التى وسعت كل شيء ويحيلون إلى

علم الله الذى وسع كل شىء ؛ وأنهم لا يقدمون بين يدى الله بشىء ؛ إنما هى رحمته وعلمه منهما يستمدون وإليهما يلجأون (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) وتلتقى هذه الإشارة إلى المغفرة والتوبة بمطلع السورة ، وبصفة الله هناك: (غافر الذنب وقابل التوب) كما تلتقى الإشارة إلى عذاب الجحيم ، بصفة الله (شديد العقاب) ثم يرتقون فى الدعاء من الغفران والوقاية من العذاب إلى سؤال الجنة واستنجاز وعد الله لعباده الصالحين (ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . إنك أنت العزيز الحكيم) ودخول الجنة نعيم وفوز . يضاف إليه صحبة من صلح من الآباء والأزواج والذريات . وهى نعيم آخر مستقل . ثم هى مظهر من مظاهر الوحدة بين المؤمنين أجمعين . فعند عقدة الإيمان يلتقى الآباء والأبناء والأزواج ، ولولا هذه العقدة لتقطعت بينهم الأسباب: والتعقيب على هذه الفقرة من الدعاء (إنك أنت العزيز الحكيم) يشير إلى القوة كما يشير إلى الحكمة . وبها يكون الحكم فى أمر العباد (وقهم السيئات . ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته . وذلك هو الفوز العظيم) وهذه الدعوة – بعد الدعاء بإدخالهم جنات عدن – لفتة إلى الركيزة الأولى فى الموقف العصيب . فالسيئات هى التى توبق أصحابها فى الآخرة ، وتوردهم مورد التهلكة . فإذا وقى الله عباده المؤمنين منها وقاهم نتائجها وعواقبها . وكانت هذه هى الرحمة فى ذلك الموقف . وكانت كذلك أولى خطوات السعادة (وذلك هو الفوز العظيم) فمجرد الوقاية من السيئات هو أمر عظيم !وبينما أن حملة العرش ومن حوله يتجهون إلى ربهم بهذا الدعاء لإخوانهم المؤمنين . نجد الذين كفروا فى الموقف الذى تتطلع كل نفس فيه إلى المعين وقد عز المعين . نجد الذين كفروا هؤلاء – وقد انبتت العلاقات بينهم وبين كل أحد وكل شىء فى الوجود . وإذا هم ينادون من كل مكان بالترذيل والمقت والتأنيب . وإذا هم فى موقف الذلة بعد الاستكبار . وفى موقف الرجاء ولات حين رجاء (إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون قالوا:ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا ، فهل إلى خروج من سبيل ؟ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلى الكبير) والمقت:أشد الكره . وهم ينادون من كل جانب . إن مقت الله لكم يوم كنتم تدعون إلى الإيمان فتكفرون ، أشد من مقتكم لأنفسكم وأنتم تطلعون اليوم على ما قادتكم إليه من شر ونكر ، بكفرها وإعراضها عن دعوة الإيمان ، قبل فوات الأوان . . وما أوجع هذا التذكير وهذا التأنيب فى ذلك الموقف المرهوب العصيب ! والآن – وقد سقط عنهم غشاء الخداع والضلال – يعرفون أن المتجه لله وحده فيتجهون (قالوا:ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ، فاعترفنا بذنوبنا ، فهل إلى خروج من سبيل) وهى كلمة الذليل اليائس البائس (ربنا) وقد كانوا يكفرون وينكرون . أحييتنا أول مرة فنفخت الروح فى الموات فإذا هو حياة ، وإذا نحن أحياء . ثم أحييتنا الأخرى بعد موتنا ، فجئنا إليك . وإنك لقادر على إخراجنا مما نحن فيه . وقد اعترفنا بذنوبنا (فهل إلى خروج من سبيل ؟) بهذا التنكير الموحى باللهفة واليأس المرير . هنا – فى ظل هذا الموقف البائس – يجبههم بسبب هذا المصير (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلى الكبير) فهذا هو الذى يقودكم إلى ذلك الموقف الذليل . إيمانكم بالشركاء ، وكفركم بالوحدانية . فالحكم لله العلى الكبير:وهما صفتان تناسبان موقف الحكم . الاستعلاء على كل شىء ، والكبر فوق كل شىء . فى موقف الفصل الأخير . وفى ظل هذا المشهد يستطرد إلى شىء من صفة الله تناسب موقف الاستعلاء ويوجه المؤمنين فى هذا المقام إلى التوجه إليه بالدعاء ، موحدين ، مخلصين له الدين كما يشير إلى الوحى للإنذار بيوم التلاقى والفصل والجزاء ، يوم يتفرد الله بالملك والقهر والاستعلاء (هو الذى يريكم آياته ، وينزل لكم من السماء رزقاً ، وما يتذكر إلا من ينيب . فادعوا الله مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون . رفيع الدرجات ، ذو العرش ، يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء . لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت . لا ظلم اليوم . إن الله سريع الحساب) (وهو الذى يريكم آياته) وآيات الله ترى فى كل شىء فى هذا الوجود . فى المجالى الكبيرة من شمس وكواكب ، وليل ونهار ، ومطر وبرق ورعد . . وفى الدقائق الصغيرة من الذرة والخلية والورقة والزهرة . . وفى كل منها آية خارقة ، تتبدى عظمتها حين يحاول الإنسان أن يقلدها – بله أن ينشئها – وهيهات هيهات التقليد الكامل الدقيق ، لأصغر وأبسط ما أبدعته يد الله فى هذا الوجود . وينزل عليكم من السماء رزقاً . . عرف الناس منه المطر ، أصل الحياة فى هذه الأرض ، وسبب الطعام والشراب . وغير المطر كثير يكشفه الناس يوماً بعد يوم . ومنه هذه الأشعة المحيية التى لولاها ما كانت حياة على هذا الكوكب الأرضى . ولعل من هذا الرزق تلك الرسالات المنزلة ، التى قادت خطى البشرية منذ طفولتها ونقلت أقدامها فى الطريق المستقيم ، وهدتها إلى مناهج الحياة الموصولة بالله ، وناموسه القويم (وما يتذكر إلا من ينيب) فالذى ينيب إلى ربه يتذكر نعمه ويتذكر فضله ويتذكر آياته التى ينساها غلاظ القلوب . وعلى ذكر الإنابة وما تثيره فى القلب من تذكر وتدبر يوجه الله المؤمنين ليدعوا الله وحده ويخلصوا له الدين ، غير عابئين بكره الكافرين (فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) ولن

يرضي الكافرون من المؤمنين أن يخلصوا دينهم لله ، وأن يدعوه وحده دون سواه . ثم يذكر من صفات الله فى هذا المقام الذى يوجه المؤمنين فيه إلى عبادة الله وحده ولو كره الكافرون . يذكر من هذه الصفات أنه سبحانه (رفيع الدرجات ذو العرش ، يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده)

فهو - سبحانه - وحده صاحب الرفعة والمقام العالى ، وهو صاحب العرش المسيطر المستعلى . وهو الذى يلقى أمره المحيى للأرواح والقلوب على من يختاره من عباده . وهذا كناية عن الوحى بالرسالة . ولكن التعبير عنه فى هذه الصيغة يبين أولاً حقيقة هذا الوحى ، وأنه روح وحياة للبشرية ، ويبين ثانيا أنه يتنزل من علو على المختارين من العباد . . وكلها ظلال متناسقة مع صفة الله (العلى الكبير) فأما الوظيفة البارزة لمن يختاره الله من عباده فيلقى عليه الروح من أمره ، فهى الإنذار(لينذر يوم التلاق) وفى هذا اليوم يتلاقى البشر جميعاً . ويتلاقى الناس وأعمالهم التى قدموا فى الحياة الدنيا . ويتلاقى الناس والملائكة والجن وجميع الخلائق التى تشهد ذلك اليوم المشهود وتلتقى الخلائق كلها بربها فى ساعة الحساب فهو يوم التلاقى بكل معانى التلاقى . ثم هو اليوم الذى يبرزون فيه بلا ساتر ولا واق ولا تزييف ولا خداع (يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء) والله لا يخفى عليه منهم شىء فى كل وقت وفى كل حال . ولكنهم فى غير هذا اليوم قد يحسبون أنهم مستورون ، وأن أعمالهم وحركاتهم خافية ، أما اليوم فيحسون أنهم مكشوفون ، ويعلمون أنهم مفضوحون ؛ ويقفون عارين من كل ساتر حتى ستار الأوهام ! فى هذا اليوم فينكشف هذا للعيان ، بعد انكشافه للجنان . ويعلم هذا كل منكر ويستشعره كل متكبر . وتصمت كل نأمة وتسكن كل حركة . وينطلق صوت جليل رهيب يسأل ويجيب ; فما فى الوجود كله يومئذ من سائل غيره ولا مجيب (لمن الملك اليوم ؟) (لله الواحد القهار) (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت . لا ظلم اليوم . إن الله سريع الحساب) اليوم يوم الجزاء الحق . اليوم يوم العدل . اليوم يوم القضاء الفصل . بلا إمهال ولا إبطاء . ويخيم الجلال والصمت ، ويغمر الموقف رهبة وخشوع ، وتسمع الخلائق وتخشع ، ويقضى الأمر ، وتطوى صحائف الحساب . ويتسق هذا الظل مع قوله عن الذين يجادلون فى آيات الله - فى مطلع السورة -: (فلا يغررك تقلبهم فى البلاد). . فهذه نهاية التقلب فى الأرض ، والاستعلاء بغير الحق ، والتجبر والتكبر والثراء والمتاع . ويستطرد السياق يوجه الرسول ﷺ إلى إنذار القوم بذلك اليوم ، فى مشهد من مشاهد القيامة يتفرد فيه الله بالحكم والقضاء ؛ بعدما عرضه عليهم فى صورة حكاية لم يوجه لهم فيها الخطاب (وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء إن الله هو السميع البصير) والآزفة . . القريبة والعاجلة . . وهى القيامة . واللفظ يصورها كأنها مقتربة زاحفة . والأنفاس من ثم مكروبة لاهثة ، وكأنما القلوب المكروبة تضغط على الحناجر ؛ وهم كاظمون لأنفاسهم ولآلامهم ولمخاوفهم ، والكظم يكربهم ، ويثقل على صدورهم ؛ وهم لا يجدون حميماً يعطف عليهم ولا شفيعاً ذا كلمة تطاع فى هذا الموقف العصيب المكروب ! وهم بارزون فى هذا اليوم لا يخفى على الله منهم شىء ، حتى لفتة العين الخائنة ، وسر الصدر المستور (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) والعين الخائنة تجتهد فى إخفاء خيانتها . ولكنها لا تخفى على الله والسر المستور تخفيه الصدور ، ولكنه مكشوف لعلم الله . والله وحده هو الذى يقضى فى هذا اليوم قضاءه الحق . وآلهتهم المدعاة لا شأن لها ولا حكم ولا قضاء (والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء) والله يقضى بالحق عن علم وعن خبرة ، وعن سمع وعن رؤية . فلا يظلم أحداً ولا ينسى شيئاً (إن الله هو السميع البصير)

(أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ {٢١} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ {٢٢} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ {٢٣} إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ {٢٤} فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ {٢٥} وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ {٢٦} وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ {٢٧} وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّن آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ {٢٨} يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ {٢٩} وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ {٣٠} مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ {٣١} وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ {٣٢} يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا

لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ{٣٣} وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ{٣٤} الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ{٣٥} وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ{٣٦} أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ{٣٧} وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ{٣٨} يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ{٣٩} مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ{٤٠} وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ{٤١} تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ{٤٢} لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ{٤٣} فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ{٤٤} فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ{٤٥} النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ{٤٦} وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ{٤٧} قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ{٤٨} وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ{٤٩} قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ{٥٠} إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ{٥١} يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ{٥٢} وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ{٥٣} هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ{٥٤} فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ{٥٥}

سبق أن أجملنا موضوع هذا الشوط من السورة . وقبل الاستعراض التفصيلي له نلاحظ ان هذه الحلقة من القصة تجيء هنا متمشية بموضوعها مع موضوع السورة ، ومتمشية بطريقة التعبير فيها – وأحياناً بعباراتها ذاتها – مع طريقة التعبير فى السورة كذلك ، وتكرر بعض عباراتها . . وعلى لسان الرجل المؤمن من آل فرعون ترد معان وتعبيرات وردت من قبل فى السورة . فهو يذكر فرعون وهامان وقارون بأنهم يتقلبون فى البلاد ، ويحذرهم يوماً مثل يوم الأحزاب ، كما يحذرهم يوم القيامة الذى عرضت مشاهده فى مطالع السورة كذلك . ويتحدث عن الذين يجادلون فى آيات الله ومقت الله لهم ومقت المؤمنين كما جاء ذلك فى الشوط الأول . ثم يعرض السياق مشهدهم فى النار أذلاء ضارعين يدعون فلا يستجاب لهم ، كما عرض مشهد أمثالهم من قبل فى السورة .

وهكذا وهكذا مما يوحى بأن منطق الإيمان ومنطق المؤمنين واحد ، لأنه يستمد من الحق الواحد . ومما ينسق جو السورة ، ويجعل لها "شخصية" موحدة الملامح . وهى الظاهرة الملحوظة فى كل سور القرآن (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض ، فأخذهم الله بذنوبهم . وما كان لهم من الله من واق . ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فكفروا ، فأخذهم الله ، إنه قوى شديد العقاب) هذا المعبر بين قصة موسى – عليه السلام – وموضوع السورة قبلها يذكر المجادلين فى آيات الله من مشركى العرب بعبرة التاريخ قبلهم ؛ ويوجههم إلى السير فى الأرض ، ورؤية مصارع الغابرين ، الذين وقفوا موقفهم . وكانوا أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض . ولكنهم – مع هذه القوة والعمارة – كانوا ضعافاً أمام بأس الله . وكانت ذنوبهم تعزلهم عن مصدر القوة الحقيقية ، وتستعدى عليهم قوى الإيمان ومعها قوة الله العزيز القهار: فأخذهم الله بذنوبهم . وما كان لهم من الله من واق) ولا واقى إلا الإيمان والعمل الصالح والوقوف فى جبهة الإيمان والحق والصلاح . فأما التكذيب بالرسل وبالبينات فنهايته إلى الدمار والنكال (ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فكفروا ، فأخذهم الله ، إنه قوى شديد العقاب) وبعد هذه الإشارة الكلية المجملة يبدأ فى عرض نموذج من نماذج الذين كانوا من قبلهم , وكانوا أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض . فأخذهم الله بذنوبهم . وهم فرعون وقارون وهامان . ومن معهم من المتجبرين الطغاة . وتنقسم هذه الحلقة من قصة موسى – عليه السلام – إلى مواقف ومناظر ، تبدأ من موقف عرض الرسالة على فرعون وملئه . وتنتهى هنالك فى الآخرة ، وهم يتحاجون فى النار . وهى رحلة مديدة . ولكن السياق يختار "لقطات" معينة من هذه الرحلة ، هى التى تؤدى الغرض من هذه الحلقة فى هذه السورة بالذات (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وهامان وقارون ، فقالوا:ساحر كذاب) هذا هو موقف اللقاء الأول . موسى ومعه آيات الله ، ومعه الهيبة المستمدة من الحق

الذى بيده . وفرعون وهامان وقارون . ومعهم باطلهم الزائف وقوتهم الظاهرة ومركزهم الذى يخافون عليه من مواجهة الحق ذى السلطان . . عندئذ لجأوا إلى الجدال بالباطل ليدحضوا به الحق (فقالوا:ساحر كذاب) ويجمل السياق تفصيل ما حدث بعد هذا الجدال ، ويطوى موقف المباراة مع السحرة ، وإيمانهم بالحق الذى غلب باطلهم ولقف ما يأفكون . ويعرض الموقف الذى تلا هذه الأحداث (فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا:اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) ويعقب عليه قبل أن تكمل الآية (وما كيد الكافرين إلا فى ضلال) إنه منطق الطغيان الغليظ ، كلما أعوزته الحجة ، وخذله البرهان ، وخاف أن يستعلى الحق ، بما فيه من قوة وفصاحة ووضوح ، وهو يخاطب الفطرة فتصغى له وتستجيب . كما استجاب السحرة الذين جيء بهم ليغلبوا موسى وما معه ، فانقلبوا أول المؤمنين بالحق فى مواجهة فرعون الجبار . فأما فرعون وهامان وقارون فقالوا (اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) ولقد كان فرعون – فى أيام مولد موسى – قد أصدر مثل هذا الأمر . وهناك أحد احتمالين فيما حدث بعد ذلك الأمر الأول . . الاحتمال الأول أن فرعون الذى أصدر ذلك الأمر كان قد مات وخلفه ابنه أو ولى عهده ، ولم يكن الأمر منفذاً فى العهد الجديد ، حتى جاء موسى وواجه الفرعون الجديد ، الذى كان يعرفه وهو ولى للعهد ، ويعرف تربيته فى القصر ، ويعرف الأمر الأول بتذبيح الذكور وترك الإناث من بنى إسرائيل . فحاشيته تشير إلى هذا الأمر ، وتوحى بتخصيصه بمن آمنوا بموسى ، سواء كانوا من السحرة أو من بنى إسرائيل القلائل الذين استجابوا له على خوف من فرعون وملئه . . والاحتمال الثانى:أنه كان فرعون الأول الذى تبنى موسى ، ما يزال على عرشه . وقد تراخى تنفيذ الأمر الأول بعد فترة أو وقف العمل به بعد زوال حدته . فالحاشية تشير بتجديده ، وتخص به الذين آمنوا مع موسى وحدهم للإرهاب والتخويف . فأما فرعون فكان له فيما يبدو رأى آخر ، أو اقتراح إضافى فى أثناء التآمر . ذلك أن يتخلص من موسى نفسه . فيستريح ! (وقال فرعون:ذرونى أقتل موسى ، وليدع ربه ، إنى أخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر فى الأرض الفساد) ويبدو من قوله (ذرونى أقتل موسى) أن رأيه هذا كان يجد ممانعة ومعارضة – من ناحية الرأى – كأن يقال مثلاً:إن قتل موسى لا ينهى الإشكال . فقد يوحى هذا للجماهير بتقديسه واعتباره شهيداً ، والحماسة الشعورية له وللدين الذى جاء به ، وبخاصة بعد إيمان السحرة فى مشهد شعبى جامع ، وإعلانهم سبب إيمانهم ، وهم الذين جيء بهم ليبطلوا عمله ويناوئوه . . وقد يكون بعض مستشارى الملك أحس فى نفسه رهبة أن ينتقم إله موسى له ، ويبطش بهم . وليس هذا ببعيد ، فقد كان الوثنيون يعتقدون بتعدد الآلهة ، ويتصورون بسهولة أن يكون لموسى إله ينتقم له ممن يعتدون عليه ! ويكون قول فرعون (وليدع ربه) رداً على هذا التلويح ! وإن كان لا يبعد أن هذه الكلمة الفاجرة من فرعون ، كانت تبجحاً واستهتاراً ، لقى جزاءه فى نهاية المطاف كما سيجيء . ولعله من الطريف أن نقف أمام حجة فرعون فى قتل موسى (إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثنى ، عن موسى رسول الله – عليه السلام – إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ؟!! أليست هى بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح ؟ أليست هى بعينها كلمة الباطل الكالح فى وجه الحق الجميل ؟ أليست هى بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر فى وجه الإيمان الهادىء ؟ إنه منطق واحد ، يتكرر كلما التقى الحق والباطل ، والإيمان والكفر . والصلاح والطغيان على توالى الزمان واختلاف المكان . والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين . فأما موسى – عليه السلام – فالتجأ إلى الركن الركين والحصن الحصين ، ولاذ بالجناب الذى يحمى اللائذين ، ويجير المستجيرين (وقال موسى:إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب)

قالها . واطمأن . وسلم أمره إلى المستعلى على كل متكبر ، القاهر لكل متجبر ، القادر على حماية العائذين به من المستكبرين . وأشار إلى وحدانية الله ربه وربهم لم ينسها أو يتركها أمام التهديد والوعيد . كما أشار إلى عدم الإيمان بيوم الحساب . فما يتكبر متكبر وهو يؤمن بيوم الحساب ، وهو يتصور موقفه يومئذ حاسراً خاشعاً خاضعاً ذليلاً ، مجرداً من كل قوة ، ما له من حميم ولا شفيع يطاع . هنا انتدب رجل من آل فرعون ، وقع الحق فى قلبه ، ولكنه كتم إيمانه . انتدب يدفع عن موسى ، ويحتال لدفع القوم عنه ، ويسلك فى خطابه لفرعون وملئه مسالك شتى ، ويتدسس إلى قلوبهم بالنصيحة ويثير حساسيتها بالتخويف والإقناع (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه:أتقتلون رجلاً أن يقول:ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب . يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟ قال فرعون:ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد . وقال الذى آمن:يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلماً للعباد . ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد . ولقد

جاءكم يوسف من قبل بالبينات ؛ فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم:لن يبعث الله من بعده رسولاً . كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) إنها جولة ضخمة هذه التى جالها الرجل المؤمن مع المتآمرين من فرعون وملئه . وإنه منطق الفطرة المؤمنة فى حذر ومهارة وقوة كذلك . إنه يبدأ بتفظيع ما هم مقدمون عليه (أتقتلون رجلاً أن يقول:ربى الله) فهل هذه الكلمة البريئة المتعلقة باعتقاد قلب ، واقتناع نفس ، تستحق القتل ، ويرد عليها بإزهاق روح ؟ إنها فى هذه الصورة فعلة منكرة بشعة ظاهرة القبح والبشاعة . ثم يخطو بهم خطوة أخرى . فالذى يقول هذه الكلمة البريئة: ربى الله . . يقولها ومعه حجته ، وفى يده برهانه (وقد جاءكم بالبينات من ربكم) يشير إلى تلك الآيات التى عرضها موسى – عليه السلام – ورأوها ، وهم – فيما بينهم وبعيداً عن الجماهير – يصعب أن يماروا فيها ! ثم يفرض لهم أسوأ الفروض ؛ ويقف معهم موقف المنصف أمام القضية ؛ تمشياً مع أقصى فرض يمكن أن يتخذوه (وإن يک كاذباً فعليه كذبه) وهو يحمل تبعة عمله ، ويلقى جزاءه ، ويحتمل جريرته . وليس هذا بمسوغ لهم أن يقتلوه على أية حال ! وهناک الاحتمال الآخر ، وهو أن يكون صادقاً . فيحسن الاحتياط لهذا الاحتمال ، وعدم التعرض لنتائجه (وإن يک صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم) وإصابتهم ببعض الذى يعدهم هو كذلک أقل احتمال فى القضية ، فهو لا يطلب إليهم أكثر منه . وهذا منتهى الإنصاف فى الجدل والإفحام . ثم يهددهم من طرف خفى ، وهو يقول كلاماً ينطبق على موسى كما ينطبق عليهم (إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب) فإذا كان موسى فإن الله لا يهديه ولا يوفقه ، فدعوه له يلاقى منه جزاءه . واحذروا أن تكونوا أنتم الذين تكذبون على موسى وربه وتسرفون ، فيصيبكم هذا المآل ! وحين يصل بهم إلى فعل الله بمن هو مسرف كذاب ، يهجم عليهم مخوفاً بعقاب الله ، محذراً من بأسه الذى لا ينجيهم منه ما هم فيه من ملک وسلطان ، مذكراً إياهم بهذه النعمة التى تستحق الشكران لا الكفران (يا قوم لكم الملک اليوم ظاهرين فى الأرض . فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟) إن الرجل يشعر بما يشعر به القلب المؤمن ، من أن بأس الله أقرب ما يكون لأصحاب الملک والسلطان فى الأرض ; فهم أحق الناس بأن يحذروه ، وأجدر الناس بأن يحسوه ويتقوه ، وأن يبيتوا منه على وجل ، فهو يتربص بهم فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار . ومن ثم يذكرهم بما هم فيه من الملک والسلطان ، وهو يشير إلى هذا المعنى المستقر فى حسه البصير . ثم يجمل نفسه فيهم وهو يذكرهم ببأس الله: (فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا(? ليشعرهم أن أمرهم يهمه ، فهو واحد منهم ، ينتظر مصيره معهم ؛ وهو إذن ناصح لهم مشفق عليهم ، لعل هذا أن يجعلهم ينظرون إلى تحذيره باهتمام ، ويأخذونه مأخذ البراءة والإخلاص . وهو يحاول أن يشعرهم أن بأس الله إن جاء فلا ناصر منه ولا مجير عليه ، وأنهم إزاءه ضعاف ضعاف . هنا يأخذ فرعون ما يأخذ كل طاغية توجه إليه النصيحة . تأخذه العزة بالإثم . ويرى فى النصح الخالص افتياتاً على سلطانه ، ونقصاً من نفوذه ، ومشاركة له فى النفوذ والسلطان (قال فرعون:ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) ننى لا أقول لكم إلا ما أراه صواباً ، وأعتقده نافعاً . وإنه لهو الصواب والرشد بلا شک ولا جدال ! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب ؟! وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون ؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأياً ؟! وإلا فلم كانوا طغاة ؟! ولكن الرجل المؤمن يجد من إيمانه غير هذا ؛ ويجد أن عليه واجباً أن يحذر وينصح ويبدى من الرأى ما يراه ويرى من الواجب عليه أن يقف إلى جوار الحق الذى يعتقده كائناً ما كان رأى الطغاة . ثم هو يطرق قلوبهم بإيقاع آخر لعلها تحس وتستيقظ وترتعش وتلين .يطرق قلوبهم بلفتها على مصارع الأحزاب قبلهم . وهى شاهدة ببأس الله فى أخذ المكذبين والطغاة (وقال الذى آمن:يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم . وما الله يريد ظلماً للعباد) ولكل حزب كان يوم . ولكن الرجل المؤمن يجمعها فى يوم واحد (مثل يوم الأحزاب) فهو اليوم الذى يتجلى فيه بأس الله . وهو يوم واحد فى طبيعته على تفرق الأحزاب (وما الله يريد ظلماً للعباد) إنما يأخذهم بذنوبهم ، ويصلح من حولهم ومن بعدهم بأخذهم بأيام الله . ثم يطرق على قلوبهم طرقة أخرى ، وهو يذكرهم بيوم آخر من أيام الله . يوم القيامة . يوم التنادى (ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم . ومن يضلل الله فما له من هاد) وفى ذلک اليوم ينادى الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف . وينادى أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة وأصحاب النار . وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار ، وأصحاب النار أصحاب الجنة . . فالتنادى واقع فى صور شتى . وتسميته (يوم التناد) تلقى عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناک ، وتصور يوم زحام وخصام . وتتفق كذلک مع قول الرجل المؤمن (يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم) وقد يكون ذلک فرارهم عند هول جهنم ، أو محاولتهم الفرار . ولا عاصم يومئذ ولات حين فرار . وصورة الفزع والفرار هى أولى الصور هنا للمستكبرين المتجبرين فى الأرض ، أصحاب الجاه والسلطان ! (ومن يضلل الله فما له من هاد) ولعل فيها إشارة خفية إلى قولة فرعون (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) وتلميحاً

بأن الهدى هدى الله . وأن من أضله الله فلا هادى له . والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحق الهدى ومن يستحق الضلال . وأخيراً يذكرهم بموقفهم من يوسف ، ومن ذريته كان موسى – عليهما السلام – وكيف وقفوا موقف الشك من رسالته وما جاءهم به من الآيات ، فلا يكرروا الموقف من موسى ، وهو يصدق ما جاءهم به يوسف ، فكانوا منه في شك وارتياب . ويكذب ما جزموا به من أن الله لن يبعث من بعده رسولاً ، وها هو ذا موسى يجيء على فترة من يوسف ويكذب هذا المقال (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم:لن يبعث الله من بعده رسولاً . كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم . كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا . كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) والرجل المؤمن يشتد هنا وهو يشير إلى هذا الارتياب والإسراف فى التكذيب فيقول (كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب) فينذرهم بإضلال الله الذى ينتظر كل مسرف مرتاب فى عقيدته وقد جاءته معها البينات . ثم يشتد فى مواجهتهم بمقت الله ومقت المؤمنين لمن يجادل فى آيات الله بغير حجة ولا برهان . وهم يفعلون هذا فى أبشع صورة . ويندد بالتكبر والتجبر ، وينذر بطمس الله لقلوب المتكبرين المتجبرين ! الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا . كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) والتعبير على لسان الرجل المؤمن يكاد يكون طبق الأصل من التعبير المباشر فى مطالع السورة . المقت للمجادلين فى آيات الله بغير برهان ، والإضلال للمتكبرين المتجبرين حتى ما يبقى فى قلوبهم موضع للهدى ، ولا منفذ للإدراك . وعلى الرغم من هذه الجولة الضخمة التى أخذ الرجل المؤمن قلوبهم بها ؛ فقد ظل فرعون في ضلاله ، مصراً على التنكر للحق . ولكنه تظاهر بأنه أخذ فى التحقق من دعوى موسى . ويبدو أن منطق الرجل المؤمن وحجته كانت من شدة الوقع بحيث لم يستطع فرعون ومن معه تجاهلها . فاتخذ فرعون لنفسه مهرباً جديداً (وقال فرعون:يا هامان ابن لي صرحاً لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى . وإنى لأظنه كاذباً . وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب) يا هامان ابن لي بناء عالياً لعلي أبلغ به أسباب السماوات ، لأنظر وأبحث عن إله موسى هناك (وإني لأظنه كاذباً) هكذا يموه فرعون الطاغية ويحاور ويداور ، كي لا يواجه الحق جهرة ، ولا يعترف بدعوة الوحدانية التى تهز عرشه ، وتهدد الأساطير التى قام عليها ملكه . وبعيد عن الاحتمال أن يكون هذا فهم فرعون وإدراكه . وبعيد أن يكون جاداً في البحث عن إله موسى على هذا النحو المادى الساذج . وقد بلغ فراعنة مصر من الثقافة حداً يبعد معه هذا التصور . إنما هو الاستهتار والسخرية من جهة . والتظاهر بالإنصاف والتثبت من جهة أخرى . وربما كانت هذه خطة للتراجع أمام مطارق المنطق المؤمن فى حديث الرجل المؤمن ! وكل هذه الفروض تدل على إصراره على ضلاله ، وتبجحه فى جحوده (وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل) وهو مستحق لأن يصد عن السبيل , بهذا المراء الذى يميل عن الاستقامة وينحرف عن السبيل . ويعقب السياق على هذا المكر والكيد بأنه صائر إلى الخيبة والدمار (وما كيد فرعون إلا فى تباب) وأمام هذه المراوغة ، وهذا الاستهتار ، وهذا الإصرار ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مدوية صريحة ، بعدما دعا القوم إلى اتباعه في الطريق إلى الله ، وهو طريق الرشاد . وكشف لهم عن قيمة هذه الحياة الزائلة ؛ وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية وحذرهم عذاب الآخرة وبين لهم ما فى عقيدة الشرك من زيف ومن (يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد) وقد كان فرعون منذ لحظات يقول (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) فهو التحدى الصريح الواضح بكلمة الحق لا يخشى فيها سلطان فرعون الجبار ، ولا ملأه المتآمرين معه من أمثال هامان وقارون . وزيرى فرعون فيما يقال (ويكشف لهم عن حقيقة الحياة الدنيا (إنما هذه الحياة الدنيا متاع) متاع زائل لا ثبات له ولا دوام (وإن الآخرة هى دار القرار) فهى الأصل وإليها النظر والاعتبار .ويقرر لهم قاعدة الحساب والجزاء فى دار القرار (من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها . ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن , فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) فقد اقتضى فضل الله أن تضاعف الحسنات ولا تضاعف السيئات ، رحمة من الله بعباده ، وتقديراً لضعفهم ، وللجواذب والموانع لهم فى طريق الخير والاستقامة ، فضاعف لهم الحسنات , وجعلها كفارة للسيئات . فإذا هم وصلوا إلى الجنة بعد الحساب ، رزقهم الله فيها بغير حساب . ويستنكر الرجل المؤمن أن يدعوهم إلى النجاة فيدعونه إلى النار ، فيهتف بهم فى استنكار (ويا قوم ما لى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ؟) وهم لم يدعوه إلى النار . إنما دعوه إلى الشرك . وما الفرق بين الدعوة إلى الشرك والدعوة إلى النار ؟ إنها قريب من قريب . فهو يبدل الدعوة بالدعوة في تعبيره فى الآية التالية (تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم . وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار) وشتان بين دعوة ودعوة . إن دعوته لهم واضحة مستقيمة . إنه يدعوهم إلى العزيز الغفار . يدعوهم إلى إله واحد تشهد آثاره فى الوجود بوحدانيته ، وتنطق بدائع صنعته بقدرته وتقديره . يدعوهم إليه ليغفر لهم وهو القادر على أن يغفر ، الذى تفضل بالغفران) :العزيز الغفار). . فإلى أى شيء يدعونه ؟ يدعونه للكفر بالله . عن طريق إشراك ما لا علم له به من مدعيات وأوهام وألغاز ! ويقرر

من غير شك ولا ريبة أن هؤلاء الشركاء ليس لهم من الأمر شيء ، وليس لهم شأن لا في دنيا ولا في آخرة ، وأن المرد لله وحده ، وأن المسرفين المتجاوزين للحد في الادعاء سيكونون أهل النار (لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة . وأن مردنا إلى الله . وأن المسرفين هم أصحاب النار) وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسية في العقيدة ؟ وقد جهر بها الرجل في مواجهة فرعون وملئه بلا تردد ولا تلعثم ، بعدما كان يكتم إيمانه ، فأعلن عنه هذا الإعلان ؟ لا يبقى إلا أن يفوض أمره إلى الله ، وقد قال كلمة وأراح ضميره ، مهدداً إياهم بأنهم سيذكرون كلمته هذه في موقف لا تنفع فيه الذكرى . والأمر كله إلى الله: (فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد) وينتهي الجدل والحوار . وقد سجل مؤمن آل فرعون كلمته الحق خالدة في ضمير الزمان . ويجمل السياق حلقات القصة بعد هذا . وما كان بين موسى وفرعون وبني إسرائيل . إلى موقف الغرق والنجاة:ويقف ليسجل "لقطات" بعد هذا الموقف الأخير . وبعد الحياة: (فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدوا وعشياً ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) (وإذ يتحاجون في النار ، فيقول الضعفاء للذين استكبروا:إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ قال الذين استكبروا:إنا كل فيها ، إن الله قد حكم بين العباد . وقال الذين في النار لخزنة جهنم:أدعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب . قالوا:أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا:بلى . قالوا: فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) لقد طويت الدنيا ، وعرضت أول صفحة بعدها . فإذا الرجل المؤمن الذي قال كلمة الحق ومضى ، قد وقاه الله سيئات مكر فرعون وملئه ، فلم يصبه من آثارها شيء في الدنيا ، ولا فيما بعدها أيضاً . بينما حاق بآل فرعون سوء العذاب (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً . ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) والنص يلهم أن عرضهم على النار غدواً وعشياً ، هو في الفترة من بعد الموت إلى قيام الساعة . وقد يكون هذا هو عذاب القبر . إذ أنه يقول بعد هذا: ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب . . فهو إذن عذاب قبل يوم القيامة . وهو عذاب سيي ء . عرض على النار في الصباح وفي المساء . إما للتعذيب برؤيتها وتوقع لذعها وحرها – وهو عذاب شديد – وإما لمزاولتها فعلاً . فكثيراً ما يستعمل لفظ العرض للمس والمزاولة . وهذه أدهى . . ثم إذا كان يوم القيامة أدخلوا أشد العذاب ! فأما في الآية التالية فقد كانت القيامة فعلاً ، والسياق يلتقط لهم موقفاً في النار ! وهم يتحاجون فيها (فيقول الضعفاء للذين استكبروا:إنا كنا لكم تبعاً . فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟) إن الضعفاء إذن في النار مع الذين استكبروا . لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولاً وإمعات ! ولم يخفف عنهم أنهم كانوا غنماً تساق ! لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار ! لقد منحهم الله الكرامة . كرامة الإنسانية . وكرامة التبعة الفردية . وكرامة الاختيار والحرية . ولكنهم هم تنازلوا عن هذا جميعاً . تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والطغاة والملأ والحاشية . لم يقولوا لهم:لا . بل لم يفكروا أن يقولوها . بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم وما يقودونهم إليه من ضلال (إنا كنا لكم تبعاً) وما كان تنازلهم عما وهبهم الله واتباعهم الكبراء ليكون شفيعاً لهم عند الله . فهم في النار . ساقهم إليها قادتهم كما كانوا يسوقونهم في الحياة . سوق الشياه ! ثم ها هم أولاء يسألون كبراءهم (فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟) كما كانوا يوهمونهم في الأرض أنهم يقودونهم في طريق الرشاد ، وأنهم يحمونهم من الفساد ، وأنهم يمنعونهم من الشر والضر وكيد الأعداء ! فأما الذين استكبروا فيضيقون صدراً بالذين استضعفوا ، ويجيبونهم في ضيق وبرم وملالة . وفي إقرار بعد الاستكبار (قال الذين استكبروا:إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد) (إنا كل فيها) إنا كل ضعاف لا نجد ناصراً ولا معيناً . إنا كل في هذا الكرب والضيق سواء . فما سؤالكم لنا وأنتم ترون الكبراء والضعاف سواء ؟ (إن الله قد حكم بين العباد) فلا مجال لمراجعة في الحكم ، ولا مجال لتغيير فيه أو تعديل . وقد قضى الأمر ، وما من أحد من العباد يخفف شيئاً من حكم الله . وحين أدرك هؤلاء وهؤلاء أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، اتجه هؤلاء وهؤلاء لخزنة جهنم في ذلة تعم الجميع ، وفي ضراعة تسوى هؤلاء بهؤلاء (وقال الذين في النار لخزنة جهنم:ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب)إنهم يستشفعون حراس جهنم ، ليدعوا ربهم ، في رجاء يكشف عن شدة البلاء (ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب) يوماً . يوماً فقط . يوماً يلقطون فيه أنفاسهم ويستريحون . فيوم واحد يستحق الشفاعة واللهفة والدعاء . ولكن خزنة جهنم لا يستجيبون لهذه الضراعة البائسة الذليلة الملهوفة . فهم يعرفون الأصول . ويعرفون سنة الله ، ويعرفون أن الأوان قد فات . وهم لهذا يزيدون المعذبين عذاباً بتأنيبهم وتذكيرهم بسبب هذا العذاب: وقالوا:أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ . . قالوا:بلى . وفي السؤال وفي جوابه ما يغني عن كل حوار . وعندئذ نفض الخزنة أيديهم منهم ، وأسلموهم إلى اليأس مع السخرية والاستهتار (قالوا:فادعوا) إن كان الدعاء يغير من حالكم شيئاً ، فتولوا أنتم الدعاء . وتعقب الآية قبل تمامها على هذا الدعاء (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) لا يبلغ . ولا يصل . ولا ينتهي إلى جواب . إنما هو الإهمال والازدراء للكبراء والضعفاء سواء . عند هذا الموقف الحاسم يجيء التعقيب الأخير على الحلقة كلها ، وعلى ما تقدمها من الإشارة إلى الأحزاب التي تعرضت لبأس الله ،

بعد التكذيب والاستكبار (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار . ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب هدى وذكرى لأولى الألباب . فاصبر إن وعد الله حق . واستغفر لذنبك ، وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار) هذا التعقيب الجازم ، يناسب ذلك الموقف الحاسم . ولقد اطلعت منه البشرية على مثل من نهاية الحق والباطل . نهايتهما فى هذه الأرض ونهايتهما كذلك فى الآخرة . ورأت كيف كان مصير فرعون وملئه فى الحياة الدنيا ، كما رأوهم يتحاجون فى النار ، وينتهون إلى إهمال وصغار . وذلك هو الشأن فى كل قضية كما يقرر القرآن (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) فأما فى الآخرة فقد لا يجادل أحد من المؤمنين بالآخرة فى هذه النهاية . ولا يجد ما يدعوه إلى المجادلة . وأما النصر فى الحياة الدنيا فقد يكون فى حاجة إلى جلاء وبيان . إن وعد الله قاطع جازم (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا . .) بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذباً مطروداً , وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب ، وفيهم من يلقى فى الأخدود ، وفيهم من يستشهد , وفيهم من يعيش فى كرب وشدة واضطهاد . . فأين وعد الله لهم بالنصر فى الحياة الدنيا ؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل ، ويفعل بها الأفاعيل ! ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور . ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة فى التقدير (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) وقد رأينا فى المشهد السابق كيف لا تنفع الظالمين معذرتهم . وكيف باءوا باللعنة وبسوء الدار . فأما صورة من صور النصر فى قصة موسى فهو ذاك (ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب هدى وذكرى لأولى الألباب) وكان هذا نموذجاً من من نماذج نصر الله . إيتاء الكتاب والهدى . ووراثة الكتاب والهدى . وهذا النموذج الذى ضربه الله مثلاً فى قصة موسى ، يكشف لنا رقعة فسيحة ، نرى فيها صورة خاصة من صور النصر تشير إلى الإتجاه . وهنا يجيء الإيقاع الأخير فى هذا المقطع ، توجيهاً لرسول الله ﷺ ومن كانوا معه من المؤمنين فى مكة فى موقف الشدة والمعاناة . ولكل من يأتى بعدهم من أمته ، ويواجهون مثل الموقف الذى كانوا فيه (فاصبر . إن وعد الله حق . واستغفر لذنبك ، وسبح بحمد ربك ، بالعشى والإبكار) الإيقاع الأخير . . الدعوة إلى الصبر . . الصبر على التكذيب . والصبر على الأذى . والصبر على نفخة الباطل وانتشائه بالغلبة والسلطان فى فترة من الزمان . والصبر على طباع الناس وأخلاقهم وتصرفاتهم من هنا ومن هناك . والصبر على النفس وميولها وقلقها وتطلعها ورغبتها فى النصر القريب وما يتعلق به من رغائب وآمال . والصبر على أشياء كثيرة فى الطريق قد تجيء من جانب الأصدقاء قبل أن تجيء من جانب الأعداء ! (فاصبر . إن وعد الله حق) مهما يطل الأمد ، ومهما تتعقد الأمور ، ومهما تتقلب الأسباب . إنه وعد من يملك التحقيق ، ومن وعد لأنه أراد (وفي الطريق ، خذ زاد الطريق) (واستغفر لذنبك ، وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار) هذا هو الزاد ، فى طريق الصبر الطويل الشاق . استغفار للذنب ، وتسبيح بحمد الرب . والاستغفار المصحوب بالتسبيح وشيك أن يجاب ، وهو فى ذاته تربية للنفس وإعداد . وتطهير للقلب وزكاة . وهذه هى صورة النصر التى تتم فى القلب ، فتعقبها الصورة الأخرى فى واقع الحياة . واختيار العشى والإبكار . إما كناية عن الوقت كله – فهذان طرفاه – وإما لأنهما آنان يصفو فيهما القلب ، ويتسع المجال للتدبر والسياحة مع ذكر الله . هذا هو المنهج الذى اختاره الله لتوفير عدة الطريق إلى النصر وتهيئة الزاد . ولا بد لكل معركة من عدة ومن زاد .

(إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ{٥٦} لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِن خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{٥٧} وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ{٥٨} إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ{٥٩} وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ{٦٠} اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ{٦١} ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ{٦٢} كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ{٦٣} اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{٦٤} هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{٦٥} قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ{٦٦} هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{٦٧} هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ{٦٨} أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ{٦٩} الَّذِينَ كَذَّبُوا

بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٧٠} إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ{٧١} فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ{٧٢} ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ{٧٣} مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ{٧٤} ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ{٧٥} ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ{٧٦} فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) {٧٧}

هذا الشوط متصل تمام الاتصال بالشوط الذى قبله ، وهو استمرار للفقرة الأخيرة من الدرس الماضى . وتكملة لتوجيه الرسول ﷺ للصبر على التكذيب والإيذاء والصد عن الحق والتبجح بالباطل . فبعد هذا التوجيه يكشف عن علة المجادلة فى آيات الله بغير حجة ولا برهان . إنه الكبر الذى يمنع أصحابه من التسليم بالحق وهم أصغر وأضأل من هذا الكبر الذى يحيك فى الصدور . ومن ثم يجىء التنبيه إلى عظمة هذا الكون الذى خلقه الله ، وصغر الناس جميعاً بالقياس إلى السماوات والأرض . ويمضى الدرس يعرض بعض الآيات الكونية . وفضل الله فى تسخير بعضها للناس وهم أصغر منها وأضأل . ويشير إلى فضل الله على الناس فى ذوات أنفسهم . وهذه وتلك تشهد بوحدانية المبدع الذى يشركون به . ويوجه الرسول ﷺ إلى الجهر بكلمة التوحيد والإعراض عما يعبدون من دون الله . وينتهى الشوط بمشهد عنيف من مشاهد القيامة يسألون فيه عما يشركون سؤال التبكيت والترذيل . ويختم كما ختم الشوط الماضى . بتوجيه النبى ﷺ إلى الصبر سواء أبقاه الله ليشهد بعض ما وعدهم ، أم توفاه إليه قبل مجىء وعد الله . فالأمر لله . وهم إليه راجعون على كل حال ... إن هذا المخلوق الإنسانى لينسى نفسه فى أحيان كثيرة ، ينسى أنه كائن صغير ضعيف ، يستمد القوة لا من ذاته ، ولكن من اتصاله بمصدر القوة الأول . من الله . فيقطع اتصاله هذا ثم يروح ينتفخ ، ويورم ، ويتشامخ ، ويتعالى . يحيك فى صدره الكبر . يستمده من الشيطان الذى هلك بهذا الكبر . ثم سلط على الإنسان فأتاه من قبله ! وإنه ليجادل فى آيات الله ويكابر . وهى ظاهرة ناطقة معبرة للفطرة بلسان الفطرة . وهو يزعم لنفسه وللناس أنه إنما يناقش لأنه لم يقتنع ، ويجادل لأنه غير مستيقن . والله العليم بعباده ، السميع البصير المطلع على السرائر ، يقرر أنه الكبر . والكبر وحده . هو الذى يحيك فى الصدر . وهو الذى يدعو صاحبه إلى الجدال فيما لا جدال فيه . الكبر والتطاول إلى ما هو أكبر من حقيقته . ومحاولة أخذ مكان ليس له ، ولا تؤهله له حقيقته . وليست له حجة يجادل بها ، ولا برهان يصدع به . إنما هو ذلك الكبر وحده (إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ، إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) ولو أدرك الإنسان حقيقته وحقيقة هذا الوجود . ولو عرف دوره فأتقنه ولم يحاول أن يتجاوزه . ولو اطمأن إلى أنه كائن مما لا يحصى عدده من كائنات مسخرة بأمر خالق الوجود ,وفق تقديره الذى لا يعلمه إلا هو ، وأن دوره مقدر بحسب حقيقته فى كيان هذا الوجود . . لو أدرك هذا كله لاطمأن واستراح ، ولتطامن كذلك وتواضع ، وعاش فى سلام مع نفسه ومع الكون حوله . وفى استسلام لله وإسلام (فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير) والاستعاذة بالله فى مواجهة الكبر توحى باستبشاعه واستفظاعه . فالإنسان إنما يستعيذ بالله من الشىء الفظيع القبيح ، الذى يتوقع منه الشر والأذى . . وفى الكبر هذا كله . وهو يتعب صاحبه ويتعب الناس من حوله ؛ وهو يؤذى الصدر الذى يحيك فيه ويؤذى صدور الآخرين . فهو شر يستحق الاستعاذة بالله منه (إنه هو السميع البصير) الذى يسمع ويرى ، والكبر الذميم يتمثل فى حركة ترى وفى كلام يسمع . فهو يكل أمره إلى السميع البصير يتولاه بما يراه . ثم يكشف للإنسان عن وضعه الحقيقى فى هذا الكون الكبير . وعن ضآلته بالقياس إلى بعض خلق الله الذى يراه الناس ، ويدركون ضخامته بمجرد الرؤية ، ويزيدون شعوراً به حين يعلمون حقيقته (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس . ولكن أكثر الناس لا يعلمون) والسماوات والأرض معروضتان للإنسان يراهما ، ويستطيع أن يقيس نفسه إليهما . ولكنه حين "يعلم" حقيقة النسب والأبعاد وحقيقة الأحجام والقوى ، يطامن من كبريائه ، ويتصاغر ويتضاءل حتى ليكاد يذوب من الشعور بالضآلة . إلا أن يذكر العنصر العلوى الذى أودعه الله إياه ، والذى من أجله كرمه . فهو وحده الذى يمسك به أمام عظمة هذا الكون الهائل العظيم (وما يستوى الأعمى والبصير) (والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء) فالبصير يرى ويعلم ؛ ويعرف قدره وقيمته ، ولا يتطاول ، ولا ينتفخ ولا يتكبر لأنه يرى ويبصر . والأعمى لا يرى ولا يعرف مكانه ، ولا نسبته إلى ما حوله ، فيخطىء تقدير نفسه وتقدير ما يحيط به ، ويتخبط هنا وهنالك من سوء التقدير . . وكذلك لا يستوى الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسىء . إن أولئك أبصروا وعرفوا فهم يحسنون التقدير . وهذا عمى وجهل فهو يسىء . . يسىء كل شىء . يسىء إلى نفسه ، ويسىء إلى الناس . ويسىء قبل كل شىء إدراك قيمته وقيمة ما حوله . ويخطىء فى قياس نفسه إلى ما حوله . فهو أعمى . . والعمى عمى القلوب ! (قليلاً ما تتذكرون) ولو تذكرنا لعرفنا . فالأمر واضح قريب . لا يحتاج إلى أكثر من التذكر والتذكير . ثم لو تذكرنا الآخرة ، ووثقنا من مجيئها ، وتصورنا موقفنا فيها ،

واستحضرنا مشهدنا بها: (إن الساعة لآتية لا ريب فيها ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) ومن ثم فهم يجادلون ويستكبرون ، فلا يذعنون للحق ، ولا يعرفون مكانهم الحق ، فلا يتجاوزوه . والتوجه إلى الله بالعبادة ، ودعاؤه والتضرع إليه ، مما يشفى الصدور من الكبر الذى تنتفخ به ، فيدعوها إلى الجدال فى آيات الله بغير حجة ولا برهان . والله – سبحانه - يفتح لنا أبوابه لنتوجه إليه وندعوه ، ويعلن لنا ما كتبه على نفسه من الاستجابة لمن يدعوه ؛ وينذر الذين يستكبرون عن عبادته بما ينتظرهم من ذل وتنكيس فى النار (وقال ربكم:ادعونى أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) وللدعاء أدب لا بد أن يراعى . إنه إخلاص القلب لله . والثقة بالاستجابة مع عدم اقتراح صورة معينة لها ، أو تخصيص وقت أو ظرف ، فهذا الاقتراح ليس من أدب السؤال . والاعتقاد بأن التوجه للدعاء توفيق من الله ، والاستجابة فضل آخر . وقد كان عمر – رضى الله عنه – يقول:" أنا لا أحمل همّ الإجابة إنما أحمل همّ الدعاء . فإذا ألهمت الدعاء كانت الإجابة معه " وهى كلمة القلب العارف ، الذى يدرك أن الله حين يقدر الاستجابة يقدر معها الدعاء . فهما – حين يوفق الله – متوافقان متطابقان . فأما الذين يستكبرون عن التوجه لله فجزاؤهم الحق أن يوجهوا أذلاء صاغرين لجهنم ! وهذه نهاية الكبر الذى تنتفخ به قلوب وصدور فى هذه الأرض الصغيرة ، وفى هذه الحياة الرخيصة ، وتنسى ضخامة خلق الله . فضلاً على نسيانها عظمة الله . ونسيانها للآخرة وهى آتية لا ريب فيها . ونسيانها للموقف الذليل فى الآخرة بعد النفخة والاستكبار . ولما ذكر الذين يستكبرون عن عبادة الله ، شرع يعرض بعض نعم الله على الناس ، تلك النعم التى توحى بعظمته تعالى والتى لا يشكرون الله عليها ، بل يستكبرون عن عبادته والتوجه إليه (الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً . إن الله لذو فضل على الناس) والليل والنهار ظاهرتان كونيتان . والأرض والسماء خلقان كونيان كذلك . وهى تذكر مع تصوير الله للبشر وإحسان صورهم ، ومع رزق الله لهم من الطيبات . . وتعرض كلها فى معرض نعم الله وفضله على الناس وفى معرض الوحدانية وإخلاص الدين لله . فيدل هذا على ارتباط هذه الظواهر والخلائق والمعانى ، وعلى وجود الصلة بينها ، ووجوب تدبرها فى محيطها الواسع ، وملاحظة الارتباط بينها والاتفاق (والنهار مبصراً) والتعبير على هذا النحو تعبير مصور مشخص . وكأنما النهار حى يبصر ويرى . وإنما الناس هم الذين يبصرون فيه . لأن هذه هى الصفة الغالبة . وتقلب الليل والنهار على هذا النحو نعمة فى طيها نعم . ولو كان أحدهما سرمداً . بل لو كان أطول مما هو مرات معدودة لانعدمت الحياة . فلا عجب أن يقرن توالى الليل والنهار بذكر الفضل الذى لا يشكره أكثر الناس (إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون) ويعقب على هاتين الظاهرتين الكونيتين ، بأن الذى خلقهما هو الذى يكون إلهاً يستحق هذا الاسم العظيم (ذلكم الله ربكم خالق كل شىء ، لا إله إلا هو ، فأنى تؤفكون ؟) وإنه لعجيب يستحق التعجيب أن يرى الناس يد الله فى كل شىء ، ويعلموا أنه الخالق لكل شىء معرفة حتمية مفروضة على العقل فرضاً بحكم وجود الأشياء ، واستحالة ادعاء أحد أنها من خلقه ، وعدم استقامة القول بأنها وجدت من غير موجد . عجيب يستحق التعجيب أن يكون هذا كله ، ثم يصرف الناس عن الإيمان والإقرار (فأنى تؤفكون ؟) ولكنه هكذا يصرف ناس عن هذا الحق الواضح . هكذا كما يقع من المخاطبين الأولين بالقرآن . كذلك كان فى كل زمان ؛ بلا سبب ولا حجة ولا برهان (كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون) وينتقل من ظاهرتى الليل والنهار ، إلى تصميم الأرض لتكون قراراً ، والسماء لتكون بناء (الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء) والأرض قرار صالح لحياة الإنسان بتلك الموافقات الكثيرة التى أشرنا إلى بعضها إجمالاً . والسماء بناء ثابت النسب والأبعاد والحركات والدورات ومن ثم تضمن الاستقرار والثبات لحياة هذا الإنسان ، المحسوب حسابها فى تصميم هذا الوجود ، المقدرة فى بنائه تقديراً . ويربط بتكوين السماء والأرض تكوين الإنسان ورزقه من الطيبات على النحو الذى أشرنا إلى بعض أسراره (وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات) ويعقب على هذه الآيات والهبات كما عقب على الأولى (ذلكم الله ربكم . فتبارك الله رب العالمين) ذلكم الذى يخلق ويقدر ويدبر ، ويراعيكم ويقدر لكم مكاناً فى ملكه . . ذلكم الله ربكم) . فتبارك الله). وعظمت بركته وتضاعفت (رب العالمين) أجمعين (هو الحي) أجل . هو وحده الحى . الحى حياة ذاتية غير مكسوبة ولا مخلوقة . وغير مبتدئة ولا منتهية . وغير حائلة ولا زائلة . وغير متقلبة ولا متغيرة . وما من شىء له هذه الصفة من الحياة . سبحانه هو المتفرد بالحياة . وهو المتفرد بالألوهية . بما أنه المتفرد بالحياة . فالحى الواحد هو الله (لا إله إلا هو) ومن ثم (فادعوه مخلصين له الدين) واحمدوه فى الدعاء (الحمد لله رب العالمين) وأمام هذه الآيات والهبات ، وما تلاها من تعقيبات ، وفى أشد اللحظات امتلاء بحقيقة الوحدانية ، وحقيقة الألوهية . وحقيقة الربوبية . يجىء التلقين لرسول الله ﷺ ليعلن للقوم أنه منهى عن عبادة ما يدعون من دون الله ، مأمور بالإسلام لله رب العالمين :(قل:إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، لما جاءنى البينات من ربى ، وأمرت أن أسلم لرب العالمين) أعلن لهؤلاء الذين يصرفون عن آيات الله ويجحدون هباته ، أنك نهيت عن عبادة ما يدعون من دون الله . وقل لهم:إننى نهيت وانتهيت (لما جاءنى البينات من

ربى) فعندى بينة , وأنا بها مؤمن ، ومن حق هذه البينة أن أقتنع بها وأصدق ، ثم أعلن كلمة الحق . ومع الانتهاء عن عبادة غير الله – وهو سلب – الإسلام لرب العالمين – وهو إيجاب – ومن الشقين تتكامل العقيدة . ثم يستعرض آية من آيات الله فى أنفسهم بعدما استعرض آياته فى الآفاق . هى آية الحياة الإنسانية وأطوارها العجيبة ؛ وليتخذ من هذه الحياة مقدمة لتقرير حقيقة الحياة كلها بين يدى الله (هو الذى خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخاً ، ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلاً مسمى , ولعلكم تعقلون . هو الذى يحيى ويميت ، فإذا قضى أمراً فإنما يقول له:كن . فيكون) وهذه النشأة الإنسانية فيها ما لم يدركه علم الإنسان ، لأنه كان قبل وجود الإنسان . وفيها ما يشاهده ويراقبه . ولكن هذا إنما تم حديثاً بعد نزول هذا القرآن بقرون ! وهو يعقب عليها بعرض حقيقة الإحياء والإماتة . وحقيقة الخلق والإنشاء جميعاً (هو الذى يحيى ويميت . فإذا قضى أمراً فإنما يقول له:كن . فيكون) وتكثر الإشارة فى القرآن إلى آيتى الحياة والموت . لأنهما تلمسان قلب الإنسان بشدة وعمق . ثم لأنهما الظاهرتان البارزتان المكررتان فى كل ما يقع عليه حس الإنسان . وللإحياء والإماتة مدلول أكبر مما يبدو لأول مرة . فالحياة ألوان . والموت ، ومن الحياة والموت إلى حقيقة الإنشاء وأداة الإبداع . وإن هى إلا الإرادة يتمثل اتجاهها إلى الخلق . خلق أى شىء . فى كلمة (كن) فإذا الوجود ينبثق على إثرها (فيكون) فتبارك الله أحسن الخالقين . وأمام نشأة الحياة البشرية . وفى ظل مشهد الحياة والموت . وحقيقة الإنشاء والإبداع . . يبدو الجدال فى آيات الله مستغرباً مستنكراً ؛ ويبدو التكذيب بالرسل عجباً نكيراً . ومن ثم يواجهه بالتهديد المخيف فى صورة مشهد من مشاهد القيامة العنيفة إنه التعجيب من أمر الذين يجادلون فى آيات الله ، فى ظل استعراض هذه الآيات . مقدمة لبيان ما ينتظرهم هناك ! (ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ؟) الذين كذبوا بالكتاب وبما ارسلنا به رسلنا . . وهم كذبوا كتاباً واحداً . ورسولاً واحداً . ولكنهم إنما يكذبون بهذا كل ما جاء به الرسل . فهى عقيدة واحدة ، تتمثل فى أكمل صورها فى الرسالة الأخيرة . ومن ثم فهم كذبوا بكل رسالة وبكل رسول . . كل مكذب فى القديم والحديث صنع هذا حين كذب رسوله الذى جاءه بالحق الواحد وبعقيدة التوحيد (فسوف يعلمون) ثم يعرض ماذا سوف يعلمون . إنها الإهانة والتحقير فى العذاب . لا مجرد العذاب (إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون) بهذه المهانة كما تسحب الأنعام والوحوش ! وعلام التكريم ؟ وقد خلعوا عن أنفسهم شارة التكريم ؟! وبعد السحب والجر فى هذا العذاب وفى هذه المهانة ، ينتهى بهم المطاف إلى ماء حار وإلى نار (فى الحميم ثم فى النار يسجرون) أى يربطون ويحبسون ، على طريقة سجر الكلاب . أى يملأ لهم المكان ماء حاراً وناراً موقدة . وإلى هذا ينتهون . وبينما هم فى هذا العذاب المهين يوجه إليهم التبكيت والترذيل والإحراج والإعنات (ثم قيل لهم:أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟) فيجيبون إجابة المخدوع الذى انكشفت له خدعته ، وهو يائس حسير (قالوا:ضلوا عنا . بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً) غابوا عنا فلم نعد نعرف لهم طريقاً ، وما عادوا يعرفون لنا طريقاً . بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً . فقد كانت كلها أوهاماً وأضاليل ! وعلى إثر الجواب البائس يجىء التعقيب العام (كذلك يضل الله الكافرين) ثم يوجه إليهم التأنيب الأخير (ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون . ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) يا مغيث ! وأين اذن كان السحب فى السلاسل والأغلال ، وكان الماء الحار والنار ؟ يبدو أنها كانت مقدمة للدخول فى جهنم للخلود (فبئس مثوى المتكبرين) فعن الكبر نشأت هذه المهانة . وجزاء على الكبر كان هذا التحقير ! وأمام هذا المشهد . مشهد الذل والمهانة والعذاب الرعيب . وعاقبة الجدال فى آيات الله , والكبر النافخ فى الصدور . . أمام هذا المشهد وهذه العاقبة يتجه السياق إلى رسول الله ﷺ يوصيه بالصبر على ما يجده من كبر ومن جدال ، والثقة بوعد الله الحق على كل حال . سواء أراه الله بعض الذى يعدهم فى حياته ، أو قبضه إليه وتولى الأمر عنه . فالقضية كلها راجعة إلى الله ، وليس على الرسول إلا البلاغ ، وهم إليه راجعون (فاصبر إن وعد الله حق . فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون) إن هذا الرسول الذى يلاقى ما يلاقى من الأذى والتكذيب والكبر والكنود ، يقال له ما مفهومه:أد واجبك وقف عنده . فأما النتائج فليست من أمرك . حتى شفاء صدره بأن يشهد تحقق بعض وعيد الله للمتكبرين المكذبين ليس له أن يعلق به قلبه ! إنه يعمل وكفى . يؤدى واجبه ويمضى . فالأمر ليس أمره . والقضية ليست قضيته . إن الأمر كله لله . والله يفعل به ما يريد .

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ{٧٨} اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ{٧٩} وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ{٨٠} وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ{٨١} أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ{٨٢}

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{٨٣} فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ{٨٤} فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ){٨٥}

هذا الشوط استكمال للتعقيب فى آخر الدرس الماضى . استكمال لتوجيه الرسول ﷺ والمؤمنين إلى الصبر ، حتى يأذن الله ، ويتحقق وعده ووعيده ، سواء تحقق هذا فى حياته ﷺ أم استأخر بعد وفاته . فالأمر ليس أمره ، إنما هو أمر هذه العقيدة والمؤمنين بها والمجادلين فيها ، المستكبرين عنها . والحكم فى هذا الأمر هو الله . وهو الذى يقود حركتها ويوجه خطواتها كما يشاء . فأما هذا الشوط الجديد – الذى تختم به السورة – فيستطرد فى عرض جوانب أخرى من هذه الحقيقة . إن قصة هذا الأمر قصة طويلة وقديمة ، ولم تبدأ برسالة الإسلام ورسوله – عليه الصلاة والسلام – فقبله كانت رسل . قص الله بعضهم عليه وبعضهم لم يقصصهم عليه . وكلهم ووجهوا بالتكذيب والاستكبار . وكلهم طولب بالآيات والخوارق . وكلهم تمنى لو يأتى الله بخارقة يذعن لها المكذبون . ولكن ما من آية إلا بإذن الله ، فى الوقت الذى يريده الله . فهى دعوته ، وهو يصرفها كيف يشاء . على أن آيات الله مبثوثة فى الكون ، معروضة للأنظار فى كل زمان ومكان . يتحدث منها هنا عن الأنعام ، والفلك ، ويشير اشارة عامة إلى سائرها الذى لا يملك إنكاره أحد . ويختم السورة بلمسة قوية عن مصارع الغابرين ، الذين وقفوا موقف المكذبين ، وغرهم ما كانوا فيه من القوة والعمارة والعلم . ثم أدركتهم سنة الله (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده ، وخسر هنالك الكافرون) وبهذا الإيقاع تختم السورة التى دارت كلها على المعركة بين الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والصلاح والطغيان حتى ختمت هذا الختام الأخير (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك ؛ وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ، فإذا جاء أمر الله قضى بالحق ، وخسر هنالك المبطلون) إن لهذا الأمر سوابق كثيرة ، قص الله على رسوله بعضها فى هذا الكتاب ، وبعضها لم يقصصه . وفيما قصه من أمر الرسل ما يشير إلى الطريق الطويل الواصل الواضح المعالم ؛ وما يقرر السنة الماضية الجارية التى لا تتخلف ؛ وما يوضح حقيقة الرسالة ووظيفة الرسل وحدودها أدق إيضاح . وتؤكد الآية حقيقة تحتاج إلى توكيدها فى النفس ، وتتكىء عليها لتقررها تقريراً شديدا (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) فالنفس البشرية – ولو كانت نفس رسول – تتمنى وترغب أن تستعلى الدعوة وأن يذعن لها المكابرون سريعاً . فتتطلع إلى ظهور الآية الخارقة التى تقهر كل مكابرة . ولكن الله يريد أن يلوذ عباده المختارون بالصبر المطلق ؛ ويروضوا أنفسهم عليه ؛ فيبين لهم أن ليس لهم من الأمر شىء ، وأن وظيفتهم تنتهى عند حد البلاغ ، وأن مجىء الآية هو الذى يتولاه حينما يريد . لتطمئن قلوبهم وتهدأ وتستقر ؛ ويرضوا بكل ما يتم على أيديهم ويدعوا الأمر كله بعد ذلك لله . ويريد كذلك أن يدرك الناس طبيعة الألوهية وطبيعة النبوة ، ويعرفوا أن الرسل بشر منهم ، إختارهم الله ، وحدد لهم وظيفتهم ، وما هم بقادرين ولا محاولين أن يتجاوزوا حدود هذه الوظيفة (فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون) ولم يعد هناك مجال لعمل ولا لتوبة ولا لرجعة بعد قضاء الله الأخير ثم يوجه طلاب الخوارق إلى آيات الله الحاضرة التى ينسون وجودها بطول الألفة . وهى لو تدبروها بعض هذه الخوارق التى يطلبون وهى شاهدة كذلك بالألوهية لبطلان أى ادعاء بأن أحداً غير الله خلقها ، وأى ادعاء كذلك بأنها خلقت بلا خالق مدبر مريد (الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ، ومنها تأكلون؟) وخلق هذه الأنعام ابتداء آية خارقة كخلق الإنسان فبث الحياة فيها وتركيبها وتصويرها كلها خوارق ، لا يتطاول الإنسان إلى ادعائها ! وتذليل هذه الأنعام وتسخيرها للإنسان ، وفيها ما هو أضخم منه جسماً وأشد منه قوة ، ويذكرهم بما فى هذه الآيات الخوارق من نعم كبار (ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم) والحاجات التى كانت فى الصدور والتى كانوا يبلغونها على الأنعام هى حاجات ضخمة فى ذلك الزمان . قبل نشوء كل وسائل النقل والسفر والاتصال إلا على هذه الأنعام . وما تزال هناك حاجات تبلغ على هذه الأنعام حتى اليوم وغد . وهناك حتى اللحظة أسفار فى بعض الجبال لا تبلغها إلا الأنعام مع وجود القطار والسيارة والطيارة ، لأنها مجازات ضيقة لا تتسع لغير أقدام الأنعام ! (وعليها وعلى الفلك تحملون) وهذه كتلك آية من آيات الله . ونعمة من نعمه على الإنسان . وسير الفلك على الماء قائم على نواميس وموافقات فى تصميم هذا الكون:سمائه وأرضه . يابسه ومائه . وفى طبيعة أشيائه وعناصره . لا بد أن توجد حتى يمكن أن يسير الفلك على الماء . سواء سار بالشراع أم بالبخار أم بالذرة ، أم بغيرها من القوى التى أودعها الله هذا الكون ، ويسر استخدامها للإنسان . . ومن ثم تذكر فى معرض آيات الله ، وفى معرض نعمه على السواء . وكم هنالك من آيات من هذا النوع الحاضر المتناثر فى الكون ، لا يملك إنسان أن ينكره وهو جاد (ويريكم آياته . فأى آيات الله تنكرون ؟) نعم إن هنالك من ينكر . وهنالك من يجادل فى آيات الله . وهنالك من يجادل بالباطل ليدحض به الحق . ولكن أحداً من هؤلاء لا يجادل إلا عن التواء ، أو غرض ، أو

كبر ، أو مغالطة ، لغاية أخرى غير الحقيقة . هنالك من يجادل لأنه طاغية كفرعون وأمثاله ، يخشى على ملكه ، ويخشى على عرشه ، لأن هذا العرش يقوم على أساطير يذهب بها الحق ، الذى يثبت بثبوت حقيقة الألوهية الواحدة ! وهنالك من يجادل لأنه صاحب مذهب فى الحكم كالشيوعية يتحطم إذا ثبتت حقيقة العقيدة السماوية فى نفوس البشر . لأنه يريد أن يلصق الناس بالأرض ؛ وأن يعلق قلوبهم بمعداتهم وشهوات أجسادهم ؛ وأن يفرغها من عبادة الله لتعبد المذهب أو تعبد الزعيم ! وهنالك من يجادل لأنه ابتلى بسيطرة رجال الدين – كما وقع فى تاريخ الكنيسة فى العصور الوسطى – ومن ثم فهو يريد الخلاص من هذه السيطرة . فيشتط فيرد على الكنيسة إلهها ,الذى تستعبد باسمه الناس !وهنالك أسباب وأسباب . . غير أن منطق الفطرة ينفر من هذا الجدال ، ويقر بالحقيقة الثابتة فى ضمير الوجود ؛ والتى تنطق بها آيات الله بعد كل جدال ! وفى الختام يجىء ذلك الإيقاع القوى الأخير ... ومصارع الغابرين كثيرة فى تاريخ البشرية ؛ وبعضها ما تزال له آثار تحكى قصته ؛ وبعضها حفظته الروايات على الألسنة ، أو حفظته الأوراق والكتب . والقرآن كثيراً ما يوجه القلوب إليها ، لما فيها من دلالة على حقائق ثابتة فى خط سير البشرية ؛ ولما لها كذلك من أثر فى النفس الإنسانية عميق عنيف . والقرآن يخاطب الفطرة بما يعلمه منزل هذا القرآن من حقيقة الفطرة ، ومساربها ومداخلها ، وأبوابها التى تطرق فتفتح ، بعضها بعد نقرة خفيفة وبعضها بعد طرقات كثيرة إن كان قد ران عليها الركام ! وهنا يسألهم وينشطهم للسير فى الأرض ، بعين مفتوحة ، وحس متوفز ، وقلب بصير لينظروا ويتدبروا ما كان فى الأرض قبلهم ؛ وما يتعرضون هم لجريانه عليهم (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟) وقبل أن يذكر كيف كان هذه العاقبة ، يصف حال الذين من قبلهم ، ويقرن إليها حالهم هم لتتم الموازنة ، وتتم العبرة (كانوا أكثر منهم ، وأشد قوة وآثاراً فى الأرض) توافرت لهم الكثرة والقوة والعمران . ومن هؤلاء أجيال وأمم كانت قبل العرب ، قص الله على رسوله بعضها ، ولم يقصص عليه بعضها . ومنهم من كان العرب يعرفون قصته ويمرون بآثاره (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) ولم تعصمهم قوة ولا كثرة ولا عمارة ، مما كانوا يعتزون به ويغترون . بل كان هذا هو أصل شقائهم ، وسبب هلاكهم (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم) والعلم – بغير إيمان – فتنة . فتنة تعمى وتطغى . ذلك أن هذا اللون من العلم الظاهرى يوحى بالغرور ، إذ يحسب صاحبه أنه يتحكم بعلمه هذا فى قوى ضخمة ، ويملك مقدرات عظيمة ، فيتجاوز بنفسه قدرها ومكانها ! وينسى الآماد الهائلة التى يجهلها . وهى موجودة فى هذا الكون ؛ ولا سلطان له عليها . بل لا إحاطة له بها . بل لا معرفة له بغير أطرافها القريبة . وبذلك ينتفخ فيأخذ أكثر من حقيقته . ويستخفه علمه وينسى جهله . ولو قاس ما يعلم إلى ما يجهل وما يقدر عليه فى هذا الكون إلى ما يعجز حتى عن إدراك سره لطامن من كبريائه ، وخفف من فرحه الذى يستخفه . وهؤلاء فرحوا بما عندهم من العلم . واستهزأوا بمن يذكرهم بما وراءه (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) فلما عاينوا بأس الله ، سقط عنهم القناع ، وأدركوا مدى الغرور ، واعترفوا بما كانوا ينكرون ، وأقروا بوحدانية الله ، وكفروا بشركائهم من دونه . ولكن الأوان كان قد فات (فلما رأوا بأسنا قالوا:آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) ذلك أن سنة الله قد جرت على أن لا تقبل التوبة بعد ظهور بأس الله:فهى توبة الفزع لا توبة الإيمان (سنة الله التى قد خلت فى عباده) وسنة الله ثابتة لا تضطرب ولا تختلف ولا تحيد عن الطريق ...

سورة فصلت

مكية و آياتها ٥٤

قضية العقيدة بحقائقها الأساسية هى التى تعالجها هذه السورة . . الألوهية الواحدة . والحياة الآخرة . والوحى بالرسالة . يضاف إليها طريقة الدعوة إلى الله وخلق الداعية . وكل ما فى السورة هو شرح لهذه الحقائق ، واستدلال عليها . وعرض لآيات الله فى الأنفس والآفاق ، وتحذير من التكذيب بها ، وتذكير بمصارع المكذبين فى الأجيال السابقة , وعرض لمشاهد المكذبين يوم القيامة . وبيان أن المكذبين من الجن والإنس هم وحدهم الذين لا يسلمون بهذه الحقائق ولا يستسلمون لله وحده ؛ بينما السماء والأرض والشمس والقمر والملائكة . . . كلهم يسجدون لله ويخشعون ويسلمون ويستسلمون . فعن حقيقة الألوهية الواحدة يرد فى مطلع السورة: قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد ، فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين . . و:(قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ؟ ذلك رب العالمين). . ويحكى عن عاد وثمود أن رسلهم قالت لهم هذه الحقيقة ذاتها: ألا تعبدوا إلا الله . . وفى وسطها يرد: (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن). . وفى نهايتها يرد عن الحقيقة ذاتها: (ويوم يناديهم أين شركائى ؟ قالوا:آذناك ما منا من شهيد . .(وعن قضية الآخرة يرد تهديد للذين لا يؤمنون بالآخرة: (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون). . وتختم بقوله:(ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط). . كما يرد ذكر هذه القضية فى مشاهد القيامة وهى عرض لما يقع فيها يقوم على تأكيد وقوعها طبعا . بل إن هذا الطريق أشد توكيدا لهذه القضية وتشخيصا . وعن قضية الوحى يرد كلام كثير يكاد يجعل هذا الموضوع هو موضوع السورة الرئيسى . فهى تفتتح به فى تفصيل: (حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا:قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون . قل:إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى . . .). . . وفى وسطها يجىء عن استقبال المشركين لهذا القرآن:(وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون . .(ثم يرد تفصيل كثير لهذا الاستقبال والرد على أقوالهم فيه:(إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ، وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه , تنزيل من حكيم حميد , ما يقال لك:إلا ما قد قيل للرسل من قبلك . إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم . ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا:لولا فصلت آياته ؟ أأعجمى وعربى ؟ قل:هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى . أولئك ينادون من مكان بعيد , . . وأما عن طريقة الدعوة وخلق الداعية فيرد قوله:(ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا ، وقال:إننى من المسلمين . ولا تستوى الحسنة ولا السيئة . ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا , وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم . وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم). .

ومن بين المشاهد الكونية فى هذه السورة مشهد الخلق الأول للأرض والسماء بكثير من التفصيل المثير: قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ؟ ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها . قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها . وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا . ذلك تقدير العزيز العليم . . ومن بينها كذلك آيات الليل والنهار والشمس والقمر وعبادة الملائكة وخشوع الأرض بالعبادة ونبضها بالحياة: (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون . ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ؛ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . إن الذى أحياها لمحيى الموتى ، إنه على كل شىء قدير . .(أما النفس البشرية فيكشف عن حقيقتها فى هذه السورة ، وتعرض على أصحابها عارية من كل ستار:(لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط ، ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن:هذا لى ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى ، فلننبئن الذين كفروا

بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ . وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) . .

ومن مصارع الغابرين يصور مصرع عاد ومصرع ثمود: فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ,وقالوا:من أشد منا قوة ؟ أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون . .

ومن مشاهد القيامة المؤثرة فى هذه السورة: يوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم:لم شهدتم علينا ؟ قالوا:أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء . وهو خلقكم أول مرة ، وإليه ترجعون . ومنها كذلك مشهد الحنق الواضح من المخدوعين على الخادعين):وقال الذين كفروا:ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس ، نجعلهما تحت أقدامنا ,ليكونا من الأسفلين !) . .

وهكذا تعرض حقائق العقيدة – فى السورة – فى هذا الحشد من المؤثرات العميقة . ولعل هذا الحشد المنوع من تلك المؤثرات يصف جو السورة ، ويصور طابعها ، ويرسم ظلالها . . والواقع أن القلب يجد أنه منذ مطلع السورة إلى ختامها أمام مؤثرات وإيقاعات تجول به فى ملكوت السماوات والأرض ، وفى أغوار النفس ، وفى مصارع البشر ، وفى عالم القيامة ، وتوقع على أوتاره إيقاعات شتى كلها مؤثر عميق . .

ويجرى سياق السورة بموضوعاتها ومؤثراتها فى شوطين اثنين ، متماسكى الحلقات . .

الشوط الأول يبدأ بالآيات التى تتحدث عن تنزيل الكتاب وطبيعته وموقف المشركين منه . وتليها قصة خلق السماء والأرض . فقصة عاد وثمود . فمشهدهم فى الآخرة تشهد عليهم الأسماع والأبصار والجلود . ومن هنا يرتد إلى الحديث عنهم فى الدنيا وكيف ضلوا هذا الضلال ، فيذكر أن الله قيض لهم قرناء سوء من الجن والإنس . يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم . ومن آثار هذا قولهم:لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون . ثم موقفهم يوم القيامة حانقين على هؤلاء الذين خدعوهم من قرناء الجن والإنس ! وعلى الضفة الأخرى الذين قالوا:ربنا الله ثم استقاموا . وهؤلاء تتنزل عليهم الملائكة – لا قرناء السوء – يطمئنونهم ويبشرونهم ويعلنون ولايتهم لهم فى الدنيا والآخرة . ويلى هذا ما جاء عن الدعوة والداعية . . وبذلك ينتهى هذا الشوط .

ويليه الشوط الثانى يتحدث عن آيات الله من الليل والنهار والشمس والقمر والملائكة العابدة ، والأرض الخاشعة ، والحياة التى تهتز فيها وتربو بعد الموات . ويلى هذا الحديث عن الذين يلحدون فى آيات الله وفى كتابه ، وهنا يجىء ذلك الحديث عن هذا الكتاب . ويشار إلى كتاب موسى واختلاف قومه فيه . ويوكل أمرهم إلى الله بعد الأجل المضروب . وهنا يرد حديث عن الساعة واختصاص علم الله بها . وعلمه بما تكنه الأكمام من ثمرات ، وما تكنه الأرحام من أنسال . ويعرض مشهد الكافرين وهم يسألون عن الشركاء . يلى هذا الحديث عن النفس البشرية عارية من أستارها . ومع حرص الإنسان على نفسه هكذا فإنه لا يحتاط لها فيكذب ويكفر ، غير محتاط لما يعقب هذا التكذيب من دمار وعذاب .

وتختم السورة بوعد من الله أن يكشف للناس عن آياته فى الأنفس والآفاق حتى يتبينوا ويثقوا: سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد . ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم . ألا إنه بكل شىء محيط . .

حم{١} تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ{٢} كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{٣} بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ{٤} وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ{٥} قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{٦} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{٧} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ {٨} قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ
أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ {٩} وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ
سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ {١٠} ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا
طَائِعِينَ {١١} فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ
وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ {١٢} فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ {١٣} إِذْ
جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ
بِهِ كَافِرُونَ {١٤} فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي
خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ {١٥} فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ
لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ {١٦} وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ
فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ {١٧} وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا
وَكَانُوا يَتَّقُونَ {١٨} وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ {١٩} حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ
سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {٢٠} وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي
أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ {٢١} وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا
أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ {٢٢} وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ
أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ {٢٣} فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ {٢٤}
وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ
الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ {٢٥} وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ
تَغْلِبُونَ {٢٦} فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ {٢٧} ذَلِكَ جَزَاءُ
أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ {٢٨} وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ
أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ {٢٩} إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ
اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ {٣٠} نَحْنُ
أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ {٣١} نُزُلاً مِّنْ
غَفُورٍ رَّحِيمٍ {٣٢} وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ {٣٣} وَلَا
تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ {٣٤} وَمَا
يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ {٣٥} وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {٣٦} وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ
الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ {٣٧} فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا
يَسْأَمُونَ {٣٨} وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا
لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {٣٩} إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي
النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {٤٠} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ
لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ {٤١} لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّن حَكِيمٍ حَمِيدٍ {٤٢}
مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ {٤٣} وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً
أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي
آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ {٤٤} وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ {٤٥} مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ
أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ {٤٦} إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ
مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ {٤٧} وَضَلَّ عَنْهُم مَّا
كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ {٤٨} لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ
فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ {٤٩} وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن
رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ {٥٠} وَإِذَا
أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ {٥١} قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ
اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ {٥٢} سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ
لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ {٥٣} أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ مُّحِيطٌ {٥٤}

وتختم السورة بهذا الإيقاع الأخير . .

والآن نبدأ فى التفصيل . . .

الدرس الأول:١ انزال القرآن وإنكار موقف الكفار منه ودعوتهم إلى الإيمان

(حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا:قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه , وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب . فاعمل إننا عاملون . قل إنما أنا بشر مثلكم ، يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد ، فاستقيموا إليه واستغفروه ؛ وويل للمشركين , الذين لا يؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم كافرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) . .

سبق الحديث عن الافتتاح بالأحرف المقطعة فى سور شتى . (تنزيل من الرحمن الرحيم) . وكأن (حا . ميم)إسم للسورة . أو لجنس القرآن . إذ أنها من جنس الأحرف التى صيغ منها لفظ هذا القرآن . وهى تقع مبتدأ . . و(تنزيل من الرحمن الرحيم)خبر المبتدأ . وذكر الرحمن الرحيم عند ذكر تنزيل الكتاب ؛ يشير إلى الصفة الغالبة فى هذا التنزيل . صفة الرحمة .

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥)

وما من شك أن تنزيل هذا الكتاب جاء رحمة للعالمين . رحمة لمن آمنوا به واتبعوه ورحمة كذلك لغيرهم . لا من الناس وحدهم ، ولكن للأحياء جميعاً . فقد سن منهجاً ورسم خطة تقوم على الخير للجميع . وأثر فى حياة البشرية , وتصوراتها ، ومدركاتها , وخط سيرها ؛ ولم يقتصر فى هذا على المؤمنين به إنما كان تأثيره عالمياً ومطرداً منذ أن جاء إلى العالمين . والذين يتتبعون التاريخ البشرى بإنصاف ودقة ؛ ويتتبعونه فى معناه الإنسانى العام ، الشامل لجميع أوجه النشاط الإنسانى ، يدركون هذه الحقيقة ، ويطمئنون إليها . وكثيرون منهم قد سجلوا هذا واعترفوا به فى وضوح .

(كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) . . والتفصيل المحكم ، وفق الأغراض والأهداف ، ووفق أنواع الطبائع والعقول ، ووفق البيئات والعصور ، ووفق الحالات النفسية وحاجاتها المتنوعة . . التفصيل المحكم وفق هذه الإعتبارات سمة واضحة فى هذا الكتاب . وقد فصلت هذه الآيات وفق تلك الاعتبارات . فصلت قرآناً عربياً (لقوم يعلمون) . . لديهم الاستعداد للعلم والمعرفة والتمييز .

وقام هذا القرآن يؤدى وظيفته:

(بشيراً ونذيراً) . . يبشر المؤمنين العاملين ، وينذر المكذبين المسيئين ، ويبين أسباب البشرى وأسباب الإنذار , بأسلوبه العربى المبين . لقوم لغتهم العربية . ولكن أكثرهم مع هذا لم يقبل ويستجب: فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) وقد كانوا يعرضون فلا يسمعون فعلاً ، ويتحامون أن يعرضوا قلوبهم لتأثير هذا القرآن القاهر . وكانوا يحضون الجماهير على عدم السماع كما سيجىء قولهم: (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) . . وأحياناً كانوا يسمعون ، وكأنهم لا يسمعون ، لأنهم يقاومون أثر هذا القرآن فى نفوسهم ;فكأنهم صم لا يسمعون !

(وقالوا:قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب , فاعمل إننا عاملون) . . قالوا هذا إمعاناً فى العناد ، وتيئيساً للرسول [ص] ليكف عن دعوتهم ، لما كانوا يجدونه فى قلوبهم من وقع كلماته ، على حين يريدون عامدين ألا يكونوا مؤمنين ! قالوا:قلوبنا فى أغطية فلا تصل إليها كلماتك . وفى آذاننا صمم فلا تسمع دعوتك . ومن بيننا وبينك حجاب ، فلا اتصال بيننا وبينك . فدعنا واعمل لنفسك فإننا عاملون لأنفسنا . أو إنهم قالوا غير مبالين:نحن لا نبالى قولك وفعلك ، وإنذارك ووعيدك .

فإذا شئت فامض فى طريقك فإنا ماضون فى طريقنا . لا نسمع لك وافعل ما أنت فاعل . وهات وعيدك الذى تهددنا به فإننا غير مبالين . هذا نموذج مما كان يلقاه صاحب الدعوة الأول [ص] ثم يمضى فى طريقه يدعو ويدعو ، لا يكف عن الدعوة ، ولا ييأس من التيئيس ، ولا يستبطيء وعد الله ولا وعيده للمكذبين . كان يمضى مأموراً أن يعلن لهم أن تحقق وعيد الله ليس بيده ؛ فما هو إلا بشر يتلقى الوحى ، فيبلغ به ، ويدعو الناس إلى الله الواحد . وإلى الاستقامة على الطريق ، وينذر المشركين كما أمر أن يفعل . والأمر بعد ذلك لله لا يملك منه شيئاً ، فهو ليس إلا بشراً مأموراً: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) (:إنما أنا بشر مثلكم ، يَوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ؛ فاستقيموا إليه واستغفروه ، وويل للمشركينَ). . يا لعظمة الصبر والاحتمال والإيمان والتسليم ! إنه لا يدرك ما فى الصبر على هذه الحال ، والتبرؤ من كل حول وقوة فى مثل هذا الموقف ، واحتمال الإعراض والتكذيب فى تبجح واستهتار ، دون استعجال الآية التى تردع المعرضين المكذبين المستهترين . . إنه لا يدرك ما فى الصبر على هذا الحال من مشقة ، ومن عظمة فى احتمال هذه المشقة ، إلا من يكابد طرفاً من هذا الموقف فى واقع الحياة . ثم يمضى فى الطريق ! إن أقصى ما كان الرسول [ص] يؤمر به فى مقابلة التبجح والاستهتار أن يقول: (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون). . وتخصيص الزكاة فى هذا الموضع لا بد كانت له مناسبة حاضرة ، لم نقف عليها ، فهذه الآية مكية . والزكاة لم تفرض إلا فى السنة الثانية من الهجرة فى المدينة . وإن كان أصل الزكاة كان معروفاً فى مكة . والذى جد فى المدينة هو بيان أنصبتها فى المال ، وتحصيلها كفريضة معينة . أما فى مكة فقد كانت أمراً عاماً يتطوع به المتطوعون ، غير محدود ، وأداؤه موكول إلى الضمير . . أما الكفر بالآخرة فهو عين الكفر الذى يستحق الويل والثبور . وقد ذكر بعضهم أن المقصود بالزكاة هنا الإيمان والطهارة من الشرك . وهو محتمل كذلك فى مثل هذه الظروف .

الدرس الثانى:٩ – ١٢ خلق السماوات والأرض فى ستة أيام

ثم يمضى الداعية يكشف لهم عن شناعة الجرم الذى يرتكبونه بالشرك والكفر . يمضى بهم فى المجال الكونى العريض . مجال السماوات والأرض ، والكون الذى هم بالقياس إليه شيء ضئيل هزيل . يمضى بهم فى هذا المجال ليكشف لهم عن سلطان الله الذى يكفرون به قل:أإنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أنداداً ؟ ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة ايام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض:ائتيا طوعاً أو كرهاً . قالتا:أتينا طائعين . ففضاهن سبع سماوات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً . ذلك تقدير العزيز العليم . .

قل لهم:إنكم إذ تكفرون . إذ تلقون بهذه الكلمة الكبيرة فى استهتار . إنما تأتون أمراً عظيماً ، مستنكراً قبيحاً ، إنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض وجعل فيها رواسى من فوقها . وبارك فيها . وقدر فيها أقواتها . والذى خلق السماوات ونظم أمرها . وزين السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً . والذى أسلمت له السماء والأرض قيادهما طائعتين مستسلمتين . . وأنتم . . أنتم بعض سكان هذه الأرض تتأبون وتستكبرون ! إنه يذكر حقيقة خلق الأرض فى يومين . ثم يعقب عليها قبل عرض بقية قصة الأرض . يعقب على الحلقة الأولى من قصة الأرض . (ذلك رب العالمين). . وأنتم تكفرون به وتجعلون له أنداداً . وهو خلق هذه الأرض التى أنتم عليها . فأى تبجح وأى استهتار وأى فعل قبيح ؟! وما هذه الأيام:الاثنان اللذان خلق فيهما الأرض . والاثنان اللذان جعل فيهما الرواسى وقدر فيهما الأقوات ، وأحل فيهما البركة . فتمت بهما الأيام الأربعة ؟ إنها بلا شك أيام من أيام الله التى يعلم هو مداها . وليست من أيام هذه الأرض . فأيام هذه الأرض إنما هى مقياس زمنى مستحدث بعد ميلاد الأرض . وكما للأرض أيام ، هى مواعيد دورتها حول نفسها أمام الشمس ، فللكواكب الأخرى أيام ، وللنجوم ايام . وهى غير أيام الأرض . بعضها أقصر من أيام الأرض وبعضها أطول . والأيام التى خلقت فيها الأرض اولاً ، ثم تكونت فيها الجبال ، وقدرت فيها الأقوات ، هى أيام أخرى مقيسة بمقياس آخر ، لا نعلمه ، ولكننا نعرف أنه أطول بكثير من أيام الأرض المعروفة . وأقرب ما نستطيع تصوره وفق ما وصل إليه علمنا البشرى أنها هى الأزمان التى مرت بها الأرض طوراً بعد طور ، حتى استقرت وصلبت قشرتها وأصبحت صالحة للحياة التى نعلمها . وهذه قد استغرقت – فيما تقول النظريات التى بين أيدينا – نحو ألفى مليون سنة من سنوات أرضنا !

ونعود إلى الجبال فنجد القرآن يقول إنها(رواسى)وإنها كذلك ترسى الأرض فلا تميد . ولعلها - كما قلنا فى موضع آخر من هذه الظلال - تحفظ التناسق بين القيعان فى المحيطات والمرتفعات فى الأرض فتتوازن فلا تميد . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) هنا أو هنا يؤثر فى سرعة الدوران . . ومما يؤثر فى سرعة هذا الدوران أن تتمدد الأرض أو تنكمش بسبب ما . و لو انكماشاً أو تمدداً طفيفاً لا يزيد فى قطرها أو ينقص منه إلا بضع أقدام " فهذه الأرض الحساسة إلى هذا الحد ، لا عجب أن تكون الجبال الرواسى حافظة لتوازنها ومانعة: (أن تميد بكم)كما جفى القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً .(وبارك فيها وقدر فيها أقواتها). . وقد كانت هذه الفقرة تنقل إلى أذهان أسلافنا صورة الزرع النامى فى هذه الأرض وبعض ما خبأه الله فى جوف الأرض من معادن نافعة كالذهب والفضة والحديد وما إليها . . فأما اليوم بعد ما كشف الله للإنسان أشياء كثيرة من بركته فى الأرض ومن أقواتها التى خزنها فيها على أزمان طويلة ، فإن مدلول هذه الفقرة يتضاعف فى أذهاننا . .(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) والاستواء هنا القصد . والقصد من جانب الله تعالى هو توجه الإرادة . و(ثم)قد لا تكون للترتيب الزمنى ، ولكن للارتقاء المعنوى . والسماء فى الحس أرفع وأرقى . (ثم استوى إلى السماء وهى دخان). . إن هناك اعتقاداً أنه قبل خلق النجوم كان هناك ما يسمى السديم . وهذا السديم غاز . . دخان

ثم نقف أمام الحقيقة الهائلة: (فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً . قالتا:أتينا طائعين). . إنها إيماءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون للناموس ، وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته . فليس هنالك إذن إلا هذا الإنسان الذى يخضع للناموس كرهاً فى أغلب الأحيان . إنه خاضع حتماً لهذا الناموس ، لا يملك أن يخرج عنه ، وهو ترس صغير جداً فى عجلة الكون الهائلة إننا نخضع كرهاً . فليتنا نخضع طوعاً . ليتنا نلبى تلبية الأرض والسماء . فى رضى وفى فرح باللقاء مع روح الوجود الخاضعة المطيعة الملبية المستسلمة لله رب العالمين . ويا للسلام الذى يفيض فى أرواحنا ونحن نعيش فى كون صديق . كله مستسلم لربه ، ونحن معه مستسلمون . لا تشذ خطانا عن خطاه ، ولا يعادينا ولا نعاديه . لأننا منه . ولأننا معه فى الاتجاه: (قالتا:أتينا طائعين). . (فقضاهن سبع سماوات فى يومين). . (وأوحى فى كل سماء أمرها . .)واليومان قد يكونان هما اللذان تكونت فيهما النجوم من السدم . أو تم فيهما التكوين كما يعلمه الله . والوحى بالأمر فى كل سماء يشير إلى إطلاق النواميس العاملة فيها ، على هدى من الله وتوجيه ؛ أما ما هى السماء المقصودة فلا نملك تحديداً . فقد تكون درجة البعد سماء . وقد تكون المجرة الواحدة سماء . وقد تكون المجرات التى على أبعاد متفاوتة سماوات . . وقد يكون غير ذلك . مما تحتمله لفظه سماء وهو كثير .)(وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً). . والسماء الدنيا هى كذلك ليس لها مدلول واحد محدد . فقد تكون هى أقرب المجرات إلينا وهى المعروفة بسكة التبان والتى يبلغ قطرها مائة ألف مليون سنة ضوئية ! وقد يكون غيرها مما ينطبق عليه لفظ سماء . وفيه النجوم والكواكب المنيرة لنا كالمصابيح . (وحفظاً). . من الشياطين . . كما يدل على هذا ما ورد فى المواضع الأخرى من القرآن . . ولا نملك أن نقول عن الشياطين شيئاً مفصلاً . أكثر من الإشارت السريعة فى القرآن . فحسبنا هذا . . (ذلك تقدير العزيز العليم). . وهل يقدر هذا كله ؟ ويمسك الوجود كله ، ويدبر الوجود كله . . إلا العزيز القوى القادر ؟ وإلا العليم الخبير بالموارد والمصادر ؟

الدرس الثالث:١٣ - ١٨ لقطات من قصة عاد وثمود

فكيف - بعد هذه الجولة الكونية الهائلة - يكون موقف الذين يكفرون بالله ويجعلون له أنداداً ؟ كيف . والسماء والأرض تقولان لربهما: (أتينا طائعين)وهذا النمل الصغير العاجز من البشر الذى يدب على الأرض يكفر بالله فى تبجح واستهتار ؟ وما يكون جزاء هذا التبجح وهذا الاستهتار ؟

(فإن أعرضوا فقل:أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله . قالوا:لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ، فإنا بما أرسلتم به كافرون . فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا:من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) وهذا الإنذار المرهوب المخيف: (فقل

أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود)يناسب شناعة الجرم وقبح الذنب ، وتبجح المشركين الذى حُكى فى مطلع السورة ، وشذوذ كفار البشر من موكب الوجود الكبير الذى عُرض قبل هذا الإنذار .

) فإن أعرضوا فقل:أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . . .). .

إنها جولة فى مصارع الغابرين ، بعد تلك الجولة فى ملكوت السماوات والأرض . جولة تهز القلوب المستكبرة برؤية مصارع المستكبرين: (إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله). . الكلمة الواحدة التى جاء بها الرسل أجمعين . وقام عليها بنيان كل دين . (قالوا:لو شاء ربنا لأنزل ملائكة . فإنا بما أرسلتم به كافرون). . وهى كذلك الشبهة المتكررة التى ووجه بها كل رسول . وما كان لرسول يخاطب البشر أن يكون إلا من البشر . يعرفهم ويعرفونه . ويجدون فيه قدوة واقعية ، ويعانى هو ما يعانونه .ولكن عاداً وثمودا أعلنوا كفرهم برسلهم ، لأنهم بشر لا ملائكة كما كانوا يقترحون ! وإلى هنا أجمل مصير عاد وثمود . وهو واحد . إذ انتهى هؤلاء وهؤلاء إلى الأخذ بالصاعقة . ثم فصل قصة كل منهما بعض التفصيل: (فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق . وقالوا:من أشد منا قوة ؟). . إن الحق أن يخضع العباد لله ، وألا يستكبروا فى الأرض ، وهم من هم بالقياس إلى عظمة خلق الله . فكل استكبار فى الأرض فهو بغير الحق . استكبروا واغتروا (وقالوا:من أشد منا قوة ؟). . وهو الشعور الكاذب الذى يحسه الطغاة . الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم . وينسون:(أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ . .)إنها بديهة أولية . . إن الذى خلقهم من الأصل أشد منهم قوة . لأنه هو الذى مكن لهم فى هذا القدر المحدود من القوة . ولكن الطغاة لا يذكرون: (وكانوا بآياتنا يجحدون . .) وبينما هم فى هذا المشهد يعرضون عضلاتهم ! ويتباهون بقوتهم . إذا المشهد التالى فى الآية التالية هو المصرع المناسب لهذا العجب المرذول:

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (18) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠))

(فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات . لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا) . .إنها العاصفة الهوجاء المجتاحة الباردة فى أيام نحس عليهم . وإنه الخزى فى الحياة الدنيا . الخزى اللائق بالمستكبرين المتباهين المختالين على العباد . . ذلك فى الدنيا . . وليسوا بمتروكين فى الآخرة: (ولعذاب الآخرة أخزى . وهم لا ينصرون). .)(وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى). . ويظهر أن هذه إشارة إلى اهتدائهم بعد آية الناقة ، ثم ردتهم وكفرهم بعد ذلك . وإيثارهم العمى على الهدى ، والضلال بعد الهدى عمى أشد العمى ! (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون). . والهوان أنسب عاقبة . فليس هو العذاب فحسب ، وليس هو الهلاك فحسب . ولكنه كذلك الهوان جزاء على العمى بعد الإيمان . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون . . وتنتهى الجولة على مصرع عاد وثمود . والإنذار بهذا المصرع المخيف المرهوب . ويتكشف لهم سلطان الله الذى لا ترده قوة ولا يعصم منه حصن ، ولا يبقى على مستكبر مريد .

الدرس الرابع:٢٠ – ٢٤ مشهد لخزى وعذاب الكفار فى الآخرة

والآن وقد كشف لهم عن سلطان الله فى فطرة الكون ؛ وسلطان الله فى تاريخ البشر ، يطلعهم على سلطان الله فى ذوات أنفسهم ، التى لا يملكون منها شيئاً ، ولا يعصمون منها شيئاً من سلطان الله . حتى سمعهم وأبصارهم وجلودهم تطيع الله وتعصيهم فى الموقف المشهود ، وتكون عليهم بعض الشهود:

(ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم:لم شهدتم علينا ؟ قالوا:أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة ، وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون . وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم ، فأصبحتم من الخاسرين . فإن يصبروا فالنار مثوى لهم . وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين . .)

إنها المفاجأة الهائلة فى الموقف العصيب . وسلطان الله الذى تطيعه جوارحهم وتستجيب . وهم يوصمون بأنهم أعداء الله . فما مصير أعداء الله ؟ إنهم يحشرون ويجمع أولهم على آخرهم وآخرهم على أولهم كالقطيع ! إلى أين ؟ إلى النار ! حتى إذا كانوا حيالها وقام الحساب ، إذا شهود عليهم لم يكونوا لهم فى حساب . إن ألسنتهم معقودة لا تنطق ، وقد كانت تكذب وتفترى وتستهزىء . وإن أسماعهم وأبصارهم وجلودهم تخرج عليهم ، لتستجيب لربها طائعة مستسلمة ، تروى عنهم ما حسبوه سراً . فقد يستترون من الله . ويظنون أنه لا يراهم وهم يتخفون بنواياهم ، ويتخفون بجرائمهم . ولم يكونوا ليستخفوا من أبصارهم وأسماعهم وجلودهم . وكيف وهى معهم ؟ بل كيف وهى أبعاضهم ؟! وها هى ذى تفضح ما حسبوه مستوراً عن الخلق أجمعين . وعن الله رب العالمين !

يا للمفاجأة بسلطان الله الخفى ، يغلبهم على أبعاضهم فتلبى وتستجيب ! (وقالوا لجلودهم:لم شهدتم علينا ؟). . فإذا هيجبههم بالحقيقة التى خفيت عليهم فى غير مواربة ولا مجاملة: (قالوا:أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء)؟ أليس هو الذى جعل الألسنة هى الناطقة ؟ وإنه لقادر على أن يجعل سواها . وقد أنطق كل شىء فهو اليوم يتحدث وينطق ويبين . (وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون). . فإليه المنشأ وإليه المصير ، ولا مفر من قبضته فى الأول وفى الأخير . وهذا ما أنكروه بالعقول . وهذا ما تقرره لهم الجلود ! وقد تكون بقية التعليق من حكاية أقوال أبعاضهم لهم . وقد تكون تعقيباً على الموقف العجيب: (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم). . فما كان يخطر ببالكم أنها ستخرج عليكم ، وما كنتم بمستطيعين أن تستتروا منها لو أردتم (ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون). . وخدعكم هذا الظن الجاهل الأثيم وقادكم إلى الجحيم: (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين). . ثم يجىء التعقيب الأخير: (فإن يصبروا فالنار مثوى لهم). . يا للسخرية ! فالصبر الآن صبر على النار ؛ وليس الصبر الذى يعقبه الفرج وحسن الجزاء . إنه الصبر الذى جزاؤه النار قراراً ومثوى يسوء فيه الثواء ! (وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين). . فما عاد هناك عتاب ، وما عاد هناك متاب . وقد جرت العادة أن الذى يطلب العتاب يطلب من ورائه الصفح والرضى بعد إزالة أسباب الجفاء . فاليوم يغلق الباب فى وجه العتاب . لا الصفح والرضى الذى يعقب العتاب !

الدرس الخامس:٢٥ – ٢٩ قرناء السوء وحربهم للقرآن وعذابهم يوم القيامة

ثم يكشف لهم كذلك عن سلطان الله فى قلوبهم ، وهم بعد فى الأرض ، يستكبرون عن الإيمان بالله . فالله قد قيض لهم – بما اطلع على فساد قلوبهم – قرناء سوء من الجن ومن الأنس ، يزينون لهم السوء ، وينتهون بهم إلى مواكب الذين كتب عليهم الخسران ، وحقت عليهم كلمة العذاب: (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) ٢٦ (فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّن غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢))

وإذا هم فى قطيع السوء . فى الأمم التى حق عليها وعد الله من قبلهم من الجن والإنس . قطيع الخاسرين (إنهم كانوا خاسرين). وكان من تزيين القرناء لهم دفعهم إلى محاربة هذا القرآن ، حين أحسوا بما فيه من سلطان : (وقال الذين كفروا:لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون). . كلمة كان يوصى بها الكبراء من قريش أنفسهم ويغرون بها الجماهير ؛ وقد عجزوا عن مغالبة أثر القرآن فى أنفسهم وفى نفوس الجماهير . (لا تسمعوا لهذا القرآن). فهو كما كانوا يدعون يسحرهم ، ويغلب عقولهم ، ويفسد حياتهم . ويفرق بين الوالد وولده ، والزوج وزوجه . ولقد كان القرآن يفرق نعم ولكن بفرقان الله بين الإيمان والكفر ، والهدى والضلال . كان يستخلص القلوب له ، فلا تحفل بوشيجة غير وشيجته . فكان هو الفرقان . (والغوا فيه لعلكم تغلبون). وهى مهاترة لا تليق . ولكنه العجز عن المواجهة بالحجة والمقارعة بالبرهان ، ينتهى إلى المهاترة ، عند من يستكبر على الإيمان . ولقد كانوا يلغون بقصص اسفنديار ورستم كما فعل مالك بن النضر ليصرف الناس عن القرآن . ويلغون بالصياح والهرج . ويلغون بالسجع والرجز . ولكن هذا كله ذهب أدراج الرياح وغلب القرآن ، لأنه يحمل سر الغلب ، إنه الحق . والحق غالب مهما جهد المبطلون ! ورداً على قولتهم المنكرة يجىء التهديد المناسب: (فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ، ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا

يعملون . ذلك جزاء أعداء الله النار ، لهم فيها دار الخلد ، جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون). وسرعان ما نجدهم فى النار . وسرعان ما نشهد حنق المخدوعين ، الذين زين لهم قرناؤهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وأغروهم بهذه المهلكة التى انتهى إليها مطافهم: (قال الذين كفروا:ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس ، نجعلهما تحت أقدامنا ، ليكونا من الأسفلين . إنه الحنق العنيف ، والتحرق على الانتقام: (نجعلهما تحت أقدامنا). (ليكونا من الأسفلين .(وذلك بعد الموادة والمخادنة والوسوسة والتزيين !

الدرس السادس:٣٠ – ٣٢ تبشير المستقيمين على الهدى وثوابهم فى الجنة

هذه صلة . صلة الوسوسة والإغراء . وهناك صلة . صلة النصح والولاء . إنهم المؤمنون . الذين قالوا:ربنا الله ، ثم استقاموا على الطريق إليه بالإيمان والعمل الصالح . إن الله لا يقيض لهؤلاء قرناء سوء من الجن والإنس ؛ إنما يكلف بهم ملائكة يفيضون على قلوبهم الأمن والطمأنينة ، ويبشرونهم بالجنة ، ويتولونهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة:

(إن الذين قالوا:ربنا الله . ثم استقاموا . تتنزل عليهم الملائكة:ألا تخافوا ولا تحزنوا , وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلاً من غفور رحيم). ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)

والاستقامة على قولة: (ربنا الله). الاستقامة عليها بحقها وحقيقتها . الاستقامة عليها شعوراً فى الضمير ، وسلوكاً فى الحياة . الاستقامة عليها والصبر على تكاليفها . أمر ولا شك كبير . وعسير . ومن ثم يستحق عند الله هذا الإنعام الكبير . صحبة الملائكة , وولاءهم ، ومودتهم . هذه التى تبدو فيما حكاه الله عنهم . وهم يقولون لأوليائهم المؤمنين:لا تخافوا . لا تحزنوا . أبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . ثم يصورون لهم الجنة التى يوعدون تصوير الصديق لصديقه ما يعلم أنه يسرهٍ علمه ورؤيته من حظه المرتقب:(لكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون). ويزيدونها لهم جمالاً وكرامة:(نزلاً من غفور رحيم). فهى من عند الله أنزلكم إياها بمغفرته ورحمته . فأى نعيم بعد هذا النعيم ؟

الدرس السابع:٣٣ – ٣٦ من صفات الدعاة الناجحين

ويختم هذا الشوط برسم صورة الداعية إلى الله ، ووصف روحه ولفظه ، وحديثه وأدبه . ويوجه إليها رسوله [ص] وكل داعية من أمته . وكان قد بدأ السورة بوصف جفوة المدعوين وسوء أدبهم ، وتبجحهم النكير . ليقول للداعية:هذا هو منهجك مهما كانت الأمور :

(ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال:إننى من المسلمين ! ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم . وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم).

إن النهوض بواجب الدعوة إلى الله ، فى مواجهة التواءات النفس البشرية ، وجهلها ، واعتزازها بما ألفت ، واستكبارها أن يقال:إنها كانت على ضلالة ، وحرصها على شهواتها وعلى مصالحها ، وعلى مركزها الذى قد تهدده الدعوة إلى إله واحد ، كل البشر أمامه سواء , إن النهوض بواجب الدعوة فى مواجهة هذه الظروف أمر شاق . ولكنه شأن عظيم: (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ، وعمل صالحاً ، وقال:إننى من المسلمين). إن كلمة الدعوة حينئذ هى أحسن كلمة تقال فى الأرض ، وتصعد فى مقدمة الكلم الطيب إلى السماء . ولكن مع العمل الصالح الذى يصدق الكلمة ؛ ومع الاستسلام لله الذى تتوارى معه الذات . فتصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ . ولا على الداعية بعد ذلك أن تتلقى كلمته بالإعراض ، أو بسوء الأدب ، أو بالتبجح فى الإنكار . فهو إنما يتقدم بالحسنة . فهو فى المقام الرفيع ؛ وغيره يتقدم بالسيئة . فهو فى المكان الدون: (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة). وليس له أن يرد بالسيئة ، فإن الحسنة لا يستوى أثرها – كما لا تستوى قيمتها – مع السيئة والصبر والتسامح ، والاستعلاء على رغبة النفس فى

مقابلة الشر بالشر ، يرد النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة ، فتنقلب من الخصومة إلى الولاء ، ومن الجماح إلى اللين(ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم). وتصدق هذه القاعدة فى الغالبية الغالبة من الحالات . وينقلب الهياج إلى وداعة . والغضب إلى سكينة . والتبجح إلى حياء ؛ على كلمة طيبة ، ونبرة هادئة ، وبسمة حانية فى وجه هائج غاضب متبجح مفلوت الزمام ! (وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) ٣٥ (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ولو قوبل بمثل فعله ازداد هياجاً وغضباً وتبجحاً ومروداً . وخلع حياءه نهائياً ، وأفلت زمامه ، وأخذته العزة بالإثم . غير أن تلك السماحة تحتاج إلى قلب كبير يعطف ويسمح وهو قادر على الإساءة والرد . وهذه القدرة ضرورية لتؤتى السماحة أثرها . حتى لا يصور الإحسان فى نفس المسىء ضعفاً . ولئن أحس أنه ضعف لم يحترمه ، ولم يكن للحسنة أثرها إطلاقاً . (وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم). . إنها درجة عالية إلى حد أن رسول الله [ص] وهو الذى لم يغضب لنفسه قط ؛ وإذا غضب لله لم يقم لغضبه أحد . قيل له – وقيل لكل داعية فى شخصه –: (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم). . فالغضب قد ينزغ . وقد يلقى فى الروع قلة الصبر على الإساءة . أو ضيق الصدر عن السماحة . فالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم حينئذ وقاية ، تدفع محاولاته ، لاستغلال الغضب ، والنفاذ من ثغرته . إن خالق هذا القلب البشرى ، الذى يعرف مداخله ومساربه ، ويعرف طاقته واستعداده ، ويعرف من أين يدخل الشيطان إليه ، يحوط قلب الداعية إلى الله من نزغات الغضب . أو نزغات الشيطان . مما يلقاه فى طريقه مما يثير غضب الحليم . إنه طريق شاق . طريق السير فى مسارب النفس ودروبها وأشواكها وشعابها ، حتى يبلغ الداعية منها موضع التوجيه ؛ ونقطة القياد !!!

الوحدة الثانية:٣٧ – ٥٤ الموضوع:آيات وأدلة على الوحدانية من الكون والآفاق وطبيعة الإنسان وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧)

هذا شوط جديد مع القلب البشرى فى مجال الدعوة . يبدأ بجولة مع آيات الله الكونية:الليل والنهار والشمس والقمر ، وفى المشركين من كان يسجد للشمس وللقمر مع الله . وهما من خلق الله . ويعقب على عرض هذه الآيات بأنهم إن استكبروا عن عبادة الله فهناك من هم أقرب منهم إلى الله يعبدونه . ثم هناك الأرض كلها فى مقام العبادة وهى تتلقى من ربها الحياة ، كما تلقوها فلم يتحركوا بها إلى الله . إنما هم يلحدون فى آيات الله الكونية ، ويجادلون فى آياته القرآنية ؛ وهو قرآن عربى غير مشوب بأعجمية . وينتقل بهم إلى مشهد من مشاهد القيامة . ثم يعرض عليهم أنفسهم عارية بكل ما فيها من ضعف وتقلب ونسيان ، وبكل ما فيها من حرص على الخير وجزع من الضر . ثم هم لا يقون أنفسهم من شر ما يصيبها عند الله . وتنتهى السورة بوعد الله سبحانه أن يكشف للناس عن آياته فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، ويذهب ما فى قلوبهم من ريب وشك . .

(ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر . واسجدوا لله الذى خلقهن . إن كنتم إياه تعبدون). .

وهذه الآيات معروضة للأنظار ، يراها العالم والجاهل . ولها فى القلب البشرى روعة مباشرة . ولو لم يعلم الإنسان شيئاً عن حقيقتها العلمية . فبينها وبين الكائن البشرى صلة أعمق من المعرفة العلمية . بينها وبينه هذا الاتصال فى النشأة ، وفى الفطرة ،وفى التكوين . فهو منها وهى منه . تكوينه تكوينها ، ومادته مادتها ، وفطرته فطرتها ، وناموسه ناموسها ، وإلهه إلهها . . فهو من ثم يستقبلها بحسه العميق فى هزة وإدراك مباشر لمنطقها العريق ! وصورة من صور الإنحراف تلك التى تشير إليها الآية هنا . فقد كان قوم يبالغون فى الشعور بالشمس والقمر شعوراً منحرفاً ضالاً فيعبدونهما باسم التقرب إلى الله بعبادة أبهى خلائقه ! فجاء القرآن ليردهم عن هذا الإنحراف ؛ ويزيل الغبش عن عقيدتهم المدخولة . ويقول لهم:إن كنتم تعبدون الله حقاً فلا تسجدوا للشمس والقمر . .) واسجدوا لله الذى خلقهن)فالخالق هو وحده الذى يتوجه إليه المخلوقون أجمعين . والشمس والقمر مثلكم يتوجهون إلى خالقهما فتوجهوا معهم إلى الخالق الواحد الذى يستحق أن تعبدوه . ويعيد الضمير عليهما مؤنثاً مجموعاً:(خلقهن)باعتبار جنسهما وأخواتهما من الكواكب والنجوم ؛ ويتحدث عنهن بضمير المؤنث العاقل ليخلع عليهن الحياة والعقل ، ويصورهن شخوصاً ذات أعيان ! فإن استكبروا بعد عرض هذه الآيات ، وبعد هذا البيان ، فلن يقدم هذا أو يؤخر ؛ ولن يزيد هذا أو ينقص . فغيرهم يعبد غير مستكبر: (فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار ، وهم لا يسأمون). .

وأقرب ما يرد على القلب عند ذكر (الذين عند ربك)الملائكة . ولكن قد يكون هنالك غير الملائكة من عباد الله المقربين ؛ وهل نعلم نحن شيئاً إلا اليسير الضئيل ؟! (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . إن الذى أحياها لمحيى الموتى ، إنه على كل شىء قدير . .

له بالليل والنهار ، وهم لا يسأمون . ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت). وعند التأمل السريع فى هذين السياقين ، يتبين وجه التناسق فى(هامدة)و(خاشعة). إن الجو فى السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج ؛ فمما يتسق معه تصوير الأرض)هامدة)ثم تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج . وإن الجو فى السياق الثانى هو جو عبادة وخشوع وسجود ، يتسق معه تصوير الأرض(خاشعة)فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت . (إن الذى أحياها لمحيى الموتى ، إنه على كل شىء قدير). . ويتكرر فى القرآن عرض مثل هذا المشهد واتخاذه نموذجاً للإحياء فى الآخرة ، ودليلاً كذلك على القدرة . ومشهد الحياة فى الأرض قريب من كل قلب ، لأنه يلمس القلوب قبل أن يلمس العقول ، والحياة حين تنبض من بين الموات ، توحى بالقدرة المنشئة إيحاء خفياً ينبض فى أعماق الشعور . والقرآن يخاطب الفطرة بلغتها من أقرب طريق .

الدرس الثانى:٤٠ تهديد الملحدين بالعذاب

وأمام مشهد هذه الآيات الكونية ذات الأثر الشعورى العميق يجىء التنديد والتهديد لمن يلحدون فى هذه الآيات الظاهرة الباهرة ؛ فيكفرون بها ، أو يغالطون فيها: (إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا . أفمن يلقى فى النار خير ؟ أم من يأتى آمناً يوم القيامة . اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير). ويبدأ التهديد ملفوفاً ولكنه مخيف: (لا يخفون علينا). . فهم مكشوفون لعلم الله . وهم مأخوذون بما يلحدون ، مهما غالطوا والتووا ، وحسبوا أنهم مفلتون من يد الله كما قد يفلتون بالمغالطة من حساب الناس . وتنتهى الآية بتهديد آخر ملفوف: (اعملوا ما شئتم . إنه بما تعملون بصير). . ويا خوف من يترك ليعمل فيلحد فى آيات الله . والله بما يعمل بصير .

الدرس الثالث:٤١ كلام عن القرآن وتنزيله ونقض شبهات الكفار ضده

ويستطرد إلى الذين يكفرون بآيات الله القرآنية ، والقرآن كتاب عزيز قوى منيع الجانب ,لا يدخل عليه الباطل من قريب ولا من بعيد:

(إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ، وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . تنزيل من حكيم حميد . ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم . ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا:لولا فصلت آياته ! أأعجمى وعربى ؟ قل:وهو للذين آمنوا هدى وشفاء . والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ,وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد .)

والنص يتحدث عن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ؛ ولا يذكر ماذا هم ولا ماذا سيقع لهم . فلا يذكر الخبر: (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم . . .)كأنما ليقال:إن فعلتم لا يوجد وصف ينطبق عليها ويكافئها لشدة بشاعتها ! لذلك يترك النص خبر(إن)لا يأتى به ويمضى فى وصف الذكر الذى كفروا به لتفظيع الفعلة وتشييعها: (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّن حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه وَلَا من خلفه. تنزيل من حكيم حميد . .(وأنى للباطل أن يدخل على هذا الكتاب . وهو صادر من الله الحق . يصدع بالحق . ويتصل بالحق الذى تقوم عليه السماوات والأرض ؟ وأنى يأتيه الباطل وهو عزيز . محفوظ بأمر الله الذى تكفل بحفظه فقال:(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون). والمتدبر لهذا القرآن يجد فيه ذلك الحق الذى نزل به ، والذى نزل ليقره . يجده فى روحه ويجده فى نصه . يجده فى بساطة ويسر . حقاً مطمئناً فطرياً ، يخاطب أعماق الفطرة ,ويطبعها ويؤثر فيها التأثير العجيب . وهو (تنزيل من حكيم حميد). . والحكمة ظاهرة فى بنائه ، وفى توجيهه ، وفى طريقة نزوله ,وفى علاجه للقلب البشرى من أقصر طريق . والله الذى نزله خليق بالحمد . وفى القرآن ما يستجيش القلب لحمده الكثير . ثم يربط السياق بين القرآن وسائر الوحى قبله ؛ وبين رسول الله [ص] وسائر الرسل قبله . ويجمع اسرة النبوة كلها فى ندوة واحدة تتلقى من ربها حديثاً واحداً ، ترتبط به أرواحها وقلوبها ، وتتصل به طريقها ودعوتها ؛ ويحس

المسلم الأخير أنه فرع من شجرة وارفة عميقة الجذور ، وعضو من أسرة عريقة قديمة التاريخ: (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك . إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم). . إنه وحي واحد ، ورسالة واحدة ، وعقيدة واحدة . وإنه كذلك استقبال واحد من البشرية ، وتكذيب واحد ، واعتراضات واحدة . . ثم هي بعد ذلك وشيجة واحدة ، وشجرة واحدة ، وأسرة واحدة ، وآلام واحدة ، وتجارب واحدة ، وهدف في نهاية الأمر واحد ، وطريق واصل ممدود . ومما قيل للرسل وقيل لمحمد ﷺ خاتم الرسل: (إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم). . ذلك كي تستقيم نفس المؤمن وتتوازن . فيطمع في رحمة الله ومغفرته فلا ييأس منها أبداً . ويحذر عقاب الله ويخشاه فلا يغفل عنه أبداً . إنه التوازن طابع الإسلام الأصيل . ثم يذكرهم بنعمة الله عليهم أن جعل هذا القرآن عربياً بلسانهم ؛ كما يشير إلى طريقتهم في العنت والإلحاد والجدل والتحريف:

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (46)

(ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا:لولا فصلت آياته ! أأعجمي وعربي ؟). .

فهم لا يصغون إليه عربياً ، وهم يخافون منه لأنه عربي يخاطب فطرة العرب بلسانهم . فيقولون:لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون . ولو جعله الله قرآنا أعجمياً لاعترضوا عليه أيضاً ، وقالوا لولا جاء عربياً فصيحاً مفصلاً دقيقاً ! ولو جعل بعضه أعجمياً وبعضه عربياً لاعترضوا كذلك وقالوا أأعجمي وعربي ؟! فهو المراء والجدل والإلحاد . وقر في آذانهم ، وعمى في قلوبهم . وهم لا يتبينون شيئاً . لأنهم بعيدون جداً عن طبيعة هذا الكتاب وهواتفه: (قل:هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد). . ويجد الإنسان مصداق هذا القول في كل زمان وفي كل بيئة . فناس يفعل هذا القرآن في نفوسهم فينشئها إنشاء ، ويحييها إحياء ؛ ويصنع بها ومنها العظائم في ذاتها وفيما حولها . وناس يثقل هذا القرآن على آذانهم وعلى قلوبهم ، ولا يزيدهم إلا صمماً وعمى . وما تغير القرآن . ولكن تغيرت القلوب . وصدق الله العظيم . الدرس الرابع:٤٥ – ٤٦ رسالة موسى وأساس الثواب والعقاب ويشير إلى موسى وكتابه واختلاف قومه في هذا الكتاب . يشير إليه نموذجاً للرسل الذين ورد ذكرهم من قبل إجمالاً . وقد أجل الله حكمه في اختلافهم ، وسبقت كلمته أن يكون الفصل في هذا كله في يوم الفصل العظيم: (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ، وإنهم لفي شك منه مريب). . وكذلك سبقت كلمة ربك أن يدع الفصل في قضية الرسالة الأخيرة إلى ذلك اليوم الموعود . وأن يدع الناس يعملون ، ثم يجازون على ما يعملون: (من عمل صالحاً فلنفسه ومن اساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد) لقد جاءت هذه الرسالة تعلن رشد البشرية وتضع على كاهلها عبء الإختيار ؛ وتعلن مبدأ التبعة الفردية . ولمن شاء أن يختار (وما ربك بظلام للعبيد) . .

الدرس الخامس:٤٧ – ٤٨

مما اختص الله به وشمول علمه وخزى الكفار في الآخرة وبمناسبة الإشارة إلى الأجل المسمى ، وتقرير عدل الله فيه ، يقرر أن أمر الساعة وعلمها إلى الله وحده ، ويصور علم الله في بعض مجالاته صورة موحية تمس أعماق القلوب . وذلك في الطريق إلى عرض مشهد من مشاهد القيامة يسأل فيه المشركون ويجيبون: (إِلَيْهِ يرد عِلْمِ السَّاعَةِ ، وما تخرج من ثمرات من أكمامها ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . ويوم يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ) ٤٨ (لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) يناديهم:أين شركائي ؟ قالوا:آذناك ما منا من شهيد . وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ، وظنوا ما لهم من محيص). . والساعة غيب غائر في ضمير المجهول . والثمرات في أكمامها سر غير منظور ، والحمل في الأرحام غيب كذلك مستور . وكلها في علم الله ، وعلم الله بها محيط . ويذهب القلب يتتبع الثمرات في أكمامها ، والأجنة في أرحامها . يذهب في جنبات الأرض كلها يرقب الأكمام التي لا تحصى ؛ ويتصور الأجنة التي لا يحصرها خيال ! وترتسم في الضمير صورة لعلم الله بقدر ما يطيق الضمير البشرى أن يتصور من الحقيقة التي ليس لها حدود . ويتصور القطيع الضال من البشر ، واقفاً أمام هذا العلم الذى لا يند عنه

خاف ولا مستور : (ويوم يناديهم:أين شركائى ؟). هنا فى هذا اليوم الذى لا يجدى فيه جدال ، ولا تحريف للكلم ولا محال . فماذا هم قائلون ؟ (قالوا:أذناك ما منا من شهيد ؟). أعلمناك ,أن ليس منا اليوم من يشهد أنك لك شريك ! (وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ، وظنوا ما لهم من محيص). . فما عادوا يعرفون شيئاً عن دعواهم السابقة . ووقع فى نفوسهم أن ليس لهم مخرج مما هم فيه وتلك أمارة الكرب المذهل ، الذى ينسى الإنسان ماضيه كله ؛ فلا يذكر إلا ما هو فيه .

الدرس السادس:٤٩ – ٥٢ موقف الناس من الضرر والخير وتهديد الكفار

ذلك هو اليوم الذى لا يحتاطون له ، ولا يحترسون منه ، مع شدة حرص الإنسان على الخير , وجزعه من الضر . . وهنا يصور لهم نفوسهم عارية من كل رداء ، مكشوفة من كل ستار , عاطلة من كل تمويه:

(لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط . ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ، ليقولن:هذا لى ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى . فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ . وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض). .

إنه رسم دقيق صادق للنفس البشرية ، التى لا تهتدى بهدى الله ، فتستقيم على طريق . . رسم يصور تقلبها ، وضعفها ، ومراءها ، وحبها للخير ، وجحودها للنعمة ، واغترارها بالسراء ، وجزعها من الضراء . . رسم دقيق عجيب . . هذا الإنسان لا يسأم من دعاء الخير . فهو ملح فيه ، مكرر له ، يطلب الخير لنفسه ولا يمل طلبه . وإن مسه الشر . مجرد مس . فقد الأمل والرجاء وظن أن لا مخرج له ولا فرج , وتقطعت به الأسباب وضاق صدره وكبر همه ؛ ويئس من رحمة الله وقنط من رعايته . ذلك أن ثقته بربه قليلة ، ورباطه به ضعيف ! (فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ). . وهذا الإنسان إذا أنعم الله عليه:استعظم وطغى . وأعرض ونأى بجانبه . فأما إذا مسه الشر فيتخاذل ويتهاوى ، ويصغر ويتضاءل ، ويتضرع ولا يمل الضراعة . فهو ذو دعاء عريض ! أية دقة ، وأى تسجيل للصغيرة فى نفس الإنسان والكبيرة ! إنه خالقه الذى يصفه . خالقه الذى يعرف دروب نفسه . ويعرف أنها تظل تدور فى هذه الدروب المنحنية ، إلا أن تهتدى إلى الطريق المستقيم . . فتستقيم . . وأمام هذه النفس العارية من كل رداء ، المكشوفة من كل ستار ، يسألهم:فماذا أنتم إذن صانعون إن كان هذا الذى تكذبون به ، من عند الله ، وكان هذا الوعيد حقاً ؛ وكنتم تعرضون أنفسكم لعاقبة التكذيب والشقاق: (قل:أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ؟ من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ؟). . إنه احتمال يستحق الاحتياط . فماذا أخذوا لأنفسهم من وسائل الاحتياط ؟!

الدرس السابع:٥٣ – ٥٤ وعد بإضافة آيات جديدة فى الآفاق والأنفس دالة على الحق ومزيلة للمرية والشك

ويدعهم بعدئذ يفكرون ويحسبون . ويتجه إلى الكون العريض . يكشف عن بعض ما قدر فيه – وفى ذوات أنفسهم – من مقادير: (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟ ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم . ألا إنه بكل شىء محيط . . إنه الإيقاع الأخير . وإنه لإيقاع كبير . . . إنه وعد الله لعباده – بنى الإنسان – أن يطلعهم على شىء من خفايا هذا الكون ، ومن خفايا أنفسهم على السواء . وعدهم أن يريهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق . هذا الدين . وهذا الكتاب . وهذا المنهج . وهذا القول الذى يقوله لهم . ومن اصدق من الله حديثاً ؟ ولقد صدقهم الله وعده ؛ فكشف لهم عن آياته فى الآفاق فى خلال القرون الأربعة عشر التى تلت هذا الوعد ؛ وكشف لهم عن آياته فى أنفسهم . وما يزال يكشف لهم فى كل يوم عن جديد . وينظر الإنسان فيرى البشر قد كشفوا كثيرا جدا منذ ذلك الحين . فقد تفتحت لهم الآفاق . وتفتحت لهم مغاليق النفوس بالقدر الذى شاءه الله . لقد عرفوا أشياء كثيرة . لو أدركوا كيف عرفوها وشكروا لكان لهم فيها خير كثير . عرفوا منذ ذلك الحين أن أرضهم التى كانوا يظنونها مركز الكون . . إن هى إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس . وعرفوا أن الشمس كرة صغيرة منها فى الكون مئات الملايين . وعرفوا طبيعة أرضهم وطبيعة شمسهم –وربما طبيعة كونهم , إن صح ما عرفوه ! (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤) وعرفوا وَحدة النواميس التى تربط كوكبهم بالكونَ الكبير ، وتصرف هذا الكون الكبيرَ . ومنهم من اهتدى فارتقى

من معرفة النواميس إلى معرفة خالق النواميس . ومنهم من انحرف فوقف عن ظاهر العلم لا يتعداه . ولكن البشرية بعد الضلال والشرود من جراء العلم , قد أخذت عن طريق العلم تثوب ، وتعرف أنه الحق عن هذا الطريق . ولم تكن فتوح العلم والمعرفة فى أغوار النفس بأقل منها فى جسم الكون . فقد عرفوا عن الجسم البشرى وتركيبه وخصائصه وأسراره الشىء الكثير . عرفوا عن تكوينه وتركيبه ووظائفه وأمراضه ، وغذائه وتمثيله ، وعرفوا عن أسرار عمله وحركته ، ما يكشف عن خوارق لا يصنعها إلا الله . وعرفوا عن النفس البشرية شيئاً . . إنه لا يبلغ ما عرفوه عن الجسم . لأن العناية كانت متجهة بشدة إلى مادة هذا الإنسان وآلية جسمه أكثر مما كانت متجهة إلى عقله وروحه . ولكن أشياء قد عرفت تشير إلى فتوح ستجىء . . وما يزال الإنسان فى الطريق ! ووعد الله ما يزال قائماً: (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق). . والشطر الأخير من الوعد قد بانت طلائعه منذ مطلع هذا القرن بشكل ملحوظ . فموكب الإيمان يتجمع من فجاج شتى . وعن طريق العلم المادى وحده يفد كثيرون ! وهناك أفواج وأفواج تتجمع من بعيد . ذلك على الرغم من موجة الإلحاد الطاغية التى كادت تغمر هذا الكوكب فى الماضى . ولكن هذه الموجة تنحسر الآن . تنحسر – على الرغم من جميع الظواهر المخالفة – وقد لا يتم تمام هذا القرن العشرين الذى نحن فيه ، حتى يتم انحسارها أو يكاد إن شاء الله . وحتى يحق وعد الله الذى لا بد أن يكون: (أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟ . . وهو الذى أعطى وعده عن علم وعن شهود . (ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم). . ومن ثم يقع ما يقع منهم ، بسبب هذا الشك فى اللقاء . وهو أكيد . (ألا إنه بكل شىء محيط). . فأين يذهبون عن لقائه وهو بكل شىء محيط ؟

الفهرس

سورة القصص..... ص: ٣

سورة العنكبوت ص:٢٤

سورة الروم ..... ص: ٣٨

سورة لقمان ..... ص: ٥٠

سورة السجدة ص:٦١

سورة الأحزاب ..... ص: ٧٠

سورة سبأ.....ص: ٩٥

سورة فاطر..... ص: ١١٠

سورة يس ..... ص: ١٢٣

سورة الصافات ص:١٣٥

سورة ص ..... ص: ١٤٧

سورة الزمر ..... ص: ١٥٨

سورة غافر ..... ص: ١٧١

سورة فصلت .....ص: ١٨٧

الفهر س ..... ص: ٢٠٢



الأستاذ : محمد رباعة من مواليد ٢١ أكتوبر ١٩٦٣ ب القراح (القرزى) بلدية أولاد رحمون ، ولاية قسنطينة ، (الجزائر) كاتب عصامى و صحفى مستقل ، مدير دار القبس للنشر الإلكترونى ، و رئيس تحرير مجلة القبس الشهرية السياسية الثقافية الإلكترونية ، الف العديد من الكتب أهمها: موسوعة النظام الجزائرى من سنة ١٩٦٢ الى سنة ٢٠١٢ التى تتكون من ستة (٦) أجزاء ، تقدم قراءة تحليلية موضوعية لأهم الأحداث و القرارات و المواقف و الإنجازات ، و كتب التصور الإسلامى لله و الحياة و الإنسان و هو معالجة عصرية لأهم عناصر العقيدة الإسلامية ، و مأزق الحداثة و ما بعد الحداثة و موقف الإسلام منهما ، الذى عالج الموضوع بأسلوب بسيط قريب الى الأذهان و بعيد عن تعقيدات و غموض الكتابات الحداثية و العلمانية ، و الحراك الإسلامى فى الجزائر من سنة ١٩٦٢ الى سنة ٢٠١٢ ، و كتاب مختصر فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ، و كل كتبه مطبوعة بطريق ة ألكترونية **PDF** طباعة راقية و أنيقة

!.